محمد عبد المنعم خفاجي

قصص من التاريخ

رابطة الأدب الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى بالقاهرة — ١٩٥٤

المطبعة المنيرية بالأزهر

قصص من التاريخ

صور جديدة ، وقصص من حياة أشهر المفكرين والأدباء فى الشرق والغرب ، من القدامى والمحدثين والمعاصرين .. ومنهم : ليلى الأخيلية ، والمتنبى ، وابن هانىء ، وجوته ، وعبد العزيز جاويش ، والتيجانى بشير ، والجارم ، والزين ، وناجى ، وأبو شادى ، وسواهم . . وثائق جديدة عن الأدب المعاصر ، وصور حية من شعر الوطنية

سبعة كتب فى كتاب :

الكتاب الأول : قصة ليلى الأخيلية الشاعرة
» الثانى : قصة جاويش وجهاده الوطنى
» الثالث : قصة ابن هانىء الشاعر الخالد
» الرابع : قصص من الحياة
» الخامس : قصة حياة المتنبى وطموحه
» السادس : قصص من الأدب
» السابع : قصص من الشعر المعاصر

المقدمة

هذا الكتاب :

« قصص من التاريخ » فصول كتبتها فى أوقات متباعدة ، وظروف متباينة ، ثم جمعتها و نشرتها فى هذا الكتاب الذى أضعه اليوم بين أيدى القراء الأعزاء .

وأسلوب القصة له خصائصه ومميزاته المعروفة ، ومع ذلك فإنى فى غنى عن القول بأن خصائص القصة توجد فى بعض فصول هذا الكتاب وتختفى فى القليل منها ، لأنى لا أقصد من القصة معناها الفنى الخالص ، إنما أذهب إلى مدلولها العام ، أى إلى القصة وما يشبه القصة أو يقاربها ، مما هو تسجيل لتاريخ ، أو تصوير لحادث ، أو وصف لحياة ، أو تخليد لذكرى عزيزة ، أو تحليل لحياة أديب من الأدباء ، أو شاعر من الشعراء ، أو حديث عن مدرسة أدبية ، أو درس لخصائص الأدب فى بيئة من البيئات ، وعصر من العصور .

وهذا الكتاب بوجه عام يتحدث عن شاعرة قديمة كان صوتها وأدبها ترجمانا للشعب ، فلم تنظم الشعر للملق والنفاق والرياء ، إلا مضطرة وفى أحيان قليلة جدا ، وهى ليلى الأخيلية الشاعرة (٢٥ - ٨٠ هـ) التى لم يكتب عنها شىء حتى اليوم إلا القليل النادر ، ثم عن مجاهد وطنى مشهور ، هو عبد العزيز جاويش وقصة جهاده الوطنى والسياسى ، التى لم تنشر كاملة على الشعب فى يوم الايام ، والتى دونتها بالاعتماد على وثائق سياسية خطيرة مخطوطة ، لجاويش وبقلمه ، لا تزال محفوظة حتى اليوم عند أسرته . وأنا فى غنى عن أن أقول إن ما كتبته عن جاويش يسجل تراثا قوميا ووطنيا عزيزا علينا نحن أبناء هذا الشعب الخالد ، الذى كافح الاستعمار كفاحا مجيدا طويلا شاقا .. كما يتحدث الكتاب عن شاعر قديم من الشعب وإن لم يعش للشعب ، وإنما عاش للخليفة المعز ، وهو ابن هانىء الأندلسى المشهور ، لأن شعره له خطره من ناحية أخرى هى أنه وثيقة سياسية فريدة لسياسة الخلافة الفاطمية فى دور نشأتها ، وإبان توسعها فى النفوذ والفتح ، وعند فتحها لمصر عام ٣٥٨ هـ ، وشعره فوق ذلك صورة للحياة الفكرية وللعقيدة الروحية فى العصر الأول من عصور الخلافة الفاطمية . وابن هانىء ظلمه تاريخنا الأدبى فلم يكتب أحد عنه شيئا ، وظلمه نقادنا القدامى فحافوا عليه حيفا شديدا ، ومن أجل ذلك كله كان حريا بهذه الفصول التى كتبتها عنه ، والتى جهدت

فيها أن أخضع الدراسة الأدبية لأسلوب القصة ، وأن أحرر أحكام النقد من مشيئة السياسة ... ويلى ذلك قصص منوع من الحياة ، ثم عرض لحياة أبى الطيب المتنبى وقصة طموحه وكفاحه وعصاميته وعبقريته ومواهبه الفنية ، وكيف وقف مع الشعب فى عصره يندد بالطغاة ، ويبعث الثورة على الملوك ، ويدعو العرب إلى التحرر والعزة والكرامة ، ولم يكتب من قبل أحد من كتابنا وأدبائنا ونقادنا عن موقف المتنبى من الشعب العربى ، وعن دعواته السياسية الحرة الجريئة مثل ما كتبت ..
وتنتقل المناظر الفنية فى الكتاب إثر ذلك إلى مشاهد جديدة مختلفة ملونة بألوان متباينة ، ومخالفة فى أسلوبها لأسلوب الفصول المتقدمة ، وفيها عرض لألوان من الأدب ، وحديث واسع عن الشعر الحديث والشعراء المعاصرين ، من أمثال : الجارم والزين وناجى والتيجانى بشير ودمر ومحمود شوقى الأيوبى وهارون هاشم رشيد وسواهم ، مع حديث طويل عن قصة ميلاد مدرسة أبولو الشعرية ، وأثرها فى حركات التجديد فى الشعر المعاصر ، وحديث أطول عن الشعر السودانى المعاصر ومذاهبه وخصائصه وعناصره وأعلامه ونماذجه ، ولعله أول بحث ينشر بهذه الجدة عن الشعر السودانى المعاصر ، وعن الشعراء السودانيين الشبان ، من أمثال: الفيتورى والجيلى وتاج السر ومحى الدين فارس وسواهم ، ممن نحوا فى مشعرهم منحى الواقعية الحديثة ، وعرضوا فى قصائدهم ألوانا زاهية من كفاح الشعوب الافريقية فى سبيل الحرية والديمقراطية والحياة والكرامة .

وفى ذيل الكتاب عدة دراسات أدبية، نشرت فى أوقات مختلفة عن بعض كتب أصدرتها قبل اليوم ، بأقلام متعددة ، وأعتقد أن نشرها يعطى القارىء صورة صحيحة عن آثار معاصرة ، دون التفات إلى أن هذه الآثار لى ، أو لأحد سواى .

وأعتقد كذلك أن جميع هذه الفصول كتبت لتحطيم الاغلال الفنية التى تعوق نهضتنا الادبية ، وهى صورة كذلك للأدب المؤمن بنظرية « الادب للحياة » ، المبغض لترف الفن للفن ، الواقف مع الشعوب ، يؤيدها فى كفاحها الرهيب وصراعها الجبار وتوثبها للقضاء على الاغلال والقيود والاصنام . . . ووحدة الاسلوب والهدف أو الفكرة تلونها جميعا بلون متميز مشرق متحرر معبر عن شخصية الاديب العربى الذى يعيش اليوم فى غمار الحياة الصاخبة ، القلقلة المضطربة التى لا تستقر على شىء

الأدب والحياة :

والادب لم يعد اليوم ترفا وفنا خالصا ، وتصاوير مزخرفة منمقة ، وبلاغة أدبية

محضة ، ولم يعد يقصد للترفيه والتسلية وقطع الوقت ، وليس الأدب مقصودا على إثارة الشهوات الجنسية ، كسبا لجمهور القراء الفارغين التافهين ، وليس بخورا يحرق فى مواكب الطغاة تمجيدا وتسبيحا بحمدهم ، ولا دعاية تنشر لتضليل الرأى العام وإلهائه وكسبه بجانب الديمقراطية أو الشيوعية ، فلم يعد لامثال هذه الآداب بيننا قيمة ؛ ولم يعد القارىء المثقف يؤمن بمثل هذا الأدب الأجوف ، ولم تعد أحكام النقد وقفا على طائفة من الكتاب والنقاد المضللين ، الذين ساروا فى كل ركب ، ومشوا تحت لواء كل موكب ، ووقفوا حياتهم على الدعاية لسياسة الغرب باسم الصداقة والأحــــلاف والديمقراطية فى الشرق العربى .

ونحن نبدأ عهدا أدبيا جديدا نحطم فيه هذه الاصنام الزائفة ، وهذه الأقلام الجوفاء ، وهذه الأغراض التى تاجرت بحريتنا الفكرية والأدبية ، وأخضعت الأدب لأهواء السياسة ومشيئتها ، وأثرت على حساب الادباء المساكين .

نحن نمقت هذه العصابات الادبية المضللة ، التى قتلت النبوغ وحاربت الفكر . وضاقت ذرعا بمواهب الشباب من الادباء فقبرتها ، وسخرت الاقلام للتسبيح بحمدها بين الناس

ونحن نمقت هؤلاء الادباء الكبار ، الذين لا يرون فى الادب إلا أنفسهم ، ويتعالون على الأدباء وعلى الشعب كأنهم أنصاف آلهة ، وكأنهم وحدهم أنبياء الفكر وقديسوه

ونحن نمقت هؤلاء الكتاب المضللين الذين أساءوا إلى الادب ، وبغضوا فيه الشعب والذين لا يكتبون إلا للخداع والتمويه على الناس . فهذا الشىء جميل ورائع فى رأيهم إذا كان يدر عليهم مالا وربحا وجاها . وهذا قبيح عندهم إذا كان لا يعود عليهم بغنم مادى موفور ، وهذا الكتاب قيم وممتع فى أحكامهم النقدية إذا كان صاحبه صديقا أو تلميذا أو مقربا لسبب من الاسباب ، وهذا الكتاب سخيف وفارغ إذا كان صاحبه لا يمت إليهم بصلة من الصلات ولا سبب من الاسباب .

بل هم لم يفكروا فى يوم من الأيام فى عمل يعملونه لخير الادب والادباء ، لم يجمعوا الأدباء فى جماعة أشبه بنقابة مثلا ، ولم يحموا المريض والمتعطل من الادباء فى يوم من الأيام ، ولم يقدموا مساعدة لأسرة أديب مات ، ولم ينشروا شيئا من آثار أدبائنا الراحلين ، ولا من آثار أدبائنا المعاصرين ، أو شبابنا الموهوبين . ولم يدعوا فى يوم من الايام لحفل يقيمونه تكريما لشاعر ، أو تخليد لذكرى أديب ، ولم يدعوا لحماية الفكر العربى وصيانة ذخائره ، ولم يكرسوا جهودهم لنشر دائرة

معارف عن الأدب الحديث والمعاصر، ولسوى ذلك من الأعمال الضرورية لخدمة الأدب، ولم يحرصوا على تعزيز مكانة الأدب فى الحياة المعاصرة .

ونحن نقول لأدبائنا وكتابنا ونقادنا الكبار فى منتصف القرن العشرين : إن الأدب الذى أفسدتم أحكامه ومقاييسه فى الأذواق، وضللتم باسمه شعوبكم التى خلقها الله حرة عزيزة كريمة بين الناس، وجعلتموه وسيلتكم للثراء والسلطان والمناصب الرفيعة، وسخرتم به العامة لمشيئة الطغاة والمستبدين، هذا الأدب قد تحرر اليوم من ربقة العبودية التى قيدتموه بها دهرا طويلا، فلم يعد ملكا خالصا لكم، ولم يعد الأدباء المساكين من ضحاياكم أو رعاياكم، ولم تعد أحكام النقد الأدبى وقفا عليكم وحدكم من بين الناس الذين رزقهم الله ذوقا، ووهبهم ملكة، وآتاهم بلاغة وبيانا

أصبح الأدب يدعو إلى الحرية والكرامة والحياة الطيبة للأفراد والجماعات والشعوب ؛ الحرية الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، والكرامة التى تدع الإنسان مؤمنا بأنه لم يخلق عبدا لإنسان، وإنما خلق حرا يشعر بكرامته الإنسانية وقيمته الأدبية فى المجتمع، والحياة الطيبة التى تتكافأ فيها الفرص، وتتساوى فيها المواهب، ويجد فيها كل إنسان له عملا لائقا، وعيشا شريفا، ومستوى ماديا مناسبا وعناية واحدة من الحاكمين، والتى تنعدم فيها الفروق بين الناس، وتقل فيها المشكلات أمام الفرد، فلا يضطر إلى الانتحار لأنه لا يجد الخبز لنفسه وأولاده، ولا يعيش متسولا عالة على الناس، ولا يقعد به المرض أو الجهل عن أن يعيش وأن تحفظ عليه كرامته فى وطنه .. يجب أن يكون الأدب اليوم صدى الحياة المدوى، وصوتها المجلجل فى كل سمع، ولسانها المعبر عن آمال الإنسانية وآلامها وأفراحها وأحزانها وسعادتها وشقائها، وأن يعبر فى وضوح عن حياتنا التى نحياها : حياة الفلاح فى حقله، وحياة العامل فى مصنعه، وحياة الموظف فى وظيفته ، وحياة الفتاة التى نادينا بحريتها ، وحطمنا الأغلال دونها، ثم لم نعمل شيئا فى سبيلها، لتستطيع الاحتفاظ بحريتها الطبيعية التى تحميها لها الحياة ، فلم نساعدها على العمل الشريف، ولا على الزواج المناسب، وعلى حياة الأسرة الهادئة، وتركناها وحدها فى الميدان، تقضى حياتها محرومة من الزواج السعيد، والزوج الصالح، والأولاد الذين تتشوق فى لهفة إليهم

والوضوح والبساطة والجمال والصدق هى الخصائص الأدبية الأولى، والعناصر الفنية الأساسية لكل أدب جميل بليغ، ولكن خلود هذا الأدب وذيوعه يتوقف فوق ذلك على أن يكون هذا الأدب إنسانى النزعة، رفيع الهدف والغاية ، يعمل

مساعدا لنواميس الحياة على التقدم والنهضة والازدهار والحضارة والحرية . .

ومن ثم فنحن لم نعد نؤمن بأدب الزلفى والنفاق والملق ، وندعو إلى أن يعيد رجال التعليم النظر فى كتب النصوص التى تؤلف لشباب اليوم ، وفى الموسوعات العامة الأدبية التى تكتب حول أدبنا العربى القديم والحديث على السواء ، حتى تكون محتوية على الألوان الرائعة الرفيعة ، والنماذج الحية المتحررة ، وعلى الكثير من قصائد وأدب الحرية والوطنية والقومية ، وما أكثر ذلك كله فى أدبنا القديم والحديث جميعا .

ولطالما شكونا من محنة الأدب المعاصر اليوم ، وهذه الشكوى لامرية فيها ولا ريب ، ولكن هذه المحنة نحن الأدباء المسئولون عنها أولا وقبل كل شىء ، نحن الأدباء الذين كرهنا الناس فى الأدب ، وأفسدنا بالأدب أذواقهم ، وجعلناهم لايقرأون إلا التافه من القول ، والمعاد المكرور من الآراء والمقالات والقصص ، وعرضنا عليهم كتبا جامعة فى الأدب تحتوى على أسوأ النماذج ، وأقبح الصور الادبية ، التى لاينتجها إلا ذوق سقيم ، وفكر عليل ، نحن النقاد الذين مدحوا وذموا لا لوجه النقد ، ولكن للأغراض والأهواء والشهوات ، نحن الكتاب الذين لايكتبون إلا إذا أخذوا الثمن من الشركات والحكومات وسماسرة الاستعمار ، نحن حملة رسالة القلم الذين خنا أمانة هذه الرسالة ، فلم نكتب يوما لندافع عن مظلوم ، ولا لنذود عن محروم ، ولا لنحمى حق إنسان يعيش بيننا فى مجتمعنا ، ولم نقف يوما مع الشعب لنصيح هاتفين : السيادة للشعب ، والحرية والمجد والسلطان له ، والكرامة وقف عليه ، وأنتم أيها المترفون المنعمون بالجاه والنفوذ ، أحقر فى رأى الشعب من الذباب

وبعد فإنى أقدم هذا الكتاب « قصص من التاريخ » إلى جمهور الادباء ، راجيا أن ينال حسن تقديرهم ، وكريم ثقتهم . . وما توفيقى إلا بالله ...

المؤلف

الكتاب الأول

ليلى الأخيلية الشاعرة

قصة

حياتها وشعرها

٢٥ — ٨٠ هـ = ٦٤٦ — ٧٠٠ م

الإهداء

هذا أول كتاب يصدر عن « ليلى الأخيلية » الشاعرة (٢٥ - ٨٠ هـ) ، وهو صورة لمكانة المرأة ومنزلتها فى الحياة العربية فى القرن الأول الهجرى ، ولأثرها الكبير فى الأدب فى هذه الحقبة الحافلة ، ويمثل مدى نشاطها الاجتماعى ، إبان ذلك العهد البعيد .

فإلى رجال الأدب ونقاده ، وإلى فتيات الشرق وسيداته ، وإلى خصوم المرأة وأنصارها . . إلى هؤلاء وهؤلاء ، أقدم هذا الكتاب . .

بين الماضى والحاضر

تشيع فى أرجاء الشرق العربى روح من الطموح والأمل ، والبطولة والعزة والإباء ؛ تملؤه ثقة بالنفس ، وإيمانا بالمستقبل ، ورغبة فى الجهاد والكفاح ، لبناء مجتمع جديد ، يقوم على خير مافى حضارات الشرق والغرب من مقومات ، وعلى أعظم مافى الماضى والحاضر من دعائم وأصول ، وعلى أكرم ما يمكن أن يصل اليه الفكر البشرى من جديد فى شتى نواحى الحياة والتفكير والانتاج والفن ، وغير ذلك مما تقوم عليه النهضات ، وتتطور به أحوال الأمم والجماعات .

ولقد أسهم ماضينا الأدبى ، كما أسهم ماضينا الروحى والعقلى والسياسى والاجتماعى بقسط كبير من النشاط ، فى سبيل خلق هذه النهضة الحديثة وتكوينها وتوجيهها وتقويمها ،

فكان الأدب العربى — ولا يزال — الداعى الى الفضائل ، والمهذب للعواطف ، والباعث على التأمل والتفكير ، والحامل على الاطلاع والقراءة والتهذيب والتثقيف ، كما كان أداة قوية تبعث على الوحدة ، وصوتا سماويا يدعو الى الحرية والكفاح والتقدم والطموح والمجد .

وهذا سفر جديد ، يتناول بالبحث والدراسة ، وبأسلوب واضح مشوّق ، ليلى الاخيلية ، وحياتها وشخصيتها وأدبها وأثرها فى المجتمع الاسلامى القديم ، ليكون لسيدات الشرق وفتياته من حياتها أسوة كريمة ، تدفعهن وبالجيل الجديد فى الشعوب الشرقية إلى مجال العمل الكريم لخدمة المجتمع والانسانية . وهو أول كتاب يؤلف عن « ليلى الاخيلية » وأدبها .

و « الاخيلية » هى صورة مشرقة لحياة المرأة العربية ونفسيتها ، وجهادها فى سبيل خدمة المجتمع والشعب ، وخدمة الآداب والفنون ، وهى مثال خالد للعواطف الانسانية المهذبة الكريمة ، من الحب والشرف والوفاء .

الحياة العربية فى القرن الأول الهجرى

عاشت ليلى فى القرن الأول الهجرى (٢٥ — ٨٠ هـ) ، حيث الدولة الاسلامية الجديدة تكافح لنشر نفوذها الروحى والسياسى فى سائر أنحاء بلاد العالم المعروفة آنذاك ، وشاهدت الخصومات السياسية المشتعلة التى ثارت بين الأحزاب والجماعات والعصبيات ، حول الملك والخلافة ، أو العقيدة والمبادىء ، وانتصار بنى أمية السياسى وعملهم الجاد على استقرار الخلافة فى أيديهم .

وصحب هذا النشاط السياسى الضخم نشاط عقلى واسع المدى ، فقد أخذت مكة والمدينة ودمشق والفسطاط والبصرة والكوفة تبحث وتدرس ، وتعمل على نشر الثقافة والمعرفة ، وأخذ بنو أمية يمكنون لمجد العروبة والشرق والاسلام ، ويؤثلون للحضارة الاسلامية فى دمشق وسواها مجدها الخالد التليد ، ويرفعون للعلم والثقافة صروحا سامقة ، كانت منارة الانسانية وشعلتها المقدسة التى تبدد ظلمات الحياة البشرية فى ذلك العهد السحيق ، واشتركت فى ذلك جميع العناصر والأشخاص من مختلف الطبقات والأجناس والأديان ، فكان ذلك الكفاح الفكرى والثقافى مما دعم صرح هذه النهضة العظيمة ، وأساساً من أسس هذه المدنية القديمة الخالدة التى يعتز بها الشرق فى حاضره المتوثب ، واستمر الكفاح حتى آتى أكله فى عصر الدولة العباسية ، بل كان الميلاد الجديد للحضارة الاسلامية الباهرة .

وكان الشباب يعيشون فى نجد وفيما يحيط بنجد من واد واسعة مترامية الأطراف ، عيشة فيها فراغ كثير ، أمضوه فى تمثيل أعمال البطولة العربية ، وفى هذا الحب العذرى الذى يمتاز بروعته وقداسته والوفاء له واستعذاب العذاب والتضحية فى سبيله ، وأمضوه فى إنشاد الشعر الذى يمثل قصص البطولة والحب فى حياتهم الهادئة .

ولقد كان للمرأة العربية فى البادية منزلة كبيرة ، فهى تسهم فى الكثير من ألوان النشاط الاجتماعى والأدبى بقسط كبير ، هى جمال الصحراء وروعتها ، ومغذية العواطف ، وموقظة المشاعر ، والمشاركة فى الأدب والشعر والبلاغة ، والتى تحتمل أعباء الحياة وتقوم بها ، فتاة وزوجا وأما ، كما يحتملها ويقوم بها الرجال .

حياة ليلى الأولى

بيت ليلى :

وليلى هى بنت عبدالله بن الرحال بن شداد بن كعب بن معاوية الأخيل ؛ فارس الحدار بن عبادة بن عقيل بن كعب بن ربيعة العامرى . . من بيت كبير له شهرته فى البطولة والشرف ، وفى الشعر والأدب ، يبتدىء بعبد الله والد ليلى ، وكان شاعرا وسيدا فى قومه ، ثم يصعد إلى عقيل رئيس العقيليين ، ثم إلى عامر زعيم العامريين ، وينتهى بقيس الأب الأول للقيسيين .

مجد القبيلة وليلى :

وتصور ليلى بطولة قومها وشجاعتهم وكرمهم فى قصيدة لها ، تقول فيها :

نحن الأخايل لا يزال غلامنا ‏ حتى يدب على العصى مذكورا

تبكى السيوف إذا فقدن أكفنا ‏ جزعا ، وتعلمنا الرفاق بحورا

موطن قومها :

وكان قوم ليلى يعيشون فى البادية بنجد مما يلى المدينة ، فى وسط أحياء قبائل قيس وفروعها الكبيرة الضخمة ، من النميريين والعبسيين والعقيليين ، وسواهم من القبائل التى لعبت دورا خطيرا فى حياة العرب قبل الاسلام وبعده .

وكانت الحياة فى البادية إبان ذلك العهد فى طور الاستقرار النسبى ، كانت القبائل العربية لا تزال على عاداتها الأولى من الرحلة فى قلب البادية ، وتغيير مواطن إقامتها حسب اختلاف فصول السنة ، طلبا للماء والعشب فى المكان القريب منها ، إلا أن القبائل الكبيرة كانت أكثر استقرارا وطمأنينة على حياتها ، لما كانت تتمتع به من

الجاه والنفوذ ، وعناية الخليفة ورعايته ، وبره بها وبأبنائها ، وقضائه لحاجا
ومساعدته لها ماديا وأدبيا ، لتكون ساعدا له ، ويداً من أياديه على أعدائه وخص
وكذلك عاش قوم ليلى ، فى أرض البادية وفى أرجائها القفار ، ينعمون ب
العيش الهادىء ، ويفخرون بذكريات مجدهم الخالد ، ويعتزون بروح البطولة والش
والعزة التى ورثوها عن الآباء والأجداد ، ونمتهـا فى أنفسهم أرض الص
والحياة فيها .

ميلاد ليلى :

وفى نحو عام ٢٥ هـ أو بعده بقليل ولدت ليلى ، فى نجد موطن قومها بالبا
والمصادر التى بين أيدينا لا تتحدث عن شىء من ذلك ، ولا مما يتصل بحياة
ونشأتها ، ولكننا نعلم أن لليلى شعرا فى رثاء عثمان بن عفان الخليفة المقتول عام
فليس ببعيد إذاً أن تكون ليلى وهى ممن سار شعرها وروى حينئذ ، ليس ببعي
تكون يومئذ فى سن العاشرة ، وأن يكون ميلادها نحو عام ٢٥ هـ أى بعد
الفاروق عمر بن الخطاب .

ولدت ليلى فابتسمت لميلادها الصحراء ، إيذاناً بأنها ستكون شاعرة الص
والناطقة بلسان قومها ، بل بلسان البادية كلها . . نعم ولدت ليلى التى صارت فى
علماً من أعلام الأدب والشعر والبلاغة ، بل حديث الجزيرة العربية كلها ، بما
لها من شخصية ممتازة ، ونشاط بعيد الأثر فى الحياة العربية .

نشأة ليلى :

وفى هذه الفترة العظيمة الخالدة ، وفى وسط البادية وأرجائها الفيح القفار ،
موطن قومها بنجد ، نشأت ليلى الأخيلية واستقبلت الحياة . . شاهدت ليلى ك
من مظاهر شرف آبائها قومها ، فملأها ذلك ثقة واعتزازاً بنفسها ، ثم خالطت
البلاغات العربية المتدفقة على ألسنة الشعراء ، وفى حديث المتحدثين ، وسمر السا
وفى كلمات البلغاء ، وخطب الخطباء ، فتأثرت بهـا روحها ، وتدفق بها طب
وصقلت عليها ملكاتها ، ونشأت بليغة اللسان ، قوية البيان ، مطبوعة بفطرتها الش
وبنشأتها البليغة ، وبأثر الوراثة فى نفسها ، على نظم الشعر ، وأصبحت بعد قليل ا
قومها الذى يصولون به على الأعداء ، ويعتزون به فى مجال الشرف والفخر و
جميعا . نعم ورثت ليلى أباها وقومها فى الشعر ، واستمدت هذه البلاغة من ن

بالبادية ، ميدان الملكات ، ومجال الفصاحات ، وموطن البلاغة العربية المتدفقة ؛ وكانت ليلى فوق ذلك كله عليها سمات من نضارة الشباب ، وروعة الجمال ، وفتنة الحسن العربى الأصيل ، الذى يتجلى على محياها الواضح ، وثغرها الباسم ، وجبينها المضىء ، وقسماتها المشرقة ، وملامح وجهها الفاتنة الجميلة ، نعم كانت تمثالا للحسن ، وآية من آيات الذوق والنبل والخلق . وهكذا استكملت ليلى عناصر الشخصية القوية ، من مجد وحسب وشعر وأدب ، وجمال وفتنة ، وذوق وخلق ، وصارت حديث البادية ، ونشيدالصحراء .

ليلى وتوبة

من هو توبة ؟

هو شاب عربى وسيم أديب شاعر فارس ، ومن أسرة عربية كبيرة احتلت مكانا عظيما بين القبائل العربية الكبيرة ، عاش هو وقومه فى صميم البادية بنجد ، وفطر على مافطر عليه شباب البادية من خلق وبطولة .

والده الحمير بن ربيعة بن كعب بن خفاجة ، يصعد بنسبه الأول حتى يصل إلى خفاجة العميد الأول للخفاجيين ، ثم يصعد به حتى يصل إلى عقيل رأس العقيليين ، ثم إلى عامر رئيس العامريين ، ثم يصعدحتى يدرك قيسا الأب الأول للقيسيين ، وهو حسب رفيع ، يصله بعظمة القبيلة وسؤددالآباء والأجداد ، وذكريات المجدوالبطولة من جميع أطرافه ونواحيه .

وولد توبة قبل ليلى ، نحو عام ٢٠ هـ ، ونشأ وترعرع وقضى حياته الأولى فى البادية ، مسرح البطولة ، ومجال البلاغة ، وميدان الشعر والالهـــام ، والحب العذرى الطاهر .

وبعد قليل صارشاعر قومه المفوه ، ولسان البادية البليغ ، كما أصبح بطل الصحراء الجبار ، وفارسها العنيد .

وكان مجد أسرته وقبيلته عاملا كبيرا فى تكوين شخصيته ، فغذاه ذلك الطموح والبطولة وكرم الخلق ونبل النفس ، وأشاع فى قلبه حب العظمة والسمو بالنفس إلى حد بعيد ، وبدافع خفى من روحه انطلق يتلمس الحياة التى يظهر فيها بطولته ، فكانت فى هذه الغارات الحربية التى يشنها هو وأصحابه على القبائل الكبيرة بالبادية التى كانت تريد أن تستبد بمظاهر العظمة والسلطان فيها ، وأكثر توبة من هذه الغارات على بنى الحارث بن كعب وخثعم وهمدان ، من غير أن يعبأ بأحد ، وكان أكثر غاراته على

القبائل التي تنافس قومه الشرف ، أو التي بينها وبين قومه خصومات ، كمهرة وقضاعة وهمدان ، وكان يزور نساء منهم ، يتحدث إليهن ، ثم ينطلق وهو يقول :

أيذهب ريعان الشباب ولم أزر غرائر من همدان بيضا نحورها

كان توبة إذ ذاك في سن الشباب ، وكان ممتلئاً قوة وعزيمة وبطولة وشبابا وجمالا ، وكان كأولاد القبائل الكبيرة ، ولصغر سنه لا يندب إلى الالتحاق بالجيش الاسلامي الذي يسير في أرجاء الشرق إذ ذاك فاتحا مظفرا منصورا .. فعاش في البادية ممعنا في غلوائه وخيلائه ، وأعمال بطولته وشجاعته.

وأخيرا عرف ليلى وأحبها ، فكانت عاملا حاسما غير مجرى حياته كلها ، وبعث فيها النور والسعادة والبهجة ، وملأ صدره عزيمة وإقداما وهمة ، وسما بنفسه إلى مجال الطهر والشرف والخير ، وقاده الى حياة جديدة كريمة .

حلفاء :

وكان قوم ليلى حلفاء لقوم توبة ، يغزون معهم ، ويحلون ويرتحلون جميعا . ويتسامرون في المسارح والاجتماعات .

وكان عبدالله والد ليلى زعيم قبيلته ، ورئيس قومه ، وكانت ليلى آنئذ لسان القبيلة ، وشرف الأسرة ، وموضع الاكبار والتقدير من قومها جميعا ، وكان قد شاع في البادية ذكرها ، وروى الناس في الصحراء شعرها القوي الساحر ، وتحدثوا بها وبفصاحتها وأدبها وحفظها لأنساب العرب وأيامها وأشعارها كافة .

أول لقاء .

ولم يكن توبة قد رآها بعد ، ولكن حدث أن خرج قوم ليلى في غزوة حربية من هذه الغزوات المألوفة في البادية ، فلما كان يوم عودتهم من نضالهم الظافر ، خرجت ليلى وخرجت معها نساء الحي للقاء القادمين من أبطال قومها وفرسانهم ، وسفرت الفتيات والسيدات عن وجوههن في ضجة من الفرح والبشر والاعجاب ، وكان توبة قريبا منهن في هذه اللحظة النادرة فشاهد هذا الجمال المشرق من وجه ليلى وجبينها ، وهذا الأدب والشعر الذي تنفثه الصحراء في لسانها ، فافتتن بها وأحبها ، وهام بها هياما سديداً .

حب وهيام:

نعم أحب توبة ليلى وهام بها ، ورفرف فوق رأسه « كيوبيد » بجناحيه ،

يخفق قلبه ، واضطرب فؤاده اضطرابا شديدا .

وصارت ليلى من ذلك الحين سره ومناه ، وأمله ونجواه ؛ وتمثلت فى عقله وقلبه مثلا كريما عاليا ، وصورة ملائكية ساحرة ، وروحا قوية غلابة .

وتحمل توبة كل ألم ، واستعذب ألوان العذاب فى سبيل حب ليلى ، والوفاء لهذا الحب الأبدى الطاهر .

لم يطق أن يفارق ليلى ، فأخذ يزورها ، ويتردد على حيها ، يقنع منها بنظرة أو بتحية أو بكلمة جميلة تخفف عنه أعباء الحياة ، وعذاب الحب وسعير الهوى . ونظم فيها الشعر قصائد حية ، وأناشيد رائعة ، تصور عواطفه ، وتمثل آماله وآلامه فى حب ليلى جميعا ، وصار بعد قليل شعره فى ليلى حديثا فى كل فم ، وأنشودة على كل لسان ، وشهر توبة بحب ليلى فى جميع أرجاء الصحراء ، ودوت بقصة حبه جميع آفاقها ، كما كانت تدوى بأنباء قيس وليلى ، وكثير وعزة ، وجميل وبثينة ، وسواهم من الشعراء الغزلين ، الذين ملأوا جو البادية العربية تصوفا روحيا فى الحسن ، وهياما أبديا بالجمال ، وتقديسا خالصا للمرأة فى أشخاص محبوباتهم الخالدات ، وأذاعوه فى أرجاء البادية العربية قصص الحب العذرى البرىء ، الخالص من وساوس النفس ، ومآرب الدنيا ، وشهوات الحب المادى الجامح ، وسموا به وبالوفاء فى سبيله إلى المستوى الروحى الذى سما اليه من قبل الفلاسفة فى حبهم الروحى الخالد ، المصور لمعانى الحق والخير والجمال فى الحياة ، فهم فى هيام دائم بالجمال ، وإيمان بالحب للحب ، وحرص على شرفه ، وجعله متعة روحية خالصة ، نصيب القلب والروح والعاطفة والوجدان منه هو نصيب الأسد ، وهو كل شيء فيه ، وهو ألفه وياؤه ، أو طغراؤه كما يقول شوقى .

وذهب توبة يوما إلى ليلى ليبثها وجده وهيامه ، وما نزل به من حبها ، فأنبأته ليلى بما تحمله فى صدرها له من حب ووفاء ، فكان أكبر سلوى ، بل أكبر نعيم لهذا المحب الوامق ، والعاشق الشيق ، وبذلك قامت بينهما صلاة وثيقة من الإخلاص والوفاء .

لقد كان توبة أكرم شباب البادية ، بمجده وحسبه وطموحه وبطولته ، وشعره وبلاغته وشخصيته العالية ، وكانت ليلى كذلك أكرم فتيات البادية بما تجمعه فى أعطافها من آثار المجد الخالد ، وبما يلوح فى جبينها من سمات ذلك الجمال الرائع ، وبأدبها وشعرها وشخصيتها الكريمة الطاهرة .. كانا مثالا نادرا يمثل كثيرا من مظاهر

الحياة فى البادية ، يجمعهما حسب ومجد ، وطموح وإقدام . وفن وبلاغة ، وعواطف متبادلة ، حتى لكأنهما قلب واحد حل فى جسمين ، وروح واحدة سرت فى بدنين ، فكان هذا الجمال مصورا ، وكان ذلك البطولة ممثلة ، فأى سبب إذاً يحول بين امتزاج توبة بليلى وامتزاج ليلى بتوبة ، فى صلة وثيقة ظاهرة ، تهب ذكراها العطرة هبوب النسيم الجميل ؟ :

أرى الناس من ليلاك سقما ، وقربها حيا كحيا الغيث الذى أنت ناظره
ولو سألت للناس يوما بوجهها سحاب الثريا لاستهلت مواطره

توبة يخطب ليلى

وذهب توبة إلى والد ليلى فى وفد من رؤساء قومه ، يطلب منه أن يزوجه إياها وأن يقبل خطوبته لها ، ولكن والدها رفض وأبى ، وقال: لقد شهر توبة اسم ليلى واسم قومها بين أحياء العرب جميعا ، وأذاع حبه لها وهيامه بها بين الناس كافة ، فمحال إذاً وبعد ذلك أن يتزوج توبة ليلى ، ما دام فى بنى الأخيل عرق ينبض ، وقلب يخفق ، ونفس تدين بما تدين به العرب جميعا من حمية وغيرة ، وتقديس للشرف ، وذياد عن حرمة العرض المفدى بالمهج والأرواح . محال أن أخالف سنة الآباء والأجداد ، وشريعة العرب والصحراء ، وإلا لأصبحت سبة الأبد ، ومهزلة الأجيال !.

ووقعت هذه الكلمات على توبة وقوع الصاعقة ، فأيس من كل شىء ، ومن الحياة المرحة التى كان يتمنى أن يحياها فى ظل ليلى ، وحاول أن يغير مجرى هذا التصميم والعزم والإباء ، الذى تنطق به أسارير وجه عبد الله ، ولكن جهوده ذهبت هباء ، ولم يجده شىء أمام هذا التصميم الأبدى الذى ظن توبة أن زحزحة جبال البادية عن مقرها أقرب منالا من تغييره أو الرجوع فيه . فخر صريعا مغشيا عليه .

وسمعت أسرة ليلى إلى ليلى بنبأ رفض والدها ليد توبة التى امتدت اليه بالخطوبة والمصاهرة ، فحزنت حزنا عميقا ، وأيقنت أن آمالها المنشودة فى ظلال الزوجية المقدسة بين ذراعى توبة قد ذهبت أدراج الرياح . وتبدل جمال الحياة فى عينى ليلى الساحرتين قبحاً ، واستحال نعيمها الصافى فى قلبها شقاء وبؤسا ، وظلاما قاتماً ، ويأساً مريراً . ودت ليلى كما ود توبة أن لم يخلقا ، أو أن تضمهما بقعة واحدة بعد هذه الحياة . . . وظلت صلات حبها العذرى الطاهر وثيقة ، بل أوثق مما كانت ؛

وحرم توبة من رؤية ليلى ، فكان يحاول أن يبلغها تحيته بكل ما يستطيع .

وجه صاحباً له إلى حى ليلى وقومها — بنى عبادة بن عقيل ، وقال له : إذا أتيت الحى فاصعد فى مكان مرتفع ، واهتف بهذا البيت :

عفا الله عنها هل أبيتن ليلة من الدهر لا يسرى إلى خيالها

فسمعت ليلى الصوت ، وعرفت رسالة توبة ، فقالت للرجل :

وعنه عفا ربى وأحسن حاله عزيز علينا حاجة لا ينالها

زواج ليلى

وبعد قليل سعى إلى والد ليلى سوار بن أوفى القشيرى الشاعر ، من بنى قشير ابن كعب بن ربيعة العامرى ، خاطبا منه ابنته ليلى ، فوافق على هذه الخطوبة ، وتمت نصوص عقد الزواج ، وساد أرض ليلى جو من الفرح والغبطة والسرور .

ولكن ليلى كانت فى جحيم ، وكان قلبها يشق بآثارحبها الطاهر ، الذى عاهدت ليلى على الوفاء له حتى الرمق الاخير ، وتمثلت أمام عينيها ذكريات الشباب الناضر وأحلام الحب الروحى البرىء ، وأطافت بخيالها صور هذه الآمال العذاب التى عاشت ليلى لها وبها وانتظرت تحقيقها ، ولكن هيهات ! فذرفت عيناها الدموع ، وعلا وجهها الشحوب ، وعقد لسانها فهو لا يكاد يبين . ولا تريد ليلى أن يترجم عن ما فى قلبها من آلام .

وخرج سوار بليلى زوجته الكريمة من أحياء العقيليين ، وقومهم من العامريين إلى حى قومه القشيريين . وتوبة يتبع ببصره هودج ليلى الذى يهتز بها وبمن معها فوق أرض البادية المرحة الضحوك ؛ ويرنو إليها من بعيد بعيون تخنقها العبرات ؛ وفؤاد ملؤه الألم الدفين ، والحزن العميق ؛ والشقاء القاتل . فيبكى ويقول :

ألا إن ليلى الأخيلية اصبحت تقطع إلا من قشير حبالها
كأن مع الركب الذين اغتدوا بها غمامة صيف زعزعتها شمالها
إذا التفتت من خلفها وهى تعتلى على العيس جلى عبرة العين حالها
خليلى هل من حيلة تعلمانها فيدنى بها تكليم ليلى احتيالها
فإن أنتما لم تعلماها فلستما بأول باغ حاجة لا ينالها

وسقط على الأرض بين البكاء والأنين .

ليلى فى حياة الزوجية

وكانت نضارة الشباب وفتنة الجمال بالغة منتهاها فى ليلى ، وكان زوجها رجلا غيورا بكل معنى تحتمله هذه الكلمة ، حجبها عن الناس وعن المجتمع فى البادية ، حتى عن قومه وأهله ، فإذا رحل رحل بها منفردا عن الناس ، وإذا نزل نزل بها بعيدا عنهم ، وحرم على نفسه أن يأتى معه بضيف فى منزل ليلى ، وقيد حياتها بقيود شديدة . احتملتها ليلى فى جلد وقوة احتمال .

خرج أعرابى ينشد إبلا ضالة ، ففاجأه الليل وظلمة الصحراء وهو فى بلاد بعيدة عن بلاده ، فنظر فإذا بيت قريب منه ، فدنا نحوه ، ونزل حيث ينزل الضيف ، ثم أبصر سيدة رائعة الجمال وعدة صبيان يدورون حول الخباء ، ولم يكلمه منهم أحد ، فلما كان بعد هدأة من الليل سمع صوت إبل قادمة نحوه ، وسمع فيها صوت رجل جاء بها فأناخها حول البيت ، ثم دخل الخباء ، وقال لزوجته : ماهذا الشيخ النائم على مقربة منك ؟ قالت هو ضيف نزل علينا حين مغيب الشمس ولم أكلمه ، فقال لها : كذبت ، ماهو إلا صديق من أصدقائك ، ونهض يضربها ، وهى تناشده ، وهو يقول لها : والله لا أدع ضربك حتى يأتى ضيفك هذا فيغيثك من يدى ؛ فلما عيل صبرها استغاثت بالضيف ، فهب مسرعا ، وهرول بهراوته نحوها حتى أتاها وزوجها يضربها ، فرفع العصا وضرب بها رب البيت ، ثم أدركته السيدة ، فقالت : ياعبدالله مالك ولنا ؟ نح عنا نفسك . فانصرف الضيف ، وركب راحلته وأدلج ليلته كلها ، وقد ظن أنه قتل الرجل ، وهو لايدرى من الحى الذى نزل ضيفا عليه بعد ، حتى نزل على أخبية عربية فى جوف البادية ، ورأى فتاة ترعى شويهات لها . فسألها عن الحى الذى كان فيه بالليل ، فضحكت وقالت : إنك تسألنى عن شىء أنت عالم به ، فقال : والله ما أعرفهم ولا يعرفوننى بعد ، فقالت : ذاك الخباء خباء ليلى الأخيلية ، وذاك الرجل هو زوجها ، وكل مارأيت وشاهدت وسمعت فهو من غيرته الشديدة عليها . فزوجها رجل غيور ، ينأى بها عن الناس ، ويحجبها عن ضيوفه وأصدقائه ، ويمنعها من أن تضيف إنسانا ، فكيف نزلت بها ياهذا ؟ قال الرجل : إنما نظرت الخباء فقصدت نحوه ، ولم أقربه ، ولم أكلم أو يكلمنى أحد فيه ، حتى كان ماقصصته عليك وما بلغك وما أصبح الناس يتحدثون به فى هذه الأحياء .

وهكذا عاشت ليلى كالهزار المحبوس فى قفص ، لاترى الحياة ، ولا تخالط الأحياء ؛ تقوم بأعباء الزوجية والأمومة ؛ وتعيش على الوفاء لتوبة ، والرثاء

لحالته ، وظلت كذلك حينا من الزمان .

صلاة الحب العذرى بين توبة وليلى

ولم يطق توبة آلام فراق ليلى محبوبته ، فكان يتردد أحيانا على حى زوجها زائرا ومحيياً ، كلما واتت الفرصة ، وسمحت الأيام ، فاشتد سوار فى حجاب ليلى ، فقلق توبة لذلك ، حتى خامره الجزع ، ونابته غيبوبة تلم به أحيانا فتذهب بعقله فأشاروا عليه أن يكثر من الرحلات فى جوف البادية ، فكان يخرج أحيانا يجوب قفار الصحراء الفيح ، وأنحاءها الواسعة .

ولكن توبة لم يطق فراق ليلى ، وكاد يموت سقما من نأيه عنها ، فأخذ يتردد على معاهـــد الحب والهوى ، ومسارح اللهو والشباب ، فى الأيام الخاليات ، اللاتى كانت تجمعه بليلى فيها صلات الشباب البرىء ، ثم سعى فى خفية يزور ليلى ، ويتردد ، على حى زوجها « سوار » ، فشعر بما تعيش فيه ليلى من مضايقه ومراقبة ، فزاد ألمه وسقامه .

ثم سعى اليه إخوة ليلى وقومها يناشدونه ألا يعرض ليلى — وهى فى حرم الزوجية المقدس — لآلام جديدة ، فوعدهم ، ولكن قلبه لم يحتمل صدمة هجرانها الأبدى ، فعاود زيارتها ، فلامه زوج ليلى وقومه ، ثم شكوه إلى قومه ، فلم يثنه ذلك عما هو عليه ، فلما طال أمره ، وشهرت حاله ، رفعوا أمره إلى السلطان ، وكان هو إذ ذاك « مروان بن الحكم » والى المدينة وما جاورها من أحياء نجد « لمعاوية بن أبى سفيان » خليفة بنى أمية ، فأباح لهم الفتك به إن وجدوه فى حى ليلى وزوجها ، فكان لا يزورها بعد ذلك إلا لماماً يقنع بأن يحمل النسيم سلامه وتحيته اليها ، أو يكاف أحد المسافرين نحو بلاد زوجها بأن يبلغها وفاءه وأمانيه ، أو يرسل فى ذلك أحد أقاربه وأبناء عمومته ، وما كان توبة حين يزورها إلا الطهر والشرف فى ثوب إنسان ، أو كما يقول :

على دماء البدن إن كان زوجها ⁂ يرى لى ذنبا غير أنى أزورها
وأنى إذا مازرت قلت لها : اسلمى ⁂ فهل كان فى قولى : اسلمى ، ما يضيرها ؟

ولما اشتد منع زوجها « سوار » لها من رؤية توبة ، ومن الحديث البرىء معه ، جعل توبة وليلى بينهما أمارة ، قالت ليلى : إذا مررت فوجدتنى مبرقعة فاجلس مطمئنا فلا حرج حينئذ ، وإذا رأيتنى سافرة فانج بنفسك ، فإن القوم يتربصون بك حينئذ .

فلما اشتد تصميمهم على طلب توبة والفتك به أثناء تردده على حيهم ، جاء سوار إلى ليلى ، فقال : ياليلى ، أقسم لئن لم تنبئينى بميعاد قدوم توبة لأسفكن دمك فأنبأته ، ثم خرجت يوم قدومه سافرة الوجه ، فجلست على كثيب بحيث يراها توبة من بعيد ، فلما أقبل ورآها سافرة مضى فى طريقه متنكبا حتى مر سحرا بمكان فيه ظل ، وحمائم تغرد ، فعاودته أشجانه ، فأنشد :

نأتك بليلى دارها لاتزورها وشطت نواها واستمر مريرها
أرتك حياض الموت ليلى ، وراقنا عيون نقيات الحواشى تديرها
يقر بعينى أن أرى العيس تعتلى بنا كل يوم نحو ليلى تزورها
حمامة بطن الواديين ترنمى سقاك من الغر الغوادى مطيرها
أبينى لنا ، لا زال ريشك ناعما ولازلت فى خضراء غض نضيرها
وكنت إذا ما جئت ليلى تبرقعت فقد رابنى منها الغداة سفورها
على دماء البدن إن كان بعلها يرى لى ذنباً ، غير أنى أزورها
وإنى إذا مازرت قلت لها : اسلمى فهل كان فى قولى : اسلمى ، مايضيرها

وهكذا عاش توبة حزينا باكيا ، مشرداً فى الآفاق ، يمسكه الرمق ، ويميته الفراق والبعد عن ليلاه ، فقد ملأ الحب قلبه ، وضاق بحمله كما يقول :

قالت مخافة بيننا وبكت له فالبين مبعوث على المتخوف
لو مات شيء من مخافة فرقة لأماتنى للبين طول تخوفى
ملأ الهوى قلبى وضقت بحمله حتى نطقت به بغير تكلف

وخرج توبة إلى بادية الشام ، فأقام بها يسيرا ، فلم يستقر به قرار وتاقت نفسه إلى ليلى ، فكان يصعد على ربوة ويتجه بوجهه نحو ليلى وبلادها يبكى ويستمر فى البكاء ، وأقام على ذلك أياماً لا تلذ له معيشة ، ولا يهدأ له قلب ، ولا ينعم له بال فخرج مسافرا يريد حى ليلى ، حتى بلغه ، فشاهد طفلا يلعب ، فقال له : هل تعرف ليلى أيها الفتى ؟ قال : نعم ، قال فامض إليها وأنشد :

وكنت إذا ما زرت ليلى تبرقعت فقد رابنى منها الغداة سفورها

ثم عد إلى فسأعطيك جائزة ، فمضى الغلام فأنشد البيت ، فعلمت ليلى أن توبة قد ورد الحى ، فقالت للغلام : قل له إنها الآن مبرقعة ، فمضى الغلام اليه وأعلمه بذلك ، فأعطاه دينارين ، وأقبل يجدد زيارتها ، وينعم برؤيتها ، وقبيل قيامه قال لها : مكنينى من تقبيل يدك ، فأنشدت :

وذى حاجة قلنا له : لا تبح بها   فليس إليها ما حييت سبيل
لنا صاحب لا ينبغى أن نخونه   وأنت لأخرى صاحب وخليل

فعلم توبة أن ليلى قد استرابت منه ، فاعتذر لها ، وأقسم أنه لا يريد إلا الخير ، فزادت ليلى إعجابا به ، وتقديراً له ، ثم ودعها توبة على استحياء ، ومضى فى جوف البادية الجرداء ، وهو ينشد :

أأغبط من ليلى بما لا أناله   ألا كل ما قرت به العين صالح
وهل تبكين ليلى اذا مت قبلها   وقام على قبرى النساء النوائح
كما لو أصاب الموت ليلى بكيتها   وجاد لها دمع من العين سافح
ولو أن ليلى الأخيلية سلمت   على ودونى تربة وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة أو زقا   اليها صدى من جانب القبر صائح

وهكذا عاش توبة شقيا بحب ليلى ، سعيداً بهذا الشقاء الطويل ، مشرداً فى آفاق البادية وأرجائها . فياله من شقاء ، ويالهذا الوفاء من وفاء .

هل تزوج توبة ؟

وبيت ليلى :

لنا صاحب لا ينبغى أن نخونه   وأنت لأخرى صاحب وخليل

يدل على أن توبة تزوج بعد إخفاقه فى ادراك ليلى والزواج بها ، والظاهر أن أهله حتموا عليه هذا الزواج حينما شاهدوا شروده وغيبوبته من أثر حب ليلاه ، وربما كانت ليلى قد نصحته بهذا الزواج لتمنع عنه وعنها أثر القيل والقال ، وظنون الناس الآثمة ، ويؤيد هذا الاستنتاج بيت ورد فى مرثية لها فى توبة بعد وفاته ، وهو :

فتى ليس تبنى بيتها « أم عاصم »   على مثله إحدى الليالى الغوابر

أى لا تستطيع أم عاصم أن تتزوج مثله أبدا ، ولا تجد له مثيلا طول حياتها ، فأم عاصم هذه إذاً هى زوجة توبة ، تزوجها وخلفت له ولداً سمى عاصما ، وهذا ما لا أثر للشك فيه . وعلى أى حال فإن زواج توبة لم يسعده كما ينتظر ، ولم ينسه آلامه وهمومه وعذابه فى حب ليلى ، ولم يمنع عنه هذا السقام والشرود ، والذهاب فى البادية كل مذهب ، ولم يحل دون وفائه لمحبوبته ليلى ، ولحبه الأبدى الطاهر لها ، والحب العذرى أو الروحى لا ينسى ولا يمحى من القلب والعاطفة والوجدان .

وفاة توبة

كان ذلك نحو عام ٥٧ ه فى عهد الخليفة معاوية بن أبى سفيان ، وكان توبة قد قارب نهاية العقد الرابع من عمره ، وهو بين البادية أكرم شبابها ، وأمجد شخصياتها ، وكان أمير المدينة وما جاورها من نجد إبان ذاك هو مروان بن الحكم ، الذى استعمل على صدقات بنى عامر شيخ العقيليين همام بن مطرف العقيلى العامرى .

وكان بين قوم توبة وبنى أعمامهم من بنى عامر بن عوف العقيليين خصومة انتقلت عدواها إلى نفس توبة وأبناء عمومته .

واختصم الفريقان فى بعض أمورهم إلى همام شيخ العقيليين ، وكان توبة حاضرا مجلس الخصومة مع سادة قومه وأشراف عشيرته .

وفى ثورة الخصومة وشدة المجادلة وحمية الغضب وثب « ثور » أحد رجالات بنى عامر بن عوف العقيلى ، فضرب توبة بحديدة كانت فى يده ، وعلى توبة الدرع والخوذة فجرحت الخوذة وجه توبة فاستفحل الامر ، وتفاقم الشر والخصومة ، وانتهى ذلك بأن قتل توبة « ثورا » وجرح كثيرا من قومه فى معركة دامية ، فنهض « السليل ابن ثور » يأخذ بثأر أبيه ، وكان السليل بارعاً فى الرمى ، كثير البغى والشر ، فاتكا يرهب الناس فى البادية ، ولكن توبة كان بطلا جريئا لايبالى بإنسان ، وبعد قليل صرع توبة السليل وقتله كما قتل والده من قبل .

ثار قوم السليل لمقتله ومصرع أبيه من قبل ، ولكن توبة لم يبال بثورتهم فأخذ يغزوهم فى ديارهم ، ويقطع الطريق على إبلهم وأموالهم ، ويروع فرسانهم ورجالهم .

فهبوا للانتقام من توبة ، وأخذ ثأرهم منه ، وتعاقدوا على أن يطلبوه فى كل مكان وأن يذيقوه الوبال والنكال .

ولكن توبة لم يبال بجمعهم ، ولم يأخذ نفسه بالاحتراس من شرهم وطلبهم ، ففى يوم قائظ كان بالبادية ومعه شقيقه عبدالله وابن عمته قابض ، فصعد توبة إلى هضبة من هضبات البادية فى أرض بنى أعمامه الكلابيين العامريين ، ليستريح من حر الظهيرة اللافح ، وليستريحوا معه ، فحذره شقيقه من طلب القوم له وسعيهم فى أثره ، فقال توبة : دعنى فقد أقمنا « قابضا » على حراستنا لينذرنا إذا ظهر خطر أوألم شر ، وبعد قليل كان « قابض » يغط فى نوم عميق ، وبعد وقت قصير كان خصوم توبة يصعدون إلى الهضبة ، فهب « قابض » مذعورا ، وهب توبة وعبد الله بعده ، ونهض توبة إلى فرسه يحاول أن يركبه ، ولكن الفرس نفر منه وجرى فى الهضبة ، فأخذ

السيف وضرب به أول قادم عليه فقتله ، ثم تكاثر خصومه عليه ، فقاتلهم حتى خر في المعركة صريعا مضرجا بدمائه ، وسقط أخوه بعد أن كسرت ساقه ، وفر قابض لايلوى على شيء .

فوجيء قوم توبة بخبر قتله ، فهبوا يأخذون بثاره ، وانتهى بهم الأمر أخيراً إلى أن أجلوا بنى عوف العقيليين عن ديارهم ، ولم يبق منهم أحد بالبادية .

ووقع نبأ مصرعه على ليلى موقع الصاعقة . فذرفت عينها الدموع ، وبكت أحر بكاء ، وهي تقول :

لتبك العذارى من خفاجة كلها ... شتاء وصيفاً ـ دائبات ـ ومربعا

على ناشيء نال المكارم كلها ... فما انفك حتى أحرز المجد أجمعا

خلعت ليلى زينتها ، وعاشت بعد توبة في حزن عميق عليه ، وأخذ الناس يعزونها في توبة ، ويسرون عنها .

لقد كانت ليلى لاتبالى بالفراق يحول بينها وبين توبة ، ولكن ماذا تصنع الآن وقد ذهب إلى حيث لاتراه بعد اليوم .

لعمرك ما الهجران أن يسقط النوى ... ولكنما الهجران ما غيب القبر

مراثى ليلى فى توبة

وتصور ليلى حزنها الدفين في شعرها الخالد ، ومراثيها الباقية التي رثت بها توبة .

١ — تقرأ حزن ليلى ، وتقرأ كثيرا عن سمات شخصيتها البارعة ، وعن حبها الطاهر ، ووفائها الذى كان مضرب الأمثال ، حين تقرأ مرثيتها الرائية الرائعة ، التى تقول فيها بعد أن صورت مصرعه ، ونددت بقاتليه ، وأنذرتهم سوء العواقب ، تقول :

وتوبة أحيى من فتاة حيية ... وأجرأ من ليث بخفان خادر

فتى كان للمولى سناء ورفعة ... وللطارق السارى قرى غير باسر

فأقسمت أبكى بعد توبة هالكا ... وأحفل من نالت صروف المقادر

أى لاأبكى بعده ميتا ، ولاأحفل بمن يموت .

فتى ليس تبنى بيتها « أم عاصم » ... على مثله إحدى الليالى الفوابر

وكنت إذا مولاك خاف ظلامة ... دعاك ولم يعدل سواك بناصر

والقصيدة طويلة وما أثر منها يزيد على الأربعين بيتا ، وهى فى كتب الأدب فى روايات يكمل بعضها بعضاً .

٢ — ورثت ليلى توبة أيضا برائية ثانية ، مشوبة بالطبع والبلاغة والابداع ، تقول فيها :

أيا عين بكى توبة بن حمير بسح كفيض الجدول المتفجر
لتبك عليه من خفاجة نسوة بماء شئون العبرة المتحدر

ومنها بعد أن وصفت أخلاقه وبطولته :

فيا توب للهيجا ، ويا توب للندى ويا توب للمستنبح المتنور

تريد : للضيف الطارق بالليل البهيم .

ألارب مكروب أجبت ، ونائل بذلت ، ومعروف لديك ومنكر

وهى رائية طويلة موزعة فى كتب الأدب .

٣ — ثم يشتد هلع ليلى وحزنها ، فتسرى عن نفسها هذه الآلام بما تنشده من حكمة الحياة ، وشأن المقادير فى تقلبها ودورانها ، تقول من رائيه ثالثة فى رثاء توبة :

لعمرك ما بالموت عار على الفتى إذا لم تصبه فى الحياة المعاير
وما أحد حى ، وإن عاش سالما بأخلد ممن غيبته المقادر
ومن كان مما يحدث الدهر جازعاً فلا بد يوماً أن يرى وهو صابر
وكل شباب أو جديد إلى البلى وكل امرىء يوما إلى الله صائر
وكل أليفى ألفة لتفرق شتاتاً ، وإن ضنا وطال التعاشر
فلا يبعدنك الله حياً وميتاً أخا الحرب إن دارت عليك الدوائر
فآليت لا أنفك أبكيك مادعت على فنن ورقاء أو طار طائر

ولليلى فى توبة كثير من المراثى الحارة ، التى تنم عن حزن عميق ، ووفاء كريم ، وشعور بعيد بشخصية توبة وبطولته وأخلاقه .

ليلى فى بلاط معاوية

ووفدت ليلى « على معاوية بن أبى سفيان » أول خلفاء بنى أمية (٤١ - ٦٠هـ) بعد وفاة توبة ، حيث نزلت عليه فى « دمشق » ، فمدحته فكافأها بخمسين من الابل ثم سالها عن مضر ، فقالت : « فاخر بمضر ، وحارب بقيس ، وكاثر بتميم ، وناظر باسد ، ثم سألها عن خلق توبة فنفت عنه أكاذيب الناس عليه وقالت تصفه للخليفة : « كان والله سبط البنان ، حديد اللسان ، شجى للأقران ، كريم المخبر ، عفيف المئزر ، جميل المنظر ، وكان والله كما قلت — ولم أبعد عن الحق — فيه :

بعيد المدى لايبلغ القرن قعره ألد مـــلد يغلب الحق باطله

قال معاوية : « ويحك ياليلى ، يزعم الناس أنه كان فاجراً » ، فقالت :

معاذ النهى والله قد كان توبة جواداً على العلات جما نوافله

أغر خفاجيا يرى البخل سبة تحالف كفاه الندى ، وأنامله

عفيفاً ، بعيد الهم ، صلبا قناته جميلا محياه ، قليلا غوائله

وكان إذا ما الضيف أرغى بعيره لديه أتاه نيله وفواضله

وقد علم الجدب الذى كان سارياً على الضيف والجيران أنك قاتله

وأنك رحب الباع ياتوب بالقرى إذا مالئيم القوم ضاقت منازله

يبيت قرير العين من كان جاره ويضحى بخير ضيفه ومنازله

فقال لها معاوية : « لقد جزت بتوبة قدره » ، فقالت ياأمير المؤمنين ، والله لو رأيته لعلمت أنى مقصرة فى نعته ، لا أبلغ كنه ماهو له أهل ؛ فقال لها معاوية : فى أى سن كان ؟ فقالت :

أتته المنايا حين تم تمامــــه وأقصر منه كل قرن يناضله

وصار كليث الغاب يحمى عرينه فترضى به أشباله وحلائله

عطوف حليم حين يطلب حلمه وسم زعاف لاتصاب مقاتله

فأمر لها بجائزة ، وقال : أى ماقلت فيه أشعر ؟ فقالت : ماقلت شيئا يا أمير المؤمنين إلا والذى فيه من خصال الخير أكثر ، ولقد أجدت حيث أقول :

جزى الله خيراً والجزاء بكفه فتى من عقيل ساد غير مكلف

فتى كانت الدنيا تهون بأسرها عليه فلم ينفك جم التصرف

ليلى فى بلاط مروان الخليفة

شاهدت ليلى أحداث الحياة العامة التى كانت تمثل على مسرح التاريخ الإسلامى فى تلك الحقبة الحافلة ، وبكت « معاوية » حين طواه الموت ، وعاصرت « يزيد » بعده ، وعاشت حتى رأت « مروان بن الحكم » يعتلى عرش الخلافة فى دمشق (٦٤ — ٦٥هـ) وكان من قبل والياً على المدينة ، وكان يعرف ليلى وتعرفه ، فرحلت إلى بلاطه ، ودخلت عليه ، فحيته وحياها ، ثم قال : ويحك ياليلى ، بالغت فى وصف توبة ، قالت : أصلح الله الأمير ، والله ماقلت إلا حقا ، ولقد قصرت ، ومارأيته رجلا أربط على الموت جأشا ، ولا أقل إيحاشا ، يحتدم حين يرى باب الحرب ،

ويحمى الوطيس بالطعن والضرب ، كان والله كما قلت :

فتى لم يزل يزداد خيرا لدن مشى ... إلى أن علاه الشيب فوق المسائح
تراه إذا ما الموت حل بورده ... ضروبا على أقرانه بالصفائح
شجاع لدى الهيجاء ثبت مشايح ... إذا انحاز عن أقرانه كل سايح
فعاش حميداً لاذميا فعاله ... وصولا لقرباه يرى غير كالح

فقال لها مروان : كيف يكون توبة على ماتقولين ؟ فقالت : لقد كان كما قال عمه مسلم :

فلله قوم غادروا ابن حمير ... قتيلا صريعا للسيوف البواتر
لقد غادروا عزماوحزما ونائلا ... وصبرا على اليوم العبوس القماطر

فأعجب مروان بها وببطولتها وشجاعتها ووفائها وبلاغتها ، وقضى حاجاتها جميعـــاً .

ليلى فى بلاط عبد الملك

— ١ —

ووفدت ليلى على بلاط الخليفة الأموى العظيم « عبدالملك بن مروان » (٦٥ - ٨٦ ه) فحيته بتحية الخلافة ، فهش لها وابتسم ، وأراد أن يمازحها ، وكانت ليلى قد جاوزت عهد الشباب ودخلت فى غمار الكهولة ، فقال لها « عبد الملك » : ياليلى ، ما الذى رأى توبة فيك حتى أحبك ؟ قالت : رأى فى ما رأى الناس فيك حين ولوك الخلافة ، فضحـــك عبد الملك حتى بدت له سن سوداء كان يخفيها .

— ٢ —

ودخل عبد الملك على زوجته عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، فرأى عندها امرأة بدوية أنكرها ، فقال لها : من أنت ؟ قالت أنا الوالهة الحرى ، ليلى الأخيلية ، قال : أنت الذى تقولين فى توبة ماتقولين ؟ قالت : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : فما أبقيت لنا ؟ قالت : الذى أبقاه الله لك ، قال : وما هو ؟ قالت نسبا قرشيا ، ومجداعبقريا ، وجعلك خليفة ووليا ، ومنحك نعمة الحياة ، ووهبك زوجة مطاعة ، فقالت عاتكة : ياأمير المؤمنين ، إنها قد استشفعت بى اليك فى منهل ماء تسقى قومها وتحميه لهـا ولست ابنة يزيد إن قضيت لها حاجة ، لتقديمها عربيا جلفا على أمير المؤمنين ، فوثبت ليلى ، ونهضت قائمة ، واندفعت تقول :

ستحملنى ورحلى ذات رحل   عليها بنت آباء كرام
إذا تركت سواد الشام منهـــا   وغلق دونها باب اللئام
فليس بعائد أبداً اليهم   ذوو الحاجات فى غلس الظلام
أقلت خليفة ؟ فسواه أحرى   بإمرته ، وأولى باللئام
لئـام الملك حين تعد قيس   ذوو الأخطار والهمم الجسام

لله أنت ياليلى من جريئة على الملوك ، شجاعة حين ترين ذلا أو إهانة ، ولقـد أرادت عاتـكة أن تتعـــالى عليك فى قصرها ، فزدت عليها تيهاً ، ووضعت من شأنها ، ومن شأن زوجها الخليفة أمامها ، وكأنك أنت زوجة خليفة أو إبنت خليفة المسلمين .

ليلى تسعى فى جمع كلمة المسلمين

واحتلت ليلى مكانة كبيرة فى البادية وفى غير البادية ، وبعد وفادة لها على عبدالملك ابن مروان عام ٧٢ هـ ، سارت إلى خالد بن يزيد بن معاوية ، فاحتفى بها ، واستقبلها بما يليق بمكانتها ، ثم كاشفها بما فى نفسه من أمل الزواج برملة بنت الزبير وخطوبتها ، وطلب منها أن تساعده على ذلك ، وأن تتعرف رأى أهلها ، بمساعدة عزة الميلاء المغنية فى ذلك ، فسارت ليلى من الشام ، وحملت معها هدية من خالد إلى عزة التى نزلت عليها بالمـدينة ، فى ربيع الآخر عام ٧٣ هـ ، ومكثت ليلى بالمدينة قليلا حيث قابلت سكينة بنت الحسين ، وحضرت مجالسها الأدبية ، وخرجت ليلى بعد ذلك إلى مكة واجتازت جيش الحجاج وهو خارج مكة فى حصارها ، ثم دخلت على ابن الزبير ، ونزلت على والدته ذات النطـاقين بنت الصديق ، والظاهر أنها لم تجد الفرصة سانحة لتفاتح عبدالله بن الزبير فى خطوبة خالد لأخته رملة ، فأخذت تسعى فى الصلح بين ابن الزبير والحجاج ، ولـكنها فشلت ، فخرجت من مكة وأقامت فى جيش الحجاج حينا ثم سارت إلى البادية ،

وهى سفارة ضخمة ، يجب أن تحفظ لليلى فى سجل الشرف والفخر والخلود ، وما أعظمها من سفارة لو تم بها على يد ليلى الصلح بين المسلمين ، وجمع وحدتهم ، ولـكن على المرء أن يسعى وليس عليه إدراك النجاح .

ليـــلى والحجاج

— ١ —

واستأذنت ليلى على الحجاج بمدينته واسط ، فأذن لها ، فدخلت ثم قعدت بين

يديه ، وهى مسنة حسنة الخلق ، من أجمل النساء ، طويلة القامة ، دعجاء العينين ، حسنة المشية ، جميلة المحيا ، ومعها جاريتان لها ، فسألها الحجاج عن نسبها ، فانتسبت له فقال لها : ياليلى ، ماأتى بك ؟ قالت : السلام على الأمير والقضاء لحقه ، والتعرض لمعروفه ؛ قال : وكيف خلفت قومك ؟ قالت : تركتهم فى خصب وأمن ودعة ، أما الخصب ففى الأموال والكلأ ، وأما الأمن فقد أمنهم الله عز وجل بك ، وأما الدعة فقد خامرهم من خوفك ماأصلح بينهم ؛ ثم أنشدته شعرها ؛ فقال الحجاج : لله بلادك ماأشعرها ؛ ثم جاء حاجبه ، فسمع شعر ليلى ، فقال : أيها الأمير هذه الشاعرة وجب حقها ، قال : ماأغناها عن شفاعتك ، ياغلام ، أعطها خمسمائة درهم ، واكسها خمسة أثواب ، وخذ بيدها فأدخلها على ابنة عمها هند ، — وكانت زوجة للحجاج — فقل لها : حلى ليلى بأغلى الحلى ، فقالت: أصلح الله الأمير ، أضر بنا عامل الصدقات ، فأخذ خيار المال ، فخربت بلادنا ، وانكسرت قلوبنا قال : اكتبوا لها الى الحكم ابن أيوب فليعطها خمسة جمال ، واكتبوا إلى اليمامة بعزل عامل الصدقات الذى اشتكت منه ليلى ، وخرجت ليلى فوصلها حاجب الحجاج بأربعمائة درهم ، ووصلتها هند بثلاثمائة ، ووصلها محمد بن الحجاج بوصيفتين ، وسارت وقد قضيت حاجاتها جميعا .

— ٢ —

واستأذنت ليلى على الحجاج فأذن لها ، فدخلت فسألها الحجاج عن نسبها فانتسبت له فقال لها : ما أتى بك ياليلى ؟ قالت : إخلاف النجوم ، وقلة الغيوم ، وكلب البرد ، وشدة الجهد ، وكنت لنا بعد الله الرفد ؛ فقال لها : صفى الفجاج قالت : الفجاج مغبرة والأرض مقشعرة ، والناس مسنتون ، رحمة الله يرجون وأصابتنا سنة مجحفة ، أذهبت الأموال ومزقت الرجال ، وأهلكت العيال ، ثم أنشأت تقول :

أحجاج لايفلل سلاحك إنها الـ ... ـمنايا بكف الله حيث يراها
أحجاج لاتعطى العصاة مناهم ... ولا الله يعطى للعصاة مناها
إذا هبط الحجاج أرضا مريضة ... تتبع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذى بها ... غلام إذا هز القناة سقاها

فقال الحجاج : قاتلها الله ! والله ماأصاب صفتى شاعر منذ دخلت العراق غيرها ثم التفت اليها وقال : حسبك قالت : إنى قلت أكثر من هذا ، قال : حسبك ويحك

حسبك ، ثم قال : ياغلام ، اذهب بها إلى فلان فقل له : اقطع لسانها . فذهب بها ، فقال له : يقول لك الأمير : اقطع لسانها ، فأمر بإحضار الحجام ، فالتفتت إليه ليلى فقالت: ثكلتك أمك ، إنما أمر أن تقطع لسانى بالصلة . فبعث اليه يستنبئهفاستشاط الحجاج غضبا ، وهم بقطع لسانه ، وقال : ارددها ، فلما دخلت عليه قالت : كاد والله أن يقطع مقولى ، ثم أنشأت تقول :

أحجاج أنت الذى ما فوقه أحد   إلا الخليفــــة والمستغفر الصمد
أحجاج أنت شهاب الحرب إن لقحت   وأنت للناس نور فى الدجى يقد

ثم أقبل الحجاج على جلسائه فقال : أتدرون من هذه ؟ قالوا لا والله أيها الأمير ، إنا لم نر قط أفصح لسانا ولا أحسن محاورة ، ولا أملح وجها ، ولا أرصن شعراً منها ، قال : هذه ليلى الأخيلية التى مات توبة الخفاجى من حبها ، ثم التفت اليها فقال : أنشدينا يا ليلى بعض ما قال فيك توبة ، قالت : نعم أيها الأمير وأنشدته قصيدته :

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت   على ودونى جندل وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة أو زقا   إليها صدى من جانب القبر صائح

فقال : زيدينا من شعره يا ليلى ، فأنشدته :

حمامة بطن الواديين ترنمى   سقاك من الغر الغوادى مطيرها

إلى آخر القصيدة ، فقال الحجاج ؛ ياليلى ، وما الذى رابه من سفورك حيث يقول:

وكنت إذا ما جئت ليلى تبرقعت   فقد رابنى منها الغداة سفورها

فأخبرته بقصة البيت التى سبق ذكرها ، فقال الحجاج : لله درك فهل رأيت منه شيئا فكرهته ؟ فقالت : لا والذى أسأله أن يصلحك غير أنه قال مرة قولا ظننت أنه قد خضع فيه لبعض الأمر ، فقلت له :

وذى حاجة قلنا له : لا تبح بها   فليس إليها ـ ما حييت ـ سبيل
لنا صاحب لا ينبغى أن نخونه   وأنت لأخرى صاحب وخليل

فلا والله ما رأيت منه شيئاً حتى فرق الموت بينى وبينه ، قال ثم مه ، قالت : ثم لم يلبث أن مات فأتانا نعيه ، فقال : أنشدينا بعض مراثيك فيه ، فأخذت تنشده : فقال أحد جلساء الحجاج : من الذى تقول هذه هذا فيه ؟ فوالله إنى لأظنها كاذبة ، فنظرت إليه ، ثم قالت : أيها الأمير ، إن هذا القائل لو رأى توبة لسره ألا تكون فى داره جارية عذراء إلا وهى حامل منه ، فقال الحجاج هذا وأبيك الجواب ، وقد كنت عنه غنيا ، ثم قال لها : سلى ياليلى تعطى ، قالت : اعط ، فمثلك أعطى فأحسن

قال : لك عشرون ، قالت: زد ، فثلك زادفأجمل — قال : لك أربعون ، قالت زد فثلك زاد فأكمل — قال لك ثمانون ، قالت: زد فثلك زاد فتمم — قال لك مائة واعلمى يا ليلى أنها غنم ، قالت : معاذ الله أيها الأمير ، أنت أجود جودا وأمجد مجدا وأورى زنداً من أن تجعلها غنما قال : فما هى ؟ ويحك يا ليلى ، قالت مائة من الابل برعاتها ، فأمرلها بها . ثم قال : ألك حاجة بعدها ؟ قالت : تدفع إلى النابغة الجعدى وقد كان يهجوها وتهجوه ، قال : قد فعلت . فبلغ النابغة ذلك فخرج هارباً ، عائذاً بعبد الملك ، فاتبعته إلى الشام ، فهرب إلى قتيبة بن مسلم بخراسان ، فاتبعته على البريد بكتاب الحجاج إلى قتيبة .

ليلى وشخصيتها

مجد ليلى :

عاشت ليلى بين مجد قومها ، وحسب عشيرتها . ثم أحبها توبة وأحبته ، فوفت لعهد حبه وفاء ياله من وفاء ، ثم تزوجت سوارا وعاشت معه فى ظلال الزوجية الكريمة . . . عاشت ليلى وهى تزداد على الأيام كهولة وشيخوخة ، ولكنها تزداد تجربة للحياة وخبرة بها ، وفهما لها ، وتزداد مجدا فى عشيرتها وفى بيئتها ، وفى قصور الولاة والأمراء والخلفاء ، وجمعت إلى ذلك الشعر والأدب والفصاحة والبلاغة ، حتى صارت الشخصية الاولى البارزة فى حياة الصحراء فى القرن الاول ، بل صارت لا يضارعها فى مكانها الضخم فى المجتمع البدوى إنسان . لقد صارت ليلى حياة البادية ونشيد الصحراء .

لقد كانت شخصية ليلى فى شبابها الناضر ، وكهولتها الرائعة ، شخصية قوية ، أحدثت دويا وأثراً واضحاً فى الحياة ، وكانت هى الصورة الواضحة للبادية بكل ما تشتمل عليه كلمة البادية من معان ، وهى البادية كلها بكل ما اتسع له قلبها من خلق ، وهى الشاعرة الاولى التى تنطق بمجد الصحراء ، وحياتها الروحية .. عاشت الخنساء قبلها شاعرة وأما ، أما ليلى فكانت فوق ذلك بطلة فى كل ناحية من نواحى الحياة ، وفى كل لون من ألوان النشاط الاجتماعى فيها ، فلها جولاتها فى الادب ، وفى حياة قومها ومجتمعها ، وفى كل ما كان يغمر جو البادية من آلام وآمال .

ليلى ملكة كريمة :

وأظهر خصائص شخصية ليلى هى هذه الروح الملائكية الكريمة ، بما تشتمل

عليه من حب وحنان وعاطفة طاهرة ، وشعور نبيل ، ووجدان حى ، ومن إيثار وخير ورحمة وبر بالناس .

أما حنانها وحبها فهما مضرب الامثال ، أحبت توبة فوفت له ولحبه أروع وفاء وأحبت قومها فضحت بعواطفها وسعادتها وحياتها فى سبيل كرامتهم وتقاليدهم الموروثة ، ومنزلتهم الادبية بين أحياء العرب جميعا ، ثم ناضلت عنهم خصومهم ، ونطقت بحاجاتهم وأمانيهم عند الولاة وفى قصور الخلفاء ، وهى فى حبها لقومها تسمو بهذا الحب وترتفع به حتى تخص به قبائل قيس كافة ، وتجعله للقيسيين جميعاً ، يتجلى ذلك فى مظهره الواضح ، فى وفادتها على الحجاج ، حدثها وحدثته ، وسألها فأنشدته ، ولما انتهيا من الحديث والحوار ، قال لها الحجاج . أى نسائى يا ليلى تحبين أن تنزلى فى ضيافتها ؟ قالت : ومن نساؤك أيها الامير؟ قال أم الجلاس الاموية ، وهند بنت أسماء الفزارية ، وهند بنت المهلب القيسية . قالت ليلى : القيسية أحب إلى أيها الامير ، قال الحجاج : أنت ومن تؤثرين ، فكانت ضيفاً على هند مدة إقامتها فى « واسط » مدينة الحجاج وعاصمه ملكه الواسع ، وإمارته الضخمة .

وأما برها وإيثارها وما فطرت عليه من رحمة وخير ، فقد كان مما يكمل شخصية ليلى ويرتفع بها عن مستوى الناس ، أثرت ليلى ثراء بعيداً مما تدفق عليها من مال زوجها وقومها ، ومن هدايا الولاة والامراء والخلفاء إليها ، ولكنها فى هذه الثروة الواسعة كانت ينبوع الخير فى أرض البادية الجدبة ، وكانت سحابة الرحمة فى أفقها الجهام ، لم تكنز مالا ، ولم تدخر شيئا ، ولكنها كانت تؤثر بما لها البؤساء فى البادية ، وتخفف به عبء الحياة عن سكانها المحرومين .

وعاشت ليلى لا لنفسها فحسب ، ولكنها عاشت قبل كل شىء لاهلها ومواطنيها فشقيت لينعم الناس ، وتعبت وكدحت ليكون ثمار تعبها وكدحها فى سبيل الله والخير والاحسان .

اعتزازها بشخصيتها :

والثقة بالنفس ، والاعتزاز بالشخصية ، والسمو بها إلى حد بعيد ، كانت سمة غالبة على ليلى وأخلاقها . لم تسمح لأحد أن يهين كرامتها ، حتى لقد عنفت عبد الملك الخليفة الاموى العظيم ، وعنفت زوجه عاتكة أمامه ، وجابهت سواه من الخلفاء والولاة وكبار الشخصيات ، بما لم يكن يجابههم به إنسان . وبينما معاوية الخليفة يسير

فى ضواحى دمشق الهادئة ، إذ رأى فارساً ملثما راكباً على جواد كريم ، فقال لبعض حرسه وجنوده : ايتنى بهذا الفارس ، وإياك أن تروعه ، فأتاه فقال : أجب أمير المؤمنين ، فقال الفارس : واياه أردت، فلما دنا الفارس حسر لثامه ، فإذا ليلى الاخيلية فسلمت عليه وحيته ، فبالغ فى الاحتفاء بها ، ثم قال: ماحاجتك ياليلى ؟ فردت عليه : ليس مثلى يطلب الى مثلك حاجة ، فأعطاها خمسين من الابل .

كلمة إباء وكرامة واعتداد بالنفس عرفت به ليلى، وخرجت ليلى من لدن معاوية وهى تقول فيه من قصيدة :

وكنت المرتجى . وبك استعاذت لتنعشها ، اذا بخل السحاب

وقد سبق ذكر تعنيفها لأحد جلساء الحجاج حين قال لها: ما أظنك الا كاذبة فيما تصفين به توبة ، حتى لقد قال له الحجاج : ما كان أغناك عن هذا الجواب .

ودخلت ليلى على عبد الملك ، وقد أسنت ، فقال لها : ما الذى أحبه منك توبة يا ليلى ؟ قالت ما أحبه الناس منك حين ولوك الخلافة ، فأغرق عبد الملك فى الضحك

وهكذا كانت جريئة شجاعة صادقة لاتهاب ولاتخاف ولا تتلعثم . وكان يدفعها الى هذا الاعتزاز البعيد بشخصيتها مجدها وحسبها ومكانتها ، وأدبها وشعرها وفصاحتها وجمالها وسحرها وفتنتها .

خبرتها بالحياة :

وكانت ليلى واسعة الخبرة بالحياة والناس ، بما اكتسبت — فى حياتها فى البادية وفى رحلاتها وجوبها البلاد والقفار — من تجارب ، وأفادت من عظات ودروس ، مما أنضج شخصيتها وسما بمكانتها فى مجتمعها الى الذروة .

سألها معاوية ، فى وفادتها عليه ، عن قبائل مضر ، فقالت: فاخر بمضر ، وحارب بقيس ، وكاثر بتميم ، وناظر بأسد ، فأعجب معاوية بكلامها أى اعجاب .

وكانت نشأتها وثقافتها الادبية الواسعة الملمة بأيام العرب وأخبارها وأنسابها وأشعارها ، وشاعريتها القوية ، ووفادتها على الولاة والخلفاء ، كان ذلك كله مما أمد ليلى بخبرتها الواسعة ، ومما زادها تجربة فى الحياة ، وجعلها فى نضـــوج عقلى وفكرى واسع .

مرحها وابتسامتها للحياة :

وليلى مع ماقاسته من آلام الحياة ، وأحداث العيش ، ومحن الأيام ، ومن فشلها فى حبها وإخفاقها فى إدراك سعادتها الروحية .

كانت مع ذلك كله مرحة فى الحياة ، تضحك فى وجهها العابس ، وتحلق فى جوها المكفهر بجناح من البشر والأمل والرجاء ، وكانت محتفلة بالحياة ، لا لنفسها ولا للذات الحياة ، ولكن لترفه عن قومها شدائد الحياة ولتخفف عن البدويين عبئها الشديد .

فهى مع ما كانت تشعر به فى قرارة نفسها من شقاء ، لم تزهد فى الحياة ولم تعبس فى وجه الأيام ، ولكنها كانت دائما مبتسمة ضاحكة فوفدت على الخلفاء الأمويين ، وعلى ولاة وأمراء الأقاليم ، وتمتعت بمباهج الحياة ونعيمها .

لم تكن كالخنساء ولم تعش عيشة الخنساء متبتلة فى حزنها وعبوسها وشقائها ، وزاهدة فى الحياة ومافيها ، ولكنها اقتحمت الميدان وخاضت المعركة ، معركة الحياة بقلب جرىء وبطولة نادرة .

ليلى الزوجة :

وليلى الزوجة ، هى ليلى المخلصة لشرفها وكرامة زوجها ، والمحافظة على شرفه وشرفها المقدس .

لم تسمح لتوبة أن يقبل يدها لأنها كما قالت :

لنا صاحب لاينبغى أن نخونه

وسمعت الناس يتناشدون شعراً لتوبة ، يصف فيه دخوله عليها خباء زوجها ، وحرم الزوجية المقدس ، فارتقبته حتى علمت بموعد قدومه لزيارتها فأخفت فى المكان الذى التقيا فيه ثلاثة أشخاص ، فلما حضر قالت : ياتوبة ، أنت الذى تقول هذا ، أعلى سبيل الحقيقة تقول ؟ قال : والله يا ليلى ماقلته الا على سبيل الاستطراد والخيال ، وكما يقول الشعراء ، قالت : فانصرف موفورا ، وقالت لهؤلاء الرجال : هل سمعتم ماقال توبة ؟ قالوا : ماقال إلا خيراً ، ومانظنه أراد ياليلى منك شرا قط .

نعم أحبت ليلى توبة ، ووفت له ولحبه لأن القلوب بيد الله ، ولأن هذه الانسانية السامية لا يستطيع أن يحجر عليها إنسان ، فهى كالطبيعة ومظاهرها مشاعة بين الناس ، هى كالماء والهواء والنور والضياء ؛ لتحب ليلى ماتشاء ، ولتمنح عواطفها من تشاء ، ولكن لتظل دائما الوفية الأمينة لشرفها وشرف زوجها ، ولحياة الزوجية المقدسة

ولرباطها الوثيق الطاهر ، ولتذد ليلى عن حرم هذه الزوجية القدسى ، وذلك هو مافعلته ليلى ، وما ضحت فى سبيله بكل شىء ،

وكذلك كان توبة ، زوجه قومه بعد زواج ليلى ، رغما عنه ، إشفاقاً بصحته ، وحياته ، ووفى توبة لهذه الزوجية المقدسة ، ولكنه ظل دائما الوفى الأمين لعهد ليلى وذكريات حبها العذرى البرىء .

ليلى والأمومة :

والأمومة وعواطفها وحنانها وحسن قيامها بواجبات الطفولة والأبناء واضحة ملموسة فى ليلى وشخصيتها الاجتماعية .

لما وفدت ليلى على الحجاج ، ومعها ولدها - كما فى العقد الفريد - أعجب بما رأى من شبابه ، فسألها عنه ، وعن كيفية تربيتها له ، فقالت له ليلى : إنى أيها الأمير لم أحمل به فى آثار الحيض ، ولم أضعه منكسا ولا أرضعته لبنا فاسدا ، ولا أنمته مستوحشا باكيا .

ذلك يدل على عناية ليلى بأبنائها ، ورعايتها لهم منتهى الرعاية ، وإحاطتهم بكل ألوان العناية ، وحسن علمها بواجبات الطفولة ، ووسائل تربية الأطفال ، حتى ينشأوا نشأة قوية ، ويكونوا رجالا بارزين ، وشبابا أقوياء نابهين .

وهكذا كانت ليلى وشخصيتها القوية الواضحة فى الحياة .

ليلى فى الأدب العربى

مجدها الأدبى :

بلغت ليلى فى الأدب منزلة كبيرة ، ونالت من المجد الأدبى مالم ينله كثير من شعراء البادية وفصحائها .

فهى شاعرة تبذ الشعراء وتغلبهم فى ميدان البلاغات ، وتأخذ دونهم قصب السبق يوم الرهان ، وشعرها الباقى والمفقود منه مظهر شاعريتها .

وهى راجزة تغلب الرجال فى الرجز ، وتباريهم فى ميدانه . وهى محدثة لبقة ، ومحاورة بليغة ، وخطيبة فصيحة ، كما يتجلى لك من كلامها فى مجالس الولاة والأمراء والخلفاء .

وحسبك إعجاب الحجاج ببلاغتها ، وتقديره لفصاحتها وشعرها ، وروعة حديثها ، فهو تقدير ينم عن مكانة ليلى الأدبية ، أو لبس الحجاج هو الخطيب المؤثر والبليغ الساحر ، والعربى الفصيح الذى يسحره البيان ، وتشدهه البلاغة ، ويملك

عليه عواطفه ومشاعره بلاغة القول ، وجودة التعبير .

حقا لقد كان مجد ليلى الأدبي في عصرها وبعد عصرها واضحا ملموسا ، اعترف به الشعراء ، وأقر به النقاد ، وسارت بذكره أسفار الأدب ، وكتب النقد ، مما سنفصله الآن .

ثقافتها الأدبية :

وثقافة ليلى الأدبية استمدتها من بيئتها نفسها ، فقد عاشت في البادية موطن البلاغة والشعر ، وسمعت من أفواه الأدباء والشعراء والبلغاء ، وعاشرتهم واتصلت بهم بما قوى ملكاتها ، وصقل طبعها ، وقوم ذوقها ، فنشأت أديبة مفطورة على الأدب والشعر والبيان .

كانت فصيحة شاعرة مقدمة ، حافظة لأنساب العرب وأيامهم وأشعارهم ، وكانت بليغة اللسان ، ساحرة البيان ، تملك زمام الإجادة في كل فن ومذهب ،

ليلى الخطيبة :

وكانت ليلى خطيبة مؤثرة ، يقدمها قومها في حاجاتهم عند الولاة والخلفاء ، فتنطق بالسداد ، ويمدها الإلهام والفطرة والطبع بفيض من البلاغة ، تصور لك الأشياء تصويراً بارعاً ، وتؤثر في نفسك تأثيراً قويا ، وتدعك مؤمناً برأيها وفكرتها .

وخطب ليلى ومحاضراتها وأحاديثها وسمرها عند الأمراء ، وفي قصور الخلفاء تنم عن روح مطبوعة على البيان والخطابة والبلاغة .

ولا عجب في ذلك ، فالبادية بما فيها من بلاغات ، وليلى بما فطرت عليه من شجاعة وجرأة ، وصراحة وقوة وصدق ، وما كانت فيه من حسب ومجد وقوة شخصية ، وما اتسمت به من جمال وسحر ، كل ذلك كان يبعث في ليلى روح الخطابة ويمدها ببلاغاتها ،

وقد ربى الاسلام روح الشجاعة والقوة في المرأة العربية ، لذلك نجدها تقف مواقف كريمة يتدفق من لسانها السحر والبيان ، ويروعك منها في خطبها جهارة الرأي وصدق اليقين والحماسة الغالية لما تعتقد من فكرة .

وكانت النساء اللواتي يتشيعن لعلي يدخلن على معاوية وهو على سرير ملكه ، والجند المدججون بالسلاح من حوله فيعنفنه ، ويواجهنه بالقول الجارح والحجة

الدامغة فإذا اتفق لإحداهن أن تطلب حاجة ، فإنما تطلبها فى عزة وكبرياء وأنفة ، دونها عزة الملك وشمم العظماء .

وهكذا كانت ليلى جريئة الجنان ، بليغة اللسان ، ساحرة البيان ، مؤثرة فى خطابتها وحجتها ، كما رأيتها فى بلاط معاوية ، ومجلس مروان أمام عبد الملك ، وبين يدى الحجاج .

وكانت ليلى تتكلم بلغة بهراء فتكسر حرف المضارعة (١) وهى لهجة عربية مشهورة .

ليلى وشاعريتها

مظاهر شاعريتها :

ولقد كانت ليلى شاعرة مجيدة ساحرة ، بل كانت شاعرة البادية ، ومصدر الالهام فى الصحراء .

تتجلى هذه الشاعرية القوية البارزة ، فى نسيبها المرح ، وفى مراثيها الخالدة لتوبة ، وأوصافها لبطولته وشجاعته ، وفى مدائحها للخلفاء والأمراء مما مر الكثير منه والاشارة إلى مصادره .

كما تتجلى فى أهاجيها للقبائل والشعراء ، وفى فخرها بنفسها وقومها وعشيرتها مما دونت أسفار الأدب بعضه ، وفقد تاريخنا الأدبى باقيه .

وهى التى تقول تفتخر بقومها :

نحن الأخايل لايزال غلامنا　　حتى يدب على العصا مذكورا
تبكى السيوف إذا فقدن أكفنا　　جزعا ، وتعلمنا الرفاق بحورا

إلى آخر هذه الأبيات وقد سبق ذكرها .

ولها تمدح بعض أبطال قومها العامريين من قصيدة طويلة :

لاتغزون الدهر آل مطرف　　لا ظالماً أبداً ولا مظلوما
قوم رباط الخيل وسط بيوتهم　　وأسنة زرق تخال نجوما
ومخرق عنه القميص تخاله　　وسط البيوت من الحياة سقيما
حتى إذا رفع اللواء رأيته　　تحت اللواء على الخميس زعيما

إلى غير ذلك من الآثار القليلة الباقية من شعرها .

---

(١) ٤/٦٩ شرح الشريشى للمقامات ـ نشر محمد عبدالمنعم خفاجى

بواعث شاعريتها :

ورثت ليلى الشعر عن أسرتها الشاعرة ، ونمى فى نفسها روح الشاعرية جو البادية الشاعر ، وهذا السمو الروحى الذى يشيع فى آفاق الصحراء ، خلقاً وعواطف ومشاعر ووجدنات كريمة مهذبة .

ثم صقلت هذه الشاعرية بلاغة البادية ، وملكات الناشئين فيها القوية ، وماطبعوا عليه من فصاحة وبيان .

ثم كان حبها الخالد لتوبة ، ووفاؤها له مما فجر ينابيع الشاعرية فى صدرها وأوحى اليها برائع الأناشيد ، وساحر المقطوعات ، وبليغ القصائد .

ثم كانت عواطفها القوية ، واعتزازها البالغ بشخصيتها ، وشعورها بالعظمة من بواعث الشعر فى صدرها .

وكانت حاجات البادية ، وحاجات المعيشة الملحة فيها ، سببا من أسباب قوة شاعريتها وكذلك هذه الخصومات الأدبية بين ليلى والشعراء ، كانت عاملا كبير الأثر فى شاعريتها وحياتها الفنية والأدبية جميعا .

ومصرع توبة الدامى ، ومقتله الأليم أثارت الذكريات الهادئة الكامنة فى قلب ليلى ، وهيج روح الشاعرية فى طبعها ونفسها وملكاتها . وهكذا كانت شاعرية ليلى متعددة البواعث والأسباب .

خصائص شاعريتها :

وخصائص شاعرية ليلى تبدو واضحة فى هذه العاطفة القوية المتأججة ، وفى هذا الصدق ، وتلك السذاجة البريئة فى التعبير والأداء ، وفى هذا الأسلوب القوى المتين وهذه الألفاظ التى تسلس أحيانا ، وتسير فى تيار الحوشية والغرابة تارة أخرى . كما تبدو فى إصابتها لما تنشده من أغراض وأهداف ، وفى نظرتها البعيدة وتحليلها الدقيق للأشخاص الذين تتناولهم فى شعرها ، حتى لقد قال الحجاج : والله ما أصاب صفتى شاعر منذ دخلت العراق سواها ، كما تمتاز بقوة التأثير وبالجزالة والروعة ، وببدوية المعانى والأسلوب .

وشعرها فى أغراضه يجمع بين الغزل والمدح والهجاء والرثاء والفخر والحكمة ، مما سبق الاشارة إلى الكثير منه فيما مضى من البحوث .

النسيب فى شعر ليلى وتوبة :

والنسيب فى شعر ليلى قليل جدا ، وهو فى شعر توبة كثير ، وتجد بعض نماذج منه

من شعر ليلى فى شاعرات العرب ، ولقد كان غزل توبة غزلا روحيا ، فيه هيام بالحب للحب وتقديس للجمال لنفس الجمال ، وفيه تصوف روحى ، وإيثار للتضحية فى سبيل هذا الحب والوفاء له ، لقد كان حب توبة لليلى حبا عذريا بريئا لا إثم فيه ولا دنس ، ولا متعة من متع الجسد والشيطان :

على دماء البدن إن كان زوجها يرى لى ذنبا غير أنى أزورها
وأنى إذا مازرتها قلت : يا اسلمى فهل كان فى قول اسلمى مايضيرها

وغزله وصف فيه توبة محبوبته وجمالها وهيامه بها ، أما نسيب ليلى فى توبة فقد مضت نماذج منه فيما أنشدته ليلى أمام الخلفاء من شعر لها فى توبة يكاد يكون إلى المدح أقرب ، ويشبه بعض الأدباء ليلى بسافو شاعرة الاغريق فى الزمن القديم ، منذ خمسة وعشرين قرناً . ولكن سافو تمتاز بهذا الغزل الصارخ الذى لا تعرفه البدويات الخفرات ، فشتان بين ثورة العاطفة الجامحة الملتهبة ونشدان اللذة فى الحب ، كما ترى فى شعر سافو وبين هذا الغزل العذرى الذى كانت تتغنى به ليلى ، فتتغنى به معها الصحراء .

وإن كانت منزلة سافو فى عصرها ، ومكانة ليلى فى البادية العربية ، يكادان يرتفعان إلى مستوى واحد ، وينزلان منزلة واحدة . ومن الغريب أن شعر ليلى وتوبة ينبعان من منبع واحد ، ويسيران فى جدول واحد ، ويتشابهان فى كثير من خصائص الشعر ومميزاته ، وفى كثير من بواعثه وأسبابه ، وذلك لاتحاد النشأة والبيئة والعواطف ، وتأثرهما بمؤثرات واحدة فى الأدب والحياة ، فكان شعرهما قريباً من بعض فى الروح والمعانى ، والاساليب والجزالة والسذاجة والوضوح ، والعاطفة القوية ، والهيام الروحى فى الحب والوفاء له ، إلى غير ذلك من مظاهر هذا التشابه الغريب .

الرثاء فى شعر ليلى :

وقد قصرته ليلى على رثاء توبة ، وتعداد فضائله ومظاهر بطولته ونبله وتصوير مصرعه والتنديد بقاتليه وذكر مجده فى نفسه وأدبه وحسبه ، وفداحة المصاب فيه ، وتوشيه أحياناً بلون من الحكمة تعزى بها نفسها فيه :

ومن كان مما يحدث الدهر جازعاً فلا بد يوما أن يرى وهو صابر
وكل شباب أو جديد إلى البلى وكل امرىء يوما إلى الله صائر
وكل قرينى ألفة لتفرق شتاتاً ، وإن ضنا وطال التعاشر

ويمتاز رثاء ليلى بطوله والتهاب مافيه من عاطفة ، وبقوته وجزالته ، وأثر الحزن والوفاء فى نفس ناظمته . وقد مضى عرض موجز لأهم قصائد ليلى فى الرثاء .

ويغنينا ذلك عن تحليل جميع أغراض ليلى الشعرية فى هذا المقام .

ليلى ومنزلتها فى الشعر والنقد

مدى هذه المنزلة :

ذاعت شهرة ليلى الأدبية ، ومنزلتها فى الشعر ، وارتفعت مكانتها فيه . ولا عجب فى ذلك فقد احتلت ليلى مكانها الأدبى الممتاز بين خصومات أدبية متعددة ، وبعد أن غلبت جميع منافسيها من الشعراء فى البادية .

غلبت النابغة الجعدى الشاعر وسواه من الشعراء ، واحتكم إليها الشعراء فى خصوماتهم الفنية ، وأقروا بحكمها ، واعترف بمنزلتها فى الشعر الأمراء والخلفاء ، وهم أئمة البلاغة والبيان ، كما اعترف بها النقاد مما سنفصل القول فيه .

ليلى يحتكم إليها الشعراء :

لم تكن ليلى شاعرة فحسب ، بل كانت تشعر وتنقد ، وتعمل ذوقها وطبعها فى تهذيب الشعر والتأنق فيه . وعرف الشعراء ذوقها فى الشعر فاحتكموا إليها يرضون بحكومتها الأدبية فيما شجر بينهم من خلاف .

اجتمع حميد بن ثور الشاعر ، ومزاحم العقيلى ، والعجير السلولى ، والعباس الكندى ، وأوس الهجيمى ، وكلهم من شعراء البادية ، فمرت بهم قطاة فأجمعوا على وصفها ، ونظم كل منهم قصيدة فى هذا الفن ، ثم اختلفوا فى أيهم أبلغ كلاما ، وأحسن وصفا فاحتكموا إلى ليلى وأنشدها كل منهم ما قال ، ففضلت السلولى عليهم جميعاً لإجادته وقالت فى ذلك :

ألا كل ما قال الرواة وأنشدوا ... بها غير ما قال السلولى بهرج

ليلى تناضل النابغة الجعدى :

ومن العجب أن تشترك ليلى فى الخصومات الأدبية التى كانت تثور بين شعراء البادية ، وأن تنتصر فى هذا المجال على فحول الشعراء انتصاراً كبيرا حافلا . أليست هى التى انتصرت على النابغة الجعدى الشاعر ، وأفحمته وغلبته فى ميدان القول والبيان ، فقد هاجت النابغة وغلبته فى الهجاء . وتفصيل ذلك : أن بنى وائل القيسيين قتلوا رجلا من بنى جعدة القيسيين — أيضا — قوم النابغة الجعدى الشاعر النابه البليغ ، فطالب بنو جعدة بدمهم من الوائليين ، فلاذ الوائليون بعقاب بن خويلد العقيلى واستجاروا

به ، فأجارهم ونافح عنهم ، وصار من المتعذر على الجعديين أن ينالوا من خصومهم بعد ذلك منالا .

ثار الجعديون وثار شاعرهم النابغة فنطق بما يجيش فى صدره وصدر قومه من حزن وألم ، وبكاء ورثاء وإشفاق على عقال أن يقوده طغيانه إلى مصير أمثاله من الطغاة ، ولكن عقالا رد فى كبرياء على النابغة فأفحمه وأسكته ، ولم يغن النابغة وشعره شيئا . ووقف العقيليون إلى جانب عقال يؤازرونه فى خصومته للجعديين ، وهب شعراؤهم ينتصرون لمجدهم الذى حاول النابغة أن يشوهه وكان من هؤلاء الشعراء الذين ردوا على النابغة سوار بن أوفى القشيرى زوج ليلى ، نظم سوار قصيدة من قصائده يهجو فيها النابغة وقومه وأخواله فرد عليه النابغة بقصيدة هجا فيها سوارا وقوم سوار من القشيريين والعقيليين ، فرد عليه سوار ، وتفاقم بين الشاعرين الهجاء .

وكان لابد لليلى أن تتقدم الصفوف فى ميدان هذه الخصومة ، فدخلت بين سوار والنابغة تناضل النابغة بشعرها الساحر ، وقصائدها البليغة ، وتدافع عن سوار وقوم سوار جميعا ، أنشدت ليلى قصيدتها :

وما كنت لو فارقت جل عشيرتى لأذكر مجداً بائداً قد تبهلا

فأجابها النابغة بقصيدته :

ألا حييا ليلى ، وقولا لها هلا فقد ركبت أمرا أغر محجلا

فردت عليه ليلى بقصيدتها :

أنابغ لم تنبغ ولم تك أولا

وتطاير شرر الهجاء بين ليلى والنابغة ، فأقامت ليلى تهاجيه حتى أفحمته ولم يستطع أن يجاريها فى ميدان الشعر والبيان . واجتمع الجعديون على أن يرفعوا أمرهم إلى أمير المدينة أو الخليفة الاموى بدمشق ليأخذ لهم بحقهم من ليلى التى شتمت أعراضهم ، ورمتهم بآبدة من لسانها ووصمتهم بوصمة الخزى والعار بين أحياء العرب وسلبتهم مآثرهم ومآثر قومهم التليدة وشوهت ذكريات مجدهم طول الأحقاب . وبلغ الأمر ليلى ، فتهكمت بهم تهكما مريرا فى قصيدتها التى تقول فيها :

أتانى من الأنباء أن عشيرة (بشوران) يزجون المطى المذللا

يروح ويغدو وفدهم بصحيفة ليستجلدوا لى ، ساء ذلك معملا

فخشى القوم شرها ، وسكتوا عنها . وظلت ليلى تناضل النابغة حتى وفدت على الحجاج ، فسألته أن يدفع إليها النابغة ، فأجابها الحجاج إلى طلبها ، فخرج النابغة من البادية

عائذا بعبد الملك بن مروان بالشام ، فتبعته ليلى بكتاب الحجاج ، فخاف النابغة أن تسحر عبد الملك ببلاغتها فيمضى كلمة الحجاج ، فهرب إلى خراسان ، فخرجت ليلى إلى خراسان ومعها كتاب الحجاج ، فتوفى الجعدى وهى فى الطريق نحو عام (٨٠ هـ) .

إعجاب الناس بشعرها :

وكان لشعر ليلى رنة من الطرب والسرور فى نفس ممدوحيها من الوزراء والأمراء ، ورواه الناس فى البادية ورردده علماء الأدب ونقاده ، وأثنى عليه الأدباء والشعراء ثناء كبيرا . وحسبك أن الحجاج استنشدها شعرها ، وأنصت له ، وأعجب به ، والحجاج رابع ثلاثة كان لهم فى الأدب والبلاغة والبيان القدح المعلى .

ولما أنشدته ليلى قصيدتها التى تقول فيها :

إذا هبط الحجاج أرضا مريضة تتبع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العياء الذى بها غلام إذا هز القناة سقاها

قال لها الحجاج : لا تقولى : غلام ، وقولى همام . وهكذا أراد الحجاج ألا يسير شعر ليلى فيه إلا بعد أن يمثله فى قوته وبطشه ، وبعد همته ورفعته ، فنقدها هذا النقد الجميل ، ولكن ليلى لم تكن تريد هذا ، هى لا تريد أن تسرف فى مدحه ، والاشادة به ، لأنها لا تعرف الاسراف ، ولا تؤثر غير الصدق ، ولا ترهب أحدا ، ولأنها معتزة بنفسها وشخصيتها قبل كل شىء ، لا تريد ليلى أن تقول همام ، ولكنها نطقت بكلمة غلام لانها لا تريد غيرها ، ولا تبغى سواها :

ليلى والخنساء :

ورثت ليلى المجد الادبى الذى ناله الخنساء قبلها بزمن قليل . والخنساء فى حسبها ، وفى عشيرتها من بنى الشريد السلمى من القيسيين ، وفى جمالها وشاعريتها وشخصيتها ، كانت من أظهر شاعرات البادية فى أول عهد البادية بالإسلام ، وعدت زعيمة النساء الشاعرات ، لقوة شعرها ، وصدق شعورها مع جمال أسلوبها ، وسلاسة طبعها ، وعذوبة ملكاتها : حضرت سوق عكاظ وأنشدت فيه النابغة الذبيانى الذى كان الحكم بين الشعراء ، فقال لها : يا تماضر ، لولا أن الاعشى أنشدنى لقلت إنك أشعر هؤلاء الشعراء ، ثم احتلت بعد ذلك مكانها الممتاز فى الشعر ، حتى كان جرير إذا سئل : من أشعر الشعراء ؟ يقول : أنا لولا الخنساء ، وفضلها معاوية على الأخطل وكان بشار يقول فيها بعد : لم تقل سيدة الشعر إلا ظهر ضعفها فيه ، فقيل له : وكذلك الخنساء ؟ فقال : تلك غلبت الفحول .

وهكذا كان مجد الخنساء ، وذهبت شهرتها البعيدة فى الرثاء بعد نكبتها بقتل أخويها صخر ومعاوية ، إلى أن توفيت بالبادية (عام ٤٦ ﻫ) .

وورثت ليلى الاخيلية مكانة الخنساء ومجدها فى الشعر .

وذهبت ليلى والخنساء مثلين سائرين فى الشعر وجودته ، وفى صفاء الطبع وقوة الملكة وجمال الاسلوب ، وقوة العاطفة ، وامتازتا بالإجادة فى الرثاء . كانت الخنساء ترثى أخويها صخراً ومعاوية ، وما زالت كذلك فى الاسلام ، فأقبل أبناء عمها بها إلى عمر وهى كهلة مسنة ، فقالوا يا أمير المؤمنين ، هذه هى الخنساء قد قرحت آماقها من البكاء فى الجاهلية والاسلام ، فلو نهيتها لرجونا لها الخير فى مؤتنف حياتها ، فقال لها عمر : يا تماضر ، اتقى الله وأيقنى بالموت ، قالت : يا أمير المؤمنين أبكى أبى ومن مثل أبى ؟ وأبكى أخوى صخراً ومعاوية خير أبناء مضر . ومن مثل صخر ومعاوية بين الناس ؟ وإنى لموقنة بالفناء ، ولكنه بكاء ينم عن وفاء ، ويؤدى حق الرثاء لأعز الآباء ، ولأخوى فخر البادية . وكذلك كانت ليلى ترثى توبة فنهاها زوجها وحى زوجها وقومها وإخوتها عن الاسترسال فى البكاء ، فأبت أن تنسى عهد توبة طول حياتها . هكذا كانت ليلى والخنساء ، وليلى على أى حال تكمل هذا المجد الأدبى الذى بنته الخنساء لسيدات الصحراء .

كان فى البادية كثير من النساء الشاعرات فى عهد الخنساء وعهد ليلى ، كجمل وأم موسى الكلابية ، وريطة بنت العباس السلمى ، وبكارة الهلالية ، وليلى العامرية وأم الاسود الكلابية ، وجمل السلمية ، والخنساء بنت التيحان ، ومن قبلهن : ليلى العفيفة صاحبة البراق ، والتى تقول فيه بعد أن اغتصبها ملك فارس من أبيها :

ليت للبراق عينا فترى ما ألاقى من بلاء وعنا

حقا كانت البادية حافلة بالكثير من هؤلاء الشاعرات(١) ، ومع ذلك ، ومع كثرة هؤلاء الشاعرات فى البادية وفى الحياة فيها فى القرن الأول ، فإن الخنساء وليلى هما زعيمتا هذه النهضة الادبية التى اهتزت بها أرجاء البادية فى ذلك الحين .

وأثر ليلى فى هذه النهضة الأدبية التى كللت هامة المرأة العربية بالفخار ، أثر واضح فذ ، لا يشبهه إلا أثر الخنساء التى غرست بذور هذه النهضة الادبية النسوية فى البادية . فلقد كانت ليلى من النساء المتقدمات فى الشعر من شعراء الاسلام ، بل هى من أشعر النساء لا يقدر عليها إلا الخنساء ، « وكانت ليلى والخنساء متميزتين فى

---

(١) راجع شاعرات العرب .

أشعارهما ، متقدمتين لاكثر الفحول ، وربامرأة تتقدم فيصناعةوقلما يكونذلك ، وكانالأصمعي العالم الناقد المعروف يقدمليلى الأخيلية ، وقال أبوزيد العالم الناقد المشهور : ليلى أكثرتصرفا ، وأغزربحرا ، وأقوى لفظا ، والخنساء أذهب عموداً فيالرثاء . وإن كان بعضالنقاد يقدم الخنساء ونحنلانرى الخنساء وليلى إلاجنديين في ميدان الادب والنضال في سبيله ، سجلت لها الايام أعظم الانتصارات .

إنا لا نذهب الى ما يذهب اليه هؤلاء وأولئك النقاد ، ولكننا نقول : إن مجد الخنساء الأدبي لا يضارعه إلا مجد ليلى ، ومجد ليلى لا يضارعه إلا مجد الخنساء .

الأدبالنسوي في البادية :

وأخيراً فهذا الادب النسوي الذيملأ البادية في القرن الاول ، هوالذي ملأها إلهاما صادقاً ، وعواطف كريمة ، وأشاع فيها حياة القوة والمرح معا ، ونفخ فيشبابها روح الجد والمجد ، وحفزهم الى إظهاربطولتهم في شتىنواحيالحياة ، وعلىالاخص في ميدان الفتح والجهاد ، وهو الذي أنقذ البادية كثيراً من الخصومات والعداوات وملأها أمنا وطمأنينة ، وأشاع في أرجائها هذا الطهر والسمو الروحي والاعتداد والثقة بالنفس الى حد بعيد .

ومع ذلك فهذا النشاط الادبي الذي قامت به المرأة في البادية دليل على نشاطها البعيد في شتى نواحي الحياة ، لقد رأينا ليلى لا تقصر شعرها على عواطفها وآمالها وآلامها ونعيمها وشقائها ، ولاتقيده بحدود البيت والاسرة ، والأنوثة والامومة أو الاطفال الذين تداعبهم ويداعبونها ، وتنشئهم ليكونوا رجالالمستقبل وأبطال الغد ، ولكنها أسهمت بشعرها في جميع ميادين الحياة الاجتماعية في البادية نطقت بحجة قومها أمام الامراء ، وطالبت بحقوقهم عندالخلفاء ، واستجلبت رضاء الولاة على حيها وعشيرتها ، ثم ناضلت عن قومها وزوجها خصومهم من القبائل ومن الشعراء .

وكذلك كان غير ليلى من الشاعرات اللواتي عاصرنها وعشن مثلها في البادية ، فقد أسهمن فيالحياة بنصيب كبير ، وكن الجنود المجهولات في ميدان الحياة الإسلامية الحافل بكل جديد . على أن هذا الأدب النسوي كان يدور في الكثير حول الحب الروحي ، والغزلالعذري العنيف . ذلك أنالحياة الاسلامية الجديدة ، وكثرة ترف الأشراف فيالحجاز ، ودقة مزاج أهلالبادية بتأثيرالحياة الروحية الجديدة ، وهذا

التمازج الأبدى الوثيق بين البادية والحياة الروحية الصافية ، كل ذلك مما بعث هذا اللون الممتاز من ألوان الأدب والشعر فى صورته الساحرة .

فظهر الغزل فى الحجاز على أنه فن يقصد لنفسه ، يصور فيه الشاعر هواه وصبواته وحبه . واختلفت مذاهب الشعراء الحجازيين فى هذا الفن باختلاف حياتهم وبيئاتهم : فأما أهل البادية منهم فكان غزلهم عذريا عفيفا ، لاحرج فيه ولا إثم إنما هو الحب الصادق ، والهوى الطاهر يهيمن على قلب الشاعر ونفسه ، فيملك عليه أمره ، ويسمو به إلى طور من أطوار الحب هو الهيام الصوفى بالجمال الالهى الكريم فى الأرض ، الذى يشبه هيام الصوفيين بالجمال الأسمى فى السماء ، أو هيام الفلاسفة بالجمال المقدس فى الخير والحق والمعرفة ؛ وعلى أى حال فإن هذه العاطفة تدفع الشاعر دفعا إلى التعبير عنها ، ووصفها فى شعر رائع يمثل هذه المعانى الروحية فى الحب ، ويصور نواحى الجمال الروحى فى صلة المرأة بالرجل ، وزعيم هؤلاء الغزلين من أهل البادية توبة ، وجميل بثينة ، وقيس مجنون ليلى العامرية .

وأما أهل المدن وشعراؤها فى الحجاز ، كمكة والمدينة والطائف ، فكانوا فى ثروة ضخمة ، وترف واسع ولهو كثير ، ووصفوا فى غزلهم هذه الحياة التى يحيونها ، والعيش الذى يعيشون فيه ، أحبوا الجمال لا للجمال ، ولا لنزعات صوفية روحية ، ولكن لمآرب النفس وشهواتها ، فصوروا فى شعرهم حياتهم ولهوهم ، وعواطفهم التى تنشد اللذة والمتعة فى الحب ، والعطش المادى إلى الجمال ، وزعيم هؤلاء عمر بن أبى ربيعة ويشابهه الأحوص ونصيب وسواهما من الشعراء . والنزعة الأولى هى التى كانت ممثلة فى شعر توبة العذرى ، وفى ألحان ليلى الطاهرة الكريمة .

ولعله لا يشبه ليلى فى العصور الحديثة امرأة أكثر من مى الكاتبة الخالدة الذكر . أليست مى شديدة الشبه بليلى فى نشاطها الاجتماعى والأدبى والفنى ، وفى أخلاقها ومظاهر شخصيتها القوية الجبارة . إن الأجيال ستمضى ، ولكن اسم ليلى خالد على مر الأجيال .

وفاة ليـــــلى

كانت ليلى وزوجها قادمين من سفر بعيد ، وهما على رواحلهما ، ومعهما بعض الأصحاب والأصدقاء ، وليلى تطوف بها الذكريات ، وتتمثل فى خيالها أطياف أيامها الماضية الجميلة ، ومآسى حبها الروحى الحى ، ومصرع توبة فى أرض الصحراء ، والقوم

يتحدثون ويتسامرون ويضحكون ويمرحون ، وليلى فى وجوم يشبه وجوم البادية ، وصمت شبيه بصمت الرمال المتناثرة فى أرض الصحراء ، واغرورقت عيناها بالدموع ، وخنقت صدرها العبرات والزفرات ، ثم صعدت ليلى النظر فى أرض البادية ، وإذا هى تبصر وترى ، ويالهول ماترى ! تبصر هذه الأكمة العالية فى أرض البادية التى دفن فيها توبة ، ثم ترى قبر توبة فى قمة الأكمة بعيدا عن الناس ، منفردا فى هذا المكان الهادىء البعيد .

هنا قبر توبة كما كان ، وكما رأته ليلى حينما زارته مع صديقاتها للمرة الأولى بعد مصرعه ، هنا مجد البادية ممثل فى بطل البادية الصريع ، يتطلع اليهم من هذا الرمس الحافل بأحداث الحياة ، هنا توبة الذى يقول فى ليلاه :

ولو أن ليلى فى السماء لأصعدت … بطرفى إلى ليلى العيون الكواشح
ولو أن ليلى الأخيلية سلمت … على ودونى جندل وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة أوزقا … اليها صدى من جانب القبر صائح

وبكت ليلى بكل عواطفها ومشاعرها ووجداناتها ، وحق لها أن تبكى أليس هذا قبر توبة الرابض فى أرض الصحراء ، والذى جمع فيه كل معانى المجد والحياة والشرف والبطولة والاباء والحب والوفاء ؛ والموكب يسير ، والابل بالحداء تكاد تطير ، وليلى وحدها تبكى ، وظلت تبكى منذ أن تراءى لها قبر توبة فى هالة من خالد الذكريات ؛ فصاحت بالقوم : قفوا قليلا لأسلم على توبة ، وأقف على قبره للوداع لحظات أو بعض اللحظات ؛ فصاح زوجها : سيرى ياليلى ، سيرى فقد دهمنا الظلام ، وانزعى من قلبك هذه الأحلام والأوهام ، فبادرته ليلى : لن يكون ذلك والله ولاأبرح حتى أسلم على توبة . وأخذت تصعد بجملها فى الأكمة ، وسوار زوجها يمنعها ، وهى تأبى كل الاباء . . صعدت حتى دنت من القبر ، وهى على جملها المضنى من الكلال والأعياء ، وأخذت تنادى : السلام عليك ياتوبة ، ثم اغرورقت عيناها بالدموع ، وخفق قلبها ، واضطرب صدرها ، وثارت عواطفها ، وسبحت روحها فى آفاق من هذا المكان الذى تتجمع فيه أطياف البقاء وأشباح الفناء .

ثم التفتت إلى القوم تناديهم : ياقوم ، والله ماعرفت لتوبة كذبة قط قبل هذا ، سلمت فلم يرد السلام ، وهو الذى يقول :

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت   على ودونى جندل وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة أوزقا   اليها صدى من جانب القبر صائح

فما بال توبة لم يرد على السلام ؟ وبجانب القبر بومة كامنة فى جوانبه أطارها ضرب جمل ليلى برجليه فى الأكمة من الاعياء ، وزفرات ليلى المتصعدة من صدرها الوفى الطاهر ؛ فطارت فى وجه الجمل ، فنفر وذعر ، وجرى فى الأكمة ، فرمى بليلى على رأسها ، فقضت نحبها ، وماتت لساعتها . فأخذها القوم من فوق الرمال جثة هامدة ، ثم حفروا لها فى الأكمة بجانب قبر توبة حفرة صغيرة ؛ واروا فيها جسد ليلى فى التراب . ومضت ليلى كامضى توبة ، صريعة الحب وشهيدة الوفاء ، وبطلة خالدة من أبطال الصحراء . وكانت وفاتها عام (٨٠ هـ) .

ليلى فى عالم الخلود

وبعد : فليلى بشخصيتها وأدبها وشعرها ومواهبها التى سارت بذكرها الايام ؛ ليلى ، ستظل ذكراها خالدة على الاحقاب . سيذكر الناس فى حياتها قصة الحب الطاهر ، والوفاء الكريم ؛ وسيذكرها الناس أديبة وشاعرة ، ومحدثة وخطيبة ، وذات أثر كبير فى حياة البادية ، وسيظلون يذكرونها ، فتاة وزوجا وأما ، أدت واجبها تمام الأداء ، سيذكرونها لأنها جديرة بأن تكون مثلا سائرا ، يذكره الناس وتعتز به الأجيال ، ويدوى فى آذان سيدات الشرق وفتياته من جديد :

انهضن وسرن على نهج الأسلاف ، وأدين واجبكن كاملا فى الحياة ، واحملن مشعل النور يمشى على ضوئه الجيل الجديد ، واضربن أروع الامثال فى المحافظة على الشرف والعرض ، وفى خدمة البلاد والأوطان . فهذا هو طريق الحياة .

مصادر البحث

الاغانى ، فى ترجمة توبة (جـ ١٠ صـ ١٦٧ وما بعدها) وفى مواضع أخرى . قطوف الأغانى ـ نشر بيروت . الشعر والشعراء ، لابن قتيبة ، فى ترجمة توبة (صـ ١٦٩ ـ صـ ١٧٢) ـ المؤتلف والمختلف ، للآمدى نشر القدسى ، فى ترجمة توبة (صـ ٦٨ و ٩٣ ـ زهر الآداب ، نشر الدكتور مبارك جـ ٤ صـ ٧٦ و ٧٩ ـ ٨٧ ـ الكامل للمبرد طبعة التجارية جـ ٢ صـ ٣٨ و ٥٠ و ٢٧٥ و ٢٧٧ و ٣٠٧ ـ فوات الوفيات ،

لابن شاكر فى ترجمة توبة ج١ص٩٥ وفى ترجمة ليلى ج٢ص١٤٠ .

العمدة لابن رشيق . طبعة سنة ١٩٠٧ م ج١ص٦٧

العقد ، لابن عبد ربه ، طبعة سنة ١٩٢٨ م ج ١ ص ١٦٥ ، ج ٢ ص ٢٢٦ ، و٢٨١ ، وج٤ ص ٨٨

شاعرات العرب ، طبع بيروت سنة ١٩٣٤ م ، قصائد من شعر ليلى ص١٢٧ وما بعدها

تزيين الأسواق بتفصيل أحوال العشاق ، فى ترجمة توبة ص٩٦

اختيـــار المنظوم والمنثور لابن طيفور ، مخطوط بدار الكتب ج ١١ ص ٦٣ ، ص ٦٤

توبة شاعر الحب والبطولة ، تأليف محمد عبد المنعم خفاجى مطبوع ١٩٤٩

أمالى الزجاجى ص ٥٠

رواية الحجاج الثقفى ، تأليف جورجى زيدان

نشيد الصحراء ، تأليف محمد عبد المنعم خفاجى

بنو خفاجة وتاريخهم السياسى والأدبى ، تأليف محمد عبد المنعم خفاجى ، فى ترجمة توبة الجزء الأول والجزء التاسع

مختصر شرح حماسة أبى تمام ، للرافعى ج٢ص١٠٢ ، ص١٢٥

وسوى ذلك من كتب الأدب والتاريخ .

فهرست الكتاب الأول

استدراك

فى ص ١١ – س ٢ كلمة صلاة وصوابها : صلات

الكتاب الثانى

عبد العزيز جاويش

قصة

حياته وجهاده الوطنى

يقولون لى : ما أنت فى كل بلدة ؟ وما تبتغى ؟ ما أبتغى جل أن يسمى

الإهداء

إلى الأحرار فى كل أمة وكل عصر ، وإلى المجاهدين فى سبيل مبادئهم وآرائهم ووطنيتهم ، وإلى الذين يضحون بأرواحهم فى سبيل رسالتهم فى الحياة ، وللنهوض بأممهم ، إلى الشهداء والضحايا فى سبيل الوطن الخالد العزيز ، وإلى كل وطنى يؤمن بحرية بلاده وحقها فى الشرف والكرامة والاستقلال .. أهدى هذا الكتاب .

الكلمة الأولى

هذه دراسة عن الفقيد الخالد « عبد العزيز جاويش » شيخ الوطنية ، وحامل مشعل الثورة للحرية ، وابن مصر البار ، الذى ضحى أعظم التضحيات وعاش مشردا بين السجن والنفى والاضطهاد فى سبيل بلاده .

ومن أولى من عبد العزيز جاويش بأن يدون تاريخ جهاده الطويل بمداد من نور فى سجل البطولة والأبطال والمجاهدين الأحرار لمجد مصر وعظمتها ؟ أليس هو الكاتب الأديب ، والصحفى القدير ، والعالم الفذ ، والأستاذ الكفء ، والمؤلف الممتاز ، وأليس هو أولا وقبل كل شىء الوطنى الثائر ، والخطيب الساحر ، والداعية إلى الاصلاح والنهضة والتقدم والنضال ؟

عبد العزيز جاويش أزهرى نابغة ، وابن « دار العلوم » البار ، وأستاذ الناصرية العلم ، وخريج جامعات انجلترا الكفء ، والمفتش بوزارة المعارف الدائب على العمل

لخير الثقافة والوطن ، ثم هو أستاذ اللغة العربية فى جامعة أكسفورد ، وأحد الذين حملوا لواء التحرير الصحفى فى (اللواء) ، ثم هو الكاتب الوطنى الجبار ، والمذكى لروح الوطنية ونار الحرية فى صدور أبناء الجيل المنصرم ، وزميل مصطفى كامل ومحمد فريد وأمين الرافعى فى الجهاد الوطنى ، ثم هو نزيل السجون المصرية لحملاته العنيفة على الاحتلال ، والمنفى المشرد بعيداً عن بلاده فى ألمانيا وسواها أمداً طويلا ، والمراقب الأول للتعليم الأولى فى بدء نهضة مصر الثقافية الحديثة .

عبد العزيز جاويش اسم رن صداه فى الشرق والغرب ، وعقلية نادرة لم يخرج الجيل الماضى أعجب منها .

وجدير بمصر أن تذكره وتحمد ذكراه ، وأن تخلد تاريخ جهاده الطويل فى سجل الحرية والجد ، وأن تعترف بدين عبد العزيز جاويش على نهضتها الحديثة ، وبمنزلته فى الصف الأول من قادتها الأبرار المجاهدين .

جاويش فى سجل التاريخ

- ولد فى ٣١ أكتوبر سنة ١٨٧٦
- بدأ حياته العلمية بالأزهر سنة ١٨٩٢ وتخرج من دار العلوم سنة ١٨٩٧
- رأس تحرير جريدة اللواء فى ٢ مايو سنة ١٩٠٨
- فى فبراير سنة ١٩١٠ أنشأ مجلة الهداية ، وأنشأ المدارس الاعدادية الثانوية
- فى سنة ١٩١٢ أبعد الشيخ جاويش إلى تركيا
- فى سنة ١٩١٤ أنشأ الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ووضع أساسها وأعاد إصلاح كلية صلاح الدين بالقدس الشريف وعهد اليه بإدارتها
- فى سنه ١٩١٤ سافر الشيخ جاويش إلى انجلترا حيث اتفق مع أحد أغنياء الهنود على إنشاء أسطول إسلامى وأثناء ذلك حصل اعتداء على الخديو عباس حلمى فشعر بأن السلطات البريطانية تنوى القبض عليه لاتهامه فيه فاختفى وتمكن من الهرب إلى باريس
- فى سنة ١٩١٥ أعـــدت حملة من الجيش التركى لتخليص مصر من الاحتلال الانجليزى واشترك فيها الشيخ جاويش
- فيما بين سنتى ١٩١٥ و ١٩١٨ كان يتنقل مابين ألمانيا وتركيا والشام ، وأنشأ مجلات إحداها تصدر باللغة الألمانية ، وثانية فى اسطنبول باللغة العربية باسم (العالم الاسلامى) وفى سويسرا أنشأ مجلة بالاشتراك مع رجال الحزب الوطنى للدفاع عن استقلال

مصر ، وكذلك استخلص الاعتراف باستقلال مصر من مجلس المبعوثان بالاستانة والريخستاغ بألمانيا فى عام ١٩١٧ . كما اشترك فى مؤتمر الدفاع عن الأمم المهضومة الحقوق فى استكهولم .

• فى سنة ١٩١٨ غادر الشيخ جاويش ومعه رجال الحزب الوطنى تركيا خفية بعد انتهاء الحرب إلى ألمانيا عن طريق روسيا ثم الى سويسرا حيث قاموا بالاتصال بالوفد المصرى بباريس وقدموا له مذكرة بما قاموا به فى أوربا

• فى سنة ١٩٢٢ استدعاه مصطفى كمال وعينه رئيسا للجنة الشئون التأليفية الاسلامية بأنقرة

• فى سنة ١٩٢٣ حصل خلاف بينه وبين الغازى مصطفى كمال فى شأن إلغاء الخلافة ، وكان الدستور قد أعلن بمصر فحاول العودة للوطن وتمكن من العودة الى مصر خفيه فى ١٣ ديسمبر سنة ١٩٢٣ . ونشرت جميع الصحف مقالا تحت عنوان (تجديد العهد) بتوقيع الشيخ جاويش ، ثم صرح له بالاقامة بمصر وكان يتولى الوزارة وقتذاك يحيي ابراهيم

• فى سنة ١٩٢٥ عين مراقبا عاماً للتعليم الأولى بوزارة المعارف العمومية وقام بإصلاحاته المعروفة

• فى ٢٥ يناير سنة ١٩٢٩ توفى رحمه الله بعد حياة حافلة بالجهاد والوطنية ، وسنه لاتتجاوز الثالثة والخمسين .

عبد العزيز جاويش (١٨٧٦ — ١٩٢٩)

وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق

— ١ —

عاش المرحوم الخالد الذكر الاستاذ جاويش فى وسط الأحداث السياسية الكبرى التى لم يكن لها نظير فى تاريخ الوطن العزيز ، شاهدها واشترك فيها بقلبه ولسانه وبكل جارحة فيه ، وكان له فضل لاينسى فى تعزيز الجهاد الوطنى ، وإشعال الروح القومى ، واذكاء عواطف الثورة والاباء والطموح والعمل الجاد المضنى فى سبيل مجد مصر وعظمة الأمة .

— ٢ —

وأولى هذه الأحداث هو الاحتلال الانجليزى على مصر ، الذى بدأ فى أعقاب الثورة العرابية عام ١٨٨٢ ، والذى كان كابوسا رهيبا مفزعا ألقى على صدر الوطن ،

ومنعه من التنفس والحركة والنشاط وكل مقومات الحياة ، والذى عطل نموه القومى ونشاطه الإنسانى فى سبيل التقـــدم والحرية والمجد والكرامة والتطور البشرى المنشود .

وكان الشعب المصرى يضيق ذرعا بهذا الاحتلال ، ويعيش على مضض حين يرى المحتلين يدوسون على أديم الوطن العزيز ، ويعمل كل مايستطيع لمقاومة الغـاصب ، والقضاء على الاحتلال وعهد الاحتلال .

وكان المرحوم (عبدالعزيز جاويش) فى أول عهدالاحتلال شابا ككل الشباب ، ولـكنه كان وطنيا متطرفا ، مؤمنا بمصر وطنه العظيم ، وبمصريته التى هى قوميته التليدة ، كان يكره الاحتلال ورجال الاحتلال من أعماق قلبه وطوايا سريرته ، وأذكى الروح القومى والدينى فيه هذا الكره وتلك البغضاء ، فعرف بين إخوانه وزملائه بوطنيته الملتهبة ، وشعوره الوطنى المشتعل المتطرف ، وإيمانه العميق بمصر وحريتها واستقلالها .

— ٣ —

وأخذت الروح الوطنية تشتعل بين شباب الوطن وتوقدهم عزما وتصميما على إنقاده من براثن الأسد المحتل ، وكان من آثار ذلك أن قام الوطنيون المصريون بـكثير من المناوآت السياسية لانجلترا ، وأن شكل الحزب الوطنى بقيادة المرحوم الشاب مصطفى كامل باشا م ١٩٠٨ م . وبتشجيع الشعب وعطفه وتوجيهه .

واشترك المرحوم الشيخ جاويش مع هؤلاء العاملين المجـاهدين المناضلين عن حقوق الشعب فى الحرية والاستقلال ، ثم اشترك مع رجال الحزب الوطنى وجاهد فى صفوفه جهاد الأبطال بحماس قوى وعزيمة جبارة وقلب لايخاف ولا يلوى به عن غاياته الـكبار شىء مهما عظم :

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الأجسام

وبلغ من حب المرحوم الخالد (عبد العزيز جاويش) لوطنه ، أن نسى نفسه ، ومستقبله ، وقدم استقالته إلى وزير المعارف ، ليعمل فى صفوف الأحرار ، ويجاهد معهم جنـديا مثلهم ، ويفـكر حرا لاتقيده الوظيفة الحـكومية بقيودها الثقال ، وذلك حين رأى أن عمله فى الحـكومة ومنصبه فى التفتيش فى وزارة المعارف يحولان بينه وبين الجهر برأيه والعمل الواضح السافر فى سبيل وطنه .

ومن أولى من (جاويش) بأن ينسى نفسه ويقدمها قربانا لوطنه ؟ ذلك مثل

عظيم ضربه (جاويش) العظيم للأحرار المصريين ، فكان مثلا بليغا عظيما ينم عن نفسية هذا الرجل فى كفاحه ونضاله وجهاده لمستقبل الوطن ومجده .

— ٤ —

ونفى جاويش من مصر قبيل الحرب العالمية الأولى ، وشرد فى سبيل وطنيته والجهر برأيه . وسحب بلاده ، كما نفى محمد فريد بك وسواهم من الأحرار المصريين .

وقامت الحرب الكبرى ، وحيل بين جاويش وبين العودة إلى بلاده باسم الأحكام العرفية ، كما حيـــل بين (فريد) وبين بلاده ، وكانت الحرب عبئا ثقيلا على الوطن والشعب ، وأخذ الانجليز يجندون الرجال ويعدون المؤن ، وينهبون من الشعب كل ما يمكنهم نهبه ليقدموه لجيوشهم المحاربة فى الميادين قرابين تنم عن فضل مصر عليهم وحقها فى الحرية والاستقلال الذى اغتصبوه .

وعاش (جاويش) بعيداً عن بلاده مشردا فى سبيلها فى الاستانة ، وأوربا ، ومنها ألمانيا . وانتهت الحرب الكبرى ، فاشتعل لهيب الثورة الوطنية عام ١٩١٩ ، وبدأ النضال من جديد ، نضال شعب فتى فى سبيل آماله الكبار . ومستقبله وحريته واستقلاله المنشود .

— ٥ —

وانتهت الثورة بالاستقلال والحياة البرلمانية ، واستقرت الأمور قليلا قليلا . وكان جاويش قد عاد إلى أرض الوطن ليجاهد فى سبيله من جـــديد ، وعمل جاويش فى هذه الفترة الصغيرة مع العاملين فى وزارة المعارف ، ليقود نهضة التعليم والثقافة فى مصر ، وليحيى روح النهضة والقومية والوطنية بإحياء مجد مصر العلمى والثقافى القديم

ولكن البطل الثائر ، الذى جاهد العدو المحتل فغلبه ، لم يستطع جسمه وصحته أن يتحمل آلام جهاد المرض الذى سرى فيه ، فأسلم روحه ، وذهب إلى ربه فى أعلى عليين فى يناير ١٩٢٩ .

الثورة الفكرية فى عصر جاويش

ضاق بالاحرار الزمان فثاروا وبنوا للفكر الرفيع منارا

— ١ —

خلق الافغانى فى الشرق الاسلامى عامة وفى مصر بصفة خاصة ثورة فكرية عامة

تنزع الى الاحياء والنهضة والتجديد وحرية الشعوب الاسلامية كافة .

وكان أعظم وارث لآراء الافغانى وأفكاره ، ومبادئه وثقافته الامام محمد عبده (١٨٤٩ — ١٩٠٥م) ، المصلح المجدد ، والفيلسوف المفكر ، والداعية الى نهضة الوطن وحريته .

— ٢ —

قوى محمد عبده الروح الدينية والاجتماعية والادبية والوطنية فى مصر ، ودعا الى الاقتباس المفيد من حضارة الغرب وثقافته ، واعتبر ماضى الامة الاسلامية هو الاساس العام للحياة القومية والفكرية فى مصر والشرق . وقد أوضح آراءه وأفكاره فى مجموعة من المقالات والبحوث تعتبر فى لغتها وأسلوبها فتحا فى عالم الصحافة بما امتازت به من القوة والمتانة وجزالة العبارة وهى مزايا الأسلوب القديم ، ومن الدقة والمرونة ووضوح الشخصية مما هو أثر لثقافاته الحديثة ، وبجانب محمد عبده كان رجال الثقافة يعملون لتعزيز النهضة ، كعبد الله فكرى (١٨٣٤ — ١٨٩٠) ، وعلى مبارك (١٨٢٣ — ١٨٩٣) وزيرى المعارف المشهورين .

وتولى إنشاء الجمعيات السياسية والعلمية والادبية بمصر ، وأعضاء هذه الجمعيات هم الذين قاموا بأهم الادوار فى الحركة الدستورية التى اقترنت بالثورة العرابية . ومن أبرزهم الشاب الوطنى الثائر مصطفى كامل (١٨٧٤ — ١٩٠٨) ، ومحمد فريد م ١٩٢٠ وقاسم أمين (١٨٦٥ — ١٩٠٨) ، وأمين الرافعى (١٨٨٦ — ١٩٢٧) والمرحوم على يوسف (١٨٦٣ — ١٩١٣) ، ثم سعد زغلول م ١٩٢٧ ، وعبد العزيز فهمى وسواهم .

— ٣ —

وفى عام ١٩٠٦ قامت نخبة تسعى إلى إحياء الفكرة العربية وتجديد ثقافتها القديمة فكانت هذه الحركة الذهبية قبسا سطع منه عهد الاحياء العربى الجديد ، وواجهت هذه اليقظة الذهبية الحركة السياسية التى قام بها فتيان الاتراك من أجل تتريك كل العناصر غير التركية فى امبراطوريتهم ، فكان من أثر هذه السياسة انبثاق وطنية الشبيبة العربية ، وألفت جمعيات تطالب ببعض الحقوق والاصلاح وعلى رأسهم الشباب الذين تعلموا فى الازهر وجامعات القسطنطينية وأوربا ، وأذكى الروح الوطنى فوق ذلك تغلغل الاستعمار فى مصر والشرق العربى .

وعززت جريدة المؤيد (١٨٩٥ - ١٩١٣ م) التى أنشأها على يوسف ، ثم

(اللواء) التى أخرجها مصطفى كامل ، ثم (الجريدة) التى كان يحررها أحمد لطفى السيد ، الروح الوطنى تعزيزاً كبيرا .

و (على يوسف) شيخ مشيخة السجادة الوفائية أزهرى ولد فى (بلصفورة) من بلادمديرية جرجاو تلقى علومه فى الأزهر وقرأ طرفا من كتب الأدب واستظهر صدرا من مظاهر البلاغة فى منظوم العربية ومنثورها ، وابتدأ فى معالجة الكتابة فى الوقت الذى انبعثت فيه تلك النهضة البيانية المشرقة التى أشعلها بالإرشاد والتنبيه السيد جمال الدين الأفغانى ، ثم بالتوجيه والتثقيف المرحوم الشيخ حسين المرصفى ١٨٨٩ م ، ثم كان لقوة روحه وشخصيته وذكائه وعقليته وملكاته الجبارة أثر فى أسلوبه الجديد الذى كان نهجاً من البلاغة غير ما تعاهد عليه الناس من منازع البلاغات فيما قبل .

— ٥ —

وبجانب هؤلاء الأعلام فى النهضة كان كثير من العلماء والأدباء يعملون لأذكاء النهضة وتجديد الثورة الفكرية وإحياء الثقافة العربية . ومن بينهم : الشيخ قدرى أستاذ ولى عهد الخلافة العثمانية وكان رجلا مفكراً مثقفاً ثقافة واسعة وفد إلى مصر وكان يحضر مجلسه أعلام الفكر فيها يسمعون منه ويصغون له ، وفى جملتهم إبراهيم المويلحى بك الكاتب الوطنى الساخر م ١٩٠٦ .

ومن بينهم أيضا الشدياق م ١٨٨٧ والشيخ حسين المرصفى م ١٨٨٩ ، وعبدالله فكرى ١٨٩٠ وعبد الله نديم ١٨٩٦ م ، وابراهيم المويلحى م ١٩٠٦ ، والشيخ ابراهيم البازجى م ١٩٠٦ ، وقاسم أمين (١٨٦٥ - ١٩٠٨ م) والشنقيطى والبكرى ، والشيخ أحمد مفتاح م ١٩١٠ ، وأحمد فتحى زغلول م ١٩١٤ ، وجورجى زيدان (١٨٦١ - ١٩١٤) والشيخ حمزة فتح الله (١٨٤٩ - ١٩١٨) ، وحفنى ناصف م ١٩١٩ م ، ويعقـــوب صروف (١٨٥٢ - ١٩٢٧) منشىء المقتطف ، وحافظ وشوقى وسواهم .

وهكذا اجتمع فى هذه العاصمة وفى فجر هذا العصر طبقة من الرجال نضجت فى شتى نواحى الانتاج ، ومنهم الكتاب واللغويون والعلماء والخطباء والشعراء ، ولم يكن يرتفع إلى درجة أديب أو خطيب أو كاتب فى ذلك العصر إلا من درس اللغة وتعمق فيها وقرأ المخصص وراجع لسان العرب ، وألم بأمهات المنثور والمنظوم فى الأدب ، مثل كتب المبرد والجاحظ ودواوين الشعراء ، إلى جانب المطالعات المتصلة فى أدب الشرق والغرب .

— ٦ —

وقد عاصر فقيدنا الخالد (عبد العزيز جاويش) هذه الثورة الفكرية والعلمية والأدبية وتأثر بها فى مشرقها ، ثم صاحبها فى نموها وقوتها ، ثم اشترك فيها مع العاملين ، وحمل عبء التجديد والايقاظ والبعث ، وقام بدور كبير فى حركة الاصلاح ، والاحياء والنهضة ، وأنتج وكتب وخطب وألف وبحث ودرس ، وكان رسول الثقافة العربية فى اكسفورد ، وفى كل مكان سار فيه .

فليس بعجيب إذا أن يكون جاويش هو هذا العبقرى الفذ ، والعقلية الممتازة ، والداعية إلى حرية الوطن ونهضته ، وأحد الذين وجهوا الثقافة والتعليم فيه ، والمحرر الصحفى الذى كان يسحر الألباب ويخلب العقول ، بل هذا المصلح الكبير الذى فقدته مصر بعد أن كافح فى سبيلها كفاح الأبطال .

حيــــاة جاويش

وإذا كانت النفوس كباراً   تعبت فى مرادها الأجسام

أسرته :

ينحدر المرحوم الخالد الذكر الشيخ جاويش من أصل مغربى تونسى قديم(١) ، ولكن أسرته صارت على مر الأيام مصرية الدم والروح والفكر والمبـــادىء والوطن . . وكانت إقامتها بالإسكندرية .

وكان له إخوة هم المرحومون : محمد وأحمد وعبد اللطيف جاويش .

وصاهر جاويش فيما بعد أسرة الفولى ، وهى أسرة كبيرة لها مكانتها فى الاسكندرية . ورزق فيما بعد عدة أبناء ، كانوا خير خلف لخير سلف ، وورثوا ميزات هذا الرجل العظيم : الوطنية والعقلية والخلقية . منهم المغفور له المرحوم الأستاذ ناصر عبد العزيز جاويش ، والدكتور صلاح الدين جاويش ، والمهندس أنور جاويش ، وجلال جاويش المفتش الزراعى ، والصاغ أسعد جاويش .

وتتصل أسرة جاويش بصلات القرابة والمصاهرة بكثير من العائلات المصرية

---

١) المفصل ط ١٩٣٦ ٢/٣٧٧

الكبيرة ، كأسرة الجمال بمصر ودمياط ، وبلبع بدمنهور ، والفولى ، والحصانى ، والأرناؤوطى ، وسواها .

والمرحوم الأستاذ أحمد ابراهيم أستاذ الشريعة الاسلامية بكلية الحقوق بجامعة القاهرة سابقا هوابن شقيقة المرحوم جاويش . . وقد ولد جاويش فى ٣١ أكتوبر عام ١٨٧٦ من أسرته المغربية بمدينة الاسكندرية

نشأته ودراسته :

ولد جاويش(١) فى الاسكندرية ونشا بها ، وبعد أن تعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم طلب العلم فى جامع الشيخ هناك ، ثم وفد عام ١٨٩٢ على الازهر فطلب العلم فيه وأخذ عن كبار شيوخه ، كمحمد عبده وسواه . ثم دخل دار العلوم(٢) واشتهر بين لداته بالجد فى الطلب ، والجد فى القول والعمل ، والغيرة على الدين وعلى الكرامة جميعا . أما صلابة رأيه فيما يراه الحق فكانت عنده من مضارب الامثال . ونال إجازة دار العلوم بتفوق عام ١٨٩٧ ، فتولى التدريس فى مدرسة الناصرية (٣) التى كان لا يعين فيها إلا أوائل خريجى الدار .

أستاذ الناصرية :

عين الاستاذ جاويش بعد تخرجه من دار العلوم مدرساً فى مدرسة الناصرية(٤) فاشتهر بين زملائه بسعة الاطلاع . وعمق الثقافة ، ودماثة الخلق ، ونبل النفس ، وسعة الصدر ، وبالغيرة الدينية والحماسة الوطنية ، والايمان بحق مصر فى الشرف والكرامة والحرية والاستقلال .

وتتلمذ عليه كثير من الشبان الذى صار منهم فيما بعد أبطال النهضة وزعماء الوطن وكان الجميع يدينون له بالحب والتقدير ، ويعترفون بأثره العميق فى حياتهم العلمية والفكرية .

جاويش فى انجلترا :

ثم اختارته وزارة المعارف فى بعثة إلى جامعة « برورود » بانجلترا ، فدرس فيها

---

(١) ٢/٣٧٧ المرجع (٢) انشئت دار العلوم فى عهد إسماعيل . وفتحت فى ١٥ صفر (١٢٨٨ هـ ١٨٧١ م) (٣) هذا رأى الكثير من الباحثين ، ولكن ابن جاويش يذكر فى المقدمة التى وضعها لكتاب « الاسلام دين الفطرة » الذى نشرته دار الهلال عام ١٩٥٢ أن والده عين مدرساً فى مدرسة الزراعة .

(٤) ٢/٣٧٧ المفصل

وجد حتى أكمل دراسته وتعمق فى الإلمام بالثقافة الانجليزية وفهم روح الغرب وأسرار حضارته ، وكانت دراسته فى التربية وما يتصل بها من علوم وثقافات .

وقد زودته هذه الثقافة الجديدة بزاد عقلى واسع ، وأمدته بخصائص فكرية ، وثقافية كبيرة ، ظهر أثرها فى حياته وفى انتاجه الأدبى والعلمى والصحفى ، مما جعله نادر المثال بين من خرجتهم المدرسة القديمة .

جاويش فى التفتيش :

ولما أكمل جاويش دراسته عام ١٩٠١ عاد مفتشا فى وزارة المعارف (١) ، فظهرت مواهبه وعبقريته فى التفتيش وتوجيه الأساتذة وتدريبهم على أساليب التدريس الحديثة وطرقه ومناهجه ، مما كان موضع تقدير المسئولين ، وثناء أبناء وزارة المعارف طلابا وأساتذة .

ومع أن جاويشا كان شيخا معمما فقد كان مفتشا للغة الانجليزية أيضا ، وكان يذهب إلى المدارس الأميرية للتفتيش على مدرسى هذه اللغة الأوربية ، وألف كتابا فيها سماه « مرشد المترجم » .

أستاذ اللغة العربية فى لندن :

وكان نبوغ جاويش فى دراسته داعيا لوزارة المعارف إلى انتدابه أستاذا للبيان فى جامعة كمبردج حيث كان يمثل المصرى على أكمل حال (٢) .

وكذلك يذكر أصحاب المفصل أنه عين أستاذا للغة العربية فى جامعة كمبردج وأنه قضى هناك مدة (٣) .

وفى كلمة الدكتور عبدالحميد سعيد فى تأبين جاويش ، فى ذكرى الاربعين ، أنه كان أستاذا فى اكسفورد ، وفى الصفحة الأولى من كتاب : « الاسلام دين الفطرة » لجاويش أنه كان أستاذا للعلوم العربية فى كلية اكسفورد ، وأنه ندب لتمثيل مصر فى مؤتمر المستشرقين الجزائرى عام ١٩٠٥ ، وكذلك فى مقدمة هذا الكتاب الذى نشرته دار الهلال عام ١٩٥٢ يذكر ابن جاويش أنه كان فى جامعة اكسفورد ، وكذلك فى هلال مارس ١٩٢٩ أنه اشتغل بعض سنوات بالتدريس فى جامعة اكسفورد (٤) .

---

(١) ٢/٣٧٧ المفصل ، وأهرام ١٩٢٩/١/٢٦

(٢) بتصرف عن أهرام ١٩٢٩/١/٢٦ (٣) ٢/٣٧٨ المفصل

(٤) وفى أهرام ١٩٢٩/١/٢٧ صورة لجاويش بملابسه الدينية وهو جالس وحوله

وكل ذلك يؤيد أن عمله فى لندن كان فى اكسفورد ، وربما كان تعليمه ودراسته الأولى فى لندن هى التى كانت فى كمبردج .

وفى اللواء عدد ١٩٠٨/٧/١٥ ما يؤيد أن عمله كان فى اكسفورد (١) .

وفى أثناء هذه الفترة قابل مصطفى كامل فى لندن وتعرف الشابان بعضهما ببعض وبدأت صلات الصداقة والتقدير تنمو بين الرجلين .

وفى عام ١٩٠٥ انتدب جاويش لحضور مؤتمر المستشرقين فى الجزائر ، وقد قام بنشاط كبير فى المؤتمر ، ورد على مستشرق ألمانى طعن فى القرآن الكريم ردا قويا (١) .

وقد ظل جاويش مدرساً للغة العربية فى اكسفورد من عام ١٩٠٤ حتى عام ١٩٠٦

حياته فى الوظيفة :

وعاد الشيخ جاويش عام ١٩٠٦ مفتشا (٢) بوزارة المعارف كما كان ، وظل فى عمله يخدم الوطن والثقافة خدمات جليلة كان لها أثرها البعيد .

وفى مارس ١٩٠٨ (٣) استقال جاويش من خدمة وزارة المعارف ليخدم وطنه بعيداً عن قيود الوظيفة وأعبائها ، فخسرت وزارة المعارف بخروجه منها عضوا عاملا وشخصية ممتازة ، ولكن الوطن كسب من ذلك مكسبا وطنياً لا يقدر بقيمة .

رياسته لتحرير صحف الحزب الوطنى

جاويش فى اللواء :

قدر له زعيم الوطنية مصطفى كامل ذلك ، فدعاه إلى رياسة تحرير اللواء (٤) ، وكان فى هذه الأثناء يحلى جيد تلك الجريدة بمقالاته البليغة ، ولم يتح له أن يستجيب

الدكتور محجوب ثابت وأمين دلة واقفان وذلك فى مناسبة قدومه من مدرسته فى اكسفورد لحضور مؤتمر المستشرقين فى الجزائر بأمر من الحكومة المصرية .

(١) وذلك من كلمة للأستاذ ادورد براون نشرها بالتيمس دفاعا عن جاويش ، وراجع فى ذلك ص ٣١ و ٣٢ كتاب خواطر الخواطر . وفى هذه الكلمة التى كتبها الأستاذ ادورد إشادة بأثر جاويش وعمله فى اكسفورد .

(٢) ٢/٣٧٨ المفصل ، هلال مارس ١٩٢٩ .

(٣) اللواء عدد ١٩٠٨/٧/١٥ من كلمة الأستاذ ادورد ، وص ٣١ و ٣٢ خواطر الخواطر ، وفى مقدمة « الاسلام دين الفطرة » الذى نشرته دار الهلال أنه استقال من وظيفته فى ابريل عام ١٩٠٨ .

(٤) اهرام ١٩٢٩/١/٢٦ ، هلال مارس ١٩٢٩

لتلك الدعوة إلا بعد أن انتقل ذلك الزعيم إلى الرفيق الأعلى ، فكان كالحصن المنيع ترتد عنه حملات خصومه قبل أن تبلغه ، لأن بينه و بينها سدا منيعا من نبالة مقصده(١)، وكان لذلك ضجة كبيرة .

وما كان أجمل تلك الابتسامات التى كان يتلقى بها الصدمات ومنها السجن (١) . وكانت مقالاته فى اللواء وهى حليبة طرازه تدل بلاغتها على أنها مقالاته سواء أمهرها بتوقيعه أم أرسلها غفلا(١) .

وأبلى - فى ميدان الجهاد الصحفى - بلاء حسنا(٢). وكان يكتب فى اللواء مقالات تفيض بالوطنية و نلتهب حماسة(٣) . وكان بين المنار واللواء خصومات بسبب الخلاف بين محمد عبده ومصطفى كامل . وظل المنار يعارض اللواء ، ويحمل على جاويش ، ومن كلمة لجاويش عام ١٩٠٨ :

نحن لا نرضى أن نقيم على الضيم ، ثم لا نرضى بسلطان أجنبى علينا ، نحن لا نقبل أن نباع بيع السلع فى الأسواق ، نحن لا نصبر على هذا العسف والجور ، نحن لا نعرف للاحتلال بيننا صيغة تكسب المحتلين شيئا من النفوذ والسلطة الشرعية .

إنه لا بد لحل المسألة المصرية من أمرين أساسيين .

١ - إقامة حكومة نيابية دستورية .

٢ - أن يخرج الانجليز من بلادنا .

جاويش يقدم للقضاء :

نشر الأستاذ جاويش مقالة فى اللواء عدد ١٩٠٨/٥/٢٨ بعنوان « دنشواى أخرى فى السودان » : « ٧٠ مشنوقاً و١٣ سجينا ، وذلك لأن أهالى الحلويين فى السودان قتلوا ضابطا مصريا وآخرا نكليزيا . وقد ندد جاويش فى هذه المقالة بأعمال الانجليز وطغيانهم فى السودان بعد فظائعهم فى مصر فى حادثة دنشواى .

وقد استدعت النيابة جاويشا يوم الثلاثاء ٢٣-٦-١٩٠٨ لسؤاله فيما نشره وإحالته النيابة العمومية على محكمة جنح عابدين لمحاكمته فى جلسة ٧ - ٧ - ١٩٠٨

ابتدأت الجلسة برياسة محمد السبكى القاضى ومثل النيابة عطية حسنى رئيس نيابة مصر. وحضر مع جاويش الأساتذة المحامون : أحمد لطفى ، وإسماعيل شيمى ، ومحمود فهمى وأجلت الجلسة بناء على طلب الدفاع إلى ٢٨ - ٧ - ١٩٠٨

---

(١) أهرام ١٩٢٩/١/٢٦ (٢) هلال مارس ١٩٢٩

(٣) المصور ١٩٤٨/١٠/٢٩

وفى هذا اليوم ترافع الأستاذ محمود فهمى حسين المحامى ، والأستاذ أحمد لطفى مرافعة طويلة ، وترافع الأستاذ اسماعيل الشيمى أيضا . ثم رفعت الجلسة على أن يكون الحكم بعد أسبوع ، وأذيع الحكم وهو يقضى :

(ا) ببراءة جاويش .

(ب) بمعاقبته بغرامة قدرها ٢٠ جنيها لإهانته نظارة الحربية .

(حـ) إلزامه بكافة المصاريف .

ثم رفع استئناف للحكم المذكور أمام محكمة الاستئناف بمصر ، ونظرت القضية فى ٣٠-٨-١٩٠٨ فى جلسة برئاسة محمود رشاد ، وعضوية محمد عبد اللطيف وزكى أبو السعود ، وكان يمثل النيابة على توفيق ، فحكمت المحكمة ببراءة جاويش بين هتاف الجمهور وتصفيقه . وهنأ جاويشا الشعراء والأدباء والزعماء والجمهور تهانىء حارة .

٢ — وفى الذكرى الثالثة لحادثة دنشواى التى نفذ فيها الحكم الرهيب على لفيف من المصريين بالإعدام ظلما وطغيانا ، « نشر الشيخ عبد العزيز جاويش فى ١٩٠٩/٦/٢٨ مقالا فى اللواء بعنوان « ذكرى دنشواى » حمل فيه حملة شديدة على رئيس تلك المحكمة وأعضائها والمحامين الذين ترافعوا أمامها ، استهله بقوله :

« سلام على أولئك الذين كانوا فى ديارهم آمنين مطمئنين ، فنزل بهم جيش الشؤم والعدوان . فأزعج نفوسهم ، وأحرق حصادهم ، فلما هموا بصيانة أرزاقهم قيل إنهم مجرمون ، وسيقوا فى السلاسل والأغلال ، فصلبوا على مرأى ومسمع من زوجاتهم وأمهاتهم وجيرانهم .

سلام على تلك الأروح البريئة التى انتزعها بطرس غالى رئيس المحكمة المخصوصة بقضائه من مكامنها فى أجسامها كما تنزع سلوك الحرير من خلال الشوك ، وقدمها قربانا إلى ذلك الجبار الظالم ، والغاصب القاهر ، القائم فى بلادنا بنفاقنا وتفرقنا .

سلام على أولئك الذين وقف الهلباوى فثار فيهم ثوران الجبارين ، ثم انثنى على رقابهم فقضمها ، وعلى أجسامهم فمزقها ، وعلى دمائهم فأرسلها تجرى فى الأرض تلعن الظالمين ، قام الهلباوى مقامه المشهود وطلب من قضاه المحكمة الظالمة أن يحشد أهل دنشواى ليقدموا قرابين إلى هيكل الاحتلال ، فما لبث رئيس المحكمة بطرس غالى وزميله قاضى دنشواى أحمد فتحى ان استهوتهما الأموال واستغوتهما المناصب ،

واسترهبتهما عظمة الاحتلال ، فأنطقتهما بذلك الحكم الجائر ، لرغب فى الألقاب والمناصب ، وعوز النفس إلى الشعور بالواجب .

وانثنى المرحوم جاويش فى مقاله إلى المحامين الذين دافعوا عن المتهمين فاتهمهم بالإهمال فى الدفاع ، وخص أحدهم وهو الأستاذ محمد يوسف عضو الوفد المصرى فيما بعد بعبارات شديدة قاسية » .

ولم يكد المقال يظهر فى اللواء حتى اضطربت له الدوائر الرسمية فقد كان بطرس غالى عند نشره رئيسا للحكومة ، وكان أحمد فتحى زغلول وكيلا للحقانية ، فاستدعى الشيخ جاويشا فى ٨ / ٧ / ١٩٠٩ للتحقيق معه فى مقاله وأخذ فى استجوابه ، وكان المحقق عطية حسنى القائم برئاسة نيابة مصر فى غيبة على توفيق ، وبعد التحقيق وجهت اليه النيابة تهمتين :

١ — أنه أهان كلا من بطرس غالى وفتحى زغلول بصفتهما عضوين فى محكمة مصرية نظامية .

٢ — أنه قذف فى حق محمد يوسف بواسطة النشر .

وفى ١١/٧/١٩٠٩ أحالت النيابة القضية إلى محكمة الجنح بعابدين ، وحددت جلسة ١٧/٧/١٩٠٩ لنظر هذه القضية .

وكان حسين رشدى ناظراً للحقانية ، وكان يومئذ فى فرنسا ، فنشرت له إحدى الجرائد الفرنسية حديثاً جاء فيه « أن الشيخ جاويش لابد من ادانته والحكم عليه » وقرأ محمد فريد زعيم الحزب الوطنى الحديث وهو فى الاستانة فأرسل برقية بمضمونه إلى جريدة اللواء ، التى علقت عليه حاملة على ناظر الحقانية لتدخل فى عمل القضاء .

وبدأت المحاكمة ، وكانت محكمة عابدين تموج بالجماهير التى ملأت القاعة وتزاحمت فى طرقاتها ، وأخذت تحى المحامين الذين أقبلوا للدفاع عن المتهم ، وتقدم أحمد لطفى يشق طريقه يحف به الأستاذان محمود بسيونى وإسماعيل الشيمى ، وعقدت الجلسة برياسة قاضى المحكمة الأستاذ محمود على سرور ، ومثل النيابة الدكتور عبد الحميد بدوى ، وطالب الأستاذ اسكندر عمون بالحق المدنى عن محمد يوسف ، وكان الأستاذ محمود بسيونى أول من ترافع من المحامين . ثم وقف الأستاذ أحمد لطفى - وهو من رجال الحزب الوطنى - يدافع عن كاتب الحزب الوطنى .

وانتهت المرافعات وخلا القاضى الى نفسه وعاد فنطق بالحكم وكان يقضى على المتهم بالغرامة . واستأنفت النيابة الحكم ، وفى جلسة الاستئناف تكلم الدكتور

عبدالحميد بدوى وكيل نيابة عابدين، ثم ترافع الأستاذ إسماعيل الشيمي ، ثم الأستاذ أحمد لطفى .

ونطق الرئيس بالحكم ، وكان يقضى بتعديل عقوبة الغرامة وحبس المتهم ثلاثة شهور ،

وقام كثير من الوطنيين الأحرار يدعون الشعب الى الاشتراك فى إقامة حفلة لجاويش السجين الكريم عند خروجه من السجن يقدمون له فيها وساماً تقديراً لتضحيته فى سبيل أمته . وتم بسرعة جمع الاكتتابات وصنع الوسام وكان مؤلفا من ثلاث قطع من الذهب ، قد نقش على الأولى رسم الأهرام وكتب تحت النقش « تذكار الشعب إلى الشيخ جاويش اعترافاً بوطنيته الصادقة » ، ونقش على الثانية الآية : « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ».

وخرج الشيخ جاويش من السجن إلى داره .

وفى ٢٧ نوفمبر عام ١٩٠٩ قدم له الشعب الوسام فى حفل خاص أقيم فى شبرد ، وعاد جاويش يحمل على صدره وسام الشعب(١) .

نعم « قدرت له الأمة تلك المواقف التى يورث فخارها، فتلقته وهو خارج من تلك الغيابة بوسام ذهبي أسمته « وسام الشعب » ، وأركبه جمهور مستقبليه مركبة نابت فيها أذرع الشبيبة مناب قوائم الجياد (٢) » .

وكان هوى جاويش السياسى كله إلى الحزب الوطنى ، بل لقد كان من الغلاة فى هذا (المذهب) ، فاستقال وقام بالتحرير فى اللواء وجعل يكتب المقالات السياسية تتدفق قوة وتلتهب حماسة (٣) .

ثم عدت عواد فعطل اللواء وحل محله العلم ، فاخذ الشيخ جاويش يقوم باعباء رئاسة تحريره ويكتب المقالات البليغة فى الوطنية والاجتماع والاصلاح . وكان قلمه وأقلام الكاتبين معه تتهاداها صحف تخرج بعضها تلو بعض وعليها اسم الحزب الوطنى . وفى فبراير ١٩١٠ إنشاء مجلة الهداية لأفهام المسلمين أسرار دينهم ، وجاهد لإنشاء المدارس الاعدادية الثانوية والليلية لتعليم اللغة الفرنسية للأزهريين .

---

(١) ١٩٤٨/١٠/٢٩ ـ المصور

(٢) أهرام ١٩٢٩/١/٢٦ ، السياسة الأسبوعية عدد ١٩٢٩/٢/٢ من مقال للأستاذ المازنى

(٣) ٣٧٨ ج٢ المفصل

ثم كتب فى « الشعب »(١) . ومازال يطوى ليله ونهاره جاهدا فى الكتابة والخطابة ، مؤمناً كل الإيمان بان الانجليز بهذه الوسيلة سيجلون عن وادى النيل .

وكان جاويش يحب وطنه ويرى أن من حقه أن يتحرر وأن يستقل ، ولكن الإنجليز كان يأبون على الوطنيين الأحرار أن يتنفسوا وأن يطالبوا بحقوق بلادهم فى الاستقلال ، فاضطهدت جاويش اضطهادا شديدا . وفى سنة ١٩١٠ قدم جاويش للمحاكمة بسبب مقدمته التى قدم بها ديوان وطنيتى للأستاذ الغاياتى وحكم عليه بالحبس ثلاثة أشهر حبساً بسيطا مع التنفيذ .

وجاءت الحزب الطرابلسية عام ١٩١٢ فاشترك فيها جاويش بقلمه وبيانه ودعا الأمة الاسلامية إلى التطوع للدفاع عن طرابلس وحريتها ضد الاستعباد الايطالى الجديد، وهاجم الاستعمار المستعمرين بكل مافيه من قوة ، ووقف حجر عثرة لانجلترا فى وادى النيل .

فأصدرت أوامرها بنفيه من بلاده ، عام ١٩١٢ فاختار جاويش الاستانة منفى له وأرضاً جديدة ينشر فيها دعوته ويتعهد غرسه ، غرس الحرية والكرامة والشرف ودعوة الحق والنضال والاستقلال .

جاويش فى الاستانة

— ١ —

بدا للمرحوم جاويش أن يخدم مصر فى أفق لاتحد حرية الكتابة والقول فيه بمثل ما كانت تحد به فى مصر عهدئذ ، فسافر إلى تركيا مضطرا يطلب استقلال مصر وحريتها . وهناك كان يدعو إلى التأليف بين الولايات العثمانية ، وتمكن فى هذه الفترة من ناصية اللغة التركية . وكان(٢) بخاصة أثناء هذه الغربة جميل الصبر على المحنة حسن التجمل للبلاء . وكنت تحسبه من عزة النفس وإبائها وسموها على الضرورات كأنما يبذل عن سعة ، وماوقف أحد منه على مظنة حاجة ولا كان لأحد عليه منه ، ولقد عرض عليه منصب مشيخة الاسلام فأباه (٣) لئلا تقيد حريته ، ثم رضى منصباً دينيا يشرف منه على الحياة الاسلامية ولا يشرف فيه على حريته أحد . وكان فى اثناء تجواله يؤلف

---

(١) ٢-٢-١٩٢٩ السياسة الأسبوعية من كلمة للشيخ عبد العزيز جاويش

(٢) هلال مارس ١٩٢٩ ، أهرام ٢٦-١-١٩٢٩ ، السياسة الأسبوعية ٢-٢-١٩٢٩

(٣) ٢٦-١-١٩٢٩ الأهرام

الجماعات من الطلبة المسلمين للدعاية الاسلامية .

ولقد كان فى تركيا صاحب حول وطول ، وكانت له كلمة مسموعة ورأى مطاع ، وكانت كلمته عند أنور باشا لاترد . وكانت أمامه خزانة الدولة ينفق منها كيف شاء فيما يضطلع به من المهمات ويتولاه من المساعى ، ولكنه رحل من تركيا إلى ألمانيا وليس معه قرش واحد .

وكان فى تركيا ينام على ظهر جواده بين الثلوج المتراكمة فلا يكل ، وكان ربما نجحت ضده وشاية فيضطر أن يختفى فى (بدروم) بيت أياماً عديدة لايذوق فيها أكثر من اللبن ، وقد أعاد جاويش إصدار مجلة الهداية والهلال العثمانى « والحق يعلو » وتزعم حركة جمع التبرعات وإرسال الدخائر والقواد الأتراك إلى طرابلس لمقاومة الغزو الايطالى .

— ٢ —

فى تركيا واصل جاويش جهاده ، وعاش مما تدره عليه المجلات الاسلامية التى أنشأها .

وأخذ يدعو لقضية بلاده بكل مايستطيع ، وكان الطلبة المصريون فى الاستانة يجتمعون بجاويش فيوجههم ويسدى اليهم نصائحه وإرشاداته .

وكتبوا منشورا سياسيا وجهوه إلى الأمة المصرية لتستيقظ من سياستها وتحارب الاستعمار وكان زميلهم الطالب « أحمد مختار » على وشك السفر إلى مصر لقضاء أجازته السنوية ، فأرسلوا معه هذا المنشور لتوزيعه على الشعب المصرى ، ولكن المنشور ضبط مع الطالب أثناء تفتيشه فى جمرك اسكندرية فقبضت النيابة على الطالب ، واتهمت جاويشا بالتحريض والسعى والعمل على قلب نظام الحكم .

وأرسلت السلطات الانجليزية فى مصر إلى كامل باشا رئيس الوزارة التركية . تطلب منه تسليم جاويش إلى حكومة مصر لمحاكمته ، ووافق كامل باشا على طلب الانجليز . وسافر البكباشى « بلاتز » من الاسكندرية إلى الاستانة لاستلام جاويش وكان يرافقه بعض الضباط المصريين ، وصلت هذه البعثة الانجليزية إلى الاستانة وصحبها رجال البوليس التركى إلى منزل جاويش ففتشوه وألقوا القبض على جاويش وهو يحتفل بمولوده الثالث « أنور » . وذلك لكى يسافر معهم إلى مصر لمحاكمته .

وودع جاويش ولديه : صلاحا و ناصرا ، وترك الأسرة أمانة فى عنق صهره محمد فهمى الفولى ، وركب الباخرة الى مصر ، فوصل إلى الاسكندرية وألقى به فى سجن محرم

بك في زنزانة ضيقة مظلمة رطبة تحت الأرض ، ومكث فيها خمسين يوما دون سؤال أو محاكمة ، وتبين من كشف طبيب السجن عليه أنه مصاب بانفجار فى الشريان الحلق وبالروماتزم ، فأضرب عن الطعام ، حتى اضطرت النيابة إلى استجوابه بعد سبعين يوما من حبسه ، وكان النائب العمومى هو عبد الخالق ثروت ، وبدأ النائب يستجوب جاويشا ، وكانت أول كلمة نطق بها جاويش أمامه : « اعلم يا ثروت أنى أعرف الله وأومن به وأخدم الانسانية طول حياتى ، فلتفعل القوة بى ما تشاء وقد توكلت على الله وأنا مستريح الضمير » .

وبعـــد التحقيق معه أطلق سراحه ، وأبعـد من مصر فيمم وجهه شطر تركيا .

وكان تسليم كامل (باشا) جاويشا للإنجليز مثار غضب الرأى العام فى العـالم الاسلامى ، ونظم الشاعر العراقى معروف الرصافى قصيدته « إخفار الذمم » يخلد بها ذكرى هذه الحادثة ومطلعها :

إنى عهدتك ألا تـكون يؤوسا   مهما لقيت مصائبا ونحوسا(١)

أنشأ جاويش فى تركيا كما قدمنا مجلة الهداية الاسلامية بالعربية ، ومجلة الهلال العثمانى بالتركية ، وأخذ ينشر أفكاره وآراءه الدينية والوطنية والاجتماعية عن طريق هاتين المجلتين(٢) .

وقد حرمت مصر تداول الهلال فيها ، وأنذر محافظ الاستانة جاويشا بتعطيل الهلال لمهاجمته لانجلترا ، وكان جاويش يدعو لقضية بلاده ويخدم قضايا الشعوب الشرقية الاسلامية بكل ما يستطيع ، وكانت له منزلته عند الخليفة محمد رشاد ، وكانت كلمته عند أنور لا ترد .. وفى سنة ١٩١٤ أنشأ جاويش الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، وأعاد إصلاح كلية صلاح الدين بالقدس وعهد اليه بإدارتها .

وفى ٢٧-٧-١٩١٤ قبيل الحرب الكبرى بأربعة أيام حضر جاويش إلى لندن مع الأميرال رؤوف قائد المدرعة الحميدية التركية الشهـيرة ، وكان رؤوف قد حضر لتسلم باخرتين أوصت تركيا بصنعهما فى انجلترا . وحضر معه جاويش ليساعده

---

(١) راجعها كلها فى ديوان الرصافى ص ٤٤٣

(٢) وذاعت مجلة الهداية فى العالم الاسلامى ، وكانت من بعض جهاتها مثابة دينية ، ومن بعضها الآخر خزانة علم ومجمع أدب ، وكانت طرفة لقرائها لا يجدون مثل ما فيها فى صحيفة أخرى (أهرام ٢٦-١-١٩٢٩) .

فی مهمته الرسمية لسابق معرفته لانجلترا ، وابزور خلال مهمته الرسمية صهره محمود الفولی الطالب بكلية الهندسة بجامعة لندرة .

وفی ۱۹۱٤/۷/۲۸ أطلق طالب مصری اسمه « مظهر » الرصاص علی الخديوی عباس أثناء وجوده فی زيارة الاستانة ، وأصيب الخديوی فی وجهه .

اتهم الانجليز جاويشاً بتدبيره الاعتداء علی الخديوی ، وكان جاويش موضع المراقبة الشديدة فی لندن ، فخاف من القبض عليه ، وهرب من لندن متخفيا ، وسافر مع الدكتور شرف من ميناء نيوهيفن إلی « دييب » بفرنسا ومنها واصل سفره إلی باريس

وفی أول أغسطس عام ۱۹۱٤ أعلنت الحرب العالمية الاولی ، فسافر جاويش من باريس مع صهره الفولی إلی نابولی متنكرا ، وواصل السفر إلی الاستانة .

تولی أنور رئاسة الوزارة التركية ، كما كان رؤوف وزيرا فی وزارته ، وهما أصدقاء لجاويش فرحبوا به .

وأخذ جاويش يعمل من جديد لخدمة قضية بلاده . فبدأ سعيه من أجل إعلان تركيا استقلال مصر .

وكانت اللجنة الادارية للحزب الوطنی ومنهم الدكتور عبد الحميـــد سعيد ، قد تمكنوا من الفرار من مصر والسفر إلی الاستانة لخدمة القضية المصرية خوفا من اعتقال الانجليز ، وساعدهم محمد الفولی الموظف بجمرك الاسكندرية علی السفر وإخراج جوازاتهم ، سافروا من الاسكندرية إلی بيريه فسالونيك ، ومنها سافروا فی باخرة إلی أزمير فالاستانة ، وكانت مراقبة الانجليز للباخرة شديدة وصعدوا عليها وفتشوها ، ولكنهم لم يعرفوا المصريين ولم يتمكنوا من رؤيتهم ، وعند وصولهم إلی الاستانة استقبلهم صديقهم جاويش بالترحيب وقدمهم لأنور وزير الحربية .

اجتمع هؤلاء الوطنيون فی الاستانة ، وأعلنوا استقلال مصر التام عن انجلترا .

وأخذت تركيا تعد حملة حربية لتحرير مصر من نير الاحتلال الانجليزی ، وتحركت الحملة الحربية عام ۱۹۱٥ فسافر المصريون إلی دمشق ولحق بهم جاويش ، ثم واصل جاويش سفره إلی القدس للحاق بالحملة ، وحينما عرفه الجمهور استقبلوه استقبالا حاراً .

أنشأ جاويش فی القدس « كلية صلاح الدين » وقد عهد اليه بإعدادها وإدارتها ، ثم عاد المصريون إلی الاستانة ومعهم جاويش للدعاية للنهضة المصرية ، وكانت الحكومة التركية تساعدهم مالياً علی المعيشة .

جاويش فى ألمانيا وسويسرا

— ١ —

سافر جاويش من الاستانة إلى برلين خلال الحرب العالمية الأولى لإنشاء مكتب للدعاية للقضية المصرية وتولى إدارة المكتب عبدالملك بك حمزة ، وأصدر المصريون فى برلين مجلة إسلامية باللغة الألمانية بإرشاد الشيخ جاويش .

وزار جاويش الأسرى المسلمين فى برلين داعيا للوحدة الاسلامية بينهم ، وللجهاد فى سبيل تحرير شعوبهم وأممهم من نير الاحتلال .

ثم عاد جاويش إلى الاستانة ، وأخذ عبد الملك حمزة يقوم فى برلين بخدمة قضية مصر ، وأنشأ فيها « جمعية استقلال مصر » وكانت تركيا تساعد هذه الجمعية ماليأ بفضل جهود الشيخ جاويش ، وقد نشر برنامجها فى ١٧-١-١٩١٧ .

وبفضل مساعى جاويش لدى تركيا اعترفت الحكومة التركيـــة بحقوق مصر واستقلالها عام ١٩١٧ .

— ٢ —

ثم سافر جاويش مرة ثانية إلى برلين خلال الحرب ، واجتمع بالوطنيين المصريين هناك حيث اتفق رأيهم على أن يطالبوا مؤتمر « برسليتفك » (١) بالاعتراف بحقوق مصر ، وقد توج مجهودهم بالظفر فأخذوا عهدا من ألمانيا وتركيا باستقلال مصر بعد انتصارهم وانتهاء الحرب .

وفى أكتوبر ١٩١٧ سافر جاويش إلى استوكهلم لحضور مؤتمر الشرقيين بهولاندا وذلك لخدمة قضية بلاده . ثم سافر بعد ذلك إلى برلين لتفقد حال الجمعية المصرية ، والمجلة الاسلامية التى تعهدهما ، وأخذ المصريون هناك يعملون على توثيق العلاقات بين مصر وألمانيا ، وأخذوا من الحكومة الألمانية تعهدا باستقلال مصر بعد الانتصار فى الحرب ونص هذا التعهد . « إن ألمانيا تتعهد بأنه عند انتصارها تزيل ما للانجليز من نفوذ عن البلد الذى تمر به قنال السويس ويكفى ألمانيا من ذلك أن تبعد النفوذ الانجليزى دون أن يكون لها أى مطمع فى مصر » .

وعاد جاويش إلى الأستانة ، فأخذ يفاوض أنور فى سبيل حقوق مصر ، وقال له أنور أشياء وأحاديث فى هذه المفاوضات المستمرة التى كان يقوم بها جاويش ، منها : « لا يمكننا أن ننسى مطلقا ما قمت به أنت من مساعدتنا أثناء حرب طرابلس وإننا نعلم أنك

---

(١) اشترك فى هذا المؤتمر مندوبون عن تركيا وألمانيا وبلغاريا وروسيا والنمسا

بسبب ذلك أخرجت من بلدك ومن وطنك » . . وأخذ جاويش يدعو إلى الوحدة العربية والاسلامية وينشر فى ذلك مقالات رنانة ، وفى أثناء ذلك أصابه مرض شديد وأعلنت الهدنة فى نوفمبر عام ١٩١٨ ، فوقع الخبر كالصاعقة على جاويش . وأصبحت الاستانة على وشك احتلال الانجليز لها فسافر جاويش ومن معه من المصريين بمساعدة تركيا إلى أودسا ، ومنها واصلوا السفر إلى برلين .

— ٣ —

وصل جاويش إلى برلين فبلغها هو ومن معه من المصريين(١) فى المساء ، واجتمع المصريون بنادى مجلة العالم الاسلامى برئاسة محمد فريد رئيس الحزب الوطنى وقرروا استئناف الجهاد لأجل استفادة مصر من شروط ويلسون الأربعة عشرة .

وكانت ألمانيا فى هذه الفترة مهددة باحتلال الدول المنتصرة فى الحرب ، فسافر جاويش ومن معه إلى سويسرا ، حيث أقاموا فى برن وقرروا الدفاع عن قضية مصر فى أرض سويسرا .

ولكنهم أصيبوا بأزمة مالية حادة ، ومع ذلك واصلوا جهودهم الوطنية ، فانتهزوا فرصة عقد المؤتمر الاشتراكى بسويسرا برئاسة هندرسون ، وقابله جاويش مطالبا تمثيل مصر فيه ، فطلب منه هندرسون تقديم مذكرات تشرح قضية مصر لتوزيعها على الأعضاء ، وكتب المصريون الأحرار المذكرات وسلموها لهندرسون ولكن تبين أنه لم يوزعها على الأعضاء .

واشتدت الأزمة المالية بهؤلاء الأبطال ، وأخيراً تمكنوا من عقد قرض مالى من صديق لشوقى (سفير مصر فى تركيا بعد ذلك) .

وقامت الثورة المصرية فى مصر سنة ١٩١٩ ، ففرح جاويش بها فرحا شديداً ، وفى ذلك يقول : « عندما علمت بخبر الثورة المصرية الكبرى التى لا أقدر أن أصفها إلا بأنها من روح الله سبحانه وتعالى قلت : ياسبحان الله صدق الله العظيم : حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا » .

ثم سافر جاويش وأصدقاؤه من برن إلى عاصمة سويسرا ، وله قصيدة نظمها فى هذه الفترة ، عنوانها « نشيد الأحرار » ، ومنها :

مصر رجى من دمانا ما اشتهيت من فدا

(١) وهم محمد فريد ، وجاويش ، وعبدالحميد سعيد ، وعبد الملك حمزة ، وعوض البحراوى ، ومحمد على . وهم جميعا من رجال الحزب الوطنى .

واطلبى العزة منـــا   نحن نـكفيك العدا

ولما أفرج عن سعد وزملائه المعتقلين فى مالطة قال جاويش لأصدقائه من رجال الحزب الوطنى : « إن رأيى بالنسبة لهذا الحادث العظيم أن نضع أيدينا فى أيدى من فوضتهم الأمة » فوافقوا بالإجماع ، وأرسل جاويش تلغرافاً لسعد يقول فيه « نحن نهنئك بثقة الأمة المصرية ونرجو أن يكتب الله لك ولإخوانك المخلصين التوفيق » .

وأخذ جاويش يتصل بسفير أمريكا فى سويسرا لتمهيد الجو لبعثة الوفد المصرى التى قرر إرسالها إلى أمريكا برئاسة محمد محمود ، وطالما كان جاويش يقول : لا نريد إلا أن تحيا مصر وأن يموت عبد العزيز جاويش وغيره فى سبيل مصر .

وهكذا كان جهاد جاويش البطل العظيم فى سويسرا . . . ولكن غلاء المعيشة بسويسرا أزعج جاويشا وأصدقاءه ، فسافروا إلى برلين .

— ٤ —

عاد جاويش من سويسرا إلى برلين وفى أثناء ذلك توفى محمد فريد فى ١٥-١١-١٩٢٠ فكانت وفاته كارثة وطنية كبيرة .

لم يكن مع جاويش مال وليس أمامه مساعدات مادية ينتظرها ، فاقترح عليه صهره الدكتور محمد الفولى الاشتغال بالتجارة مع أشقاء الدكتور بمصر على أن يرسل جاويش لهم بضائع فيبيعونها بمصر ، وأسسا فى ألمانيا « شركة مصر التجارية » ، حيث كانا يرسلان بضائع إلى أصهاره الذين فتحوا بالاسكندرية مكتباً لذلك تولى إدارته محمود الفولى صهر الأستاذ ، وانضم إليهم المرحوم على فهمى الذى دفع مبلغ ٣٠٠ ألف مارك ، ولكن قيمة المارك الالمانى هبطت هبوطا كثيرا فانفصل عنهما على فهمى الذى طالب بماله فبيع ما فى مكتب الاسكندرية لسداد مبلغه ، وأقفل المكتب وصفيت الأعمال فى برلين ، وأقفل باب هذا الامل أمام جاويش وصهره .

وجاء عام ١٩٢٢ ، فأخذ جاويش يفكر فى العودة إلى مصر ، حيث كان شديد القلق على أولاده الذين تركهم منذ عام ١٩١٨ بالاستانة وخاصة طفلته التى ولدت بعد سفره عند إعلان الهدنة ، وكان يقيم مع جاويش فى هذه الفترة صديقه الدكتور « أحمد فؤاد » .

أقام الزميلان فى « ميونيخ » فى قرية اسمها « فيلد افنج » من ضواحى ميونيخ ، حيث الغلاء أقل مما فى برلين ، وكانا ينفقان من مال قليل كان مع الدكتور فؤاد ، حتى اضطرا إلى الاقامة فى حجرة بسيطة معا على الـكفاف يغسلان ملابسهما ويطهيان

طعامهما البسيط الساذج بأيديهما .. وكان جاويش قد درس اللغة الالمانية وتمكن منها عدا العربية والتركية والانجليزية التى كان يجيدها . وذاق جاويش هناك الأمرين من الفقر والغربة فى تلك الظروف القاسية ، والبعد عن الصحب والولد ، وامتحن بهذا كله امتحانا شديدا ، لكنه صبر لقضاء الله، على أنه مابرح يجهد فى الدعوة لمصر ما وجد إلى الدعوة سبيلا .

اضطر فى جملة ما اضطر إليه أن يحتطب(١) فى الغابات ليكسب رزقه ويقتات كأجهل عامل فقير(٢) .

لم يفت فى عضد الشيخ فقر أو مرض أو غربة ، أو بعد عن الأهل والولد الذين لا عائل لهم فى مصر .

ولكنه ظل مجاهدا فى سبيل وطنه بقلمه ولسانه كاسبا لها عطف الكثير من الاحرار . وما برح يعمل لخدمة قضية بلاده ووطنه ما وجد إلى الدعوة سبيلا .

ولكن صحة جاويش ساءت ، وأصيب بحالة عصبية شديدة ، ولعل العامل الأول فيها هو قلقه على أولاده وأسرته .

وحضر صهره الدكتور محمد فهمى الفولى الذى كان طالبا بجامعة الكيمياء ببرلين ليطمئن على صحته التى ساءت ، ورأى أن الحالة تستدعى حضور أسرة الشيخ ، فأرسل تلغرافا إلى محمد رمضان الفولى صهر الاستاذ بالاسكندرية لإرسال أسرة جاويش إلى ألمانيا ليراهم وكان أولاده مقيمين بمنزل جدهم محمد رمضان الفولى بالاسكندرية منذ عودتهم من الاستانة وكانوا تحت رعايته .

سافرت الزوجة والأولاد ، ومعهم خالهم الاستاذ مصطفى الفولى ، وأرسل محمد الفولى برقية إلى ولده الدكتور الفولى ليقابلهم ، وعلم بذلك جاويش ففرح كثيرا واستعاد نشاطه وصحته .

وصلت الاسرة إلى ميونيخ واستقبلها الدكتور فهمى الفولى ، وأقامت معه فى فيلدافنج من ضواحى ميونيخ . ولكن الشيخ أنفق ما معه من نقود ، وأصيب اخيرا بأزمة مالية شديدة ، أثرت فى صحته ، فاعتراه مرض قاس ، وفى هذه المحنة زاره عزيز عزت ، وعلم بمحنته ، فساعده بمبلغ كبير من المال .

وفى ١٦ مارس سنة ١٩٢٢ أعلن استقلال مصر ، وورد خطاب للجاويش من

---

(١) ٧٨ج٢ المفصل، وأهرام ٢٦-١-١٩٢٩ والسياسة الاسبوعية ٢-٢-١٩٢٩

(٢) ٣٧٨ج٢ ، المفصل .

فؤاد سليم يطلب اليه السعى فى العودة إلى مصر ، وأخذ أصدقاء جاويش فى مصر يسعون لذلك ، ولكن معارضة انجلترا لعودته كانت شديدة . فوقفت مسألة عودته لوطنه

جاويش يعود إلى تركيا

وفى ١١-١٠ ١٩٢٢ انتصر مصطفى كمال فى جنوب الاناضول على الجيش اليونانى انتصارا ساحقا ، وظفرت تركيا باستقلالها ، وخرجت جنود الحلفاء من الاستانة وأصبح كمال هو المسيطر والمشرف على أمور بلاده ، وتولى القائد رءوف صديق جاويش رئاسة الوزارة التركية .

وبعد قليل أصدر رءوف قرارا بإسناد رئاسة لجنة الشئون الثقافية الاسلامية لجاويش ، وفى ١٧ أغسطس ١٩٢٢ بلغ جاويش نبأ تعيينه رئيسا لهذه اللجنة ، فسافر فى ٢٣-١٠-١٩٢٢ إلى تركيا ، وأسرته إلى الاسكندرية .

وصـــل جاويش أنقره فى ١٧ - ١١ -١٩٢٢ ، وكان رءوف فى انتظاره على رصيف المحطة .

ونزل جاويش فى فندق المدينة الوحيد ، وزار الخليفة وحيد الدين ، وولى العهد عبد المجيد .

وتولى جاويش عمله رئيسا للأكاديمية الإسلامية ، وفى ٢٥-١١-١٩٢٢ قابل مصطفى كمال . ودار بينه وبين كمال حديث طويل ، وتبين أن الشيخ لم يرق فى نظر كمال ، لأفكاره الإسلامية ، وإيمانه بضرورة بقاء الخلافة .

وأرسل جاويش خطابا لابن أخته الأستاذ أحمد ابراهيم بعمله فى الأكاديمية .

كما أخذ يخدم القضية المصرية فى أنقرة ، ويسعى لاتحاد الوفدين المصريين الذين سافرا إلى مؤتمر لوزان ، وقابل جاويش رؤوف بخصوص حقوق بلاده ومستقبل القنال ، وقال جاويش : « إن كنا فعلنا شيئا فلمصر والمصريين ، إنه من أكبر الجنايات وأعق العقوق أن ينبت الرجل ويتكون من أرض ، ثم يفكر يوما فى التسامح أو التفريط فى شبر منها » .

وزار نجم الدين وهو أحد أصدقاء كمال جاويشا ونصحه بعدم التدخل فى شئون الحكومة والخلافة .

كان أثر جاويش الدينى والثقافى فى هذه الفترة أثرا جليلا خطيرا ، فقد خدم الفكرة الاسلامية خدمات جلى ، وأشار على تركيا أثناء إقامته فيها بإنشاء جامعة إسلامية بالمدينة المنورة ، وألف عدة كتب منها « أذى الخمر ومضاره » وكتاب

إجابتى على الكنيسة الانجليكية التركية ، فوق مقالاته التى كانت تنشر فى أهم المجلات .

عودة جاويش إلى أرض الوطن

— ١ —

أرسل جاويش إلى الجرائد المصرية كلمة يناشد المصريين فيها أن يساعدوه على العودة إلى بلاده .

ثم جاءت الانتخابات النيابية لأول برلمان مصرى بعد الاستقلال ، فرشح أصدقاء جاويش الشيخ فى الإسكندرية نائبا عن مجلس النواب ، وطالبوا رئيس الحكومة بالتصريح له بالعودة . واتصل الشيخ بالسفارة الانجليزية فى تركيا لتؤشر له على جواز سفر إلى مصر(١) ، ولكنها رفضت ، وماطل رئيس وزراء مصر فى هذه المسألة . فرفع العرارجى المحامى بالاسكندرية على رئيس الحكومة ووزير الخارجية بالنيابة عن جاويش قضية تعويض بمبلغ قدره خمسمائة جنيه ، وعشرين جنيها عن كل يوم يقضيها بعد ذلك بعيدا عن بلده .

— ٢ —

ولم تجد كل هذه المحاولات فأخذ جاويش يحتال حتى عاد إلى مصر جوعان غرثان منقطع الأسباب ، وذلك فى ١٣ ديسمبر ١٩٢٣ .

افتقده الحزب الوطنى أحوج ما كان لبلاغة قلمه ، فإذا هو بينهم لا يعرفون أى هالة أطلعت هلاله ، وبقى ذلك سرا مكنونا فى صدره . وكان خصومه يذيعون أن الشيخ حضر إلى مصر على طيارة انجليزية ، وكان الشيخ يحز فى نفسه أن يزعم المغرضون هذا الزعم الباطل . « وجاهد عبثا أن يبدل حياته بعد أوبته من الضيق سعة ، وأن يقيلها من عثرتها المالية ؛ فلم يوفق لأكثر من سبب(٢) » . وجعل جاويش يحلى صدر اللواء فى عهده الثانى بمقالاته وكلماته حتى عطل . وكان ترشيح الشيخ نفسه لمجلس النواب

(١) كانت السفارات والمفوضيات الانجليزية فى الخارج هى التى تتولى تمثيل مصر وتشرف على مصالحها فى الخارج قبل الاستقلال وبعده إلى ماقبل إنشاء المفوضيات والسفارات المصرية وتنظيمها .

(٢) المازنى : السياسة الأسبوعية ٢/٢/٢٩ .

على مبادىء الحزب الوطنى ، فناوأه الوفد المصرى وأثاروا عليه العامة فى الاسكندرية فلم يفز بآماله فى خدمة الوطن تحت قبة البرلمان فى ظل الدستور والديمقراطية .

جاويش فى التعليم الأولى

— ١ —

واختارت الحكومة جاويشا لتنتفع بتجربته الحكيمة فى منصب المراقبة للتعليم الأولى عام ١٩٢٥ ، إذ صحت العزيمة على تعميم هذا النوع من التعليم فى جميع أرجاء البلاد طوعا لحكم الدستور ، فقام بالمهمة التى ألقيت على كاهله وكان مثال الجد والدأب والعزيمة الماضية . وإليه يرجع الفضل فى توطيد هذا النظام وفى المشارفة بهذا المشروع على التمام . وكان له فوق ذلك رأيه السديد فى برامج التعليم .

وبقى فى هذا المنصب إلى أن توفى عليه رحمه الله ، وقد كان المرحوم جاويش يرى أنه قد يستطيع الجهاد فى سبيل وطنه بنشر العلم والثقافة فيه ؛ فقام بالمهمة واضطلع بالأمر وجهد وذال الصعب ويسر العسير ، وخطا المشروع خطا واسعة إلا أن الشيخ لم يلبث بضع سنين حتى أدركته علة القلب ، فما وهن ولا فتر ولكن ظل على جهاده ونشاطه .

— ٢ —

وفى أثناء توليه إدارة مراقبة التعليم الأولى ألف عدة كتب ونشر الكثير من البحوث والمقالات فى الدين والتربية والتعليم والاجتماع والأدب واللغة .

— ٣ —

وفى خلال هذه الفترة تولى وكالة جمعية الشبان المسلمين(١) ، ووكالة نقابة المستخدمين الخارجين عن هيئة العمال . كما رعى جمعية المواساة الإسلامية التى أسسها من زمن طويل ، فعنى بها بعد رجوعه من منفاه .

وفاة جاويش

— ١ —

ضعفت صحة جاويش فى الفترة الأخيرة من أثر الكفاح الذى صارع بنيانه نحو عشرين عاما ، وأصابته علة القلب ، وظل يغالب المرض ويصارعه ، حتى إذا ما اتصفت

---

(١) أنشئت الجمعية فى ٩ ديسمبر ١٩٢٧ ، واختير جاويش وكيلا لها .

الساعة الرابعة من صباح الجمعة ٢٥ يناير ١٩٢٩ (١) — ١٤ شعبان ١٣٤٧ — ١٧ طوبة ١٦٤٥ ق ، أسلم روحه راضيا مرضيا .

— ٢ —

واحتفل بتشييع جنازته فى الساعة الرابعة بعد ظهر الجمعة من منزل الفقيد إلى شارع المبتديان فميدان السيدة زينب حيث صلى عليه . . وسار فى مقدمة الموكب العلماء والعظماء والوزراء وجمهور الشعب .٪

وواصل الموكب سيره إلى المبتديان فالسيدة زينب حيث صلى على الفقيد ، واستانف سيره إلى قرافة الإمام . فوضعت الجثة إلى جانب جثة المرحوم أمين الرافعى فى ضريح المغفور له مصطفى كامل .

وهكذا « فقدت مصر فيه عالما ووطنيا خدمها الخدمات الجلى طول حياته » (٢) .

— ٣ —

ونعت الفقيد إلى الأمة المصرية جمعية الشبان المسلمين وكان المرحوم جاويش وكيلا لها ، وجاء فى نعيها مايلى (٣) :

اختار الله إلى جواره علما من أعلام الإسلام وركنا من أركان الجهاد وإماما من أئمة النهضة المصرية خاصة والشرقية عامة ، وداعية صادقا من دعاة الاصلاح وهداة الإنسانية ، ذلك هو المغفور له صاحب الفضيلة الشيخ عبد العزيز شاويش وكيل جمعية الشبان المسلمين ، فارق هذه الدنيا الفانية وقد ترك من آثار جهاده الطويل الشاق ما كتب له المنزلة الأولى بين الخالدين العظماء ، وأبقى من آيات صبره على الشدائد وثباته فى المبدأ والعقيدة خير مثل وأصدق قدوة لمن يسلكون سبيل الصادقين الأبرار .

— ٤ —

ونعته نقابة المستخدمين الخارجين عن هيئة العمال وكان وكيلا لها . ودعا لفيف

---

(١) ولا أدرى كيف يخطىء أصحاب المفصل فيجعلون تاريخ وفاته عام ١٩٢٨ (المفصل ٢/٣٧٧) مع أنهم مابين صديق وزميل وتلميذ للمرحوم جاويش، ومع أنهم يؤرخون لرجل عظيم ويكتبون للأجيال القادمة عنه .

(٢) هلال مارس ١٩٢٩ .

(٣) راجع أهرام ٢٦-١-١٩٢٩

من الشبان المثقفين جميع الأمة بشتى طبقاتها إلى جنازة صامتة فى الساعة الرابعة مساء السبت ٢٦-١-١٩٢٩ بميدان السيدة زينب لرجل العلم والوطن المرحوم الشيخ عبدالعزيز جاويش .

— ٥ —

وكتبت الأهرام فى الصفحة الخامسة من عدد يوم السبت ٢٦-١-١٩٢٩ مقالا ضخما بعنوان « فجيعة وطنية كبيرة ، وفاة الشيخ عبدالعزيزجاويش » ، جاء فيه :

« أبى حظ مصر العاثر إلاأن يفجعها فى الصفوة المختارين من أبنائها ، فما تكاد تكفكف دمها على فرد منهم رجاء التعزى بصنوه حتى تعجل اليها النائبة فيه . فقبل التعزى عن مفقود يباق فجعة أخرى فى مفقود ، وعلى أثر المأتم الذى لم ينقض مأتم آخر معقود ، ومع الجرح الذى لم يلتئم بعد جرح جديد يسيل ، ومع الركن المتداعى من الصبر ركن منه مهيل . فيالهذه الأم الثاكل ماذا يبدع الدهر لها من فجائعه مثنى وموحداً .

ختم العام الأسبق بنعى « أمين » (١) ومن قال «أمين» قال: الحر النزيه الأمين . وكان الأمس ، أمس ، الفجيعة فى الرجل الذى مثل بسيرته فى الآخرين حياة السلف الصالح تقاة وكمالا ، ومسماة وخلالا ، بل الرجل الذى دخل الدنيا كما دخلها أولو العزم ثم خرج منها كما خرجوا : نقى الصحيفة لم تزن نفسه بريبة ، ولا أخذت سيرته بظنة ، ولا علقت بمشهده أو مغيبه شبهة ، إذ كان يصدر عن نفس سماوية : يعمرها جلال الحق ، ويسطع فيها نور الايمان ، ويحدو بها الرغبة عن عرض الدنيا إلى متاع الآخرة . نعنى المغفور له الأستاذ الجليل الشيخ عبد العزيز جاويش . مراقب التعليم الأولى فى وزارة المعارف . ومؤلف جماعة المؤاساة الإسلامية ، ومنشىء مجلة الهداية ومحرر العلم واللواء من قبل ، وصاحب التآليف البارعة .

غاله الموت ولم يفرغ بعد من تأمين القائمين با لتعليم الأولى على حياتهم ، إذ كان يضع لذلك مشروعاً صالحاً لو أنسىء فى أجله حتى يوفى به على التمام اسعدت به تلك الطائفة العاملة التى تشكو الشقاء . فيالفجيعتهم فى ذلك الأمل الجسيم .

غاله الموت وهو يجد فى إتمام تلك الجماعة الخيرية التى تعول مئين من الأسر المسكينة ، ويتخرج فى مدرستها المجانية العشرات من النجب فى كل سنة ، فيالمصاب

---

(١) هو المرحوم أمين الرافعى علم من أعلام مصر الحديث وزعيم من زعماء الحزب الوطنى ، توفى فى ٢٩-١٢-١٩٢٧

الانسانية . غاله الموت وهو يتأهب ليخرج من جديد مجلة الهداية التى كانت منبراً إسلاميا عالى الذرا ، وكانت ينبوعا يتفجر منه تفسيره للقرآن الكريم على نمط لم يسبق اليه ، فيالرزيئة العلم . . غاله الموت وهو يستمد معونة الله وتجربته الحكيمة ليضع لذلك الجانب من التعليم من النظم مايكفل توطيد قاعدته وتعميم فائدته . فيالنكبة التعليم فى ذلك العليم من رجالاته » . غاله الموت وهو يضع لجماعة الشبان المسلمين ونقابة موظفى الحكومة الخارجين عن هيئة العمال أمثل ماتجرى عليه الجماعات من خطة حكيمة ، فيالمصيبة الجماعتين فى معقد رجائهما » .

وفى الساعة الرابعة من يوم الجمعة ١٥ مارس ١٩٢٩ أقيمت بإشراف جمعية الشبان المسلمين حفلة تأبين كبرى لجاويش تحدث فيها عن مناقبه وجهاده صفوة من العلماء والكتاب ، ورجال السياسة والأدب ، وأبنته الصحف والمجلات فى مصر والعالم الاسلامى كافة .

ولما مات جاويش وشعر الناس بفداحة المصاب فيه ، نظم أمير الشعراء أحمد شوقى مرثية طويلة فى جاويش ، بدأها بقوله :

أصاب المجاهد عقبى الشهيد وألقى عصاه المضاف الشريد(١)

شخصية جاويش

أخلاق جاويش :

« أما أخلاق الأستاذ فكانت نسيج وحدها طيباً وكمالا ، ما رضى ولا غضب لنفسه ، وإنما كان غضبه ورضاه لوطنه وأمته . وكان كريم اليد حتى فى اشتداد المحنة عليه ، محتفظا بكرامته ، لايرى فوقها كرامة . وكان أميل إلى حياة الزهد بقناعة . عطوف القلب رفيقه ، موطأ الأكناف لأصدقائه ، صلباً فى الحق على خصمه . لايضن بجاهه ولا علمه ولا مشورته على مستنصح أو مستفيد . ولسنا ـ بما نصف من ذلك ـ نجامل أحدا ، وإنما هو ماعرفته بالخبرة من فضل الراحل الكريم »(٢) .

وكان هذا الرجل المحنك الذى ترك فى كل بلد أثراً من الاصلاح ، ربما كتب مقالا ودفع به إلى ، وأنا الذى لا يعد نفسه إلا فى مرتبة أبنائه ، قبل أن يبعث به إلى المرحوم

---

(١) راجع القصيدة فى الشوقيات جـ٣ ص٧٢

(٢) أهرام ٢٦-١-١٩٢٩

أمين الرافعى ، فيبدو لى وجه اعتراض أفضى به إليه ، فيبتسم ويقول : صدقت إن عذرى أنى كالغريب ، ويمزق الورقات غير آسف ولا مستنكف . وكان تواضعه هذا يسحرنى ويروعنى لأنه أدل على سمو النفس وبساطتها »(١) .

« وكان الشيخ جاويش رحمه الله ، إلى ما له من الصفات التى ذكرناها لك ، عذب الروح ، حلو الحديث فى توقر واحتشام ، شديد الحياء حتى ما يكاد يرفع بصره إلى محدثه ، وكان مع هذا حاد المزاج يثور لأقل ما يتوهم فيه الغض من كرامته أو التهاون فى دينه : بل مخالفة رأيه ، على أنه كان من صفاء النفس ، وطيبة القلب ، وخلوص النية بالمكان الأرفع ، كما كان سمحا كريما يجود حتى بقوته ولو لم يكن إلى سواه السبيل » (٢) .

وكان وسيم الطلعة ، أبيض الوجه ، مشرق الديباجة ، باسم الثغر ، متطرفا فى وطنية صادقا فى حبه لمصر ، يرمى بالخيانة كل من خرج على مبادىء الوطنية الصحيحة التى يؤمن بها .. إلى ما أوتيه من ذكاء ومقدرة وشخصية جذابة .

جاويش العالم :

تلقى جاويش ثقافته فى الأزهر ودار العلوم ثم أكملها فى لندن ، وشغل مناصب كبيرة فى وزارة المعارف كما كان فى منصب علمى كبير فى اكسفورد وطاف بالبلاد فى الشرق والغرب وقضى حياته بعيداً عن وطنه متصلا بتيار الثقافة والتفكير فى تركيا وأوربا وبلاد الشرق . فوق عقليته الجبارة وذهنه المتوقد ، وإلمامه باللغة العربية والتركية والإنجليزية والألمانية ، وكل هذه العوامل جعلت من جاويش بحق عالماً كفؤا ، وباحثا مدققا ، وذا عقلية من الطراز الأول بين علماء النهضة الحديثة فى مصر والشرق العربى .

جاويش المؤلف :

ألف أول عهده بالتعليم كتابين لا يزالان فى بابهما أحسن مرجعين ، وهما : كتابه فى « إرشاد المعلمين » ، وكتابه الذى أسماه « الاسلام دين الفطرة » ، عدا كتاباً آخر نشره تباعا فى الأخبار عن المسكرات ، وهو كتاب مادته من الطب والأرقام وغيرها . وعدا الكتاب الذى أودعه محاضرات دينية(٣) . وله كتاب عنوانه « أثر

---

(١) المازنى : السياسة الأسبوعية ٢/٢/١٩٢٩

(٢) المفصل ٢٧٨/٢

(٣) أهرام ٢٦/١/١٩٢٩

القرآن الكريم فى تحرير الفكر البشرى » .

وقد سبق أنه ألف فى لندن : كتاباً فى « أذى الخمر ومضاره » . وهو الكتاب الذى سبق آنفا التنويه به ، كما ألف كتاب « إجابتى على الكنيسة الانجليكية » باللغة التركية ، وكتاب « الاسلام دين الفطرة » وكتاب «غنية المؤدبين » قد طبعا مرارا .

ولجاويش كتاب آخر سماه « خواطر فى التربية النفسية والاجتماع » وأبحاث عن المرأة المصرية والشئون العامة ، بقلم خبير بأطوار الأمم الشرقية .. وهو مقالات سياسية واجتماعية ووطنية نشرها جاويش بجريدة اللواء ، وجمعت فى هذا الكتاب الذى وقع فى١٣٦ صفحة ، وهذه المقالات سجل مهم للحياة المصرية والسياسة الانجليزية فى مصر من عام ١٩٠٨ إلى ما قبل قيام الحرب الكبرى عام ١٩١٤ . وهى جزء من تاريخ جاويش وجهاده فى سبيل وطنه .

وله كتاب آخر سماه « مرشد المعلمين » ، وقد طبع هذا الكتاب بمطبعة الواعظ بشارع درب الجماميز بمصر عام ١٣٢٤هـ ١٩٠٦م ، وعلى غلافه « تأليف حضرة الأستاذ الشيخ عبد العزيز شاويش الاسكندرى مدرس اللغة العربية بكلية اكسفورد » ، وتقع هذه الطبعة فى ٢٨٦ صفحة .

وجاء فى مقدمة الكتاب « دعانى إلى وضع هذه العجالة ما رأيته من حاجة المعلمين الشديدة إلى ما يهتدون بنبراسه من كتب التربية العملية فإن ما سبق لى وضعه فى هذا الفن لم يكن فى الحقيقة إلا لطائفة المؤدبين من الفقهاء والعرفاء ، ولذا جاء غير واف بجميع المباحث الضرورية .

والكتاب مجهود ضخم فى التربية العملية ووسائلها وأهدافها ، وهو ينطق بمدى ما كان للشيخ جاويش من قدم راسخة فى الثقافة الحديثة والقديمة على السواء .

جاويش الأديب :

ودراسة جاويش فى الأزهر ودار العلوم ، وعمله مدرسا للغة العربية فى الناصرية واكسفورد وما يضاف إلى ذلك من ثقافته الواسعة ، وعقليته الناضجة ، وطول كتابته الوطنية فى الصحف والدينية فى المجلات .

كل ذلك كان من عناصر شخصية جاويش الأديب .

وأسلوبه قوى جزل سهل ، ولفظه شريف فخم ، يترسم فيه أسلوب نهج البلاغة ، وقد يعمد إلى السجع فيجىء به فى براعة وإحسان(١) .

---

(١) ٢/٣٨٩ المفصل

وهذه نماذج من أدبه وبلاغاته :

كتب سنة ١٩٠٧ يقرظ كتاب المنتخبات العربية من تأليف الأستاذين : محمد حسن وأمين الباجوري :

كيف لا أطيب أيها الفاضلان نفسا ، وأنشرح صدرا ، وأنا كل يوم أرى لكما من المساعي المشكورة ما يزيد العالم أملا فى الشبيبة المصرية العربية . ما زلت أكبر منكما هبة أنفسكما لتحصيل العلوم والفضائل حتى رأيتكما لم تقتصر همتكما على ذلك . إذ شاءت أن تستفيد الشيوخ من حداثتكما ، فأتت بهذه الباكورة الطيبة دليلا على ما سيعقبها من القطوف الدانية الشهية ، وحجة على من يزعم أن الفضل بالمشيخة أو الشيخوخة(١) .

أطلعت على ما أتيتما به فى هذه المجموعة ، فوجدت فى ثناياسطورها ألسنا تنطق بما لكما من قوة الادراك وسلامة الذوق وحسن الاختيار وسعة الاطلاع ، مما جعلنى أجزم بما سيكون لها من المكانة السامية بين التآليف . جزاكما الله خيرا عن العلم وطلابه ، وأكثر من أمثالكما حتى يرجع كهل الفضل إلى شبابه .

ولجاويش كلمة فى تأبين صديقه فى الجهاد أمين الرافعى(٢) وهى ذات اسلوب جميل بليغ .

نماذج من كتابة جاويش :

١ ـ كتب جاويش وهو مفتش بوزارة المعارف على لسان شخص يعتذر لآخر ويستعطفه(٣) : ان فطام الطفل إذا شب على الرضاع غاية لاتحتمل ، والسخط على من تعود الرضى أنكى من وقوع الأسل . وها أنذا قد تربيت فى مهـــد جنابكم ودرجت فى بحبوحة حنانكم ، لم أر منكم إلا قلبا أحنى على من حنايا الضلوع ، وجنبا إن استصرخت لا يطمئن للهجوع ، وعينا أبصر بحاجاتى من زرقاء اليمامة ، وكفا أجود بالخير من كعب بن مامة ، ولسانا إذا ذكرنى كان رطبا ، وعزما إذا جرد دونى كان سيفا عضبا ، وصدرا أرحب من ساحتك الواسعة ، ورحمة إن أسأت كانت إليك شافعة . وإنى أعيذ السيد من أن يقصد إلى قطع صلتى ، أو يكافنى احتمال

---

(١) ص ٤ من كتاب المنتخبات العربية .

(٢) ٣٦٧ ـ ٣٦٩ من كتاب « ذكرى أمين الرافعى » وكان الرافعى من زعماء الوطنية المصرية ، وتوفى عام ١٩٢٧ .

(٣) ٢١٦ المنتخبات العربية ط ١٩٠٧ .

الصبر على خلف عدتى ، إذ لم أعود قبل ذلك أن أجفى وأبعد ، « وصعب على الإنسان مالم يعود » .

على أنى لا أعلم لى ذنبا سوى أنى مظهر إحسانك وآية آلائك ، إذا تحركت فما أنا إلا لسان يتحرك بإطرائك ، أو نهضت فما ينهضنى إلا شكرك ، أو تثاقلت فإنما يثقلنى برك . ما لبست ثيابى إلا على نعمة لك مجسمة ، ولا أدرك بصرى إلا مكارم تلك المرحمة ، فلتقبل شفاعة أريحيتك ، ولتجب لراعى مروءتك ، واجعل من بسطة نفسك بسطة لكفيك . واتخذمن نفسك شفيعا إليك . هذا ولا أزال أردد زفرات لا يطفيها سوى أن ترجع المياه إلى مجاريها .

٢ ـ ومن كتابته فى الموضوعات الدينية ما كتبه تحت عنوان « فى الإسلام » .
سمعت بعض المارقين الذين لا يتجاوز إسلامهم أزياءهم وأسماءهم يقول ذات يوم انه يستهجن أن تلتمس الفضائل والمكارم من طريق الدين ، إذ خير المرء أن يمت إليها بأسباب أخرى كالبحث والنظر فى مزاياها وخواصها حتى تنجلى له صفاتها الطيبة فتجتذب نفسه إليها تعشقا لمحاسنها وجمالها ، فإذا قام الناس بالهداية والارشاد من هذا الطريق فما حاجة الناس إذاً إلى الدين .. يزعم أمثال هذا الجاهل أن دعوى العلم قد تؤيدها أمثال هذه السخافات ، فهم ـ ما استطاعوا ـ ينشرونها بين النابتة من أبناء المسلمين ليضللوهم بها غير مبتغين منهم سوى أن ينعتوهم بالفلاسفة أو بذوى الأفكار الحرة . ولو فقهوا قليلا لعلموا أنه ليست الفلسفة إلا إدراك حقائق الأشياء من غير تنطع ولا جحود ، وأنهم لو كانوا من أهل النظر لعلموا أن الدين أقرب طريق إلى معرفة الحق والباطل وأن الأخذ بمسائله وأحكامه وأخباره يحدث فى النفوس وازعا عن الشرور والمآثم أكثر مما تحدثه الدراسات على النحو الذى يبتغيه أولئك المتعالمون المتفقهون ، يقرهذا قوله صلى الله عليه وسلم مامعناه « يزع الله بالقرآن أكثر أكثر مما يزع بالسلطان » .

والأصل فى ذلك أن زمام العالم فى قبضة عقائدهم ، ذلك لأن الاعتقاد الجازم الذى لا تنقضه الشكوك ولا تؤثر فيه هواجس الشبهات يستلزم أن يعمل صاحبه على مقتضاه فاذا ماوهنت العقيدة وأرخت الشكوك والوساوس العنان للنفس خبطت خبط العشواء ، وتقاذفتها عوامل الاهواء ، وقلما سلمت لها سيرة من عثرة ، أو وضحت أمامها سبيل إلى الخير .

جاويش الشاعر :

والناس لايعرفون أن جاويشا كان مع أدبه وبلاغته شاعراً ، ينظم الشعر ، كما كان ناقداً يتذوقه وينقده .

وهذه إحدى قصائده الفريدة ، قال فى الحكمة من قصيدة طويلة نظمها فى الرثاء :

ما أبعد المرء فى قربها	وأضيق الأرض على رحبها
حلاوة الدنيا جفا حلوها	ما أكدر الصافى من شربها
تسىء والمعروف مستحسن	فلا ترم ما ليس من دابها
كم أمطرت قوما على ظمئهم	وكان كل الوبل من سحبها
وكم بدا فى أفقه شارق	فالت الآفاق عن شهبها
إذا اشتكى المرء لها علة	وحركت شكواه من لبها
تعالج الداء بكأس الردى	ما أحمق الأيام فى طبها
من ذا يقى الانسان من حربها	وهذه الأقدار من حزبها
أو يمسك الآجال عن سوقها	إذا كانت الأيام من نجبها(١)

ومن مرثية طويلة له :

طوارق أمر قد دهتنا عواقبه	وحالك ليل غاب عنا كواكبه
وللنفس آمال وفى الغيب غيرها	وللدهر سيف لم تخنه مضاربه
وما الناس إلا ميت وابن ميت	وآخر لازال المنون يراقبه
ترى المرء مافوق الأرائك مصبحا	سيمسى وفى عهد التراب ترائبه
يجافى لباس الخز عن مس جسمه	فهلا تجافى عن حصا القبر جانبه
خليلى لا تستعتب الدهر إنه	متى ياترى عادت الينا ذواهبه
أتخلد فيه وهو مثلك ذاهب	ألا إن آمال الفؤاد كواذبه
يود الفتى لو أنه طال عمره	وما العمر الا مجده ومناقبه(٢)

جاويش الصحفى :

وقد عاش جاويش طول حياته صحفيا ممتازا موهوباً ، وإلى عمله فى صحف

(١) ٢١٧ المنتخبات العربية ط ١٩٠٧

(٢) ٢١٨ المرجع السابق

الحزب الوطنى طول حياته ، أصدر مجلة الهداية عام ١٩١٠ ، وهى مجلة دينية علمية أدبية اجتماعية ، وكانت تصدر كل شهر عربى مرة حافلة بالمقالات والبحوث ، وكان أصحاب امتيازها حسين تيمور وشركاه ، وكانت مطبعتها بشارع رحبة عابدين بالقاهرة . وكان يصدر المرحوم جاويش أعدادها بتفسير للقرآن الكريم بدون توقيع ، وكانت عادة الشيخ أن لا يوقع كل مقالاته ، بل يوقع فى كل عدد واحدة منها ، ويترك الباقى دون توقيعه ، وكان أحياناً يوقع بعض كلماته بكلمة « الفاضل المغربى » ، أو كلمة « اجتماعى » ، وقد صدر المجلد الأول من الهداية عام ١٣٢٨هـ - ١٩١٠ .. ولاشك أن جاويشاً كان هو محرر المجلة جميعها .

ولما لجأ جاويش إلى الاستانة أنشأ فى ١٦ مارس ١٩١٢ جريدة « الهلال العثمانى » التى عاشت عامين . وأثناء الحرب الكبرى أوعز اليه الخليفة العثمانى أن ينشر مجلة « العالم الاسلامى » تعزيزا لمقام الخلافة ، وقد صدرت أولى أعداد هذه المجلة عام ١٩١٦ .

جاويش وحركات الإصلاح

كان لايكف عن التفكير فى عمل صالح : من مثل مدرسة يريد أن ينشئها على أسلوب طريف يجمع بين العلم والعمل ، أو معهد ، أو جمعية خيرية ، ولم يكن يصرفه عن مداومة التفكير فى هذا وما إليه أنه هو لايكاد يجد القوت إلا كفافا . وكم جرنى معه فرضاً نزور البيوت الخالية لنرى أتصلح أم لا تصلح أن تكون مدارس — مدارس بصيغة الجمع لامدرسة واحدة — وكنت أسأل عن المال اللازم من أين يظن أن فى وسعه أن يجىء به فيقول : لاتثبطنى ، المال نفكر فيه أوان الحاجة اليه ، وعلى أن حاجتنا منه إلى القليل ، ولن نعدم وسيلة ، فأهز رأسى ، فيقول : أيائس أنت من الناس إلى هذا الحد ، ثم يشرع يشرح فى مشروعاته وقلة تكاليفها ، فأسكت وأحس أن من الجناية أن ألقى تراباً على هذه النار ، وإنى لأعلم أنها تأكله » (١) .

جاويش والفكرة الإسلامية

« تعلق أمل جاويش بأخذ البلد بآداب الدين الحنيف حتى تعود للإسلام سيرته فى أنضر الأيامه . وبذلك كان يؤمن الشيخ جاويش ، وفى هذا كان يجاهد

(١) المازنى ـ السياسة الأسبوعية ٢-٢-١٩٢٩

جهاداً عنيفا يتجاوز طاقته وجهده ووقته » (١) .

ولهذا ظل طول حياته يربط السياسة العربية بالخلافة العثمانية مظهر الاسلام فى القرن العشرين .

ولئن كانت مدرسة محمد عبده فى مصر هى التى احتلت مكان الدعاية للاصلاح الدينى ، من أمثال : طنطاوى جوهرى ، والمراغى ، ومحمد الخضرى ، والنجار ، ومحمدالمهدى وابراهيم حروش . فإن الشيخ جاويشا كان يعد نفسه من أقران جمال الدين الأفغانى أستاذ الامام محمد عبده .

وقد ألقى الشيخ عبد العزيز جاويش محاضرة له فى ٢٧ مايو ١٩٢٧ فى معالجة شئون الجامعة الأزهرية لخصتها الأهرام فى ٢٨ مايو ١٩٢٧ ، ومما جاء فيها :

يكاد ينحصر القصد الأساسى من هذه المدرسة الكبرى منذ نشأتها الأولى فى حفظ الشريعة الغراء ودرس سائر علومها بإمعان فى تفاصيلها واستقراء لأصولها وفروعها ولقد جمع علماء الإسلام فى كل زمان ومكان إلى تلك العلوم ما اعتبروه آلات لفهم الشريعة ووسائل لإدراكها كالعلوم العربية والرياضية وكالتاريخ وتقويم البلدان والميقات والمنطق والفلسفة وأشباهها .

وجملة القول أن الأزهر كان منذ نشأته ينبوعا لطلاب علوم الدين وما يتوقف عليه فهمها من الالهيات لا سيما علوم اللغة العربية .

فالأزهر لم يخرج فى طور من أطواره مهندسا ولا مساحا ولا طبيبا ولا طبيعيا ولا كيميائيا ولاجغرافيا ، ولكنه كان يخرج فطاحل رجال الفقه والحديث والأدب

جاويش ومشكلة الربا :

ولما جابهت البلاد مشكلة اقتصادية فى أوائل القرن العشرين ، هى مشكلة الربا ، فتح باب المناقشة فى الصحف والأندية المختلفة ، فى هذا الموضوع الخطير فى عام ١٩١٢م — ١٣٢٦هـ .

وكان لجاويش وحفنى ناصف رأى يتلخص فى أن الربا المحظور فى الاسلام بالنص والاجماع إنما هو الربا الذى يصل إلى مثل رأس المال أو يزيد عليه ، وأن كل ربح ينقص عن مقدار رأس المال فهو محل بحث واختلاف فى نظر الفقهاء .

---

(١) البشرى فى مقال له بعنوان يوميات : السياسة الأسبوعية ٩-٣-١٩٢٩

ذكريات عن جاويش

— ١ —

كان ، على جلالة منصبه وجلالة وظيفته مراقبا للتعليم الأولى بالمعارف ، يعيش على الكفاف . ذلك أنه كان يرصد معظم راتبه لدائنيه أيام فاقته ، وكان مع هذا الجهد كله كريما وصولا . ولقد مات وترك أولاداً سبعة ليس فيهم من يتكسب بقرش(١) .

— ٢ —

كان عضوا فى لجنة الامتحان فى اللغة العربية فى مدرسة المعلمين العليا ، وكان رئيس اللجنة المرحوم الشيخ حمزة فتح الله ، وامتحن أمامها المازنى . وبفضل ما أبدى الشيخ جاويش من السياسة والعطف خرج المازنى وهو واثق بالنجاح(١) .

— ٣ —

قابله المازنى (٢) مدرس الترجمة فى السعيدية وطلب إليه أن يساعده فى الاشتغال بالصحافة وترك مهنة التدريس فقال : إنى أخشى أن تكون أشرف من أن تصلح لحياة كل ما فيها فاسد عفن . ثم أرسل لحظه فى الفضاء وقال ، كالذى يحدث نفسه : إن الشباب عجب ، يعيش أبداً فى عالمه وحده ، عالم غاص بالاشباح والخيالات ، وله أحلامه ومطامعه ، ومن القسوة أن يحرم هذه الاحلام . ولكن أقسى من ذلك أن تفتح العيون على الحقائق الارضية ، دفعة واحدا ، ثم التفت إلى المازنى ، وقال : ياسى عبد القادر ، ما أراك إلا فاعلا ما بدا لك ، ولكن ليس الآن ، ليس الآن ، ابق مذخورا لوقتك ، أطعنى فإنى أكبر منك وأخبر ، وقد كان ، وبقيت مذخورا لأسوأ وأروع من زمنه ، واتصلت أسباب المازنى بعد ذلك بطائفة من مخالطيه قال: فزدت به خبرا ، وعرفت أن أكثر ما تصل اليه يده يذهب فى سبيل المعوزين ، وأن دائرة جهاده لا يحدها القطر المصرى ، وليس من حقى أن أنشر ما طواه الموت مما عرفته منه بعد أن خلطتنى به الأيام . فبحسب القراء أن يعلموا من أمر الشيخ جاويش أنه كان امرؤا لو شاء أن ينعم بالثراء ويقضى حياته فى ترف لين لكان هذا من أيسر المطالب(٢) .

---

(١) البشرى : السياسة الاسبوعية ٩-٣-١٩٢٩

(٢) المازنى : السياسة الاسبوعية ٢-٢-١٩٢٩

— ٤ —

وتغديت معه مرة فى الاسكندرية فلما قمنا من الطعام مال إلى وقال : أتدرى ياعبد القادر أنى أكلت من الدجاجة الصغيرة وأنا متألم ؟ فقلت : لايوافقك الدجاج قال : ليس هذا ما أعنى ، إنما يؤلمنى أن تحتضر حياة هذه الدجاجة قبل أن تستوفى حظها من الحياة وقبل أن تأخذ نصيبها من الشمس والحرية .

وحذرته يوماً من رجل من رجال السوء رأيته يطمئن إليه ، فلم يحذر ، لأن الاسترابة بالناس لم تكن من خلائقه .

وكان رحمه الله بطبيعته رجلا حالما ، وبإرادته رجل عمل . وكان تعادل هاتين القوتين هو الذى يبقيه متزنا ، وقد تغلب إرادته أحلامه فيعمل بسرعة وبإحكام ، وقد تظفر طبيعته بإرادته فتراه انقلب أشبه شىء بالشاعر يفكر فى عطف وحنو فى كل ما فى الدنيا من شقاء لا يقوى وحده على محوه أو تخفيف وطأته . وقد عاش عمره هكذا موزعاً بين طبيعته وإرادته ، يعمل طورا ويحلم تارة . ولم تكن أعماله على جلالتها وبعد مداها بأعظم من أحلامه ، ولو أنى سئلت : فى أيهما كان أعظم لكان جوابى أن أحلامه كانت عندى أبهى وأجل ، فقد كانت أحلام نفس شفافة حساسة تعرف الدنيا وتزهد فيها ولا ترى الفرد إلا فى الجماعة . وكانت أحلامه من القوة بحيث كانت تريه كل ما يحلم به واقعا . ومن هنا لم تكن إرادته تحفل بالعوائق أو تكترث بالمصاعب ، فلولا أحلامه الواسعة ما كانت إرادته وأعماله .

وقد اشتهر بين الناس بقوة عاطفته الدينية . وعلة ذلك أن هذه الناحية أبرز للخلق من سواها .

غير أن الذين عرفوه من كثب يعرفون أن كل عواطفه كانت قوية مشبوبة على السواء . فلم يكن أقل تحمساً للتعليم منه للدين ، ولا عطفه على المساكين بأضعف من غيرته على دينه ، ولكن نشأته الاولى وظروف حياته أبرزت منه جانب الدين كما لم تبرز غيره (١) .

ويقول البشرى فى يومياته :

الشيخ عبد العزيز جاويش أستاذى وصديقى معا . اتصلت به من قبل أن يهجر منصبه فى سبيل الوطنية العنيفة ، ودام بيننا الود .

---

(١) المازنى : السياسة الاسبوعية ١٩٢٩/٢/٢

كان رجلا جميل الخلق ، جميل الخلق ، لا عيب فيه إلا أنه خـــلا من الشر خلواً كاملا » (١) .

جاويش فى عالم الخالدين

وبعد فهذه صفحات قليلة من حياة هذا الرجل العظيم ، الشيخ عبد العزيز جاويش .

وهى صفحات تذكرنا بالايمان الصادق ، والوطنية الحقة ، وحب الاصلاح والدعوةاليه ، والجهاد فىسبيله بكل مايستطيع الانسان .

ونحن فى هذه الذكرى ، نذكر ابن جاويش المجاهد ، الشاب ناصر جاويش ، الذى سقط شهيدا فى معركة الحرية ، خلال المظاهرة القومية الكبرى ، التى شهدتها عاصمة مصر فى ١٤ نوفمبر عام ١٩٥١ ، فكان كأبيه ممن استشهدوا فى مواكب الجهاد . .

رحمهما الله ، وأكرم مثواهما فى أعلى عليين .

---

(١) البشرى : السياسة الأسبوعية ١٩٢٩/٢/٢

فهرست الكتاب الثانى

ص ٦٤ س ٩ كلمة أغسطس وصحتها أكتوبر

الكتاب الثالث

الشـــاعر الخالد

ابن هانىء شاعر المعز الفاطمى

قصـــة

حياته وشعره وشاعريته

الإهـــداء

إلى الشباب :

الذين يودون أن يعرفوا كل مايتصل بماضيهم المجيد ، ويحاولون بناء مستقبل بلادهم على أساس وطيد ، ويؤمنون بأن تراثهم القديم حافل بكل طريف وجديد .
إليهم أهدى هذا الكتاب ...

ابن هانىء الشـاعر

يثير اسم ابن هانىء حديث المجد الأول ، الذى شاده الفاطميون ، وأقاموا صروحه فى المغرب ومصر والشام والحجاز ، وتفيأ العالم الإسلامى ظلاله أكثر من قرنين ونصف من الزمان ، ثم عاد ذكرى مرددة ، وحديثاً مروياً ، وحضارة فى الأدب والفن ، وفى الاجتماع والسياسة ، اصطبغت بها الحياة الإسلامية ، وخاصة فى مصر ، إلى العصر الحديث .

وليس عجبا أن يقترن اسم ابن هانىء بكثير من هذه الذكريات الخالدة ، فقد عاصرها ، ورآها وهى حقيقة تسعى ، وعاش فى ظلالها الجميلة ، فبهرته بطولاتها ، وسحرته

عظمتها ، وألهمته آياتها آيات من الفن الساحر ، والأدب الرفيع . كان ابن هانىء شاعر المعز ، اقترن اسمه بذكره ، وخلدت أحاديثهما معا فى صفحات المجد ، ومشت فوق رؤوس الحقب ، وكان الشاعر السياسى للدولة الفاطمية فى عصر المعز ، آمن بعقيدتها ، وأوذى فى سبيلها ، ثم نافح عنها ، وناضل خصومها ، ونوه بحقها فى الخلافة ، وعبر أبلغ تعبير عما كان يختلج فى صدر الدولة من آمال كبار ، فى الفتح والهيمنة على العالم الاسلامى وتوطيد دعائم الملك لآل البيت العلوى الفاطمى ، والقضاء على الدولتين المنافستين لهم : دولة بنى العباس فى الشرق ، ودولة بنى أمية فى الأندلس .

وكان لسان ابن هانىء وقصائده الساحرة جيشا لجبا يسير أمام جيش الفاطميين اللجب ، وسلاحا قويا يناضل عنهم أروع نضال ، حتى بلغ رنين صوته إلى كل سمع ، وردده الشيعة فى كل مصر أناشيد تدعم حقهم ، وتشعل عزائمهم فى طريق الجهاد ، وتمنحهم روح القوة والايمان ، كان كما يقول الشاعر نفسه للمعز :

وأقسم أنى فيك وحدى لشيعة وكنت أبر القائلين بمقسم

وكما يقول لجعفر بن على أمير « الزاب » الفاطمى :

تسير القوافى المذهبات أحوكها فتمضى وإن كانت على مجدكم وقفا
من اللاء تغدو وهى فى السلم مركبى ولو كانت الهيجاء قدمتها صفا

ولكن ابن هانىء لقى من الضيم فى سبيل عقيدته الفاطمية الشيعية بعدوفاته كثيرا من العقوق ، ونسيه التاريخ الأدبى نسيانا يكاد يصل بينه وبين الخمول بأسباب وثيقة ، وناله الكثير من النقد الأدبى الجائر على مر أجيالنا الأدبية ، ورسمت له السياسة صورة مخيفة باهتة ، فتمثله الناس فى مظاهر لا يصل بينها وبين الخلق والنبل سبب ، ولا تجمع بينها وبين قلوبهم وعواطفهم جامعة ، ثم ناوا به عن مجال التقدير ، وحالوا بينه وبين حقه من العدالة الأدبية فى النقد ، وقالوا : إنه كافر ، وقال خصوم العقيدة الفاطمية السياسيون إنه يرفع المعز إلى مكانة الآلهة .

وكان من آثار ذلك هذا الجور الأدبى الظالم أن مضت ذكرى وفاة ابن هانىء الألفية فى نسيان شبيه بالجحود ، وفى صمت يحمل فى طياته معانى العقوق ، فلم ينطق قلم ، ولم يتحرك يراع .

إن شعر ابن هانىء ليكاد وحده يقضى على مابقى من هذا العقوق ، ويعصف بآثار هذا الظلم الأدبى الجائر ، ويزلزل قدم السياسة فى محاولتها السيطرة على أحكام

النقد الأدبى النزيه ، وحقا لقد مضى العهد الذى كان للسياسة أن تخضع النقد الأدبى لمشيئتها وأحكامها ، ورفعت الحياة فى جميع أنواع النشاط البشرى رأسها ، وقضت على أغلال الرق الفكرى والاجتماعى ، ورفع كذلك النقد الأدبى رأسه ، ينفض غبار الماضى الطويل ، ويتحرر من كل قيد ينافى حكم الفن والذوق والوجدان .

ونحن فى حياتنا الحاضرة أحوج ما نكون إلى ماضينا الأدبى الزاخر ليمدنا فى خطواتنا إلى المستقبل المنشود بالروح والقوة والذوق ، ولنرفع به صروحا سامقة للفن والأدب والبيان ، تصل حاضرنا الجديد بماضينا المجيد .

نشأة الشاعر الأولى وثقافته

— ١ —

عاش ابن هانىء فى ظلال دولتين عظيمتين : دولة بنى أمية فى الأندلس ، ودولة الفاطميين فى المغرب . أما دولة بنى أمية فقد قضى فى ظلالها أكثر من ربع قرن من حياته الأولى ، ففى الوطن الأندلسى ولد ونشأ ، وهذب وتعلم ، واتصل بالحياة العامة كارها لها ، مبغضاً للإقامة فيها ، ناقماً عليها ، مؤمنا بعدم حق ملوكها فى الخلافة ، موليا وجهه شطر المغرب الأقصى ، داعيا لحق الفاطميين فى ميراث جدهم الرسول الكريم ، وائتمر الملأ به ليقتلوه ، فخرج من الأندلس خائفا يترقب ، حتى وصل إلى عدوة المغرب الأقصى ، فعاوده الأمل ، وأضاء الرجاء له سبيل العيش فى الحياة ، وسعى — على وئام بينه وبين بيئته والمجتمع الذى يعيش فيه — إلى ما كان يتطلع اليه من آمال كبار ، فى ظلال الدولة التى طالما كان قلبه يهفو إليها ، ويبارك خطواتها ، ويشيد بنفوذها الروحى ، وحقها فى خلافة الرسول ، حتى بلغ فى حياته هذه كل ما يريد ، وأكثر مما يريد .

— ٢ —

ولد أبو القاسم محمد بن هانىء بن محمد الأزدى فى قرية من قرى إشبيلية تدعى « سكون » عام ٣٢٠ هـ ، من أسرة ذات حسب ومجد ، وأدب وعلم ، يتصل نسبها بسلالة المهلب بن أبى صفرة الأزدى القائد الاسلامى المشهور فى دولة بنى أمية ، وسواء كان من سلالة يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب الذى وطد للمنصور ثانى خلفاء بنى العباس دعائم ملكه فى شمال إفريقية إلى أن توفى عام ١٧٠ هـ ، أو من أحفاد أخيه روح بن حاتم الذى ولى فلسطين ثم شمال إفريقية بعد موت أخيه يزيد ، سواء كان هذا أو ذاك ، فان ابن هانىء على أى حال ينحدر من سلالة أزدية قحطانية

عنية ، لها ماضيها الحافل ، وتاريخها المجيد ، ولها أثرها فى نفس الشاعر وفى أدبه ، فقد ملأ ذلك نفسه شعوراً بهذا الماضى ، وفخراً به ، وعزماً على مواصلة الجهاد لتجديد ذلك العهد الذى أعيا على الأيام أن يتبدد ، وكان يقرنه الشاعر بمجده الذى شاده بكفاحه فى الحياة :

ذرنى أجدد ذلك العهد الذى أعيا على الأيام أن يتقشبا

ولم يقبل الشاعر أن يعيش كلا على هذا الماضى فى مستقبل حياته ، أو يحيا عيالا عليه ، بل سعى وناضل فى الحيـاة :

ولم أجد الانسان إلا ابن سعيه فمن كان أسعى كان بالمجد أجدرا
وبالهمة العلياء يرقى إلى العلا فمن كان أرقى همة كان أظهرا
ولم يتأخر من يريد تقدماً ولم يتقدم من يريد تأخرا

كان أبو الشاعر هانىء من قرية من قرى « المهدية » عاصمة ملك الفاطميين الأولى ، وكان شاعراً أديباً ، كما يقول الذهبى(١) وابن خلكان(٢) ، ثم هاجر من قريته بالمغرب إلى الأندلس ، وعاش فى إشبيلية ، وانتقل منها بعد إلى إلبيرة ، وفى إشبيلية ولد ابنه محمد بن هانىء ، فنشأ وترعرع فى بيئتها الحافلة بألوان الحضارة والعلم والأدب ، وبأسباب المجد السياسى الذى كسبه الأمويون فى الأندلس ، وخاصة فى عهد ملكهم العظيم الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) .

— ٣ —

واختلف ابن هانىء إلى مجامع العلم والأدب فى إشبيلية ، يثقف نفسه ، ويهذب عقله ويكون ملكاته تكوينا يصل بينه وبين الحياة بأسباب الطموح والأمل .

ثم رحل إلى قرطبة العاصمة الأولى لملك بنى أمية ، والتى كانت تزخر بالجامعات والعلماء ، وبأسباب الحضارة وألوان الثقافة ، فعكف على تزويد نفسه فيها بأكبر قسط من الثقافة والمعرفة ، والظاهر أن رحيله إليها فى بدء حياته كان لهذا الغرض وحده دون سواه .

كانت الثقافة الأندلسية فى هذا العهد وفى ظلال الناصر تنال من عناية الدولة والشعب ، ورعاية الحكومة والملك ، كل ما كان يطمح إليه محب للعلم والمعرفة ، وكان الناصر وولى عهده الحكم يبذلان جهودا جبارة لنشر العلم ، وتشجيع العلماء ،

(١) ٨١ (٢) ٢/٥

فاقيمت كثير من الجامعات ، وفتحت كثير من دور الكتب التى توثق فى اختيار مجموعاتها من شتى بلاد الشرق ، وساعدت الدولة العلماء فى رحلاتهم العلمية إلى بغداد وسواها من عواصم الثقافة الإسلامية فى الشرق الاسلامى ، واستقبل الناصر كثيرا من الوافدين على بلاطه من العلماء والأدباء ، كالقالى وسواه(١) ، فشعت فى آفاق الأندلس أضواء العلم والثقافة ، وامتلأت دنها وعواصمها بأسباب الحضارة والمدنية والعمران ، وأخذت مشاعل النور ترسل أشعتها القوية الجبارة ، فتضىء ظلمات الحياة فى الغرب ، وتزيد اشتعال النور وتألق الضوء فى الشرق ، وتملأ الحياة قوة ونشاطا ومدنية وترفا .

وكانت السمة الغالبة على الثقافة الأندلسية حينذاك هى الدراسات الدينية واللغوية والأدبية الواسعة ، أما الدراسات العقلية فقد تجهموا لها وناوأوها ، وصرفتهم بيئتهم المنمقة بألوان الجمال عنها ، فرأوها عبثا لاخير فيه وحاولوا الحجز بين أنصارها وبين التفكير الحر ، ولكن الحرية الفكرية التى غرس بذورها الناصر وابنه الحكم لم تحل بين آثار التفكير العقلى وانتقال عدواه من الشرق إلى الأندلس، على يد الراحلين عنها والوافدين إليها من العلماء والمفكرين ، الذين أحصاهم صاعد الأندلسى فى كتابه طبقات الأمم .

ومن ذلك نستطيع أن نحدد ألوان الثقافات التى تلقاها ابن هانىء فى دراسته ، وتفرغ لتحصيلها ، فهى ثقافة دينية واسعة ، ألم بها الشاب الناشىء حين درس القرآن وعلومه ، وأجاده حفظا ، مما نفعه فى مستقبله الأدبى ، وصبغ أسلوبه بصبغة القرآن القوية المطبوعة ، حتى كان ابن هانىء فيما بعد المجيد فى الاقتباس من الذكر الحكيم وآياته فنجد له قوله :

ألا أيها الوادى المقدس بالطوى　　وأهل الندى إنى إليك مشوق

ونجده يقول :

كانت جناناً أرضهم معروشة　　فأصابها من جيشه إعصار

ويقول لأمير « الزاب » :

لعمرى لقد أيدت يوم الوغى به　　كما أيدت كفاك بالأنمل العشر

(١) ولد القالى عام ٢٨٨ﻫ ، وحصل ثقافته اللغوية والأدبية فى بغداد ، ثم هاجر إلى الأندلس عام ٣٢٨ﻫ ، فاستقبله ولى العهد ورحب به ، وتلق عليه كثيرا من المحاضرات ، ودعاه إلى إلقاء محاضراته فى مسجد قرطبة العظيم ، والتى دونها فى كتابه « الأمالى » ، وظل كذلك حتى توفى عام ٣٥٦ﻫ

كذلك ناجى الله موسى نبيه فنادى أن اشرح ما يضيق به صدرى
وهب لى وزيراً من أخى أستعن به وشد به أزرى وأشركه فى أمرى

إلى غير ذلك مما يلاحظ القارىء فيه روح التأثر بأساليب الذكر الحكيم . وبجانب هذه الثقافة الدينية ثقافة لغوية واسعة ، تراها فى كل قصيدة من قصائد الشاعر واضحة ملموسة ، ولعل ابن هانىء كان ممن جلسوا إلى القالى وسمعوا محاضراته اللغوية فى مسجد قرطبة ، كما جلس إلى سواه من علماء اللغة وأساتذتها ، ومما نمى فيه هذه الثقافة اللغوية أيضا إدمان قراءته للشعر الجاهلى فى عهد دراسته الأدبية ، واحتذاؤه حذوه فى نظم القريض وصياغته ، فوق مخالطته للقبائل العربية التى كانت نازلة فى مدن الأندلس ، ومحتفظة بروحها العربية الأولى ، ولا يكاد يضارع ابن هانىء فى هذا المحصول اللغوى الواسع شاعر سواه غير أبى الطيب المتنبى الشاعر الحكيم . وبجانب ذلك كله كانت الثقافة الأدبية الواسعه مكملة لجوانب هذه الثقافات فى شخصية شاعرنا ابن هانىء ، فقد ورث عن والده حب الأدب والميل إليه ، والشغف بالشعر والظهور فى ميدانه وفى شتى أغراضه ونواحيه ، وأعان ذلك دراسته وحفظه لأشعار العرب وأخبارهم وأيامهم وأدبهم وشعرهم ، واتصاله بالبيئات الأدبية فى الأندلس . وساعد على ظهور ملكة الشعر فى نفسه روحه الأدبى الموهوب ، وفطرته الشعرية الموروثة ، وعناية والده الأديب الشاعر به ، وتوجيهه إياه إلى كل ما يفيده فى مستقبله الأدبى ، وإلى كل ما ينمى ملكاته ، ويفجر فى قلبه ينابيع الشاعرية والإلهام ، هذا كله فضلا عن حياة الشاعر فى بيئة الأندلس الأدبية الحافلة بالادباء والشعراء ، والتى لقى الادب والشعر فيها رعاية وتشجيعا أمدهما بأسباب الحياة والقوة والنضج ، وكما قرأ ابن هانىء الشعر الجاهلى وتأثر به فقد اطلع على شعر كثير من المحدثين ، وعلى شعر المتنبى ، الذى عاصره وتأثر به ، وقرأ ديوانه ، كما ترشدنا إلى ذلك قصيدته الحادية والعشرون من ديوانه الذى نشرته مكتبة المعارف بتعليق الدكتور زاهد على .

وفى قصيدة ابن هانىء الفائية التى مطلعها :

أليلتنا إذ أرسلت واردا وحفا وبتنا نرى الجوزاء فى أذنها شنفا

وهى القصيدة الحادية والثلاثون فى ديوانه ، وصف دقيق للنجوم وهيآتها وحركاتها فى إشراقها وغروبها ، وقد يدل ذلك على إلمام ابن هانىء ببعض فنون من الفلسفة ، ويروى لنا التاريخ الادبى أن ابن هانىء كان متهما فى الاندلس بمذاهب

الفلاسفة(١) ، وأنه تعرض بسبب ذلك للقتل، مما دعاه إلى الهجرة إلى المغرب ، ونحن نستبعد إلمام ابن هانىء ببعض فروع الفلسفة لان تراثه الشعرى بعيد كل البعد عن روح الفلسفة ومذاهبها فى التفكير ، وقد يكون الشاعر قرأ أو درس شيئا من ذلك إلا أنه على أى حال لم يفرغ لهذا اللون من الثقافة ، ولم يشرب قلبه حب مذاهب الفلاسفة ، وهجرته سنبين أسبابها الصحيحة فيما يلى من هذه البحوث .

وإذا فثقافة ابن هانىء تستمد عناصرها من القرآن واللغة والادب والشعر ، ومن أثر الوراثة الذى كان له مظاهر فى نفس الشاعر وعقله ، ومن أثر البيئة التى كان يعيش فيها ، ثم من تجارب الحياة الطويلة والكفاح المستمر ، والرحلة الدائمة ، التى تركت آثارها الكبيرة فى عقلية الشاعر وتفكيره وفى أدبه وشعره .

حياة الشاعر فى وطنه

أخذ ابن هانىء الشاب يسير فى غمار الحياة ، ويخطو خطوات وئيدة فى ميدان الطموح والمجد ، وكان قد نضجت روح الشاعرية فى نفسه ، فنظم الشعر يصور فيه عواطف الشباب وآماله وآلامه فى الحياة .

ثم دفعته همته وماضى أسرته الحافل إلى السعى فى طلب الشهرة والمجد ، ورأى الحياة العامة فى الاندلس تسمح له أن يطمح إلى اعلى مناصب الدولة . بعد ما حصل ما حصل من ثقافة جعلته شاعرا لا يقل عن غيره من الشعراء الممتازين فى بيئته .

فبدأ يتصل برجالات الدولة ، وخاصة أمير إشبيلية ، بعد أن عاد إليها من رحلته الثقافية فى قرطبة ، وأعزه الامير واصطفاه ، ورفع منزلته لديه وأكرم مثواه ، واتخذه شاعره ونديمه ، ولعل الشاعر قد اضطر إلى هذا الاتصال الادبى اضطرارا ، لفقر جامح ألم به ، أو لموت والده صغيرا وذهاب ما كان يعينه على شئون الحياة من مال .

وقدر ابن هانىء يد الامير عليه ، فشكره ونوه به ونظم قصائده فى الثناء عليه والإعجاب به ، وإن كان ديوانه خلواً من ذلك ، وليس فيه بيت أو قصيدة فى أمير إشبيلية ، بل ولا فى تصوير حياته فى الاندلس ، ولعل شعره الذى نظمه فيما ضاع فى أثناء هجرته ، أو أنه لم يعن الرواة الشيعيون الذين رووا شعره بجمعه ، مع ماجمعوه من شعره الذى نظمه وهو مقيم فى دولة الفاطميين ، فلم يلتفتوا إلا إلى شعره الذى أيد به هذه الدولة ورجالاتها .

---

(١) الذهبى ٨١

واستمرت المودة بين الشاعر والامير حينا من الزمان ، ولكن ابن هانىء كان برماً بالحياة فى الاندلس ، مبغضا لملك الامويين ملوكها ، منكرا لحقهم فى الخلافة الاسلامية ، كان شيعيا يتشيع للفاطميين آل بيت رسول الله ، ويشيد بدعوتهم ، ويذيع محامدهم ، ويؤيدهم بروحه وقلبه ولسانه .

ولا شك عندى فى أن ابن هانىء ورث هذا الروح عن والده فيما ورثه عنه من ميراث ، فقد كان هانىء من قرية من قرى « المهدية » موطن الدعوة الفاطمية وعاصمة دولتها الناشئة ، ثم رحل عنها إلى الأندلس لظروف قاسرة لم يروها لنا التاريخ ، فلا بدع إذا أن يكون هانىء والد الشاعر شيعيا يهفو قلبه وروحه إلى مناصرة دعوة الفاطميين فى جهادهم لاسترداد ميراث الرسول الكريم ، ووضعه فى موضعه ، فى البيت العلوى الطاهر ، ولا بدع أن يغرس ذلك كله فى صدر ابنه الشاب قبل أن يتوفاه الله ، وإذاً فقد عاش ابن هانىء فى حياة والده وبعد وفاته شيعيا ، يستمع وهو فى الأندلس لأحاديث جهاد الدولة الفاطمية الناشئة فى المغرب ، ويتلقف أنباء مقاومتها لشتى ألوان الضغط السياسى الذى كان محيطا بها ، وأخبار ظفرها وتوفيقها فى تأسيس مثابة صالحة حرة ، وملاذ آمن مستقل ، يلجأ اليه كل مضطهد من آل البيت العلوى ، فيجد الأمن والطمأنينة والسلام ، فى ظل الراية البيضاء المرفوعة على المهدية وما يتبعها من بلاد ، والتى تشير إلى معنى الخصومة السياسية للعلم الأسود المرفوع فى بغداد . والراية الخضراء التى تظلل بنى أمية فى قرطبة والأندلس .

وعلى كل فقد تشيع ابن هانىء ، ورأى المجتمع الأندلسى فى إشبيلية خطره على نظامه الاجتماعى والسياسى ، فاضطهده وقاومه ، وكاد يفتك به أهل إشبيلية ، لولا مكانه من أميرها ، وتحدث الناس عن الأمير وكيف يستبيح لنفسه أن يضم اليه أمثال هذا الشاب الثائر ، ورأوا أن يتهموا ابن هانىء بالفلسفة التى كان قد شدا من بعض ألوانها حظاً يسيراً ، وعاد فهجره ومله ، ولم يستسغه عقله ، وكانوا يريدون أن ينالوا منه تحت ستار هذا الاتهام الجائر مايريدون وأكثر مما يريدون ، لأن الوطن الأندلسى لم يكن يسمح لأحد من رجال الفلسفة أن يعيش فيه سالماً ، فإما أن يقتل وإما أن يهاجر وإما أن يتوب .

هجرة الشاعر إلى المغرب

علم أمير إشبيلية بالأمر ، ووصلته أحاديث الناس عنه وعن شاعره الشاب ، فأشار على ابن هانىء أن يغيب عن المدينة مدة ، حتى ينسى فى خلالها أمره ، وتسكن فيها ثورة الناس عليه ، فامتثل الأمر ، وخرج من المدينة خائفاً يترقب .

ترى أين تكون وجهة هذا الشاعر اليائس ، وإلى أى بلد يسير ؟ والناس إلب عليه ، والدهر يتجهم فى وجهه ، والأحداث تتآمر عليه مع المتآمرين ، وهو لا يأوى بين هؤلاء القوم إلى ركن شديد .

فكر الشاعر فلم يجد أمامه إلا غاية واحدة يجب أن يسير اليها ، وإلا ناحية واحدة لامناص من أن يقصدها ، ورأى نفسه تحدثه : هيا إلى بلاد المغرب ملاذ الفاطميين ، ومقر العقيدة التى أوذى فى سبيلها لما آمن بها ، وإلى المهدية من بلاد المغرب خاصة فهى بلاد الآباء والأجداد التى تتلاقى فيها ذكريات الماضى الطويل .

وصمم الشاعر على الهجرة ولم يجد سبيلا إلى الحياة الآمنة سواها ، فهاجر إلى عدوة المغرب ، وهو فى سن السابعة والعشرين أو السادسة والعشرين على مايقولون .

هاجر إذاً إلى المغرب عام ٣٤٧ هـ ، أو عام ٣٤٦ ، وبذلك انتهت حياته الأولى التى قضاها فى الأندلس ، وانتهى به المطاف إلى دولة الفاطميين .

لم يكن الشاعر يحمل على كتفيه فى هجرته مالاولا نشبا ، ولكنه كان يحمل فى صدره عقيدة قوية ، وعاطفة ملتهبة ، وكان يحمل معه فنه وشاعريته ، ويسعى بهما قدما إلى أبعد غايات الطموح ومجد الحياة .

ويصور لنا ابن هانىء هذه الهجرة وذكرياتها وأسبابها وما لقى خلالها من اضطهاد كاد يودى بحياته ، فى قصيدة من قصائده فى المعز الخليفة ، قال فيها متحدثاً عن نفسه :

ومستكبر لم يشعر الذل نفسه ... أبى بأبكار المهاول فاتك
ولو علقته من أمية أحبل ... لجب سنام من بنى الشعر تامك
ولما التقت أسيافها ورماحها ... شراعا وقد سدت على المسالك
أجزت عليها عابراً وتركتها ... كأن المنايا تحت جنبى أرائك
وما نقموا إلا قديم تشيعى ... فنجى هزبرا شده المتدارك

والشاعر فى هذه القصيدة قوى العاطفة ، متاجج الشعور ، ولكن روحه الشعرية لم تخلص بعد من سمات التكلف الفنى ولم يخلص لها بعد الفن المطبوع . ويندفع ابن

هانىء فى تيار عواطفه ، فيحمل على بنى أمية الأندلسيين حملة ثائرة ساخطة ، ويرميهم بالبخل والجبن وشتى الرذائل ، يقول فيما يقول :

ولم تدم فى حرب دروع أمية ولكنهم فيها الإماء العوارك
إذا حضروا المداح أخجل مادح وأظلم ديجور من الكفر حالك

إلى آخر مايقول

اتصال الشاعر بجوهر قائد المعز

استقر الشاعر أخيرا فى المغرب ، أو على الأرجح فى المهدية وطن والده الأول ، من بين بلاد المغرب كافة ، وأخذ ينتهز الفرص السانحة ليذيع شعره ، ويظهر شاعريته ، فساعدته الظروف على مايريد .

كان ذلك على ما أرجح عام ٣٤٧ ﻫ بعد انتصـــار جوهر على خصوم الدولة الفاطمية فى سجلماسة وفاس ومكناسة وسواها من بلاد المغرب ، وبعد أن قضى على الثائرين ووطد دعائم ملك الفاطميين فى أطراف هذه البلاد ، ورجع من هذه الأعمال الحربية ظافراً منصوراً .

ونظم ابن هانىء قصيدة ذكر فيها هذا الفتح وأثره ، وجوهر أو بطولته وحزمه ، ومجده الحربى ، وولاءه للخليفة المعز ، واصطفاء الخليفة له ، ويقول فيها :

وأبيض من سر الخلافة واضح تجلى فكان الشمس فى رونق الضحى
أريك به نهج الخلافة مبهما يبين ، وأعلام الخلافة وضحا

إلى آخر مايقول ، من قضائه على ثورات الثائرين ، وفتن الخارجين على المعز . وذهب الشاعر إلى القائد فأنشده قصيدته وسط جيشه ومعسكره ، فسربها القائد ، ثم أمر للشاعر بهدية استقلها ابن هانىء ، ولكنه أخذها إجابة لداعى الحاجة الملحة ، وأتى تبلغ المائتا درهم من نفس ابن هانىء مايريد ؛ لقد كان يسمع أنباء الجوائز الطائلة التى كان ينفح بها العظماء الشعراء . والتى تقلب حياتهم رأسا على عقب ، وتدعهم يعيشون فى ظلال الترف والخفض والنعيم ، ثم لم يجد ابن هانىء عند جوهر شيئا مما كان ينشده من آمال كبار ، فعلم أنه لايمت إلى أريحية العرب وسخائهم بصلة ، وفكر فى عظيم آخر يعيش فى ظلاله ، ويستقر فى المغرب فى رعايته .

ولكنه مع ذلك لم يقطع صلته بجوهر ، ولم ينسه من الإشارة والتنويه به فى قصائده ، وكيف وجوهر بطل العقيدة الفاطمية وموضع ثقة الخليفة ، وقائده المظفر ، ويده على الأعداء .

وفى ديوان الشاعر ظل للصلة المستمرة بين الشاعر والقائد ، فقصيدته فى وداع جوهر وهو سائر لفتح مصر عام ٣٥٨ ﻫ ، وقصيدته فى فتح مصر وتهنئة المعز بهذا الفتح والثناء على جوهر قائده الفاتح المظفر ، فهما أثر لبقاء هذه الصلات .

وفى الديوان أيضا قصيدة نظمها ابن هانىء عام ٣٤٨ ﻫ مدح بها المعز ووصف هدية قائده جوهر اليه ، بعد تسخيره بلاد المغرب جميعا ، وتوطيد الملك الفاطمى فيها ، ومطلعها :

ألا هكذا فليهد من قاد عسكرا   وأورد عن رأى الامام وأصدرا

وهذه القصيدة أرجح أن الشاعر نظمها أثناء اتصاله الأول بجوهر ، فقد يكون جوهر بعد هذا الفتح سعى بجيشه ، وفى حاشيته ابن هانىء ، لمقابلة المعز ، وقدم اليه هديته ، فنظم ابن هانىء هذه القصيدة فى مدح المعز وقائده ، ووصف هدية قائده اليه .

نستطيع من ذلك كله أن نقول إن الشاعر اتصل بجوهر فى أواخر عام ٣٤٧ ، وظل فى حاشيته عدة شهور ، إلى ما بعد مطلع عام ٣٤٨ ﻫ ، ولكن صلات جوهر القليلة ، دعته إلى أن يقصد بشعره أحد الأمراء ليعيش فى ظلاله ، وفعلا سار الشاعر ميمما وجهه شطر أمير عرف بالبذل والسخاء ، وبالأغداق على الأدباء والشعراء ، فألقى رحاله فى فنائه ، وعاش أثيرا لديه ، مقربا عنده ، وذلك هو أمير « الزاب » و « المسيلة » : جعفر بن على .

الحياة تبتسم للشاعر فى الزاب

عهد الخليفة المنصور الفاطمى فى بدء توليه العرش عام ٣٣٤ ﻫ إلى جعفر بن على القائد الفاطمى بولاية الزاب والمسيلة ، وأنزل معه أخاه يحى بن على يساعده فى ولايته ، وعنى جعفر بأمور إقليمه ، فبنى القصور والمتنزهات ، وأقام له فيه سلطانا ومجدا ، وقصده العلماء والشعراء ، وظل فى ولاية هذا الإقليم حتى توفى الخليفة المنصور عام ٣٤١ ﻫ ، فأقره المعز على ولايته لما جلس على العرش بعد وفاة أبيه .

وسمع ابن هانىء بأمر الأمير وجوده وأريحيته ، فهرع اليه عام ٣٤٨ ، يمدحه ويشيد بذكره بقصيدة أرجح أنها القصيدة الخمسون فى ديوان الشاعر ، التى أفاض فيها فى الثناء عليه ، والاعجاب به ، ووصف جهاده وبطولته ، وآدابه السامية النبيلة ، ومما يقول فيها :

خلقت شهابا تضىء الخطوب ولست شهابا يضىء الظلم
وإنك من معشر طفلهم يتوج قبل بلوغ الحلم
تشيع فيكم لسانى ومن تشيع فى قوله لم يلم
ولست أبالى بأى بدأت بفخرى بكم أو بمدحى لكم
فشملى لشملكم جامع وشعبى بشعبكم ملتئم

وابن هانىء فى هذا البيت يريد أن يؤكد الصلة التى تجمع قومه الأزديين بقوم الأمير ، ثم يقول :

حمدت لقاءك حمد الربيع وشمت نوالك شيم الديم

ثم يذكر عسف الزمان به ، وتحالف الخطوب عليه ، ويصور عفافه وبعد همته ، الذين كانا من أسباب محنته كما يقول ، فيقول :

أذم اليك اعتوار الخطوب وصرف الحوادث فيما أذم
وبما أعان على الزمان عفاف يدى وعلو الهمم
لسانى من العرب الأكرمين وفى أول الدهر ضاع الكرم

وتلقى الأمير الشاعر بالتقدير والعطف ، ودعاه إلى الاقامة فى كنفه ورعايته ، فامتثل ابن هانىء فى نشوة من البشر والفرح ، وأقام فى ظلاله يمدحه ويشيد بذكره ، أو يمدح أخاه يحيى ، أو ابنه إبراهيم .

وفى ظلال جعفر وأسرته عادت الطمأنينة إلى نفس الشاعر ، فقد كفى شر الحاجة ، وأمن غائلة الأحداث ، وركن إلى ألوان من ترف الحياة ونعيمها ، وهدوئها وطمأنينتها ، وفرغ الشاعر لفنه وشعره ، بعد أن كان قلبه نهبا موزعا لايفيق من آلام الحياة وخطوبها ، لقد كان قبل اتصاله بجعفر يزجى لآماله السحاب ، فلاينجلى إلا عن سراب خادع ، وسحاب مبدد :

قد كنت قبل نداك أزجى عارضا فأشيم منه الزبرج المنجابا
لم تدننى أرض اليك وإنما جئت السماء ففتحت أبوابا

وصارت الزاب عنده جنة النعيم :

إنما الزاب جنة الخلد فيها من نداه غضارة التفويف

ولم لا ؟ وقد أخذ جعفر بضبعه ، وأنقذه من صولة الخطوب :

صرفت عنان الشعر إلا اليكم وفيكم فانى ما استطعت له صرفا
أبا أحمد قد كان لى فى الأرض موئل فلم أبغ لى ركنا سواك ولا كهفا

وما الشمس تكسو كل شيء شعاعها ... بأسبغ عندي من نداك ولا أضفى
أخذت بضبعي والخطوب رواغم ... فسمت زماني كله خطة خسفا
أمنت بك الأيام وهي مخوفة ... ولو بيديك الخلد آمنتني الحتفا

ويتحدث الشاعر عن نفسه وصنيع يحيي معه :

وما زلت ترميني الليالي بنبلها ... وأرمى الليالي بالتجلد والصبر
وأنجدني يحيي على كل حادث ... وتوجني تاجا من العز والفخر
فلا تسألاني عن زماني الذي خلا ... فوالعصر إني قبل يحيي لفي خسر
ولما حططت الرحل دون عراصه ... أخذت أمان الدهر من نوب الدهر
فداؤك حتى البدر في غسق الدجى ... منيرا وحتى الشمس فضلا عن البدر

إلى أن يقول :

أأدعو إلهي بالسعادة عندكم ... وأنتم دراري السعود التي تسرى؟
أأبغي لديه طالبا ما كفيته ... وأسأله السقيا ودجلة لي تجرى ؟
أسرت بما أسديتمو من صنيعة ... وما خلتكم ترضون للجار بالأسر
فهلا بني عمي وأعيان معشري ... وأملاك قومي والخضارم من نجري
فلا ترهقوني بالمزيد فحسبكم ... وحسبي لديكم ما ترون من الوفر

ويقول فيه :

أطفأت عني زمني بعد ما ... أوقفت من جمر على حرق
فاليوم بدلت سنا من دجى ... واعتضت صفو العيش بالرنق
واليوم يرقى أملي صاعدا ... وماله غيرك من مرقى
وما وفى شكري ببعض الذي ... كسوتني من مفخر الصدق

وهكذا كانت مدائح ابن هانىء في جعفر وأسرته ، وكانت كذلك مراثيه البليغة في أمه وفي حفيده : ابن ابنه ابراهيم بن جعفر بن علي، والتي تبلغ كلها سبعة وعشرين قصيدة ، كانت جميعها تفيض عاطفة وقوة وروحا ، وتصدر عن إخلاص ووفاء وشعور بأيادي هذه الاسرة الكريمة عليه ، وتقدير بعيد لحدبها به ومعونتها الصادقة له في الحياة ولعل في هذه الابيات التي نظمها من قصيدة طويلة في جعفر ، ما ينم عن روح ابن هانىء وعواطفه نحو هذه الأسرة الكريمة :

خليلي أين الزاب عنا وجعفر ... وجنة خلد بنت عنها وكوثر ؟
فقبلي نأى عن جنة الخلد آدم ... فما راقه في ساحة الارض منظر

خليلى ما الأيام إلا بجعفر   وما الناس إلا جعفر ، دام جعفر

لقد كان ابن هانىء قبل اتصاله بجعفر بائسا محروما ، لايجد له نصيرا يخفف عنه عبء الحياة ، وكان كثير الشكوى من زمنه والاحداث التى كان يصبها عليه ، فبدل بالشقاء نعيما ، ومحى برأسرة جعفر به ورعايتها له آلامه وبؤسه ، فابتدأ حياة جديدة فيها أمل ورجاء ، وطمأنينة وصفاء ، ونعمة ورخاء .

وكانت شاعريته فى هذه الفترة يقظة قوية مشبوبة ، يثيرها فى نفسه إلهام الشباب وحوافز الامل ، والعزم على الظهور فى هذا المجتمع الجديد ، وكثرة أيادى جعفر عليه . لقد كان فى نضرة الشباب ، ومتعة الحياة ، وبهجة الامل ، وكان يرى أن جعفر ليس بغريب عنه ، ولا بقصى منه . فهو من عنصره ونجاره وأصله القديم ، ثم كان مع ذلك يعيش وسط خصومات أدبية أبطالها شعراء المغرب وأدباؤه الذين أخمل ذكرهم ابن هانىء ونظمه الجيد الممتاز ، كانت كل هذه البواعث حافزاً له على تجويد فنه ، وصقل شعره ، والابداع فى ما يسحر به من قريض ، فكان يخرج قصائده إخراجا فنيا خلابا ، فتخرج وهى مستوية الاطراف ، جميلة السبك ، جزلة اللفظ فى عزوبة ، يشيع فيها أثر التأنق والتهذيب . على أن الشاعر لم يكن مدفوعا إلى ذلك كله ببواعث مادية صرفة ؛ بل كان يصدر عن عقيدة قوية غلابة ، كان جعفر من أشد الذائدين عن العقيدة الفاطمية وسلطانها السياسى ، وهى العقيدة التى أخلص لها الشاعر منتهى ما فى وسعه من إخلاص ، فمدحه وكأنه كان يمدح العقيدة التى آمن بها ، وكافح من أجلها طول الحياة .

ومهما كانت الاسباب فإن إنتاج الشاعر فى هذه الفترة القصيرة الحافلة كان بعيدا عن سمات التكلف ، مصبوغا بصبغة الشاعرية المطبوعة ، وبدأت تظهر فيه شخصية الشاعر الفنية بوضوح وجلاء ، وتظهر فيه كذلك صورة حياته التى خضعت لألوان الحياة الجديدة المترفة فى ظل جعفر وأسرته .

وعاش ابن هانىء فى الزاب نحو عامين ، لم يكن همه فيها إلا حضور مجلس الامير والاتصال برجال الدولة ، والمتعة بنعيم الحياة وجمالها ، وتصوير جوانب هذه الحياة كلها فى شعره ومدائحه التى كان ينشدها الامير وقومه .

ولم يكن ابن هانىء يشعر بأنه غريب فى هذه البيئة ، ولا كانت أيادى جعفر عليه توقفه مواقف الهوان أو الذلة ، ولا كانت قصائده فيه وسيلة للسؤال والاستجداء فحسب بل كان يرى فى صلات النسب بينه وبين جعفر حافزا له على التنويه به ، والاشادة

بمآثره ، ويرى فيها ما يعزز مكانته لديه ، ويرفع مقامه عنده ، أليست أسرة جعفر يمانية قحطانية يعربية ، وأليست هي من بكر أحلاف قومه الاولين ؟

إنا لتجمعنا وهذا الحي من بكر أذمة سالف لم تخفر
أحلافنا فكأننا من نسبة ولداتنا فكأننا من عنصر

وكانت هذه الصلة البعيدة بين الشاعر والامير تمد ابن هانىء بروح ملؤها الشعور بالكرامة والعزة في ظل جعفر ، وتؤيده بأسباب الحياة والقوة في تلك البيئة وبين خصومه والحاقدين عليه من الأدباء والشعراء ، كالزهراني كاتب الامير الذى أخمله ابن هانىء ، وصور الخصومات الأدبية التي نشأت بينه وبينه في قصيدته التاسعة والعشرين التي هجا فيها الزهراني شر هجاء .

وأصبحت هذه الخصومات وسواها لا تضير الشاعر بشيء ، ما دام قوم الامير هم بنو عمه ، وأعيان معشره ، وأملاك قومه ، والخضارم من نجره ، كما يقول

وبعد فكنت أود أن أعرض آثار الشاعر الفنية في هذه الفترة القصيرة الزاهية في حياة الشاعر وفنه ، وأحلل في إيجاز تراثه الفني في العهد الذى قضاه مع جعفر وأسرته ، وآياته الحسان الرائعة في الاشادة به وبهم ، ولكن كثرتها وضيق هذا الكتاب عن أن يتسع لمثل هذا الاطناب ، يحولان بيني وبين ما أريد .

فإذا ما أردنا أن نضع هذا الانتاج الفني موضعه من تراث الشاعر الأدبي ، فإن حكمنا عليه أنه من روائع الآثار الأدبية في حياة ابن هانىء الفنية .

ونحن لا نعلم بعد هل استقرت حياة الشاعر استقرارا قائما على أساس الحياة العائلية فتزوج في هذه الفترة التي قضاها في الزاب ، أم لا ؟

وعلى أي حال فقد سارت قصائد ابن هانىء في جعفر وأسرته ، وتحدث بها الناس ورواها الأدباء والرواة ، وأنشدت في مجلس المعز وهو في القيروان ، فأرسل إلى جعفر يطلب منه ابن هانىء ، وامتثل الأمير الأمر ، وأعد للخليفة هدية نفيسة أرسلها إليه ، وكان فيها ابن هانىء الشاعر . بل كان هو أغلى ما فيها من نفائس .

الشاعر في بلاط المعز

وفى عام ٣٥٠هـ وصل الشاعر إلى القيروان عاصمة الخلافة الفاطمية ، فسعى إلى الخليفة ومثل بين يديه ، وأنشده شعره ومدائحه في الخليفة والخلافة ، وجلال الدولة وعظمة أيامها ، وتصوير عزها الشامخ ، ومجدها المكين .

والتاريخ الأدبي والسياسي لا يرشدنا بالتحديد إلى العام الذى اتصل فيه الشاعر

بالمعز ، ولكن دراسة تراث ابن هانىء الشعرى ومدائحه للمعز ، تهدينا إلى هذه الحقيقة المجهولة فى ثنايا تاريخ ابن هانىء الأدبى المجهول .

وكذلك لا ترشدنا المصادر الأدبية على القطع واليقين إلى أول قصيدة أنشدها ابن هانىء فى مجلس المعز الفاطمى لأول عهده بالمثول بين يديه ، وساذكر رأيى الذى أرجحه فى ذلك ، والقارىء حر فى اختيار ما يريد .

لابن هانىء فى المعز إحدى وعشرون قصيدة من أطول القصائد الفنية وأبلغها وتبلغ نحو نصف تراثه الأدبى ، وقراءة هذه القصائد قراءة واسعة ، وتفهمها تفهما تاريخيا ، وتذوقها تذوقا أدبيا يهدينا إلى كل ما نريد .

من بين قصائد الشاعر فى الخليفة أربع قصائد تستوقف نظر الباحث المتمهل ، وتعطيه الدليل الملموس على رأيه فى هذه المشكلات الأدبية .

فأولى هذه القصائد نظمها الشاعر عام ٣٤٨ ﻫ فى وصف هدية جوهر للمعز ، ومطلعها :

ألا هكذا فليهد من قاد عسكرا وأورد عن رأى الامام وأصدرا

وفيها يشيد بالخليفة وبجوهر ويصف هدية جوهر إليه ؛ وهذه القصيدة قد تدفعنا إلى القول بأن اتصال ابن هانىء بالمعز كان عام ٣٤٨ ، لا عام ٣٥٠ كما نقول ، ورأيى فى ذلك أن هذه القصيدة نظمها الشاعر حين كان فى حاشية جوهر لما التقى القائد بالخليفة بعد الظفر الحربى الذى ظفر به ، فقدم إليه هديته النفيسة التى وصفها ابن هانىء فى هذه القصيدة ، وهذا رأى وجيه مقبول ، فضلا عن أنه يترك لابن هانىء عامين يقضيهما فى الزاب وفى نظم قصائده المأثورة فى جعفر بن على وأسرته .

والقصيدة الثانية ذكر الديوان أنه قيل عنها إنها أول شعر مدح به ابن هانىء الخليفة المعز ، وفيها يقول الشاعر :

ملك أناخ على الزمان بكلكل فأذل صعباً فى القياد جموحا

ويحذر أعداءه سطوته ويشيد بانتصارات جيوشه فيقول :

ونصرت بالجيش اللهام وإنما أعددته قبل الفتوح فتوحا
يزجيه أروع لو يدافع باسمه علوى أفلاك السماء أزيحا
فكأنما ملك القضاء مقدرا فى كل أوب ، والحمام متيحا

ويصف الأسرى وبؤسهم ، وأسطول المعز وقوته ، وتتبع بنى أمية لحركاته البحرية ، ويذكر مأتمهم الذى تجاوبت به الدنيا ، ورزء فقيدهم الذى فقدوه ،

ويدعو إلى القضاء على دولتهم فى الاندلس ، فيقول :

وأمية تخفى السؤال وما لمن ... أودى به الطوفان يذكر نوحا ؟
تتجاوب الدنيا عليهم مأتما ... فكأنما صبحتهم تصبيحا
ليسوا معايبهم ورزء فقيدهم ... كاللابسات على الحداد مسوحا
أنفذ قضاء الله فى أعدائه ... لتراح من أوتارها وتريحا

إلى أن يقول :

أعليك تختلف المنابر ؟ بعد ما ... جنحت إليك المشرقان جنوحا
أم فيك تختلج الخلائق مرية ... كلا وقد وضح الصباح وضوحا
صورت من ملكوت ربك صورة ... وأمدها علما فكنت الروحا

والقصيدة قوية رائعة . ويتجلى من قراءتها أنها نظمت على أثر انتصار حربى لجيوش المعز ، ولكن لا ندرى فى أى عام كان هذا الانتصار ، ونتساءل : من هو هذا الفقيد الذى لبست أمية رزءه فى الاندلس ، وتجاوبت بمأتمه الدنيا ؟ لم يفصح الشاعر بشىء ، ولا يبعد عندى أن يكون هو الملك الناصر الذى توفى عام ٣٥٠هـ ، وإذا يكون تاريخ القصيدة هو هذا التاريخ ، وإذا صح أنها أول ما أنشده ابن هانىء أمام الخليفة . فيكون إذا بدء اتصاله به هو عام ٣٥٠هـ .

والقصيدة الثالثة هى الكافية التى ذكر فيها هجرته وبواعثها ، والتى حللنا جانبا منها فى هجرة الشاعر وفيها يقول :

سقى الكوثر الخلدى دوحة هاشم ... وحيت معز الدين عنا الملائك
وماسار فى الأرض العريضة ذكره ... ولكنه فى مسلك الشمس سالك
وما كنه هذا النور نور جبينه ... ولكن نور الله فيه مشارك

ويذكر فيها ولاءه للفاطميين وهجرته فى سبيل عقيدته الشيعية ، ويدعو المعز إلى القضاء على دولة بنى أمية فى الأندلس ، ثم يذكر نفسه وشعره والخصومات الأدبية بينه وبين الشعراء والتى يصورها فى قوله :

أرى شعراء الملك تنحت جانبى ... وتنبو عن الليث المخاض الأوارك
تخب إلى ميدان سبق بطاؤها ... وتلك الظنون الكاذبات الأوائك
تسىء قوافيها ، وجودك محسن ... وتنشدنا إرنانا ومجدك ضاحك
أبت لى سبيل القوم فى الشعر همة ... طموح ونفس للدنية فارك

وما سرنى تأميل غير خليفة وأنى للأرض العريضة مالك
خمول وإقتار وفى يدك الغنى فحيا فإنى بين هاتين هالك

والقصيدة ليس فيها أى إشارة تاريخية تدل على تاريخها الأدبى ، ولكنى أرى أنها من أوائل القصائد التى نظمها ابن هانىء فى المعز ، بل لا يبعد عندى أن تكون أولها كلها ، لأن ذكر هجرة الشاعر ووصفه لحالته ، ودعاء الخليفة إلى العطف عليه والعناية به ، وبيان إخلاصه لعقيدته ، وأن هذا الاخلاص كان سبب محنته فى الأندلس ، كل هذا دليل على ما أقول ، ويؤيده تصويره لهذه الخلافات الأدبية التى نشبت بينه وبين شعراء الدولة مما يرشدنا إلى أن القصيدة نظمت قبل أن يدعم مركز الشاعر فى بلاط المعز .

أما القصيدة الرابعة فهى نونيته الساحرة ، التى نالت إعجاب الخليفة ، وكوفىء عليها الشاعر مكافأة طائلة بلغت خمسة عشر ألف دينار ، وذكر الديوان أنه قد قيل فيها إنها أول ما أنشده الشاعر بالقيروان من شعر فى المعز ، ومطلعها :

هل من أعقـــة عالج يبرين أم منهما بقر الحدوج العين؟

ويقول فيها :

هذا معـد والخلائق كلها هذا المعز متوجا والدين
هذا ضمير النشأة الأولى التى بدأ الاله ، وسرها المكنون

ويحرض فيها المعز على العبور إلى الأندلس والقضاء على دولة بنى أمية فيها . والقصيدة رائعة ، قوية فى نظمها وفى روحها وفى العقيدة التى تملأ جوانبها بالحياة الفنية المشبوبة ، وهى على أى حال من أوائل القصائد التى نظمها ابن هانىء فى المعز إن لم نجزم بأنها أولها ..

وإذا فأستطيع أن أقول : إن القصيدة الأولى نظمت قبل اتصال الشاعر بالمعز بعامين ، وأما القصائد الثلاث الباقية فقد نظمت كلها عام ٣٥٠ هـ ، وهو العام الذى اتصل فيه ابن هانىء بالمعز ، وأول قصيدة أنشدها فى مجلسه هى الكافيـــة ثم تلتها الحائية ثم النونية ، وهذا رأيى وإن كان لكل اختيار ما يريد بعد أن بسطنا البحث وفصلنا الكلام فيه .

وعلى أى حال فقد أقام ابن هانىء فى فناء الخليفة ، واستظل بظله ، وعاش فى القيروان عاصمة دولته ، يروح ويغدو كل يوم إلى الخليفة ، ينشر أمامه الثناء المحبر والشعر الساحر ، والقوافى البليغة ، التى يشيد فيها بالدولة والخليفة ، ويدعم حقها فى

تراث الرسول ، ويذود عنها أعداءها من الأمويين والعباسيين ، ويشدو بأيامها وانتصاراتها ، كل هذا والخليفة يزيده عطفا ورعاية وتمكينا .

وبذلك ابتدأت صفحة جديدة فى حياة الشاعر ، فعاش فى مجد العرش وظله ، وبين سمع الزمان وبصره ..

عصر المعز

لاقى العلويون كثيرا من الاضطهاد فى عهد الأمويين والعباسيين ، وفر لفيف منهم إلى المغرب ، فنشر دعاتهم الدعوة الشيعية فى ربوعه ، ودعوا الناس إلى بيعة المهدى المنتظر منهم ، وأعلن أبو عبد الله الشيعى فى آخر القرن الثالث الهجرى عام ٢٩٦ ﻫ ابتداء قيام الدولة الفاطمية ، وأخرج عبد الله المهدى من الحبس وأقامه على ملك الفاطميين .

والدولة الفاطمية تنتهى فى نسبها إلى فاطمة الزهراء ، وكانت عاصمتها الأولى هى « المهدية » التى تنسب إلى أول الخلفاء الفاطميين المهدى .

حكم المهدى هذه الدولة الجديدة نحو ربع قرن (٢٩٦ - ٣٢٢ ﻫ) ، ولما توفى خلفه على العرش ابنه القائم بأمر الله (٣٢٢ - ٣٣٤ ﻫ) ، ثم خلفه بعد وفاته ابنه المنصور (٣٣٤ - ٣٤١ ﻫ) .

وكان ملك الفاطميين فى أول أمره يشمل كثيرا من تونس وبعض أقاليم الجزائر وطرابلس ، كما يشمل صقلية من جزر البحر الأبيض ، ولكن الخلفاء الفاطميين دأبوا على التوسع والفتح ، فضموا إلى دولتهم كثيرا من البلاد ، ولقب المنصور نفسه بألقاب الخلافة لما رأى ضعف دولة بنى العباس ، وفى عام ٣٤١ ﻫ توفى المنصور فخلفه على عرشه ابنه المعز لدين الله الفاطمى . . ولد المعز بالمهـــدية عام ٣١٧ ﻫ ، وبويع له بولاية العهد فى آخر حياة أبيه ، ثم سلم عليه بالخلافة فى ٧ ذى الحجة عام ٣٤١ ﻫ ، ولقب نفسه أمير المؤمنين ، وبابتداء حكمه ابتدأ عهد جديد للفاطميين ، وأخذوا يتوسعون فى بسط نفوذهم السياسى والروحى فى شتى الأقطار ، على حساب الدولة العباسية فى الشرق ودولة بنى أمية فى الغرب ، بالرغم من المقاومة السياسية العنيفة التى كان العباسيون والأمويون يدأبون على إحاطة الدولة الفاطمية بها ، وبرغم الجهود الحربية التى قام بها العباسيون والأمويون للحد من نشاط الفاطميين السياسى والحربى ، وللقضاء عليهم كما كانوا يتمنون .

وجه المعز عنايته فى أول عهده إلى تقوية جيشه وأسطوله فبلغ بهما ما أراد ؛ وبدأ يناوش بأسطوله الأمويين فى ثغور الأندلس ، والروم فى جزر البحر الأبيض، ثم حرك جيوشه بقيادة جوهر وسواه من القواد ، فاجتاحت بلاد المغرب كافة ورفعت فوق ربوعها راية الفاطميين البيضاء ، ووصلت إلى البحر المحيط ظافرة منصورة عام ٣٥١ هـ ، وفى عام ٣٥٤ قامت معارك حربية وبحرية هائلة بين جيش المعز وأسطوله وبين جيوش الروم وأساطيلهم البحرية ، فى صقلية وجنوب إيطاليا ، وانتهت هذه المعارك بظفر كبير للمسلمين ، وفى عام ٣٥٦ مات كافور الأخشيدى وسيف الدولة الحمدانى ، وبدأت الدولة الأخشيدية فى مصر والحمدانيـــة فى الشام تسيران إلى الاضمحلال والفناء ، مما مهد السبيل للتوسع الفاطمى صوب الشرق ، وفعـلا خرج جيش عظيم من القيروان عام ٣٥٨ هـ بقيادة جوهر لفتح مصر ، فبلغ مصر ودخلها فى منتصف شعبان سنة ٣٥٨ هـ ، واختط جوهر القاهرة ، وبنى الأزهر ، وأرسل الجيوش إلى الشام ، ودخل المعز القاهرة فى منتصف رمضان سنة ٣٦٢ هـ ، واتخذها عاصمة لملكه الواسع الذى يسير من المحيط الأطلسى إلى الفرات ، وبذلك صار المعز أكبر حاكم لأعظم امبراطورية إسـلامية عرفها القرن الرابع ، وظل فى مصر حتى توفى عام ٣٦٥ هـ ، وخلفه على العرش ابنه العزيز .

هذا خلاصة التاريخ السياسى لعصر المعز الفاطمى ، الذى كان كله عصر كفاح وجلاد ، للفاطميين فيه أروع الذكريات وأمجد الانتصارات ، وقد شاهد ابن هانىء كثيرا من هذه الأحداث التاريخية العظيمة ، واتصل بالمعز خلالها اتصالا وثيقا ، ونظم فيها كثيرا من أروع قصائده وأعظم آياته ، وتغنى بمجد الدولة ، وناضل عنها خصومها السياسيين ، فلنتحدث إذاً عن التاريخ الأدبى لابن هانىء فى هذه الفترة فهو وحده صورة واضحة لعصر المعز ، ولأحداثه التاريخية الحافلة .

ابن هانى شاعر الخليفة والدولة

لم يكن ابن هانىء فى بلاط المعز شاعر الترف والنعيم الذى يستغرق فى ملذاته وشهواته ، ولا شاعر الفن الخالص الذى ينظم الفن للفن ، دون أن يلقى نظره على الحياة العامة ، ودون أن يستمع لضجيجها ، ودون أن تحدثه نفسه بأن يكون فنه صورة للحياة التى يعيش فيها وللأحياء الذين يقومون بأداء رسالاتهم فى الحياة وفى تاريخ الإنسانيه عامة .

إنما كان شاعر الحياة بأوسع معانيها ، كان شاعر الخليفة ، والشاعر السياسى لدولة الخلافة الفاطمية ، ينطق بمجدها ، ويتحدث عن عظمتها الروحية والسياسية والحربية ، وكان يجد فى عظمة المعز وعصره مجالا فسيحا ينظم الشعر فيه .

نعم إن قصائده كانت فى أول اتصاله ببلاط المعز تدور حول إثبات وجود الشاعر والتمكين لنفسه ولشخصيته فى الدولة ، وتصوير آلامه والخطوب التى احتملها ، وشكر أيادى الخليفة التى تغدق عليه المال والعطاء ، ولكنها مع ذلك كله لم تخل من الحديث عن مجد الخلافة والدولة وعاهلها العظيم . وفى انتصارات الفاطميين الحربية والبحرية على الروم عام ٣٥١ هـ إلى عام ٣٥٤ هـ ، نظم ابن هانىء كثيرا من القصائد الرائعة التى صور فيها هذه الانتصارات الباهرة أبلغ تصوير ، ثم كان فتح مصر عام ٣٥٨ فألهم الشاعر بآيات ساحرة من القريض ، ثم نظم ابن هانىء بعد ذلك قصائد هى صورة صادقة لما تلا ذلك من أحداث حتى وفاته عام ٣٦٢ هـ .

وأصبح ابن هانىء فى هذه الحقبة ، أى من عام ٣٥٠ هـ إلى عام ٣٦٢ هـ ، شاعر الخليفة بما كان ينظمه فى مدحه من آيات الشعر الخالد ، وشاعر الدولة الذى وقف نفسه وفنه وشاعريته ، على الذياد عنها ، والاشادة بمجدها وأيامها ، وبطولة جيشها ، وانتصارات أسطولها الباهرة ، واحتل فى دولة المعز مكانا لم يحتله سواه من الشعراء ، وصار حديث الناس فى المحافل العامة والخاصة ، كما صار شعره أنشودة فى كل فم ، وأغنية على كل لسان ، وحفل به الشيعة الفاطميون ، وأولوه عنايتهم وإعجابهم البالغ ، وكان لقصائده فى المعز وأهل بيته العلوى منزلة خاصة فى الأدب والتاريخ لأنها سجلت أهم مظاهر الانتقال فى حياة الدولة الفاطمية ، وصورت الكثير من عقائد الفاطميين ، وتقديسهم للخلافة وعاهلها ، فوق مكانتها الأدبية الممتازة ، وما امتازت به من الروعة والقوة ولدد الخصومة ، وقوة العقيدة وحرارة الايمان واشتعال العاطفة ، فوق طموح الشاعر واعتداده بفنه وشخصيته فيها ، فضلا عن أنها تمثل الكثير من مظاهر الحياة الاجتماعية والعقلية والدينية والأدبية فى عصر المعز .

وبعد فقد كان ابن هانىء فى هذه الفترة العظيمة التى قضاها فى بلاط المعز شاعر الخليفة ، والشاعر السياسى لدولته الفتية ، وشاعر العقيدة الفاطمية بمبادئها الروحية وآرائها السياسية ومعتقداتها الدينية ، وصارت شخصيته فى هذا العهد أظهر شخصية بين الأدباء والشعراء وبين رجال الدولة والسياسة ، وأغدق عليه المعز المال إغداقا ،

وحسبك أن نونيته وحدها قد كافأه المعز عليها بخمسة عشر ألف دينار ، ولننتقل بعد ذلك إلى مرحلة جديدة من التحليل الأدبي لبعض قصائد الشاعر في هذه الفترة الحافلة .

معزيات ابن هانىء

« ومعزيات » ابن هانىء هي قصائده التي أنشدها المعز ، والتي بينا مكانتها في الأدب والتاريخ والسياسة والاجتماع ، وهي ثروة أدبيـة ضخمة ، ومجد أدبي كبير لابن هانىء وفنه .

لاأستطيع أن أحلل كل هذه القصائد « المعزيات » ، التي تبلغ إحدى وعشرين قصيدة ، في هذه الفصول الموجزة ، وإنما أحلل قصيدتين منها أو ثلاثا لنرى مدى آثارها الأدبية والتاريخية الكبيرة ، وربما دعا المقام إلى الإلمام بأكثر من ذلك .

من هذه القصائد همزيته التي هي أول قصيدة في ديوان الشاعر ، مدح بها المعز وهنأه بشهر رمضان ، وقد بدأها بغزل ظهر في مطلعه بمظهر البداوة التقليدي في الغزل فصور الشاعر عزة قوم حبيبته ، وغلوهم في الغيرة عليها ، وأشار إلى ذكريات التلاقي ومآسي الفراق ، وإلى بعض مظاهر الجمال في خلقها ، ثم خلص من ذلك إلى نفسه وإلى مدح الخليفة ووصف عقيدة الفاطميين فيه .

ثم وصف أسطوله وقوته ، وسطوته على الأعداء ، ويقول في هذه القصيدة .

هو علة الدنيا ومن خلقت له ... ولعـــلة ماكانت الأشياء
من شعلة القبس التي عرضت على ... موسى وقد حارت به الظلماء
من معدن التقديس وهو سلالة ... من جوهر الملكوت وهو ضياء
من حيث يقتبس النهار لمبصر ... وتشق عن مكنونها الأنباء
ليست سمـــاء الله ماترونها ... لكن أرضـــا تحتويه سماء
نزلت ملائكة السماء بنصره ... وأطاعه الإصباح والإمساء

ويستمر في الاشادة به ، مدفوعا بعقيدته الفاطمية ، مسايرا لإيمانه الاسماعيلي ، الذي يرى أن الأمام ، أو قل الخليفة ، سبب وجود المخلوقات ، وأنه من أكملها جسدا وروحا ، وأنه متصف بكل صفات النبي ﷺ ، وهو معصوم عصمة الأنبياء وأنه مظهر نور الله ، ويصح اتصافه بصفات الله ، ويشرق نورها عليه وفيه ، وأن معرفته وطاعته واجبة على جميع الناس ، وأنه من معدن الرسالة التي خلقت قبل الخلق ، وانتقلت خلال القرون حتى ظهرت في مظهرها العظيم في شخصية محمد صلوات الله عليه ،

إلى غير ذلك من مظاهر تقديس الشيعيين لآل البيت ولأئمتهم العلويين ، هــذا التقديس الذى ارتفع إلى مستواه الروحى العظيم ، والقصيدة فياضة بروح اليقين والعقيدة . ومن الجدير بالذكر أن شعر ابن هانىء فى المعز خاصة هو السجل الناطق بعقيدة الفاطميين ، وبآرائهم فى الخلافة وتراثها ، وشخصية الخليفة ونفوذه الروحى والدينى ، فتراه يقول فى هذه القصيدة :

هذا الشفيع لأمة يأتى بها وجدوده لجدودها شفعاء
هذا أمين الله بين عباده وبلاده إن عدت الأمناء
هذا الذى عطفت عليه مكة وشعابها والركن والبطحاء
هذا الأغر الأزهر المتألق المتدفق المتبلج الوضاء
فعليه من سيما النبى دلالة وعليه من نور الإله بهاء

ويقول فى المعز من قصيدة أخرى :

هذا ضمير النشأة الأولى التى بدأ الإله وسرها المكنون
من أجل هذا قدر المقدور فى أم الكتاب وكون التكوين
وبذا تلقى آدم من ربه عفواً وفاء ليونس اليقطين

ويقول :

هذا الذى ترجى النجاة بحبه وبه يحط الإصر والأوزار
هذا الذى تجدى شفاعته غدا حقا وتخمد أن تراه النار
من آل أحمد ، كل فخر لم يكن ينمى اليهم ليس فيه فخار

ويقول :

ماشئت لا ماشاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار
وكأنما أنت النبى محمد وكأنما أنصارك الأنصار
أنت الذى كانت تبشرنا به فى كتبها الأحبار والأخبار
شرفت بك الآفاق وانقسمت بك الأرزاق والآجال والأعمار

ويقول فيه :

من يشهد القرآن فيه بفضله وتصدق التوراة والإنجيل
فافخر فمن إنشائك الفردوس إن عدت ومن إحسانك التنزيل
وأرى الورى لغوا وأنت حقيقة مايستوى المعلوم والمجهول

إلى غير ذلك ، مما تراه واضحاً فى كل قصيدة من معزياته ، التى تدور فيها عقيدته

الفاطمية أبلغ تصوير ، وأظهر مبادئها بكل وضوح وجلاء . وقد كانت أبياته هذه وما شابهها مجالا كبيرا لخصوم الفاطميين ، الذين غضوا من شعر ابن هانىء وأزروا به ، ورموه بالكفر والبهتان ، وساموه الخسف ، لا لشيء إلا لأنه صور فى شعره عقيدته ، وتحدث فى فنه عن آرائه ومبادئه التى يؤمن بها كل فاطمى .

وللذين يرمون الشاعر بالكفر لإسرافه فى مدح خليفته المعز رأيهم الدينى ، ولهم أن يتحدثوا عنه من الناحية الدينية كما يريدون ، وإن كان عليهم أن يدركوا أنهم لا يرمون بهذا ابن هانىء وحده ، بل يشركون معه كل فاطمى يدين بالاخلاص لعقيدته ، وهل كان ابن هانىء بين الفاطميين إلا رجلا منهم ، يتحدث عن عقيدته بلغته ولغة قومه التى يعرفونها ، ويترجم شعوره وشعورهم بدون مغالاة أو تكلف ، ويصور جانباً من آرائهم فى الخلافة والخليفة كما يعرفون ويعتقدون .

ولكن الذين يريدون أن يغضوا من قيمة الشاعر الأدبية ، ومكانته بين الشعراء من أجل ذلك ، يسومون الادب سوء رأيهم وما إليه يذهبون . لان العقيدة لا يصح أن يحكمها ناقد نزيه فى الفن ، لان تحكيمها جور فى الحكومة الادبية ، وإسراف فى الفصل فى مكانة الشعراء ، وإلا لأسقطنا الشعر الجاهلى أو الشعر الغربى الحديث من مجال التقدير الادبى ، لأنه أدب قوم يخالفوننا ونخالفهم فى العقيدة والرأى .

لقد مضى الزمن الذى كان ترفع فيه الحكومة الأدبية على أساس العقيدة ، والذى كان يستبيح فيه بعض النقاد الغض من شأن أبى نواس لانه كان يقول :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التى لم تخلق

أو الزراية بالمتنبى لانه يقول :

يترشفن من فمى رشفات هن فيه أحلى من التوحيد

نعم ، لقد مضى ذلك الزمن الماضى ، ورأى نقاد الادب عدم تحكيم العقيدة فى تقدير الفن ، ووزن قيم الشعراء ، وتحديد مكانتهم الأدبية ، ونعى الجرجانى فى وساطته على هؤلاء ، وقرر أن الدين بمعزل عن الشعر ، وأن منزلة الشاعر الأدبية لا يبوئه إياها إلا خصائصه الفنية (١) .

وبعد فابن هانىء أشد إيماناً من هؤلاء النقاد الذين يجورون عليه ، وهو غنى بإيمانه عن أن يشيد هؤلاء به وبدينه .

ولكن الحقيقة يجب أن تأخذ مكانها من البحث الادبى ، فيعرف الناس شخصية ابن هانىء من جديد ، ويفرقوا بين شخصيته الفنية وعقيدته الفاطمية ، وعليهم ألا

(١) ٦١و٦٢ الوساطة

يجعلوا ابن هانىء وحده محور خصومتهم وسخطهم ، لاشىء إلا لأنه صور آراء الفاطميين وعقيدتهم فى شتى نواحى الحياة ، والتى كان يؤمن بها معهم أشد الايمان .

ومن معزيات ابن هانىء قصيدته التى مدح بها المعز ، وذكر الفتح الذى كسبه جيشه فى صقلية ، والذى قتل فيه « منويل » ، واجتاز المسلمون بعده البحر إلى جنوب إيطاليا ، ولا بد أن هذا الفتح هو النصر الكبير الذى تم قبيل سنة ٣٥٤ هـ ... ومطلعها :

يوم عريض فى الفخار طويل   ماتنقضى غرر له وحجول

ويقول فيها :

سل رهط منويل وأنت عذرته   فى أى معركة ثوى منويل

ويشيد بهذا النصر إشادة بالغة طويلة ، إلى أن يختمها بقوله :

شهد البرية كلها لك بالعلى   إن البرية شاهد مقبول

والقصيدة طويلة فى جودة وسحر وجمال وبلاغة .

وهناك قصيدة أخرى نظمت أيضا فى تلك المعارك الحربية بين المسلمين والروم ، ومطلعها :

قامت تميس كما تدافع جدول   وانساب أيم فى نقا يتهيل

ويقول فيها فى المعز :

فرغ الاله له بكل فضيلة   أيام آيات الكتاب تنزل

هذا الذى تتلى مآثر فضله   فينا كما يتلى الكتاب المنزل

موف يرد على الليالى حكمها   فكأنه بالحادثات موكل

ويقول :

نصر الاله على يديك عباده   والله ينصر من يشاء ويخذل

ان يستفيق الروم من سكراتهم   إن الذى شربوا رحيق سلسل

ويتهكم ببنى العباس الذين خذلوا فى ثغور الشام أمام الروم ويستمر فى الاشادة بانتصار المعز على الروم فى صقلية إلى أن يقول :

ذا المجد لا يبغى سواه وذا الندى   يبنى لآل محمد ويؤثل

لى مهجة ترفض فيك تشيعاً   حتى تكاد مع المدائح تهمل

والقصيدة جيدة يشيع فيها الايمان وحرارة العاطفة ، ويتجلى من روحها أنها نظمت في الاشادة بالنصر الفاطمي الكبير على جيوش الروم وأسطولهم عام ٣٥٤ هـ .

وله قصيدة أخرى فى الاشادة أيضا بهذه الانتصارات الكبيرة فى صقلية وجنوب إيطاليا ، بدأها بالغزل ثم خلص إلى مدح المعز فأفاض فى وصف بأسه وقوته الحربية ونكايته بالروم . ويقول :

إذا ذكروا آثار سيفك فيهم فلا القطر معدود ولا الرمل محسوب
وفيما اصطلوا من حر بأسك واعظ وفيما أذيقوا من عذابك تأديب

ويتهكم ببنى العباس و بضعفهم أمام الروم فى الشرق ، و ببنى أمية فى الغرب ، تهكمه بالروم ، ويتفاءل للمعز ودولته بملك العالم الاسلامى إلى أن يقول :

وأنت معد وارث الارض كلها وقد حتم مقدور وقد خط مكتوب

ثم يقول :

إذا ما مدحناكم تضوع بيننا و بين القوافى من مكارمكم طيب
فإن أك محسودا على حر مدحكم فغير نكير فى الزمان الاعاجيب
أفى كل عصر قلت فيه قصيدة على لاهل الجهل لوم وتثريب
وما غاظ حسادى سوى الصدق وحده وما من سجاياى مثلى الافك والحوب
وما قصد مثلى فى القصيد ضراعة ولا من خلالى فيه حرص وترغيب
أبن موضعى فيهم ، ليفخر غالب يبين بسيماه ، ويدحر مغلوب
وقد أكثروا فاحكم حكومة فيصل ليعرف رب فى القريض ومربوب

والقصيدة طويلة جيدة ، نظمت كسابقاتها فى انتصارات المعز على الروم فى صقلية ، ووجد الشاعر فيها مجالا للسخرية بالعباسيين والأمويين ، وتفاءل للدولة الفاطمية بالمجد وسيادة العالم الاسلامى ، ويظهر من روحها الأخيرة أن الشاعر كان معرضا لحملات خصومه من الشعراء ، فطلب من المعز أن ينصفه منهم ، ويحكم بينهم وبينه ، عليه أو له ، وقد حكم المعز له لا عليه ، فآثره واصطفاه ، ورفع منزلته لديه وأصبح ابن هانىء فى بلاطه شاعر المعز والدولة ، ورب القريض فى المغرب الفاطمى . وهناك ظاهرة واضحة فى هذه القصيدة وهى روح التأثر الفنى بالمتنبى وفنه ، مما لا داعى لبسط الحديث فيه .

فإذا ما تركنا هذه المرحلة التاريخية فى حياة الشاعر والدولة ، وجدنا قصيدة تصور هذا العهد التاريخى الذى تلا عام ٣٥٤ ، ومطلع هذه القصيدة :

تقدم خطى أو تأخر خطى فإن الشباب مشى القهقرى

خلص فيها من ذكر شبابه الراحل ، ومشيبه النازل ، وذكريات لهوه وصباباته

وهواه وحبه ، وشغفه بالصيد على الخيول الكريمة التى يصفها وصفا ممتعا ، خلص من ذلك كله إلى الاشادة بالمعز ، إلى أن يقول :

فأهون علينا بسخط الزمان   إذا ما رآنا بعين الرضا
هو الوارث الأرض عن أبوين   أب مصطفى وأب مرتضى
فما لقريش وميراثكم ؟   وقد فرغ الله مما قضى

ويستمر فى تقرير حق الفاطميين السياسى دون الأمويين فيقول :

عجبت لقوم أضلوا السبيل   وقد بين الله سبل الهدى
أفيقوا فما هى إلا اثنتان   فإما الرشاد وإما العمى
وما خفى الرشاد ولكنما   أضل الحلوم اتباع الهوى
وما خلقت عبثا أمة   ولا ترك الله قوما سدى
لكل بنى أحمد فضله   ولكنك الواحد المجتبى

والقصيدة توكيد لحق الفاطميين فى الخلافة ، ونضال سياسى ضد الأمويين ، وهى تصور سياسة المعز واتجاهاته بعد عام ٣٥٤ هـ .

وقد مكث الشاعر نحو أربع سنوات ينظم الشعر فى المعز ، يضمنه عواطفه نحوه ونحو دولته ، وآماله الواسعة بملك الفاطميين العالم الاسلامى ، وقصائده فى هذه الفترة خالية من ذكر المعارك الحربية والانتصارات الظافرة ، لأنه لم تقع فيها معارك ولا أحداث تاريخية كبيرة ، ومن بين قصائده هذه قصيدة مدح بها المعز وهنأه بعيد الفطر ، ووصف موكبه إلى المصلى ، وجلالة هذا الموكب ، والمظلة التى كانت تظلله ، والخيل التى امتطاها ، إلى آخر ما ألم به الشاعر فى هذه القصيدة من معان وأغراض ، ومطلعها :

فن فى مأتم على العشاق   ولبسن الحداد فى الأحداق
ومنحن الفراق رقة شكوا   هن حتى عشقت يوم الفراق
ومع الجيرة الذين غدوا دمع   طليق ومهجة فى وثاق
حاربتهم نوائب الدهر حتى   آذنوا بالفراق قبل التلاقى

ويقول فيها فى المعز :

ليس العيد منه ما يلبس الإ   يمان من نصل سيفه البراق
وجلا الفطر منه عن نبوى   أبيض الوجه أبيض الأخلاق

والقصيدة صادرة عن ذوق مترف يناسب حياة الشاعر المترفة فى ظلال الخليفة

بعد أن ألقى الأعباء عن كاهله ، ووطدت مكانته فى الدولة ، وهى تصور عهد الاستقرار السياسى الذى انتهت إليه دولة المعز ، بعد توطيد دعائمها فى المغرب ، وبعد انتصاراتها العظيمة على الروم فى صقلية والبحر الأبيض ، أى بعد عام ٣٥٤ ﻫ .

ثم يدخل عام ٣٥٨ ﻫ ، فتبتدىء مرحلة جديدة فى حياة الفاطميين . وكيانهم السياسى ، ويسير جوهر بجيش لجب لفتح مصر فيودعه ابن هانىء متمنيا له التوفيق فى أغراضه الحربية والسياسية الكبيرة ، فإذا ما عاد من تشييع جوهر وجيشه العظيم دخل على المعز ينشده آية من آياته ، ينشده قصيدته التى مطلعها :

سقتنى بما مجت شفاه الأراقم وعاتبنى فيها شفار الصوارم

بدأها بالغزل التقليدى ، ثم خاص منه إلى أناشيده فى المعز فيقول :

فشيعت جيش النصر تشييع مزمع وودعته توديع غير مصارم

ثم يذكر الجيش وبنوه بقائده تنويها بالغا .

وبعد قليل يصل إلى المعز نبأ فتح مصر على يد قائده جوهر ، فيصور ابن هانىء الفتح وأنباءه ونتائجه السياسية تصويراً باهرا فى قصيدة بالغة نهاية الروعة والسحر والبلاغة ، وهى المثل الأول لقوة العقيدة فى نفس الشاعر ، ولأثر هذه العقيدة فى فنه الشعرى الموهوب ، ومطلعها :

يقول بنو العباس : هل فتحت مصر؟ فقل لبنى العباس : قد قضى الأمر

وقيل إن الشاعر بدأها بدعوة المعز إلى فتح بغداد :

تجهز إلى بغداد قد فتحت مصر وأنجز صرف الدهر ما وعد الدهر

تقول بنو العباس هل بلغ المدى فقل لبنى العباس قد قضى الأمر

وهو يدل على طموح الفاطميين السياسى أبعد غايات الطموح ، ويسترسل ابن هانىء فى قصيدته استرسالا جميلا ، فيصور الفتح وأثره ومداه وما ترتب عليه من نتائج ويقرر حق الفاطميين فى تراث الرسول ، ويذود عنهم خصومهم السياسيين . ويصف الجيش الفاتح ، ودخوله الاسكندرية ، ورسول القاهرة إلى جوهر ، ثم سيره إليها ، وقضاءه على الدولة الإخشيدية ، ويدعو الشاعر العالم الاسلامى إلى أن يستظل بلواء الفاطميين ، وأن يدخل فى نطاقهم السياسى ، وإلا فالويل لمن يقف فى طريق السيل المنهمر ، ويتهكم ببنى العباس إلى أن يقول :

ألا تلكم الأرض العريضة أصبحت وما لبنى العباس فى عرضها فتر

فقد دالت الدنيا لآل محمد وقد جررت أذيالها الدولة البكر

ويشيد بالمعز ويده على العلويين :

من انتاشهم فى كل شرق ومغرب　　فبدل أمنا ذلك الخوف والذعر

فكل إمامى يجىء كأنما　　على خده الشعرى وفى وجهه البدر

ويبشر بهذا الفتح العالم الاسلامى ، لا سيما قلبه الخافق ، البيت المحرم ، الذى يراه عما قريب سيكون فى قبضة المعز وسلطانه ، إلى أن يقول :

حبيب إلى بطحاء مكة موسم　　تحيي « معدا » فيه مكة والحجر

ويصور آثار الفتح ، ويشيد بالخليفة ، ويهنئه به ، فى حرارة وقوة إيمان ، ويصف الأمن والعدل الذين سادا مصر على يد جوهر ، وينوه بجوهر وأعماله ومجده وولائه ، إلى أن يقول :

رضينا لكم يا أهل مصر بدولة　　أطاع لكم فى ظلها الامن والوفر

لكم أسوة فينا قديما فلم يكن　　بأحوالنا عنكم خفاء ولا ستر

إلى أن يقول :

ألا إنما الأيام أيامك التى　　لك الشطر من نعمائها ولى الشطر

والقصيدة من أروع شعر ابن هانىء ، ومعجزة فنه الخالد

ولما وطد الفاطميون مكانتهم فى مصر عزموا على التوغل فى الفتح لأخذ الحجاز والشام والعراق ، ويصور ابن هانىء ذلك فى قصيدة له ، أشار فيها إلى اندفاع الفتح الفاطمى ، وسيره فى طريقه دون هوادة ، وبشر الشرق بالمستقبل المرتقب على يد الفاطميين ، وحفز عزيمة المعز لفتح العراق والسير إليها ، وأخذ الحجاز من أيدى العباسيين ، ويقول فيها :

فتربصوا فالله منجز وعده　　قد آن للظلماء أن تتكشفا

هذا المعز ابن النبى المصطفى　　سيذب عن قبر النبى المصطفى

وكأننى بلواء نصرك خافقا　　قد حام بين المروتين ورفرفا

والقصيدة طويلة جميلة ، وتاريخها الادبى يمكننا أن نحدد له عام ٣٥٩ ﻫ .

وفى عام ٣٦٠ ﻫ قضى المعز على ابن الخزر الثائر فى المغرب ، والذى نقض عهد الطاعة للخلافة ، وعاث فى الارض فسادا نحو عامين ، ولما قتل جلس المعز يستقبل تهانىء رجال دولته ثلاثة أيام ، وكان من بين هذه التهانىء قصيدة ابن هانىء التى مطلعها :

كذا أبك ابن نبى الله لم يزل　　قتل الملوك ونقل الملك والدول

ذكر فيها مصرع الثائر ، وصور الاستقرار السياسى للدولة فى المغرب بعد القضاء

على ثورته ، وأشاد بالمعز وولى عهده ، إلى أن يقول :

ليعقد التاج هذا اليوم مفتخرا إن كان توج يوم سائر المثل
فيه الربيعان : من فصل الربيع ومن وقائع النصر تشفى من جوى الغلل

والقصيدة طويلة ، تقارب المائة مع جودة وسحر ، وهى كسابقاتها دعاية قوية للدولة ومبادئها .

وفى عام ٣٦١ ه انتصرت جيوش المعز على القرامطة فى الشام ، وبلغ هذا النصر المعز ، فنظم ابن هانىء فيه قصيدته :

ما شئت لا ماشاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار
وكأنما أنت النبى محمد وكأنما أنصارك الأنصار

وهى قصيدة قوية مشرقة الديباجة . وصف فيها الشاعر جيش المعز وانتصاره فى « قرافس » بالشام على القرامطة ، ووصف المعركة والخيل التى اقتحمتها ، والأبطال الذين كان لهم شرف النصر فيها ، وأشاد بالمعز إشادة ساحرة ، ونافح عن حق الدولة ، وزاد عنه أعداءها من العباسيين ، وهى على أى حال من عيون الشعر ، وتحتل مكانها الممتاز فى فن ابن هانىء ، وقد نقم كثير من الناس على مطلعها ، ولكن الشاعر كان كما تمليه عقيدته عليه ، وفى آخرها يقول للمعز إن مصر صارت محسودة منذ أن صرت قطينها :

ها إن مصر غداة صرت قطينها أحرى لتحسدها بك الأقطار

ولكن كيف ذلك مع أن ابن هانىء قتل والمعز سائر فى طريقه اليها عام ٣٦٢ ه ولما يبلغها بعد ؟ قد يكون الشاعر أراد غداة صرت مليكها أو حاكمها مثلا ، وليس هذا ببعيد ، بل هو أقرب من أن نذهب إلى أن البيت منتحل على الشاعر وعلى الشعر، أو إلى أن القصيدة نظمت والمعز سائر فى الطريق .

وبقيت من « معزيات » ابن هانىء قصيدة طويلة جدا ، تبلغ مائتى بيت ، وهى أطول قصائد الشاعر ، وقد قيل إنه نظمها وبعث بها إلى المعز بالقاهرة وهو مقيم بالمغرب ، وأنها آخر قصائده . . ومطلعها :

أصاخت فقالت : وقع أجرد شيظم

وقد نقد ابن رشيق هذا المطلع فى عمدته (١) ، والقصيدة يبدؤها الشاعر بالغزل ثم يخلص إلى المعز ومدحه ، ووصف جيشه وسيادته وبطولاته ومحتده العريق ، إلى

---

(١) ١/٨١

أن يقول :

ألا إنما الأقدار طوع بنانه ... فحاربه تحرب أو فسالمه تسلم
وما النمع التاج المفصل نظمه ... على ملك منه أجل وأعظم
ولا عجب أن كنت بالبطحاء خير متوج ... لجدك بالبطحاء خير معمم
وأشهد أن الدين أنت مناره ... وعروته الوثقى التي لم تفصم
فصاراك ملك الأرض لا مايرونه ... من الحظ فيها والنصيب المقسم

ويستمر فى تفاؤله لدولة المعز بسيادة العالم الاسلامى ، ويصور حالة الشرق وضعفه ، واستبداد بنى بويه بأمر الخلافة العباسية ، إلى أن يقول :

سوام رتاع بين جهل وحيرة ... وملك مضاع بين ترك وديلم

ويهدد بنى أمية بانتقام الفاطميين ، ويطلب من الخليفة أن يحسم داءهم ، ويستمر فى تهكمه بهم ، وفى الاشادة بآل البيت ، إلى أن يقول :

لئن كان لى عن ودكم متأخر ... فما لى عن التوحيد من متقدم
ولولا قطين فى قصى من النوى ... لما كان لى فى الزاب من متلوم

يقول : لولا أهلى بالزاب لما كان لى دائما مستقر سوى مستقركم . .

وعندى على بعد المزار ونأيه ... قصائد تترى كالجمان المنظم
إذا أشأمت كانت لبانة معرق ... وإن أعرقت كانت لبانة مشئم
تطاول عن أقدار قوم جلالة ... وتصغر عن قدر الامام المعظم

ثم يقول : .

ولما تلقتك المواسم آنفا ... تربصت حتى جئت فردا بموسم
ليعلم أهل الشرق والغرب أننى ... بنفسى لا بالوفد كان تقدمى

والقصيدة قوية جميلة مبدعة ، وأستبعد أنها أرسلت للمعز فى مصر ، لأن المعز وصل الاسكندرية فى شعبان ، والقاهرة فى رمضان عام ٣٦٢ ، والشاعر كان مصرعه فى رجب من هذه السنة ، فإما أن يكون ابن هانىء أرسلها بعد فراقه المعز وقبل أن يصل المعز مصر ، وإما أن يكون قد أرسلها اليه والمعز فى برقة يرتب أمور الدولة قبل رحيله إلى القاهرة ، وقد دخل المعز برقة فى شوال عام ٣٦١ هـ ، ولم يرحل عنها إلا بعد أربعة أشهر أو يزيد ، واعتذر الشاعر للمعز فى القصيدة عن عدم مصاحبته له فى رحلته إلى مصر بأن أهله تركهم فى الزاب ، ولولا ذلك لما كان له فى الزاب أمل ولا حاجة ، وذلك معقول غير بعيد ، ولا يبعد أيضا أن يكون الشاعر نظمها وهو

مسافر إلى الزاب لزيارة أهله وأصدقائه ، وأرسلها إلى المعز فى عاصمته بالقيروان قبل أن يرحل إلى مصر ، وذلك أيضا غير بعيد .

وأخيرا فهذه أهم معزيات ابن هانىء الساحرة ، التى نظمها فى الإشادة بالمعز ودولته وفى الدفاع عن حق الفاطميين فى الخلافة ، ومناضلة أعدائهم من الأمويين والعباسيين وسواهم من الثائرين والروم ، وهى قصائد تحتل فى الأدب العربى مكانها الرفيع .

بين الشاعر ورجالات الدولة

وفى أثناء هذه الحقبة التى قضاها الشاعر فى بلاط المعز اتصل بكثير من الأمراء ورجالات الدولة ، ومدح بعضهم بقصائد جميلة ، ومن هؤلاء :

١ — الأمير طاهر والأمير عبد الله إخوة الخليفة المعز الفاطمى فقد مدحهما بقصيدته :

امسحوا عن ناظرى كحل السهاد وانفضوا عن مضجعى شوك القتاد

أشاد فيها بالأميرين إشادته بالفاطميين وبطولتهم وقوتهم ، ويذكر فيها شعره فيهم :

جوهر آليت لا أوقفه موقف الذلة فى سوق الكساد
لا أرى بيت مديح شارد فى سواكم غير كفر وارتداد
ولقد جئتم كما قد شئتم ليس فى فخركم من مستزاد

والقصيدة جميلة ، ويظهر من قراءتها أنه ناب فيها عن يحى بن على ، فى شكر الأميرين ، على يد أسدياها إليه ، ولعله نظمها فى الفترة التى قضاها فى الزاب .

٢ — أبو الفرج الشيبانى ، وهو صاحب أعمال الصعيد ، ومسخر جبل أوراس بالمغرب عام ٣٤٦ﻫ ، كما يقول الشاعر ، ويتجلى من القصيدة الخامسة فى ديوان ابن هانىء أن أبا الفرج كان من ولاة الصعيد فى عهد الاخشيديين ، ثم سار إلى الفاطميين وكان قائداً فى حملة جوهر على مصر ، ومرشدا للجيش الفاتح ، ومن هذه القصيدة :

أنت السبيل إلى مصر وطاعتها ونصرة الدين والإسلام فى حلب
ألست صاحب أعمال الصعيد بها قدما وقائد أهل الخيم والطنب
وكم تخلف فى أوراس من سير سارت بذكرك فى الأسماع والكتب

ثم يصف مساعدته لجوهر فى فتح مصر ، إلى أن يقول :

فقد سرى بسراج منك فى ظلم وقد أعين بسيل منك فى صبب

وإذا كان معنى ذلك أنه يمدحه بأنه رائد جوهر إلى مصر ، فتكون هذه القصيدة قد نظمت بعد عام ٣٥٨ﻫ .

ولابن هانىء فيه قصيدة أخرى ، أكد فيها صلات النسب البعيد بينه وبين هذا القائد واسترسل فى مدحه والتنويه به ، إلى أن يقول :

ومن مواهبه الرايات خافقة   والعاديات إلى الهيجاء تستبق

وله فيه كذلك قصيدة لامية جميلة ، يقول فيها :

فتى كل سعى من مساعيه قبلة   يصلى إليها كل مجد ونائل

ويقول منها فى قومه :

أولئك من لا يحسن المجد غيرهم   ولا الطعن شزرا بالرماح الذوابل
فلم يدر إلا الله ما خلقوا له   ولا ما أثاروا من كنوز الفضائل
شبيه بأعلام النبوة ما أرى   لهم فى الندى من معجزات الشمائل

وينوه بالشيبانى كذلك فى قصيدته اليائية التى يقول فيها :

ركن لعمرك من أركان دولتهم   وعروة من عرى الدين الحنيفى
شيعى أملاك بكر إن هم انتسبوا   ولست تلقى أديبا غير شيعى

٣ — جعفر بن فلاح القائد الفاطمى الذى قتل فى أثناء نزاله للقرامطة بالشام عام ٣٩٠هـ ، وفى ديوان الشاعر عدة أبيات فيه .

٤ — أفلح الناشب عامل برقة وواليها للمعز ، وله فيه قصيدة نونية منها :

حيوا جلالة قدره فكأنما   حيوا أمين الله فى الأيوان

ومن هذه القصيدة نعلم أن أفلح كانت الدولة وكلت إليه بعد فتح مصر القضاء على ثورات آل قرة من عرب البحيرة ، فنجح فى ذلك ، نجاحه فى توطيد دعائم الملك والأمن فى برقة ، ولعل هذه الثورات قامت بتحريض العباسيين عند قدوم جيش القرامطة إلى مصر عام ٣٦٠هـ ، فيكون ذلك هو تاريخ هذه القصيدة .

٥ — أبو عبد الله الحسين الكاتب صديق ابن هانىء ، ومدحه بقصيدة صغيرة ذكر فيها بلاغته ، ومنها :

تمشى البلاغة خلفكم وأمامكم   ويطيب ما تطؤون بالأقدام

وأخيرا ، فهذا ما أسفر عنه البحث الأدبى فى تراث الشاعر الفنى ، وحياته الحافلة وهو على أى حال يوضح لنا الجوانب المجهولة فى حياة ابن هانىء التى نسيها أو تناساها التاريخ .

مصرع الشاعر

وبعد حياة حافلة عظيمة ، خرج الشاعر مع المعز ، يودعه فى سفره إلى مصر عام ٣٦٢هـ ، وهو على عزم اللحاق به ، بعد أن يعود إلى أهله ، فيهيئهم للسفر معه إلى القاهرة : وبعد أن رحل المعز وودعه الشاعر ، تآمر عليه بعض خصومه من رجال السياسة والأدب والشعر ، وأسفرت هذه المؤامرة عن اغتيال الشاعر لسبع ليال بقين من رجب عام ٣٦٢هـ ، وهو فى سن الثانية والأربعين .

وبذلك انتهت حياة شخصية كبيرة ، لها أكبر الأثر فى الجهاد السياسى والنضال العتيد ، الذى قام به الفاطميون العلويون ضد خصومهم السياسيين .

وطويت حياة رجل كان الأثير العزيز عند المعز ورجال دولته ، وفقدوه أحوج ما يكونون إليه ، وأشد الناس حزنا وهلعا عليه ، وختمت صفحة شاعر ممتاز وقف نفسه وفنه فى سبيل الدفاع عن رأيه ومبدئه فى الحياة .

ووصل نعيه إلى المعز وهو سائر فى طريقه إلى مصر لحزن وجزع وقال : « لقد كنا نرجو أن نفاخر به أهل المشرق فلم يقدر لنا ذلك » ، ولكن حم القدر ، وحان الأجل ، ولكل أجل كتاب .

شخصية الشاعر

— ١ —

نشأ وعاش ومات ابن هانىء مجاهدا فى سبيل عقيدته ، التى كان يؤمن بها من صميم فؤاده ، ويتخذها دينا له فى الحياة .

وكان هذا الجهاد الحافل فى عصر الجهاد المظفر الذى قام به الفاطميون فى المغرب ، كان يحول بين الشاعر وبين اللهو فى الحياة .

كانت أخلاقه أخلاق الرجال الذين يعتزون بأنفسهم ومحتدهم ، ويقدرون الواجبات الملقاة على كواهلهم فى الحياة ، ويصورها لنا ابن هانىء فى صورة نبيلة من السخاء والنبل والوفاء والشرف وبعد الهمة والأنفة من الموبقات .

إنى لآنف أن يميل بى الهوى　　أو أن يرانى الله حيث نهانى

وغزل ابن هانىء التقليدى البرىء ووصفه القليل للخمر ومجالسها وسقاتها ، لا يصوران لنا ابن هانىء فى مظهر ينافى هذا المظهر النبيل ، وإن كان خصوم الشاعر أذاعوا عنه — فى حياته وبعد حياته — أنه كان صاحب لذات ولهو ودعارة ، ولعلهم استندوا إلى آثاره الأدبية القليلة فى الراح ومجالسها ، على أنها وحدها

لاتكفى لهذا الحكم الجائر الذى حكم به عليه المؤرخون ، فضلا عن أن ابن هانىء لم تكن أحاديثه عن صبابات الهوى أو نشوة الراح حديث الماجن المستهتر ، فوق أنها لا تنبع من أعماق قلبه ، وخلجات مشاعره ، إنما كان الشاعر مقلدا فى غزله وخمرياته . وكان يجارى فى هذه الناحية الفنية سواه من الشعراء .

لقد كان ابن هانىء فى شغل بنفسه وحياته ونضاله عن أن يحيا حياة المجون واللهو ، كان رجل كفاح ، ورجل طموح ، فشغلته حياة الكفاح والطموح عن حياة اللذة والهوى والمجون .

ثم إن اتصاله بالمعز ، وهو الزعيم الدينى الأعلى للعلويين ، وهو هو تقوى ونسكا وحرصا على الظهور بالمظهر الدينى اللائق به وبآل البيت ، كان ذلك أيضا مما ينأى به عن حياة اللهو والاستهتار والمجون ، وإذا رأى ابن هانىء فى اللهو راحة للنفس والفكر ، كما يقول ليحيى بن على ، فإنما كان اتجاهه إلى اللهو البرىء ، والمتعة التى لا تبعده عما ألفه وشب عليه وتمسك به من تقوى وورع وجلال خلق ودين .

فحياة ابن هانىء الشخصية إذاً وكما يصورها لنا شعره كانت مثالا للسمو الخلق ، والطهر النفسى ، والبعد عن شهوات الحياة وأطماعها .. ويدعم من ذلك مكانة ابن هانىء فى بلاط المعز وعند رجالات الدولة وعظمائها وحسن تقديرهم إياه .

— ٢ —

وشخصية الشاعر ، كانت سماتها الغالبة عليه ، الشعور بالنفس ، والاعتداد بالماضى الذى خلفه له الآباء والأجداد ، والبعد بنفسه عن حياة الرذائل والطمع الكاذب فى الحياة ، وكان يكمل هذه الجوانب كلها خلقه الطيب ، ووفاؤه النادر ، ونبل نفسه وصدره ، فوق ثقافته وأدبه ، وشعره الذى كان يعتز به ابن هانىء كل الاعتزاز .

ثم نمى هذا الشعور المتغلغل فى أعماق نفس الشاعر ، مجده فى جهاده فى الحياة ، وفى كفاحه لخطوبها وشدائدها ، ومجده الذى ناله فى قصور الأمراء والقواد وعند الخليفة المعز لدين الله .

كل هذه البواعث فى نفس ابن هانىء ، جعلت شخصيته فى الحياة التى يعيش فيها قوية ، واضحة الأثر ، لها تقديرها الأدبى عند العامة والخاصة من الناس .

— ٣ —

وأبرز جانب فى شخصية الشاعر هو جهاده وكفاحه فى سبيل حياته وعقيدته .

كافح فى شبابه وصدر رجولته ، ليعيش ، وليصل إلى ما كان يطمح اليه من آمال وأحلام ، فكلل جهاده بالظفر .

ثم كافح بعد ذلك وفى عصر اتصاله بالمعز على الخصوص فى سبيل عقيدته الفاطمية والدفاع عنها وتمجيد أبطالها ، فكان لجهاده أكبر الأثر فى نفس المعز ورجال دولته ، بل فى حياة الدولة ومجدها ، وظفرت الدولة التى أيدها ظفرا لا مثيل له فى السياسة والحرب ، فشارك الشاعر خليفته المعز ثمرات هذا الظفر ، وعاش فى مجد الحياة ونعيمها إلى أن مات .

وقصائد ابن هانىء فى الدولة ورجالاتها كلها تنطق بهذا الجهاد الحافل الكريم ، وفيها كلها فكرة سياسية استحالت عقيدة فى صدر ابن هانىء ، عمل على دعمها ونشرها طول حياته بكل ما أوتى من قدرة وقوة .

وهذا الجهاد السياسى فى سبيل العقيدة والمبدأ ، والذى وقف الشاعر عليه نفسه وفنه هو أبرز جانب فى رسالة الشاعر فى الحيـاة ، وهكذا عاش الشاعر طول حياته مؤمنـاً قوى الايمان ، وسياسيا واضح المبدأ ، وشاعرا ساحر القصيد ، يدافع به عن الدولة ، ويشيد بمجدها وأيامها ودعاتها وخليفتها ، وتكونت من إيمانه ، ووضوح مبدئه ، وسحر بيانه ، وقوته فى شتى نواحيه الفنية ، العناصر الاولى لفن ابن هانىء الذى مثل رسالته فى الحياة أبلغ تمثيل .

فلم يكن ابن هانىء إذا رجل لذة وترف كما كان أبو نواس ، ولا رجل ثورة اجتماعية وفلسفة إنسانية كما كان المتنبى ، ولم يكن كذلك رجل فلسفة عقلية ، ولا ناقدا اجتماعيا مسرفا فى التشاؤم من الحياة وخطواتها البعيدة عن جادة الحياة كما كان المعرى ، إنما كان رجل فكرة سياسية ، تتصل مبادئها بأصول الايمان والعقيدة ، فكرس حياته لخدمة عقيدته والتمكين لها ، وتفانى فى الدعاية لها والاشادة بها ، والتنويه بمستقبلها الباسم وغدها المنشود ، وفى نضال خصومها وأعدائها السياسيين .

ولقد نال ابن هانىء من التوفيق فى حياته وفى سبيل أداء رسالته ما قلما ناله شاعر قبله ، واستمد من هذا الظفر قوة ومجدا ومالا ، عاش فى ظلالها إلى آخر شبابه وصـدر رجولته ، إلى أن وافاه أجـــله ، ولقى ربه هادئاً مطمئنا راضى النفس مستريح الضمير .

على أن كثيراً ممن يقرأون شعر ابن هانىء يتخيلونه شاعراً مداحاً فحسب ، استجدى بشعره الأمراء والقواد والمعز ، ويحسبون فنه فناً شعريا خالصا لا حياة فيه ولا روح ،

وهذا خطأ فى فهم ابن هانىء وشعره ، وابن هانىء نفسه يرد على مثل هؤلاء الناس فيقول :

وما كنت مداحا ولكن مفوها يلبى إذا نادى ويكفى إذا استكفى

ويقول :

وماقصد مثلى فى القصيد ضراعة ولامن خلالى فيه حرص وترغيب

ويرى مدحه المعز فرضا لازما عليه :

فرضان من صوم وشكر خليفة هذا بهذا عندنا مقرون

ويقول :

دانوا بأن مديحهم لك طاعة فرض فليس لهم عليه جزاء

والشعر فى رأيه جوهر كريم لا يوقفه مواقف الاستجداء :

جوهر آليت لا أوقفه موقف الذلة فى سوق الكساد

وفى الحق أن ابن هانىء مغامر سياسى ، كانت تسير معه فى مغامرته دولة ، ويؤيده ملك ، وكان لسانه دولة ، وسيفا وجيشا يذبان عن عقيدة ، وأناشيد تنطق بالإيمان وحرارة اليقين وشتى معانى الحياة .

— ٤ —

ومذهب الشاعر فى الحياة كان مذهبا عمليا سار به إلى هذا التوفيق الذى كسبه وعاش فى ظلاله بعد هجرته إلى المغرب ، وهو فى هذا بعكس المتنبى الذى كان يريد أن يسير على ضوء مايتمنى من مثل وآمال كبار ، فطمح فى الملك ، وخاصم الأمراء والولاة ، وسار فى طريق آماله ، فإذا هى تتكشف عن سراب كسراب الصحراء ، وعن فشل فيما نشده الشاعر من غايات وأغراض وأمان .

وفى شعر ابن هانىء ما نستطيع أن نجمع منه فى عناء فى البحث ما يمثل رأيه فى الحياة ، وسلوكه فيها .

الحياة ومتعها عند ابن هانىء سراب ، فالحب ضحكة وبكاء . والدهر ألفة وشتات ، والناس ظاعن ومودع ، ومقيم يبكى على راحل ، والناس يبكون من الدنيا على غير طائل ، والعاجل المرجو كالآجل ، وآجلها المخشى كعاجلها ، والأيام عون لكل وغد ، مما هو مألمة لنفس العزيز .

أيها الصب لا ترع فالليالى فرحات تشوبها ترحات

هكذا الحب ضحكة وبكاء وكذا الدهر ألفة وشتات

وقد خاض الشاعر أحداث الليالى والأيام :

غرض تراماني الخطوب فذا قوس وذا سهم وذا وتر
فجزعت حتى ليس بى جزع وحذرت حتى ليس بى حذر

ومع هذه الآلام فقد عاش فى طموح وإقدام وجد ، وطلب المجد من طريق السيوف ، فوق طلبه بأدبه وفنه :

طلب المجد من طريق السيوف شرف مؤنس لنفس الشريف

وابتعد عن الذلة والهوان ، فذل العزيز لا يطاق :

إن ذل العزيز أفظع مرأى بين عينيه من لقاء الحتوف

مؤمنا بأثر الجهاد فى الحياة ، وبأثر الحظ فيها معا :

يارب حظ يشقى بأنحسه صاحبه ، وبسعده يسعد

ومؤمنا بالخلق والكرامة ، والشرف والوفاء ، والهمة والعفة ، والمروءة ومودة الأصدقاء ولين الجانب لهم :

وقد أذل للأخ الشقيق كذلة العاشق للمعشوق

ومع الجهاد فى الحياة فقد كان يروح عن نفسه ببعض اللهو المباح :

فبالسعى للعليا يشاد بناؤها وفى اللهو أيضا راحة النفس والفكر

وحسبه من متع الحياة بريئها :

إنى لآنف أن يميل بى الهوى أو أن يرانى الله حيث نهانى

ولا يبالى بالفقر ، فالغنى شجن من الأشجان :

لا أرهب الاقتار بعد تيقنى أن الغنى شجن من الأشجان

وهو لا يقف من المرأة إلا موقف التقدير :

لأماتنا نصف أنسابنا وأكفاء آبائنا فى العلى

وهذه الآراء متفرقة فى شعره ، وهى اتجاه اجتماعى ، وحكمة عامة يطول بنا البحث لو ذكرنا الكثير منها ، وهى على أى حال تصور نهج ابن هانىء فى الحياة ، وهو النهج العملى المستقيم البعيد عن صنع الخيال أو دنس اللؤم والهوان ، وكان لهذا الاتجاه الواقعى أثره فى نجاح الشاعر فى حياته ، من حيث كان لاتجاه المتنبى أثره فى شقائه بالحياة وضجره من المجتمع والناس .

الفن والشاعر

— ١ —

كان لبيئة الأندلس المترفة ، وحضارتها الزاهية فى عهد الناصر ، وللمنافسة السياسية بين بغداد وقرطبة والمهدية ، كان لذلك أثره فى ازدهار الأدب والشعر فى الأندلس الوطن الأول للشاعر ، ثم كان لتنوع مظاهر الحياة والطبيعة فى الأندلس أثر فى تلوين الشعر بلون خاص ، شاع فيه الوصف ، ودقة التصوير ، وتنقل الخيال ، وسلاسة الأسلوب ، والتأنق فى الأداء ، وأوحت هذه الحياة الشاعرة إلى الأندلسيين روح الشعر وإلهام القريض فنظموه فنا يتحدث عن البيئة ومشاهدها ، والعواطف وأسرارها ، والمجتمع وحياته ، والشعراء وحياتهم الخاصة التى كانوا يحيونها ، والآمال واللذات والمشاعر التى كانت تجيش بها نفوسهم ، وتختلج بها صدورهم . وأصبح هذا الشعر يمثل جانبين واضحين فى الشعر الأندلسى : أحدهما طبيعة البادية التى كانت ما تزال نفوس العرب فى الأندلس تحن إليها ، وتؤمن بها ، وتسير على نهجها فى التفكير والمعرفة والأخلاق . والثانى طبيعة الحضارة التى كانوا يعيشون فيها ، والترف الذى يملأ حياتهم ، والجمال الذى كان يتيم قلوبهم ويسحر أبصارهم فى كل واد وبقعة من بقاع الأندلس الغارقة فى الشعر والسحر والجمال .

ويمثل هذا الاتجاه الفنى فى الشعر الأندلسى قبل ابن هانىء بقليل ، ابن عبد ربه أديب الأندلس وشاعرها ومؤلفها ، والمتوفى عام ٣٢٨ فى عهد الناصر ، أى بعد ثمانية أعوام من ميلاد ابن هانىء . وقد حفل « العقد الفريد » لابن عبد ربه بشتى المقطوعات والقصائد الشعرية ، التى نظمها ، والتى صور فيها ألوان الجمال فى بيئة الأندلس الساحرة ، والتى صيغت فى أسلوب عذب جميل يكاد يسيل رقة وجمالا وخصبا .

وفى هذا الوسط الأدبى نشأ ابن هانىء واستمد ثقافته الأدبية ، ونظم القريض واتصل بالحياة فى إشبيلية وفى قصر أميرها ، فهل كان شعره صورة لهذه البيئة الاجتماعية والأدبية التى نشأ فيها وعاش فى ظلالها ؟

لا يستطيع الباحث الإجابة على هذا السؤال لأن شعر الشاعر فى الفترة التى قضاها فى وطنه حتى هجرته منه إلى بلاد المغرب وهو فى سن السابعة والعشرين ، قد ضاع كله ، ولم يبق منه أثر قليل أو كثير .

ومع هذا فنستطيع أن نقيس فن ابن هانىء قبل هجرته بفنه الذى نظمه بعد هجرته مباشرة ، ونستطيع أن نقول على ضوء هذا القياس : إن الفن الأدبى للشاعر

فى الأندلس لم يكن يصور بيئته ، ولا يجارى فن أمثاله من الشعراء الأندلسيين ، ولا يساير روح الترف الأدبى والحضارة الفنية فى الأندلس وطن الشاعر ، فما السر فى ذلك وما السبب فيه ؟

لعل مرجع ذلك إلى أن شخصية الشاعر الفنية لم تكن ظهرت بعد فى إنتاجه الفنى ، إنما كان مقلدا لسواه من الشعراء ، لم يقلد المحدثين منهم ، الذى يجارى أدبهم وفنهم روح الحياة والحضارة فى القرن الرابع الهجرى ، وإنما قلد الشعراء الجاهليين الذين عكف على حفظ أشعارهم ، وتأثر بها فى إنتاجه ونزعاته فى فهم الفن ، وفى نظم القريض ، طول هذه الفترة . .

— ٣ —

وهاجر الشاعر إلى المغرب فقضى فى ربوعه خمسة عشر عاما ، كل ثروته الشعرية هى من إنتاجه الأدبى فى هذه الفترة الصغيرة فى حياة الشاعر ، وليس من المعقول أن يكون ابن هانىء قد تأثر فى شعره وشاعريته بشىء ما فى حياته بالمغرب ، نعم لم يتأثر بأى مؤثر أدبى فيه ، وإنما تأثر بأشياء أخرى لا تمت إلى طبيعة الفن بصلة ما ، تأثر بالحياة السياسية والاجتماعية فى المغرب ، وظهر هذا الاثر فى شعره واضحا جليا ، أما فنه وروحه الشعرى واتجاهه فى نظم القريض فلم يتغير بأى حال ، ذلك أن بيئة المغرب لم تكن إلى ذلك الحين بيئة أدب وفن ، يقومان على اتجاهات أدبية مستمدة من عوامل البيئة وأثرها ، وإنما كانت بيئة كفاح وجلاد بين شتى القوى السياسية فى العالم الاسلامى إبان ذاك ، وكان الادب والفن فيها يسيران على نهج الادب والفن فى قرطبة وبغداد ، ولقد وفد الشاعر على هذه البيئة وهو تام الاداة ، موفور الملكات ، ناضج الاستعداد ، فشدا بالشعر فى المغرب كما كان يشدو به فى الاندلس فنا وبيانا وأسلوبا وخيالا ومعانى ونزعات ، اللهم إلا أن الشاعر قد بدأت شخصيته الفنية تأخذ مكانها الادبى الواضح فى إنتاجه وشعره ، وأخذت سمات التكلف الفنى تتلاشى من قصائده ، بتلاشى روح التقليد الادبى من نفسه ، وبعد قليل من هجرة الشاعر إلى المغرب كانت شخصيته الأدبية قد استكملت عناصر استقلالها الفنى ، فظهر ذلك واضحا ملموسا فى شعره وقصائده ، فليس إذاً بنا حاجة إلى البحث عن الحياة الادبية فى المغرب ومبلغ أثرها فى نفس ابن هانىء ، وإنما سنبحث عن مدى أثر ابن هانىء فيها فذلك هو الملائم لاتجاه البحث فى تراث ابن هانىء ونزعاته الادبية .

والخلاصة أن شخصية الشاعر الفنية لم تتأثر بالحياة الادبية فى الاندلس ، لأنه

كان مشغولا عن بيئته بروح التقليد المتأصلة فى ثقافته الأدبيةفى شبابه ، ولم تتأثر كذلك بالحياة الأدبية فى المغرب ، لانه كان قد ترك عصر التأثر الأدبى فى حياته ، ولان هذه البيئة التى هاجر إليها لم تكن لها شخصيتها الأدبية المستقلةالتى تمثل مذهبا أدبيا خاصا .

— ٣ —

ووفد ابن هانىء على المغرب ، فوجد فيه شعراء ، اتخذهم أندادا لا أساتذة .
كان من شعرائه على التونسى الشاعر ، الذى قال فيه ابن هانىء لما هجاه شعراء المغرب بعد هجرته : « لاأجيب منهم أحدا إلاأن يهجونى علىالتونسى فأجيبه » (١) .
وكان منهم عبد الله بن الحسن الجعفرى ، ومقداد بن الحسن الكتامى وسواهم من الشعراء . فماذا كان موقفه منهم ؟ وماذا كان موقفهم منه ؟ .

لقد بذ ابن هانىء بفنه جميع هؤلاء الشعراء ، فحسدوه ونقموا عليه ، ثم أخذوا فى هجائه والزراية به وبفنه . ولكن ابن هانىء عصف بهؤلاء الشعراء جميعا ، وأخمل مكانتهم ، فصاروا بعد قليل من بقائه فى المغرب رعاعا فى دولة القريض ، من حيث صار ابن هانىء أمير الشعر فى المغرب كافة ، وكان هجاء خصومه الشعراء له لا يزيده إلا إجادة وإبداعا ، وفتن الأمراء والخليفة بفنه ، ورآه الشاعر مؤلفا من نظام كواكب :

صنع يؤلف من نظام كواكب طلعت لغير كثير والاحوص

ويصور الشاعر اختلاف نزعاته الفنية والنفسية عن نزعات سواه من الشعراء فيقول :

أبت لى سبيل القوم فى الشعر همة طموح ونفس للدنية فارك

ويقول للمعز :

فإن أك محسودا على حر مدحكم فغير نكير فى الزمان الأعاجيب
أفى كل عصر قلت فيه قصيدة على لأهل الجهل لوم وتثريب
أبن موضعى فيهم ليفخر غالب يبين بسيماه ، ويدحر مغلوب
وقدأ كثروا فاحكم حكومة فيصل ليعرف رب فى القريض ومربوب

وقد حكم المعز له فأصبح شاعر الخليفة والدولة ، وملك القريض فى دولة الفاطميين . وجميع نقاد الادب يسلمون لابن هانىء زعامة الشعر فى المغرب كافة ؛

(١) ١ / ٧١ عمدة .

ويقولون إنه لم يبذه أحد من الشعراء في المغرب أو الاندلس ، ممن سبقوه أو جاءوا بعده ، ويرون أن فنه ارتفع بمميزاته الخاصة والعامة عن مستوى الفن والشعراء في المغرب والاندلس ، وأنه كان طبقة وحده في البلاغة الأدبية وفي الانتاج الشعري في شتى عصور المغرب الأدبية ، وإن كان يرى بعض المحدثين أن ذلك إجحاف بأمثال ابن زيدون .. ورأيي في ذلك أن ابن زيدون كان صورة من صور بيئته الأدبية ، أما ابن هانىء فقد كان وحده بيئة أدبية خاصة ، وشخصية فنية مستقلة بعيدة عن شخصية ابن زيدون وغير ابن زيدون ، كما كان المتنبي شخصية فنية مستقلة ، ولذلك قال النقاد : « ابن هانىء متنبي المغرب ، وأبو الطيب متنبي المشرق » .

— ٤ —

وقد وضع الشعراء في المغرب والاندلس فن ابن هانىء ـ بعد عصره ـ موضع الإكبار والتقدير ، ونهجوا نهجه في مذاهب الشعر ومعانيه وخيالاته وأساليبه ، وجعلوه مذهبا أدبيا لهم على مر العصور الأدبية ، ونبغ شعراء في الأندلس والمغرب كابن الحداد وابن عائشة وسواهم من الشعراء الذين كانوا تلامذة له في فن الشعر ونظمه ، مما تراه مفصلا في الذخيرة ونفح الطيب ، وذلك مظهر لمكانته الرفيعة في الشعر في بلاد المغرب طول عهده بالحياة الأدبية .

مذهب الشاعر في شعره

— ١ —

الاتجاه الفني عند ابن هانىء ينزع إلى روح البداوة ، التي تأثر بها فيما قرأ من شعر الجاهليين والاسلاميين ، وهو كما يقول في أبي الفرج الشيباني كان ولا شك مما لا يحتذي حذو المحدثين في اتجاههم الفني في نظم القريض ، بل كان يرجع إلى الشعر الجاهلي يأنس به وينزع منزعه ويحاكيه ، ويقول من قصيدته في الشيباني ، وقوله في ممدوحه صورة لنفس نزعاته الأدبية التي سار عليها ، يقول :

من لا يفاخر بالطائي(١) في زمن ولا الخزاعي (٢) في عصر الخزاعي
ولا الفرزدق أيضا ، والفخار له ، ولا جرير ولا الراعي النميري
لكن بعلقمة الفحل الذي زعموا في الشعر أو بامرىء القيس المراري

فهو لا يفاخر بالمحدثين كأبي تمام ودعبل ، ولا بالأسلاميين كالفرزدق وجرير

(١) هو أبو تمام الشاعر م ٢٣١ هـ
(٢) هو دعبل الشاعر م ٢٤٩ هـ

والراعى ، ولكن يجعل فخره فى الفن بعلقمة وبامرىء القيس ، وإن كان الفتح بن خاقان يذكر فى مطمح الأنفس (١) أنه كان يتبع فى أغراضه الفرزدق وجرير .

وبعدفشعر الشاعرصورة لهذه الروح ، وذلك الاتجاه والنزعة الفنية ، فهو لا يمثل ترف المحدثين ولهوهم وخيالهم الفنى وإغراقهم فى التصوير ، وتهويلهم فى التمثيل والخيال ، وإنما يمثل روح الجد والإقدام والبداوة والقوة ، والصدق فى التصوير والتعبير ، ومذهبته التى مطلعها :

أصاخت فقالت : وقع اجرد شيظم وشامت فقالت : لمع أبيض مخذم

التى حاكى بها معلقة عنترة فى روحها وأسلوبها واتجاهها الفنى ، هذه المذهبة صدى لهذا الاتجاه . كما أن خلو شعره من آثار الامعان فى المعانى والأخيلة كذلك أثر لهذا المذهب الشعرى الذى نزع إليه الشاعر ، وكذلك هو فى أسلوبه ينهج منهج الجاهليين فى قوة الطبع وضخامة الأسلوب وجزالة الألفاظ وإشراق الديباجة ، وفى كثرة الأساليب المختارة التى تمثل روح البداوة فى التعبير والأداء ، ولعل هذا الروح أثر من آثار الوراثة فيه .

— ٢ —

ومعانى الشعر عند ابن هانىء قريبة واضحة تشبه معانى الاسلاميين ، وإن كان الشاعر يحاول فى أحيان كثيرة أن يبرزها بأسلوبه وصنعته فى مظهر جديد مبتكر .

وفى شعره ألوان من الخيال الواقعى المجرد . وقد يحيد الشاعر أحيانا عن نهج الفن الواضح ، فيمدح ممدوحه بالجمال ، كما يقول فى جعفر بن على :

وسنان من وسن الملاحة طرفه وجفونه ، سكران من خمر الصبا

يقول فى أبى الفرج الشيبانى وكأنه يغازله :

أهواه والصعدة السمراء تعذلنى والقلب يدلى بعذر فيه عذرى

وقد يقبح أحيانا فى صوغ معانيه وتصويرها ، كما يقول :

وأحمل أيامى على ظهر غارة وتحملنى منها على مركب وعر

ويأخذ عليه كثير من النقاد مبالغاته ، وإسرافه فى معزياته ، وقد سبق أن أبنا أن هذه المبالغة لاترجع إلا إلى شىء واحد هو نفس العقيدة الفاطمية التى اتخذها الشاعر مذهبا له فى الدين والسياسة والاجتماع .

---

(١) ٨٤ المطمح

— ٣ —

وأسلوب ابن هانىء له ميزاته الخاصة التى تميزه عن أساليب من سواه من الشعراء .

هو فيه بدوى جزل ، يرق حينا ، ويبلغ فى الجزالة والقوة والحوشية مبلغا كبيرا أحيانا أخرى .

وكان فى طبع ابن هانىء ميل إلى نوع من الغرابة والتكلف ، حتى حسبه بعض النقاد من الشعراء الذين يهرون بألفاظهم ، ومن هؤلاء النقاد المعرى وابن رشيق وابن خلكان .

وكثيرا ماترى الشاعر قد عمد إلى التهويل والتفخيم ، أو إلى الصنعة وتكلف أساليب البديع فى شعره ، فيجيد وتخفى قوة أسلوبه مظاهر التكلف فى صناعته الفنية أحيانا ، ويشذ عن الجودة طبعه وصناعته فى أحيان أخرى .

وظاهرة واضحة فى أسلوب ابن هانىء هى كثرة إطنابه وتفصيله ، مما كان يؤدى به فى بعض الأحيان إلى النزول عن مستواه الشعرى ، فتراه يكرر كثيرا من الصفات التى لا طائل تحتها والتى لا حظ فيها إلا إظهار مقدرة الشاعر اللغوية . وهذه الظاهرة سبب من أسباب طول نفسه فى شعره ، الذى امتاز به ابن هانىء ، ويشاركه فيه ابن الرومى ، إلا أن منشأه عند ابن الرومى المعنى وبسط الحديث فيه ، وعند ابن هانىء الأغراض والبواعث الفنية التى نظم فيها ، وجانب اللفظ الذى كان يؤثره .

وأسلوبه على العموم سليم مطبوع ، لا يشذ منه عن سلامة الطبع إلا القليل جدا من أبياته ، مثل قوله :

« لو كنت قبل تكون جامع شملنا » ، مما تلحظ فيه أثر التعقيد ، ومثل قوله :

ما كنت أحسب أن أرى بشرا كذا ليثا ولا درعا يسمى غابا

فكلمة « كذا » هنا نازلة مردودة فى حكم الذوق الأدبى .

وهذا القليل النادر من الأبيات التى خان فيها ابن هانىء طبع الشعر واستواء التأليف وقوة النظم ، لا يكاد يقاس بشذوذ المتنبى فى فنه ، ولا بشذوذ غير المتنبى من الشعراء الممتازين .

وجودة ابتداءات القصائد ، وحسن انتهاءاته فيها ، سمة لابن هانىء فى شعره ، حتى ضرب المثل بمطلعه :

فتقت لكم ريح الجلاد بعنبر وأمدكم فلق الصباح المسفر

وقرن بمطلع معلقة امرىء القيس « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » فى الجودة والجمال ، وابن هانىء فوق ذلك مجيد فى اقتباسه من أساليب القرآن الكريم ، ومجيد فى حسن تخلصه إلى المدح فى كثير من قصائده ، ويمتاز أسلوبه بقوة البيان ، وحسن السبك والتأليف ، وقوة الارتباط بين أجزاء البيت الشعرى ، وتلاحم أجزاء القصيدة فى شعره ، كما يمتاز بخلوص شعره من سمات التعقيد والغموض معا ، وتشيع فى إنتاجه روح الطبع والشاعرية القوية ، وفى أسلوبه كثير من الجمال فى صوره البيانية من الاستعـــارة والتشبيه والمطابقة والمقابلة ، ويشبه الممدوح بهذه الصور الشعرية المجتمعة فيقول :

كبدر الدجى ، كالشمس ، كالفجر ، كالضحى
كصرف الردى ، كالليث ، كالغيث ، كالبحر

وفى شعره أساليب مختارة كثيرة جيدة ، تساير الطبع ، وتستدعى الاعجاب .

— ٤ —

وموضوعات فنه ؛ وأغراض القصيد فى شعره ، كثيرة منوعة :

فمن مدح سياسى يشيد فيه الشاعر بالدولة ومبادئها ورجالاتها وأعمالها وأيامها ، وبنفوذها الروحى ومستقبلها الباسم ، مما كان يصدر عن عقيدة قوية ، وعاطفة ممتلئة إيمانا بمبادىء الفاطميين ، ولقد امتاز هذا « الشعر السياسى » بكثير من المعانى الخصبة ، كما امتاز بالقوة والروعة وسعة خيال الشاعر فيه . وهو فى هذا الجانب الفنى يضارع المتنبى .

ومن وصف رائع لجيوش الدولة وأساطيلها ، ولأيامها وانتصاراتها ، وللمعارك العظيمة التى خاضتها ، وللخيول التى كانت تقتحمها ، وللأبطال المعلمين الذين كانوا يسيرون بالدولة من مجد إلى مجد ، ويكللون هامتها فخاراً على فخار . نعم لم يكن ابن هانىء وصافا للطبيعة ، كما كان ابن المعتز وابن خفاجة ، ولم يكن وصافاً للعواطف الانسانية كما كان المتنبى وأبى العلاء ، إنما كان وصافا مجيداً لحياة النضال السياسى والحربى الذى شغل الدولة والناس فى عصره وفى بيئته ، أما أوصاف الشاعر التى لا تتصل بهذه الناحية ، فهى كلها من الأوصاف التقليدية التى لا تمت إلى نفس ابن هانىء بصلة ، وهو فى كثير منها ناب عن الذوق والإجادة ، كما فى وصفه لرجل أكول ، وكما فى وصفه لراح ومجالسها وآلات الغناء التى تكون فيها ، فهذه الأوصـاف وسواها لا تبلغ شيئا من وصفه الممتع البالغ حدا كبيرا من الجمال والسحر ، عندما كان يصف

الجيوش وآلات القتال والمعارك الحربية الضخمة . والشاعر فى هذا الباب يضارع أبا الطيب ، فهما فى هذه الناحية صنوان . ووصف ابن هانىء مفعم بألوان الخيال وصوره التى كان يستعين بها فى تصوير المعنى الذى يريده .

وللشاعر هجاء ولكنه هجاء ضعيف ، لأن الهجاء بعيد عن نفسيته النبيلة المجدة فى الحياة ، وكان إذا أراد أن يهجو صور من يهجوه بالنفاق والكيد للدولة ومبادئها كما فعل مع الوهرانى كاتب أمير الزاب ، فهو هجاء سياسى لاغير ، أما الهجاء الفنى الذى نراه عند ابن الرومى مثلا فليس للشاعر فيه نصيب .

ولابن هانىء غزل يبدأ به قصائده ، ولكنه فى جملته غزل تقليدى متكلف مألوف المعانى والأساليب ، يكرر فيه ماسبق اليه من : تصوير موقف الوداع وهول الجفاء ، والشكوى والرجاء ، والأرق والبكاء ، وبؤس المحب فى حبه ، وذكر طيف الخيال من محبوبته الذى يزوره أحيانا ، وتشبيه حبيبته بالمها والظباء والغصون ، وذكر ألحاظها وأثر فتكها ، وغيرة أهلها عليها ، إلى غير ذلك من المعانى المألوفة التى للشاعر فيها حسن الصوغ ، ونظمها فى أسلوب خلاب وعبارات بليغة . وفى الحق أن حياة ابن هانىء وجهاده فيها وشغله بعقيدته والدفاع عنها كان يحول بينه وبين الاجادة فى النسيب شأنه فى ذلك شأن المتنبي ، ومع بداوة ابن هانىء فى غزله التقليدى ، فقد يرق حتى يأتى بالجديد الساحر ، كما فى قصيدته :

امسحوا عن ناظرى كحل السهاد   وانفضوا عن مضجعى شوك القتاد

أو قصيدته :

قمن فى مأتم على العشاق   ولبسن الحداد فى الأحداق

أو قصيدته :

هل من أعقة عالج يبرين   أم منهما بقر الحدوج العين ؟

أو قصيدته :

أمن أفقها ذاك السنا وتألقه   يؤرقنا لو أن وجدا يؤرقه

وقد يتفلسف فى حبه ، فيذكر الشمل المبدد ، والسعادة الذاهبة ، كما فى قصيدته :

هل آجل مما أؤمل عاجل ؟ .

فليس ابن هانىء من رجال الهوى العذرى . ولا من شعراء الحسن واللذة المترفين ، وإنما هو فى غزله مقلد كغيره من الشعراء المقلدين ، الذين قد يجيدون فيه وقد لايجيدون .

ولابن هانىء ثلاث قصائد جيدة فى الرثاء . منها مرثيتان فى والدة جعفر بن على أمير الزاب ، ومطلعهما :

صدق الفناء وكذب العمر وجلا العظات وبالغ النذر

، : آلا كل آت قريب المدى وكل حيـــاة إلى منتهى

والمرثية الثالثة رثى بها طفلا صغيرا من أحفاد جعفر بن على ، ومطلعها :

وهب الدهر نفيسا فاسترد ربمـــا جاد لئيم لحسد

والمرثيات الثلاثة فيها جودة ، وفيها حكمة ، وقد حاول بها ابن هانىء أن يصل إلى منزلة المتنبى فى حكمته الخالدة ، ولكن المتنبى فى ذلك ، لايضارعه شاعر من الشعراء .

والحكمة على أى حال فى شعر ابن هانىء قليلة متفرقة ، وتكثر فى مراثيه ، وهى حكم اجتماعية قريبة التناول مستمدة من أثر التجارب العامة فى الحياة .

وقصارى الحديث أن ابن هانىء أجاد فى شعره السياسى ، وفى مدحه ، وفى وصفه الحربى ، وفى رثائه ، ووقف متخلفا فى غزله وهجائه ، وفى خمرياته ، وهو فى حكمته لايصل إلى منزلة حكمة أبى الطيب الخالدة وإن كان يرسم لنا صورة كاملة لفلسفة الحياة العملية التى سبق أن أشرنا اليها فيما مضى من بحوث .

— ٥ —

وفى ابن هانىء يقول الفتح بن خاقان م ٥٢٦ ﻫ فى كتابه مطمـــح الأنفس : « له نظم تتمنى الثريا أن تتوج به ، وبدائع يتحير فيها ويحار ، ويخال لرقتها أنها أسحار ، اعتمد فيها التهذيب والتحرير ، واتبع فى أغراضه الفرزدق وجرير ، وتشبيهاته خرق فيها المعتاد »(١) .

ويقول فيه المعرى م ٤٤٩ﻫ فى رسالة الغفران : « كان من شعراء المغرب المجيدين وكان يغلوا فى مدح المعز غلوا عظيما » (٢) :

ويقول ابن خلكان م ٦٨١ ﻫ : ليس فى المغرب من هو فى طبقته ، لامن متقدميهم ولامن متأخريهم بل هو أشعرهم على الاطلاق ، وهو عندهم كالمتنبى عند المشارقة ، ثم نوه بنونيته « هل من أعقة عالج يبرين » . وأخذ عليه إفراطه فى المدح (٣) . .
ويفتخر الشقندى أديب الأندلس به فى مناظرة أدبية رواها نفح الطيب (٤) .

---

(١) ٨٤ مطمح الأنفس . (٢) ١٥٤ رسالة الغفران نشر اليازجى
(٣) ٢/٥ ابن خلكان (٤) ٢/١٤٠ النفح

وأشاد به لسان الدين بن الخطيب فى الاحاطة (١) ، وابن شرف فى مقامته «أعلام الكلام» (٢) .

وجعله ابن الأبار هو وابن دراج الشاعر الأندلسى نظيرين للمتنبى وأبى تمام(٣) ونوه الحميدى بشعره ، وأخذ عليه قعقعة ألفاظه(٤) ، وذلك رأى المعرى فيه ، وإن حمله ابن خلكان على فرط تعصبه للمتنبى (٥) .

وجعله ابن رشيق من الشعراء الذين يبهرون بألفاظهم أكثر مما يبهرون بمعانيهم(٦) . ونوه به الذهبى فى تاريخ الإسلام(٧) .

ويعجب ابن حجة الحموى فى خزانة الأدب(٨) بقصيدته :

فتقت لكم ريح الجلاد بعنبر وأمدكم فلق الصباح المسفر

ويراه ياقوت أشعر المغاربة ويجعله فى المغرب نظير المتنبى فى المشرق(٩) .

وذكره ابن أبى الحديد فى نهج البلاغة ، والعامل فى الكشكول ، وكثير من مؤرخى الأدب فى العصر الحديث .

وترجم فان كريمر شعره إلى الألمانية ، ورأى فيه قوة بيان وكثرة تمثيلات وجودة ألفاظ مما يعتبر من خصائص وأوصاف شعره ؛ وذكره أيضا هامر ، وهوارت ، وسواهما من المستشرقين .

وقد عنى بشرح ديوانه شرحا لغويا واسعا الدكتور زاهد على الهندى ، وطبع هذا الشرح فى مطبعة المعارف عام ١٣٥٢هـ فى نحو تسعمائة صفحة ، قدمها بمقدمة فى حياته وتاريخه(١٠) .

وهذا هو كل ما كتب عن ابن هانىء فى الأدب العربى على مر القرون .

---

(١) ٢/٢١٢ الاحاطة (٢) ص ٢٦

(٣) ١٠٣ تكملة الصلة (٤) ٤١ جذوة المقتبس

(٥) ٢ / ٥ ابن خلكان (٦) ١/٨٠ العمدة

(٧) ٨١ (٨) راجع باب تجاهل العارف فى الخزانة

(٩) ٧/١٢٦ وما بعدها معجم الأدباء

(١٠) ومن ديوان ابن هانىء نسخة خطية فى مجلد بقلم نسخ فى ١١٧ ورقة فى مكتبة الأزهر (رقم ٥٠٠ أباظة - ٧٠٩٦) .. راجع فهرس المكتبة الأزهرية ص ٩٢ ج ٥ .

بين المتنبي وابن هانىء

— ١ —

عاش المتنبي (٣٠٤ — ٣٥٤ هـ) فى العصر الذى عاش فيه ابن هانىء (٣٢٠ — ٣٦٢ هـ) ، ولقد كان أبو الطيب شاعرا ، ولكنه أراد أن يكون ملكا على عرش من العروش ، أو أميرا على ولاية من الولايات فأخفق . أراد أن يترك الشعر إلى السياسة ، فردته الأيام عن السياسة إلى الشعر ، فبرم أبو الطيب بحياته التى لم يدرك فيها آماله وأحلامه ، وعاش ساخطا على الحياة والناس ، داعيا إلى مذاهب وآراء أوحى بها اليه سخطه وغضبه . بعد أن كان يدعو إلى القوة والطموح والتفاؤل ، وظل كذلك حتى خر صريعا مضرجا بالدماء .

ونال أبو الطيب بعد حياته من المجد الأدبى ، مانا له فى حياته من جلال الذكر ، وشيوع الشعر ، فهتفت الأجيال بذكره ، وعد شاعر العربية فى عصره ، بل جعله كثير من النقاد شاعر العربية الفذ فى شتى عصورها الأدبية ، وأحيط ذكره بهالة من التقدير وجلال الذكر وعظمة الفن ، تشبه الهالة التى يحيط بها الأوربيون ذكر شكسبير وجوته وهوجو وليوباردى وسواهم من شعراء الغرب الخالدين .

— ٢ —

ومن الغريب فى البحث الأدبى حقا أن نجد بين أبى الطيب وابن هانىء وجوها كثيرة من الشبه فى الحياة وفى العقيدة وفى الشخصية والشاعرية وفى المنزلة الأدبية العامة .

فحياة ابن هانىء ، واتصاله بقصور الأمراء والخلافة ، وجهاده العام ، تشبه فى ذلك حياة المتنبي ، والعقيدة الفاطمية التى آمن بها ابن هانىء هى نفس العقيدة الاسماعيلية التى كان يؤمن بها أبو الطيب كما يثبت البحث والدراسة .. وابن هانىء فى طموحه ، وفى مكانته عند الأمراء والملوك فى عصره ، شبيه فى ذلك بالمتنبي أبعد حدود الشبه ، وكان ابن هانىء شاعر المغرب فى عهد المعز ، لايطاوله فى مكانته الأدبية شاعر من الشعراء ، كما كان المتنبي شاعر المشرق لايطمع فى أن يكون له بجانبه ذكر لأحد من الشعراء .

وشاعرية الشاعرين تتشابه من وجوه كثيرة ، فالمدح وأوصاف الحروب تكادان تتعادلان من الناحية الفنية فى شعر الشاعرين ، ولكن ابن هانىء لايضارع المتنبي

فى الحكمة والأمثال وفى الرثاء وفى بعض أغراض الشعر الأخرى ، كما أنه لا يصل إليه فى دقة المعانى وعمقها ونضوج الثقافة العقلية فى شعره وتنوعها ، وإن جاراه فى ذلك إلى حد ما .

وروح الشاعرية فى الشاعرين تتشابهان من وجوه كثيرة ، من حيث قوة الأسلوب وفحولته وجزالته وطبعه ، ومن حيث البعد عن ألوان الترف فى الآداء ، والالمام بكثير من الغريب ، وتتشابه فى كثير من السمات الفنية الخاصة التى نراها فى شعر الشاعرين وتراثهما وإنتاجهما الفنى الحافل .

— ٣ —

ويشبه النقاد وعلماء الأدب ابن هانىء بالمتنبى ، ويلقبونه بمتنبىء المغرب ، ويعطونه بهذا اللقب زعامة الشعراء فى المغرب والأندلس فى عصره وبعد عصره ، كما كان المتنبى أمير الشعر فى المشرق ، كما أنهم بهذا اللقب يشركونه فى كثير من سمات وخصائص شاعرية أبى الطيب المتنبى الخالدة .

ومع ذلك ومع اتحاد عصر الشاعرين ، وتوافقهما فى البيئة والمؤثرات العامة وفى كثير من خصائص الشعر وسمات الشاعرية ، مع هذا كله فإن لكل من الشاعرين طابعه الخاص ، وروحه الفنية المستقلة ، ونزعاته الأدبية المقصورة عليه ، وإن كان ابن هانىء أقرب الشعراء إلى المتنبى ، وأشبههم به فى مكانته الأدبية العظيمة ، فى عصر الشاعرين وبعد عصرهما .

ويكاد المجد السياسى الذى لاقاه ابن هانىء فى حياته يضارع الشقاء الذى لاقاه أبو الطيب فى عصره ، كما يكاد الذكر الأدبى السائر الذى ناله المتنبى بعد حياته يضارع الخمول الأدبى الذى لازم اسم ابن هانىء بعد وفاته إلى العصر الحديث .

— ٤ —

وهناك أسطورة أدبية يرويها البديعى فى كتابه « الصبح المنبى فى حيثية المتنبى » تحدثنا بأن أبا الطيب حين كان فى مصر عزم على السير إلى المغرب ، فلقيه ابن هانىء فى الطريق ، فأنشده أبو الطيب من شعره ، ثم أنشده ابن هانىء بعض قصائده ، فقفل راجعا إلى مصر ، تاركا المغرب لشاعره ابن هانىء .

وهى أسطورة أدبية تريد أن تذكر رأى المتنبى فيه ، وإشادته بفنه وشاعريته ، ولعل ذلك سبب اختلاقها .

— ٥ —

وعلى أى حال فقد كان ابن هانىء بطبيعة سنه تلميذا أو كالتلميذ لأبى الطيب : قرأ ديوانه وتأثر به فى كثير من معانيه وأساليبه وخيالاته وروحه الشعرية فى بعض قصائده ، وحاول أن يقلده فى حكمته وتجاربه التى كشف بها النقاب عن وجه الايام .

استعار ابن هانىء ديوان المتنبى بعد وفاته ـ أى بعد عام ٣٥٤ هـ ـ من أديب ، أساء بعد فى طلبه منه ، فنظم ابن هانىء فى ذلك قصيدته :

تنبأ المتنبى فيكم عصرا ... ولو رأى رأيكم فى شعره كفرا
مهلا فلا المتنبى بالنبى ولا ... أعد أمثاله فى شعره السورا
تهتم علينا بمرآه وعلكم ... لم تدركوا منه لاعينا ولا أثرا

وابن هانىء فى قصيدته هذه يحاول أن يخفف من غلواء المتعصبين ، ثم يحاول أن ينكر فضله فيقول :

ويله شاعرا أخملتموه ولم ... نعلم له عندنا قدرا ولا خطرا

ثم يصف جناية القوم على شعره ، وتصحيفهم إياه ، ويتهكم بهم إلى أن يقول :

أريتمونى مثالا من روايتكم ... كالأعجمى أتى لايفصح الخبرا
أصم أعمى ولكنى سهرت له ... حتى رددت اليه السمع والبصرا
كانت معانيه ليلا فامتعضت له ... حتى إذا مابهرن الشمس والقمرا
ضجرتم وأتانا من ملامتكم ... ومن معارضكم مايشبه الضجرا
ولو حرصتم على إحياء مهجته ... كما حرصتم على ديوانه نشرا

ويظهر من هذا أن الديوان الذى كتبه هذا الأديب واستعاره منه ابن هانىء كان كثير التحريف والخطأ ، وأن ابن هانىء صححه وكتب منه نسخة أخرى ، فاختلفت رواية ابن هانىء لشعر المتنبى عن رواية هذا الأديب وأمثاله ، فأكثروا من الضجر من ابن هانىء .

وقول ابن هانىء « ولو حرصتم على إحياء مهجته » ، أى مهجة المتنبى ، دليل على أن ذلك كان بعد وفاة المتنبى .

وابن هانىء على أى حال فى أول قراءته لديوان المتنبى لم يعترف له — كما يقول — بقدر ولا بخطر ، ولكنه بعد ذلك عكف على احتذاء أبى الطيب وتقليده ، لاسيما فى أمثاله وحكمته ، ولذلك كانت الحكمة فى شعر ابن هانىء متأخرة الظهور فى

حياته الأدبية ، وفى شعر ابن هانىء قصائد يتجلى فيها روح التأثر بفن المتنبى وشاعريته ، وتشابه فى كثير من الأساليب والمعانى ، مما يطول بنا البحث لو حاولنا تفصيل الحديث فى ذلك كله ، والإلمام بشتى نواحيه .

خاتمة الكتاب

وبعد فهذا هو ابن هانىء شاعر المعز ، وأمير الشعر فى المغرب ، وصنو المتنبى فى مكانته الأدبية ، والشاعر الخالد الذى كتب بشعره أسفار المجد والخلود لدولة الفاطميين على مر الأحقاب . . نجلوه صورة واضحة لحياته وتراثه الفنى ، ولذوقه ومشاعره الشاعرة ، لنزيل عنه ما علق به من الأوهام والأضاليل .

وابن هانىء حرى بعناية الأدب والأدباء والنقاد ، وتراثه فى الشعر أولى أن يتزود منه الشباب ، ففيه ألوان كثيرة من الشاعرية القوية ، وآثار من ذكريات الماضى التليد . . وهو بعد إهمال الأدب والزمن له خليق بأن يوضع فى العصر الحديث فى مكانته الحقة التى تليق به ويستحقها . وفى ذكراه الألفية التى مضت منذ أعوام ، ما يحفز الأدباء والنقاد ، أو ما لعله يحفزهم ، إلى تخليد ذكره والعناية به وبشعره . ولعل الأدب العربى يظفر ببحوث جديدة عنه فى المستقبل القريب ، ترد له من كرامته ومجده الأدبى بعد وفاته ما كان له منهما فى حياته .

وأخيرا فهذه خاتمة تلك البحوث الجديدة عن ابن هانىء شاعر الدولة والخلافة الفاطمية . وأدبه وشعره ، ألفته تخليدا لهذه الذكرى الكريمة ، مرور ألف عام على وفاة الشاعر . وأرجو أن أكون قد وفقت فى بلوغ الغاية ، وإصابة الهدف ، وتحقيق ما أنشده من آمال طيبة ، قصدتها بتأليف هذا الكتاب .

فهرست الكتاب الثالث

الكتاب الرابع

قصص من الحياة

من قصصنا الاجتماعى

إحسان قصة جديدة للأستاذ محمد رضوان أحمد ، الكاتب الأديب الشاعر ، والمؤلف الممتع المجيد ، والذى يعد من أرصن كتابنا فى الشئون الاجتماعية والخلقية والقومية .

وقصة إحسان تمثل حياة فتى وفتاة تربطهما صلة قرابة قريبة ، نشآ فى بيئة واحدة ونهلا من منابع العلم ما شاء الله أن ينهلا ، وعاشا فى سن الشباب ، يزينهما طموح لا حد له ، وأمل لا ينتهى عند غاية ، وخلق فاضل لا يشبهه خلق ، وأدب كريم هو أمنية كل رجل مهذب ، وفهم صحيح للأمور ، وتقدير كامل للمسئولية ، وشعور صادق بالواجب الملقى على الرجل والمرأة فى الحياة .. وقد وقفت بطلة القصة « إحسان » عند نهاية التعليم الثانوى ، وعاشت فى القرية مؤمنة برسالتها عاملة على خدمة بنات جنسها وتوجيههن التوجيه الصحيح السليم المثمر . واستمر بطل القصة « حسنى » ابن عم « إحسان » فى التعليم حتى نال الدكتوراه ، وصار محاميا نابغا يشار إليه بالبنان .

وقد ربط الحب الطاهر بين قلبى حسنى وإحسان منذ بداية الشباب برباط وثيق ، وخطب حسنى بنت عمه وهو فى نهاية مرحلة دراسته العالية الجامعية . وشاء له وفاؤه لإحسان أن يرفض ما عرضه عليه أستاذه بوساطة صديق له من أن يكون صهرا له وزوجا لابنته الوحيدة «بدور» ، وانتهى الأمر بزفاف « إحسان لابن عمها الدكتور حسنى المحامى ، فعاشا معا فى القاهرة فى سعادة ونشوة ووفاق دائم يمثلان فى بيت الزوجية أكمل صورة من صور الوفاء والإخلاص .

وبطلا القصة يعرض المؤلف آراءهما فى جميع شئون الحياة عرضا قويا عميقا سليما . . ويصور أفكارهما فى شتى نواحى التهذيب والاصلاح والتوجيه الخلقى والاجتماعي تصويرا رائعا ممتعا . لا يترك ناحية من نواحي الاصلاح إلا أنطق بها

بطل القصة أو بطلتها بالحجة الصادعة والبرهان المتين .

ويعبر عن أفكارها العامة والخاصة فى شتى نواحى التربية والأسرة والمجتمع والأمة والوطن والثقافة تعبيرا دقيقا واضحا سهلا جميلا مقبولا ، لا غموض فيه ولا التواء .

وهدف المؤلف من ذلك كله هو توجيه المجتمع إلى الأخلاق الكريمة ، والآداب المثلى ، والتقاليد السامية ، والعواطف النبيلة ، والمشاعر الرقيقة ، وإلى كل صالح مفيد من ألوان التفكير والعمل والاستقامة والطهر والشرف والعفاف والوفاء .

وليس ذلك كله بعسير على مؤلف « فى جنة الفردوس » وسواه . وإن فى إيمان المؤلف بضرورة اقتران النهضة والتقدم بتراثنا الفكرى والروحى والأدبى القديم ، وبأن نواميس الدين لا غنى عنها فى إصلاح الحياة وتهذيبها ، وبأن مجد الوطن لا بد من قيامه على الأخلاق الفاضلة وهمم الشباب الطامحين المتوثبين المثقفين .. فى كل هذا ما فيه مما يرشد إلى أهمية هذه القصة وقيمة ما عرضه المؤلف فيها من آراء وأفكار ومبادىء ومناهج للاصلاح .

فى العيد

انتظرت القرية قادمها الكريم ، وضيفها العظيم ، فى شغف المحب ، وبسمة الأمل وفرح الشباب ، ووقار الكهول .. حتى إذا ما ازينت ، وأخذت زخرفها ، طفقت تستقبل العيد بثغر باسم ، ونفس مرحة ، وفؤاد طروب .

هذا فجر اليوم المشهود ، والأمل المنشود ، يرسل شعاعه الفضى على الليل الحالك ، فيبددها ظلمات ودياجى ، ويرسلها أهازيج وأناشيد ، تعلن فى فرح ، وتبشر فى بهجة بقدوم العيد .. وهاهم أولاء أهل القرية يسيرون إلى المسجد بقلوب مستبشرة ، ووجوه مسفرة ، تعرف فيها نضرة البشر ، وروعة الايمان .. ثم هاهم أولاء يذهبون إلى مدينة الأموات فى لوعة الحزن ، ولذعة الذكرى ، فيصلون العبرة بالعبرة ، والحياة بالموت والأولى بالآخرة ، ويقرأون أمانى الدنيا وحقائق الآخرة ، فى كتاب مسطور ، تنشره الذكرى ، ويطويه النسيان .

هنالك بين الموائد المصفوفة فى شوارع القرية وطرقاتها ، جلس كل أب بين أبنائه يأكل ويأكلون ، ويبسم ويبسمون ، يرفرف حنان الأبوة ، وجمال البنوة عليه وعليهم بجناح يفىء إلى ظله العطف والرحمة .. وهنالك بين مئات الموائد ، تلمح والدا شيخا ، يرنو بعين يائسة ، وقلب مهموم إلى مائدته الحزينة الصامتة ، لقد فقد نعمة

البنوة فكأنما فقد بهجة العيد ،ونعمة الحياة . وهبه الله بنات ، وحرمه من البنين ، عاش فى شبابه يدعو الله أن يرزقه ابنا يكون قرة عينه ، ووارث نعمته ، وطفق يدعو حتى وهن عظمه واشتعل رأسه شيبا ، فكف عن الدعاء ، وطفق يطفىء لوعة الذكرى بلوعة البكاء ، وجلس يأكل وحده فى العيد على مائدته ، ويرنو إلى الآباء والأبناء بنفس حزينة ، وقلب صبور .

انتثر الأطفال فى القرية يلعبون ويمرحون ، وعرج الرجال على المنازل يهنئون بالعيد ، ويصلون الأقارب والأرحام ، وسار كل شاب يحمل إلى خطيبته هدية العيد فى ابتسام الشباب ، ووعود الزفاف .. واستمرت القرية تضحك ، من ميلاد الفجر إلى غروب الشمس ، تجوب أركانها مواكب الطفولة وجماعات الشباب .

ما أجمل العيد ، لقد نسى فيه الناس كل شىء إلا المعانى الانسانية ، التى كملت بها مباهجه وأفراحه .. نسى فيه الزارع حقله والراعى سوائمه ، كما نسى فيه الموتور وتره ، والمهموم همومه .

ليت الأيام كانت كلها أعيادا ، فيطرح الناس آلامهم وأحزانهم ، ويعيشون فى جو إنسانى جميل ، يكمل رجولتهم وإنسانيتهم ودينهم .. ليت الأيام كانت كلها أعيادا تكفكف فيها دموع اليتامى والمحزونين يد العطف والبر والاحسان .

هكذا كان الشيوخ المسنون فى القرية يقولون ، وبهذا كانوا يتحدثون . ماعدا هذا الشيخ الكئيب ، فقد كان يقول : ليت الأيام لم يكن فيها هذا اليوم . وليت الله لم يجعل للناس هذا العيد .

تضحية وفداء

بين جبال مكة وآكامها ، وسهول منى ووديانها ، سار شيخ كبير قد وخطه الشيب ووراءه شاب فى الثالثة عشرة من عمره ، تطيف به نضرة الصبى ، وفتوة الشباب ، وتعلو وجهه سمة النبل وروعة اليقين ... سار هذا الشيخ ومعه ذلك الغلام ، حتى أدركهما الجهد ، وأنهكهما اللغوب ، فانتبذا مكاناً قصيا ، لا تراهما عين ، ولا يسمع حديثهما إنسان .. وجلس الشيخ ساهم الوجه مشرد الفكر مروع الفؤاد ، وجلس الغلام وعلى قسماته براءة الطفولة ، وطهارة الصبى ، ومسحة الحزن والتفكير .

ومرت الدقائق والساعات وهما صامتان لا يتحدثان ، مطرقان لا يرفعان رأسا ، وفى نظراتهما الموزعة معانى الاشفاق والرجاء . ثم بدد ذلك الصمت الرهيب حديث رائع مبين نطق به ذلك الغلام الشاب ، قال : يا أبت اقض ما الله قاض ونفذ ما أمرت

به ، فما أهون الموت فى طاعة الله ، وما أعذب العذاب والتضحية فى هذا السبيل ، وإنى لأطمع أن تكون لى منزلة الشهداء يوم الدين . فأجاب الشيخ : نعم العون أنت يا بنى على أمر الله ، وسلام عليك يوم ولدت ويوم تموت ويوم تبعث حيا .. وأقبل عليه يقبله ويودعه الوداع الأخير ، وعلى وجهيهما عبرات حرى تسيل ، ثم كفكفا هذه الدموع وقام الشيخ إلى حبل كان معه فشد به وثاقه ، وإلى سكين فشحذها ، وصرع الغلام وأخذ المدية ليمرها على رقبته .

ليت شعرى من هذا الشيخ ؟ ومن هو ذلك الغلام ؟ وما شأنهما الفذ ، وأمرهما العجيب ، ولم يبك هذا الشيخ ثم يقبل إلى الغلام ليذبحه ، ولم يصبر هذا الغلام طائعا مختارا ذلك الصبر الجميل ؟

أما الشيخ فهو إبراهيم خليل الله ، وأما الغلام فهو ابنه اسماعيل ، وهبه بعد أن بلغ من الكبر عتيا ، فأغدق عليه عطفه وحنانه ، وقصر عليه حبه ورعايته ، حتى بلغ مبلغ الشباب وأصبح قرة أبيه الشيخ ، وسلوى أمه الرؤوم ؛ وتجمعت فيه آمالهما الجميلة ، ورجاؤهما الوطيد ، وتكشفت أخلاقه عن هدى مهدى ، ورشد رشيد ، فأشرقت على وجهه مخايل النبوة ، ومظاهر السؤدد والشرف الموروث .

ولكن الله أراد أن ينوه بهذا الغلام الذى سيرث مجد إبراهيم ، وسيكون من ذريته سيد المرسلين وخاتم النبيين ، وقضى — تعالى جده — أن يبتلى هذا الشيخ الكبير فى أعز شىء لديه ، فى ابنه اسماعيل ، فأمره فى المنام أن يذبح ابنه الوحيد وأصبح حزينا كئيبا ، وماذا يفعل ورؤيا الأنبياء حق ؟ استشار ولده . فقال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ما ذا ترى ، قال يا أبت افعل ما تؤمر ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين .

وخرج ابراهيم والغلام — كما رأيت — إلى مكان بعيد ، فأخرج ابراهيم حبلا ومدية كانا معه وشد بالحبل وثاق إسماعيل ، ثم صرعه على وجهه ، وأخذ المدية بيده ولم يبق إلا أن يهوى بها على رقبته ، فإذا الغلام صريع .

موقف رائع فذ ، ليس له فى تاريخ الانسانية مثيل ، وما أحرى أن يذهب بشرفه إبراهيم وإسماعيل ! ! أيتها القرون الماضية والأجيال البعيدة ، وأيتها الجبال الشامخة ، والوديان السحيقة : هل رأيتن أشد لله طاعة ، وأعظم لله رهبة من ذلك الكهل الرحيم ومن ذلك الطفل الكريم ؟ أية نفس تطيق أن تجنى يدها عليها ألم الثكل ، والثكل شديد ، أو ترضى بفراق وحيدها ، والفراق مرير ، أو تسمح أن تمد يدها لتفرى

أوداجه ، وتسفح دمه ؟ اللهم إلا أن تكون هى نفس إبراهيم . ثم أية نفس ترضى بإزهاق روحها ، والروح عزيزة ، وبمفارقة الحياة ، والحياة جميلة ، وأن يكون ذلك عن طاعة واختيار ؟ اللهم إلا أن تكون هى نفس اسماعيل ! ! يا أبت افعل ما تؤمر ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ! ما أخلدها من كلمة صريحة مدوية زلزلت الأرض وشدت بها السماء . قبل ابراهيم الشكل ، ورضى إسماعيل بالموت ، ولم لا يقبل هذا ويرضى ذاك ؟ مادام فى ذلك طاعة لله ورضى ، وقد قضى الله وليس لهما عما قضاه من مرد ، وإذا أمر فقد ذهب التردد ، وذهب الاختيار ، ولم يبق للتردد ولا للاشفاق مجال .. فمن يكن قد ضحى لله بالبقر والغنم ، أو يكن قد جادله بالفضة والذهب ، فهذا قد ضحى لله بولده والولد أعز شىء فى الوجود ، وهـــذا قد جاد لله بنفسه والجود بالنفس أقصى غاية الجود . وفى لمح البصر نزل من السماء فداء لاسماعيل ، فداه الله بذبح عظيم . تضحية وما أروعها من تضحية ، وفداء وما أكرمه من فداء .

شاعر الألمان جوته

على ضفاف الرين ، وفى ظلال فرنكفورت خرج جوهان ولفجانج جوتة إلى الحياة فى ٢٨ أغسطس سنة ١٧٤٩ ، ، وربى فى بيت تقلب فى مهاد النعيم ، ووطىء بساط الرفاهية ، وعاش بين أبوين اختلفا سنا ومزاجا وثقافة ، فورث عن أمه الفتاة حب اللعب والمرح ، وورث عن أبيه الشيخ روح الشك والرزانة والهدوء .

ابتدأ جوته حياته العلمية فى البيت فتعلم اللاتينية والايطالية والفرنسية فى طفولته من أبيه ، وتلقى عنه أيضاً مبادىء العلوم — وكان والده حائزا لقب دكتوراه فى الحقوق . .

وكانت والدته كاترينا تقص عليه القصص فتذكى فى روحه الخيال والعاطفة . ثم شبت حرب السنين السبع بين النمسا وبروسيا عام ١٧٥٦ فاحتلت فرقة فرنسية كانت تساعد النمسا مدينة فرنكفورت . وكان قائد الفرقة (توران) ضابطا ظريفا أديبا يميل إلى رجال الفن والأدب ، فأذن لجيتى أن يشاهد حفلات المسرح المرافق للفرقة ، فازداد جوته حبا للفنون ، وولوعا بالقصص وشغفا بالمسرح . وقد دفعه هذا الشغف إلى تعلم الموسيقى والتصوير والرياضة ، كما تعلم الانجليزية وهو ما يزال فى نهاية الطفولة ومقتبل الشباب .. ثم قرأ التوراة ودرس العبرية ونظم قصته الشعرية باللغة الألمانية ـ يوسف واخوته ـ ، وفى سنته السادسة عشرة أرسله أبوه إلى جامعة ليبزج ليدرس علوم الدين . ولكن روح جوته الخيالية زهدته فى الدراسة فدارس الفنون الجميلة ،

وعاش بين ربات الجمال . ينهل من مورد الحب ، فيطفئ ظمأ الروح والقلب ، ومكث على هذا المنوال حتى لبس جسمه رداء سقم فعاد إلى بيته مريضا عليلا يتنازعه الموت والحياة .. ثم لبس جوته الشفاء فمكث فى منزله للراحة والاستجمام . وانتهز فرصة فراغه فقرأ فى علوم الكيمياء والسحر والطب ماشاء .

وبعد قليل استأنف دراسته العالية فى جامعة استراسبورج . وخرج منها سنة ١٧٧١ وهو فى سن الثانية والعشرين من عمره حاملا لقبا علميا عاليا ، وعبقرية نابغة فائقة .

وأخذ يتدرب على أعمال المحاماة فى فتزلار من عام ١٧٧٢ .. وفى هذه المدينة تلاقى بفتاة أحبها وأحبته وشغف بها وشغفت به ، لأدبه وكماله . لا للاقتران به ، وكانت تلك الفتاة مخطوبة لفتى نبيل يسمى ألبير سافر ليعود لخطيبته بالجاه والمال ، وبعد حين رجع إلى فتزلار ظافرا منصورا ، فصدفت عن جوته وتركته بين اليأس والاندحار ، يحبب إلى نفسه الانتحار .

واستمد جوته من حبه الاول وفتاته المرحة ، وأمنياته المنشودة ، مصادر قصته الخالدة « آلام فرتر » ، وأخرجها للناس فى ثوب قشيب وأسلوب رصين . تخاطب القلب والعواطف وتناجى العقل بالحكمة ، وتحدث الفكر والروح ، فنالت كل إعجاب وتقدير ، وذاع اسم جوته بعد ذلك ذيوعا عجيبا . وشاعت حتى ترجمت إلى جميع اللغات الحية بعد إخراجها بأمد وجيز . .

وبعد « فرتر » صدف جوته عن المحاماة ، ورغب فى الأدب فكان ذلك سلما لشهرته ، وسببا لخلوده ...

وكان « أمير فيمار الغرندوق شارل أوجست » يهيم حبا بالآداب والفنون ، فقرأ فرتر ، وأعجب بها وبعبقرية كاتبها ، فدعاه إلى عاصمته كما كان يدعو نه مع جميع رجالات العلم والأدب .

واستقر المقام بجوته فى فيمار فأخذ يغزو المحافل الرفيعة ويتشح بأثواب المجد والجلال ، وعامله الامير معاملة الصديق للصديق فتوطدت صلات الشاعر بالأمير وتوثقت بينهما عرى الحب والاخلاص .

وارتقى جوته الشاعر فى ظلال الأمير العظيم مدارج الرقى فتقلد فى الامارة الصغيرة مناصب كثيرة حتى صار لها وزيرا .

وبعد حين توفى الامير العظيم تاركا لفيمار اسما دائما ، وصيتا طائرا ، ونصيبا من الخلود كبيرا .

واعتزل جوته بعد موت الأمير منصبه الخطير ، وعاش للأدب والتأليف فاخرج روايات أجونت سنة ١٧٧٥ ، وولهم مسترسنة ١٧٧٧ ، وايفجيني سنة ٧٩ ، ثم سافر إلى إيطاليا وأقام بها ثلاث سنين أخرج فيها « تركاتاسو » ، وبعد ذلك أظهر كنوزه القصصية : « طالب الكنوز والله » ، و « الراقصـــة » ، و « القرابات المختارة » ، وترجمة حياته الشعر والحقيقة ، و« الديوان الشرقي » . وغير ذلك من المؤلفات الخالدة التي ماتزال درة في جبين الأدب الالماني .

كانت حياة جوته في هذه الفترة متلائمة منسجمة ، فقد أمضى وقته بين القراءة والتأليف والحب والهوى .. كما كانت هذه الفترة أخصب أيامه بما أخرج فيها من مؤلفات قيمة هي أجمل تراث للفكر الانساني الحديث .

وفي عام ١٧٩٤ اتصلت روابط الصداقة بين جوته الشاعر وشيلر الفيلسوف ، فاكتسب جوته من صداقته روحه الفلسفية ، التي تبدو مواهبها في غضون قصصه التي ألفها بعد ذلك التاريخ ، وبعد ذلك نشر كثيرا من القصائد الرائعة ، ثم أخرج الجزء الاول من رواية فوست فاستقبلها الادباء بالتهليل والاعجاب .

وفي سنة ١٨٠٨ زار نابليون جوته في أفرت بعد غزوة يينا فاستقبله الشاعر بما يليق بمكانة الامبراطور العظيم من ترحاب وولاء ، وقلده الامبراطور وساما عاليا تقديرا لعبقريته وجهوده .

وفي سنة ١٨١٥ عين الشاعر العبقري وزيرا لحكومة دوق ساكس ديمر ، فشغل فراغه بالتأليف وأخرج الجزء الثـــاني من فوست ومذكرات عن رحلته إلى إيطاليا .

وهكذا نجد جوته جذوة مشتعلة لايطفىء لهيبها المنصب ولا المشيب .

كانت حياة جوته الخصبة الهادئة تلمع في سمائها دائما بروق الحب والهيام ، فأحب في شبابه وفي رجولته ، كما لم تثنه شيخوخته الطويلة التي لفته بأبرادها عن المرأة والجمال .

ولجوته في حبه مذاهب شتى فقد هام بالمرأة وأحبها حينا حبا عذريا فيه الطهارة والعفـاف ، وحينا حبـا ماجنا فيه المتعة واللذة واستيفاء شهوات النفس الانسانية . وحينا حبا اجتماعيا لبناء البيت وتأسيس الأسرة ، وقد أفادته هـذه الحياة المرحة أيما فائدة ، فقد اتخـذ خليلاته وصديقاته بطلات لرواياته

وقصصه ، وإلهاما لقلبه وعاطفته ، وغذاء لروحه وفنه .

ومن أشهر صديقاته شارلوت إيف بطلة فرتر ، وأنا اليصابات ومرجريت بطلتا روايته الشعرية فوست ، والبارونة فون شتين التى شاطرته ردحا طويلا أفكاره وخياله ، وآلامه وآماله ، « وبنياتا برنتانو » التى خلدت فى كتابها عن جوته أسرار عبقريته وعظمته ، « . وكرستيان فلبيوس » التى اتخذها شريكة حياته وهو يعدو فى سن الأربعين إلى كهولته ، فكانت زهرة ناضرة فى دوحة جوته الذابلة ، ونجمة ساطعة فى سمائه الداجية ، ومنها ولد له ابنه الأكبر «أوغست» ، وكانت كما يقول « سعادته رهينة بهذه الفتاة » ، وجعلها فى روايته فوست محور الرواية وبطلة القصة .

وتوفيت كرستيان عام ١٨١٦ لجزع جوته لفقدها أيما جزع ، ورثاها بالدموع الغزار .

عبقرية جوته فى شهرتها عبقرية شاعرة ولكنها تجمع فى حقيقتها عبقرية العالم الفنان النابغ ، فقد كان ملما بكثير من المعلومات والمعارف ، وله نظريات فى النبات والتشريح والضوء والجيولوجيا تدل على عبقريته الخارقة .

وجوته مع تعدد نواحى ثقافته معدود من علماء المشرقيات البارزين ، فقد عنى بالعلوم والآداب الشرقية ، فنهل من مناهلها العذبة ومواردها الصافية : واطلع على القرآن والسنة والسيرة حتى انه شرع فى نظم رواية شعرية عن محمد الرسول الكريم ، إلا أن أعماله الكثيرة منعته من تحقيق هذا الحلم الجميل ، فترجم رواية محمد لفولتير الكاتب الفرنسى العظيم .

وقد طالع جوته كثيرا من دواوين الشعر العربى التى ترجمت إلى الألمانية ونظم قصائد على منوالها ، فاجتمع له منها ديوان كبير أسماه « الديوان الشرقى للمؤلف العربى » وهو خير تراث لجوته الشاعر العبقرى .

وفى سنة ١٨٣٢ أسلم الشاعر العظيم جوته ، نفسه للموت ، فصعدت روحه إلى السماء ، وسطرت ذكراه فى سجل الأبطال العبقريين

أديبة وكتاب

من هذه الفتاة العربية ، التى تتحدث وفى حديثها فكرة ، وبين جوانحها سكينة ، وعلى لسانها ألحان شجية عذبة ، تغنى أناشيد القوة والحياة والإباء ؟ .

من هذه الفتاة التى تسير وإن أجهدها السير ، وتنظر إلى الحياة بعين واعية ، وقلب كبير ، ونفس هادئة ، لا يشغلها الحزن العميق عن الفرح والتفاؤل بالحياة ؟

من هى هذه ، التى أحبت الخيال البعيد ، وعشقت الظلال الغامضة ، وجعلت اللانهاية محبوبتها ، والأشواق خمرها ، وعاشت فى أحزان كثيرة أنستها كل شىء حتى البكاء — وإن ذرفت دموعها حزناً على أرض الوطن الذى اغتصبه الأعداء من أيدى أبنائه — وآمنت بأن الدموع لون من ألوان الضعف ، وإن لم تضن على بلادها بدموع الحنين ؟

من هى هذه المتعبة ، التى تريد أن تهرب من نفسها ، وتفر من قلبها ، الحانقة الساخطة على العواطف البليدة ، والقلوب المتحجرة ، الحائرة المضطربة ، بكل ما فى هذه الكلمة من معان ، التى عاشت وحدها مع الأيام ، تتألم لآلام الفقير الشقى ، وللزارع يزرع الحقل لسيده ، وتتألم حتى لسطحية الأفكار وعامية الأذواق ، والتى شربت الكأس حتى الثمالة ، وهى صابرة على أحداث الليالى وآلام الغربة وأشجان الحياة ، تتغنى بالحرية وتؤمن بها فى أوسع معانيها ، وتطيل التأمل فى الطبيعة وتعشقها وتؤمن بالمحبة والسعادة والعمل والسلام ؟ .

إنها الأديبة الكاتبة الشاعرة « دعد الكيالى » العربية الفلسطينية المغتربة زميلة « فدوى طوقان » فى الجهاد الأدبى ، وصاحبة هذه الموسيقى الحية التى تتجاوب مع الحياة والمثل الأعلى والنفس الإنسانية ، والتى أودعتها كتابها الأول الممتع « سكينة الايمان » ، على الرغم من أن فلسفتها فى الشك تدفعها إلى التساؤل : أين هى سكينة الايمان ؟

دعد الكيالى أديبة بطبعها ، أحبت الأدب وتذوقته ، ونطقت به شعرا منثورا وأنغاما عذبة : تكتب المقالة والقصة ، وتنظم الشعر ، مؤمنة بقلمها ، معتزة برسالتها تفنى فى آثارها الأدبية التى تودعها أعز أفكارها وأسماها ، تحب شعرها كما هو لا كما يجب أن يكون ، لأنه غناؤها وتسبيحها ووحى إلهامها الأبدى العميق المتصل بأعماق نفسها المؤمنة برسالة الأدب .

هى — وأخوات لها من أديبات العروبة أمثال : وداد سكاكينى ، ونازك

الملائكة ، وفدوى طوقان ، وبنت الشاطىء ، وجميلة العلايلي — ترفع فى قوة وعزم وصلابة رأى علم الأدب النسوى الجيل فى نهضـــة العربية والعروبة الحافلة بأسباب القوة والحياة .. وهن جميعا يذكرننا بأخوات لهن أضفن إلى الأدب العربى على مر العصور ألوانا جميلة من المشاعر والتصورات والخيالات وفنون البيان .. من أمثال الخنساء وليلى الأخيلية وولادة وعائشة التيمورية ومى .

ولدعد الكيالى سماتها الخاصة فى أدبها ، إنها تؤمن بالبساطة فى الأسلوب ويمتاز نثرها بالجمال فى التعبير ، وبفتون الخيال وسحره وثورته ، وبصدق العاطفة وقوتها واستوائها وسذاجتها ، تحب الخيال لتهرب على أجنحته من عذاب الواقع الضيق المحدود ، وتتناول فلسفة الكون والحياة ببساطة عجيبة ، وتصور فى أدبها عقلها الذى يشك فى كل شىء وهو عميق الايمان ، وتنادى فى قوة : « البساطة شعارى والطبيعة كتابى ، والحياة مدرستى ، والصدق مذهبى ، والاخلاص مبدئى ، فى هذه الحياة » ، وتردد فى ثقة : « إما أن أكون شيئا وحيدا عظيما ، وإما أن لا أكون مطلقا فى هذه الحياة » . وذلك هو سر ما نراه فى كتابها الأول من روعة وحيوية وقوة لا نراها فيما يؤلفه أدباؤنا الكبار ، لأنها لم تؤمن بالحد الوسط أبدا فى حياتها ، كما ترى الطبيعة سلواها ، والآلام نجواها .

عاشت أديبتنا على الآلام وهزتها أحداث الحياة من حولها هزاً عميقا ، وشعرت بأن الزمن يحاربها ، ككل فلسطينى وفلسطينية ذاقا بأيدى اليهود فى فلسطين مرارة الاغتراب ، إن أشجانها لتبدو فى صورها الأدبية الجذابة التى تستحق إعجاب الناقد ، تقول دعد فى غفوة الحزن العميق : « لا الصلاة تعزينى ، ولا المجد يغرينى ، ولا الطبيعة تسلينى ، ولا الذكرى تواسينى ، ولا الاحلام تصيبنى » . ثم تفيق قليلا فتردد : « سأغنى فلعل الآلام تخرج مع صوتى » ، وتقول :

« الموت فى قلبى ولكن فى عينى الحياة ، فى عينى حياة الموت ، وفى قلبى موت الحياة أبداً لن أبكى فإننى أكبر من البكاء » . ثم يعود اليها إيمانها فتراها تقف فى ميدان الحياة مرددة : « نزلت سكينة الايمان على نفسى المترددة المضطربة فقوتها وثبتتها » ، هذا الايمان العميق هو الذى تتحدث عنه وتصفه فتقول : « أنا مؤمنة بربى ، مؤمنة بنفسى ، مؤمنة بقلبى » . . وفى لحظات من السعادة النفسية العميقة ، والشعور الخفى المنبعث من عقل باطن يقظ تأخذ الأديبة فى تحليل نفسها وعواطفها ، فتراها تقول : « أنا سعيدة ، وسأقول دائماً إننى سعيدة » ، و « سأغنى وأبسم » فإذا ماعادت اليها

أشجانها تصورت الدموع حلوة جميلة ، فكتبت تقول : « ما أحلاك أيتهـــا الدموع » .

إن أديبتنا حين تعتزل الحياة والأحياء ترى الحياة جميلة ، وتشعر بسعادة هادئة ، وبظلال السكينة والطمأنينة والسلام ، وتعتقد أن المرح طبع أصيل فيها ، وأنها لم تفقد الأمل ، وتنادى إيمانها العميق ليهز فؤادها ويبعثه على جلائل الاعمال ، وترى أن نفسها دائما طروب تترنم ، وأن الابتسامة ستظل مطبوعة على شفتيها ، مهما ادلهمت الاحداث ، وبهذا التفاؤل الروحى تسير دعد فى الحياة .

دعد التى فقدت وطنها ، وأسر أخوها وماتت أمها ، واغتربت فى دمشق وبغداد والكويت ، ومرضت جدتها فتمنت لها الشفاء ورؤية الأعزاء فى أرض الوطن ، وتسلت بغابات النخيل على شواطىء جدول النجف ، وقالت للناس فى نغمة أخاذة : « بى ضيق ، بى حيرة ، بى ألم ؛ أين منى جمال الأمس ، وأين منى أحلامه ؟ » وتساءلت : « أين النور ؟ » ، ونادت : « قطرة من الماء يارب » ومرضت فرأت أشباح الموت قريبة منها ، ومقتت الناس الذين لايعرفون غير الأخذ دون العطاء ، وجثمت الحيرة على صدرها .. هى هى نفسها دعد الممتلئة إيمانا بنفسها وبالله وبالحياة ، الثائرة فى وجه الاقدار ، تحدث قلبها : « اتئد ياقلب فستسطر بدمائك سطور أمجادك وآلامك ، ستحيا ولكن لتنتقم من الموت والحياة ، ستحيا ولكن للذكريات وليس لغيرها » .. إنها تجرب الشك وهى مؤمنة من أعماق قلبها تنادى فى الكون « لقد ضللت يارب فاهدنى » ، « يارب اسكب فى قلبى المحبة ، وفى روحى الطمأنينة والسلام » ، « أنت عادل يارب وإننا ظالمون معتدون حينما نسألك عن سر عدلك ، وذلك لأننا ملكك وأنت حر فى ملكك ، وليس علينا غير تمجيدك وحمدك » ، وإيمانهـــا العميق هو الذى دفعها إلى الاستسلام للحوادث ، وتوطين النفس على كل شىء .

إن أدب دعد لفريد : فى غزارة معانيه ، وسعة خياله وخصبه وعمقه .. وهو مظهر لعقلية ملهمة مفكرة ، تقول فى سخرية وفلسفة وشك وحيرة : « الأقدار عمياء فلم نسير فى هذه الحياة مبصرين ؟ الاقدار ظالمة فلماذا نسير فى هذه الحياة عادلين ؟ إن كان غيرنا يجلب الينا الضرر فلم نجلب له النفع ؟ أريد أن أسير فى هذه الحياة سيرا أعمى ، أريد أن أعطل عقلى فلا أفكر ، أريد أن أغمض عينى فلا أبصر ، أريد أن أصم أذنى فلا أسمع ، لماذا أنتقم من نفسى بالشعور المرهف الحساس » ؟ .

فإذا تركنا دعدا فى فلسفتها وحيرتها وشكها وتحليلها للعواطف الانسانية النبيلة فى الحياة ، فإننا سرعان ما نجدها نفسها تأخذ علينا الطريق من ناحية أخرى ، وتستبد بإعجابنا فى أدبها القوى الحى فى وصف ما قدرته الأيام لوطنها المهيض من مصير ، وحسبك أن تقرأ لها قطعتها الممتعة « يقولون » : « يقولون إنه كان هناك مدن جميلة آمنة دافئة بالنشاط .. الخ » ، أو أن تقرأ لها مأساة العرب الدامية « فى الأندلس الشبيهة بمصرع فلسطين العربية ، أو أن تقرأ ما سوى ذلك من أدبها الخصب الجميل ، فإنك ولا شك ستجد « دعدا » طرازا فريدا فى أدبنا النســوى العربى والقومى والانسانى فى العصر الحديث .

وبعد فسكينة الايمان ليس كتابا ، ولكنه ثورة أدبية ، تسير منطلقة لتجدد من صورنا الادبية ، ولتبعث فى نفوسنا الثقة بنتاج العبقرية فى أدبنا المعاصر ، وأحسب القارىء واجدا الخطوط الرئيسية لهذا الادب الجديد القوى الصادق الجذاب التى وجدتها أنا ، فى مقدمة الأدبية لكتابها ، فى هذا الاهداء ، فى ذكرى أمها العزيزة فى عالم الأبدية ، فى موسيقى أسلوبها الجميل التى تشدو بها وهى تقول : « ما أجمل اسمك يا أماه ، إننى لم ألفظه لم ألفظه منذ تلك الايام السعيدة الباسمة ، إننى لم ألفظه حتى لقلبى ، وإنى ألفظه الآن كطفل فقير يضع فى فمه قطعة من الحلوى التى لم يذقها منذ عهد بعيد ، ولكننى ألفظه متأوهة باكية ؛ بينما يمضغ ذلك الطفل قطعة الحلوى بلذة وشغف ؛ إنى ألفظه والغصة فى حلقى ، ودموعى تنحدر على وجنتى بحرارة وعمق » .

ولأترك القارىء يتذوق وحده « سكينة الايمان » ، ويحكم عليه بملكات الناقد الأمين .

وطنية خالدة وأزاهير الصحراء

الأديب العربى الكبير ، الأستاذ روكس بن زائد العزيزى الأردنى ، من صفوة علماء العربية وأدبائها وكتابها ، وله مؤلفات كثيرة خصبة ممتعة ، تدل على طبع أصيل ، وذوق رفيع ، وملكات موهوبة ، ومنها : كتابه المشهور « المنهل فى تاريخ الأدب العربى » ، وقد صدر منه جزآن ، ويعد الجزء الثالث منه للنشر ، والكتاب موسوعى الدراسات ، ويمتاز بدراساته عن الأدب المعاصر فى البلاد العربية عامة ، وفى الأردن خاصة ، وكذلك كتابه الزنابق وهو سلسلة من المختارات فى الأدب العربى ،

وقد صدر منه حتى اليوم خمسة أجزاء ، ويعد خمسة أجزاء أخرى للنشر ، وتقديراً للكتاب ومؤلفه قررت وزارة المعارف العراقية تدريسه فى مدارسها المختلفة . . ومن كتبه المطبوعة كذلك : سدنة التراث القومى ، وأبناء الغساسنة .

أما كتابه الذى نتحدث عنه الآن ، وهو « وطنية خالدة » ، فهو أحدث إنتاجه الأدبى ، وقد قامت بطبعه ونشره مجلة العرفان بصيدا ، ويقع فى ١٢٠ صفحه من القطع الصغير ، وقد قدم له صاحب العرفان الأديب الأستاذ أحمد عارف الزين بكلمة ، أشاد فيها بالمؤلف ، ونوه بمكانته الأدبية ، وبكتابه النفيس « وطنية خالدة » .

وكتب العزيزى إهداء الكتاب إلى أخيــه الحبيب توفيق مرار ، رمز تقدير ومحبة .

والكتاب عبارة عن أقاصيص منوعة ، تمثل الحياة الأردنية فى حاضرها الراهن ، وماضيها القريب ، خير تمثيل .

ويبتدىء الكتاب بقصة الغساسنة ، التى ترمز إلى اعتزاز الأردنى بوطنه ، وبذله النفس والنفيس من أجل بلاده ، وهى قصة حقيقية وقعت حوادثها عام ١٨٣٢ فى الكرك من أعمال شرقى الأردن ، وبطلها هو الزعيم إبراهيم الضمور رئيس إحدى القبائل العربية الكبيرة فى الأردن ، وزعيم الكرك ، وتفصل القصة مواقفه الوطنية الرائعة إبان فتح إبراهيم باشا للشام ، وتضحيته بولديه ، ورفضه التسليم لجيش إبراهيم ، فى أنفة وعزة وكبرياء ، والقصة رائعة التصوير ، دقيقة التفصيل لحيــاة الأردنيين الاجتماعية ، ولعاداتهم وتقاليدهم وأخلاقهم ، وهى بحق من أروع القصص الصغيرة التى قرأتها .

وينتهى الكتاب بقصة ممتعة عنوانها الريبة ، وبطلتها امرأة عربية تدعى خضرة غاب زوجها ، وبقيت وحدها هى وطفلها فى خيمتها بين مضارب البدو فى الصحراء وأرادت النوم فلم يطاوعها النوم ، وظلت قلقة حائرة مضطربة ، لغياب زوجها فى الصحراء ، ولمبيتها منفردة دون حارس ، وأخذت الأوهام تلاحقها ، ثم شاء زوجها أن يعود ، وأن يختبر خلقها وعفافها ، فاقتحم خيمتها متنكرا فى آخر الليل ، وإذا المرأة تهب مذعورة حين ترى يدا تمتد إليها وتلامس شعرها ، وإذا هى لا سلاح معها تدافع به عن نفسها ، إلا وتد صغير خبأته تحت وسادتها ، وإذا هى ترفع هذا الوتد الحديدى وتدمى به وجه الرجل وعينه ، فيخرج الرجل ، ويعيش فى الصحراء ، يداوي جروحه ، وإذا هى قلقة على زوجها الغائب الذى لا تعلم سبباً لغيابه الطويل

هذا ، وإذا هى تخرج اليه فى الصحراء ، فترى وتعرف الحقيقة الأليمة ، والنهاية المحزنة لربيبة زوجها بها ، فتبدأ آلاما جديدة ما كانت لها فى حسبان .. والقصة حافلة بالصور الكثيرة للحياة الاردنية فى شتى ألوانها ومشاهدها ومظاهرها .

وبين هاتين القصتين قصص كثيرة ، منها القصص التى لها هدف اجتماعى وإصلاحى مثل : فريسة التقاليد ، والمتمردة وسكرة الموت والشرف المظلوم وسواهما ، ومنها ماترمز إلى مثل عليا وأخلاق إنسانية رفيعة مثل : دموع فتاة ، وأيام الحصاد ، وضحايا الوفاء ، وغيرها .. ومنها ما يمثل عادات الأردنيين ؛ ومنها مايشير إلى وطنيتهم وأنفتهم وشممهم .. ومن هذه القصص القصير والمتوسط .

ومهما كان موضوع هذه القصص ؛ فكلها تحتوى على خير الصور عن الاردن فى حاضرها وماضيها القريب ، وعن حياة سكانها وأخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم ومظاهر معيشتهم المختلفة ، وهو من هذه الناحية سجل فريد للحياة العربية المعاصرة فى هذه البلاد ، أو قل لحياة الشعب نفسه فيها .

والكتاب - بما يحتوى عليه من قصص - قوى فى تصويره ؛ ممتع فى تعبيره ، جذاب فى عرضه وتسلسل حوادث القصة فيه .. أما لغته فهى لغة الشعب نفسه ، اللغة العامية التى لاتزويق فيها ولا تكلف ، لغة التخاطب والحديث بين الناس فى شئون حياتهم المختلفة ، ومن حسن الحظ أن هذه اللغة العامية فى الاردن قريبة إلى العربية الفصيحة .، ولاشك أن الكتاب يعد مرجعا خصبا فريدا للهجة العامية العربية الحديثة فى الاردن ، ومن هنا يكتسب الكتاب ميزة جديدة أخرى له .

قصة الأزهر الجامعى بعد عشرين عاما

الازهر القديم حافل بالذكريات المجيدة الخالدة المشهورة ، التى فصل الحديث فيها المؤرخون والباحثون .

أما « أزهرنا » اليوم فلا حول ولا قوة إلا بالله ، فليس فيه من الأزهر القديم شبه ، وليس بينه وبينه صلة ، وهو حائر الرأى ، متبعثر الخطى ، كأنما يريد أن ينقض ، إشفاقاً على حملة تراثه ، من جسامة المسئولية ، وفداحة التبعة ، وهول الحساب ..

وأما « أزهرنا » فى الغد ، فأتخيله منارة مشرقة ، وجامعة تعود إلى فهم رسالتها ، وإلى أدائها ، وإلى الجهاد مرة أخرى من أجل الاسلام والمسلمين وتقدم النهضة الفكرية ومن أجل ازدهار حركة الاحياء والتجديد والاصلاح الدينى .. وسيكون الفضل فى ذلك راجعا إلى يقظة الرأى العام فى الأزهر بعد سبات ، وإلى انتباه الشباب فيه

بعد غفلة ، وإلى حرص الأمة والمسئولين على إصلاح الأزهر وتجديد معالم النهضة الدينية والعلمية فى أروقته ومحاريبه :

سيكون الأزهر بعد عشرين عاما جامعة هيكلا وروحا ورسالة ، بعد أن كان فى القديم جامعة بهيكله ، وبعد أن كان فى عصرنا الراهن جامعة اسما فحسب .. وستؤدى هذه الجامعة الأمانة العلمية والدينية الملقاة على كاهلها على خير الوجوه وأجلهـــا ، وستعود حلقات الدرس فى الأزهر إلى نشاطها العلمى من جديد ، منقحة ومحققة ومجددة مبتدعة ، وسيحفل الأزهر آنذاك بعديد الأعلام من بنيه ، الذين سيكونون خير سند لنهضته الفكرية والروحية .

وستمتلىء نفوس الأزهريين بعد عشرين عاما بالعزة والكرامة ، فلا تجد فيهم ضعيف الرأى ، أو منافق اللسان ، أو هداما يستر عيوبه بالحقد على الناس ، أو أنانيا يسعى لنفسه ولو كان فى ذلك الهلاك للجماعة .. وستقوى صلة الأزهر بالأمة ، فتنزله منها منزلة الرائد الأمين ، ويحلها من نفسه مكانة عزيزة بالتوجيه والإيثار والنصح ، والدعوة إلى المثل العليا الكريمة التى يدعو إليها الإسلام الكريم .

أما مناهج الأزهر وكتبه وكنوزه القديمة فسينالها ثورة العصر الجديد ، فتعود كنوزنا العلمية إلى التأثير فى العقل العربى الحديث تأثيرا قويا نافعا ، وتصبح مناهج الأزهر وكتبه ونظمه محققة لرسالته الجامعية الصحيحة .. وسيكون منصب « شيخ الأزهر » بالانتخاب من حملة الدكتوراه أو ما يعادلها من الأزهر ، وسيعود لمنصب المشيخة سالف مجده وعظمته وهيمنته الروحية الكبيرة على العالم الاسلامى كافة ، وستنال جماعة كبار العلماء ولجنة الافتاء ومجلة الأزهر ومكتبته وأروقته ومعاهده وكلياته وبعوثه الاسلامية نصيبها من الاحياء والبعث والتجديد ، وستسهم البعوث الاسلامية الأزهرية فى ميادين النشاط الدينى والعلمى بنصيب كبير ، وستحمل مدرجات الأزهر أسماء الخالدين من أبنائه .. ويطلق على الكراسى العلمية المنشأة فى كلياته كذلك أسماء الأعلام من علمائه .. وسنرى مدينة الأزهر الجامعية ، واتحاد الأزهر الجامعى ، وحفلات الذكرى الألفية لانشاء الأزهر ، واللغات الحية التى تدرس فى جميع أقسامه وفروعه ، وقلوبنا يملؤها البشر والفخر والاعجاب .

وسوف تقيم كليات الأزهر مواسم علمية وأدبية ضخمة ، وسيعلن آنذاك عن رحلات لطلبة كليات الأزهر فى البلاد العربية والاسلامية خلال إجازة نصف السنة وفى الاجازة الصيفية .

وسيكون فى كلية اللغة عدة كراسى علمية ، للنقد الأدبى ومذاهب الأدب وأصول النحو والبلاغة واللغات السامية واللهجات القديمة والحديثة ، وسيتبعها معهد للصحافة وتنطق باسمها مجلة علمية ضخمة ، وسيعلن عن مناقشة رسالة للدكتوراه فيها آنذاك ، عنوانها : « مذهب أدبى جديد » يبشر صاحبها فيها بالمثالية الأدبية .. وفى كلية أصول الدين ستنشأ كراسى أخرى للفلسفة والتصوف الاسلامى وعلم الأخلاق الدينى وعلم الاجتماع ومناهج الوعظ ، وسواها . وسيعلن آنذاك عن مناقشة رسالة للدكتوراه فيها موضوعها « فلسفة الشك بين ابن عربى وديكارت » ، وعن مناقشة رسالة ثانية موضوعها « علم الاجتماع بين أرسطو والفارابى وابن خلدون وغوستاف لوبون » وسيعكف أحد طلبة الدكتوراه فيها آنذاك على كتابة رسالة عن « الذرة عند فلاسفة الاسلام » .. وفى كلية الشريعة ستنشأ كذلك كراسى علمية جديدة لأصول الاجتهاد والقانون « المقارن » والشريعة الاسلامية ومذاهب المجتهدين وسواها ، وسيعلن عن قيام طلبه الدكتوراه فى الكلية بنشر مجموعات القوانين الجنائيه والمدنية والاقتصادية والقانون الدولى فى الشريعة الاسلامية ، وستناقش رسالة الدكتوراه عنوانها أصول مذهبى الأوزاعى والليث بن سعد .. وستتبادل الجامعات فى الشرق والغرب رسائل الأزهر العلمية .

ومن أهم حركات التجديد فى الأزهر توطيد النظام الجامعى ورفع مستوى الكادر الجامعى فى كلياته وتبادل الأساتذة بين الأزهر وشتى جامعات العالم . وستقوم الدول الاسلامية بعبء الأموال اللازمة للبعوث الاسلامية الأزهرية ، وسيتولى الازهر الاشراف على المساجد والمعاهد الكبرى فى العالم الاسلامى . وستعلن جامعة «هارفرد» عن قدوم أستاذ أزهرى زائر فيها لتدريس « أصول التشريع الاسلامى وأثرها فى نشأة علم الاجتماع وفى الحضارة العالمية .

ويومذاك سيكون للأزهر معاهد علمية ثقافية فى الخرطوم وإشبيلية والقدس وكراتشى وبغداد ولندن وبرلين وباريس ونيويورك ، وسترسل ثلاثون بعثة علمية لشتى جامعات الغرب .. وستستعين جامعة إيران وجامعة موسكو وبرلين ولندن والسوربون وجامعات الهند والصين وباكستان وسواها بأساتذة من الأزهر . ومن أهم ما سنراه فى الأزهر بعد عشرين عاما تبادل الطلاب بين كلية اللغة وكليات الآداب فى مصر والغرب ، وبين كليات الشريعة وكليات الحقوق ، وبين كلية أصول الدين وكليات الفلسفة فى الغرب ؛ وكذلك اعتراف الجامعات فى العالم بشهادات الأزهر

العلمية ، وسيدرس الطب العربى القديم فى الأزهر ، وسيباح لخريجى كلية أصول الدين فتح « عيادات » نفسية للطب النفسى العلاجى . وسيكون لخريجى الأزهر دخول الكلية الحربية عاما واحدا يمنحون بعده رتبة عسكرية ويعملون فى الجيش فى شتى وحداته ، وسيكون القائد العام للجيش المصرى آنذاك أزهرى التعليم ، وسينشىء الأزهر كلية جامعية للفتاة المصرية .. وستنال المعاهد الابتدائية حظها من الرعاية والتجديد والاصلاح ، ويباح تبادل الطلاب بين الأزهر والمدارس الابتدائية والثانوية ، وسيوحد الزى بين الازهر والجامعات المصرية .

ويومئذ سيكون الأزهر الصرح الاسلامى الأكبر فى البلاد الاسلامية .

فهرست الكتاب الرابع

صفحة — الموضوع

الكتاب الخامس

أبو الطيب المتنبي شاعر العربية

٣٠٣ — ٣٥٤ هـ

قصة

حياته وطموحه وعبقريته

حياة الشاعر

نشأة الشاعر :

حياة أبي الطيب أحمد بن الحسين المتنبي قصة رائعة من قصص البطولة ، ورواية حافلة بألوان الطموح إلى المجد ، والنزوع إلى الرفعة ، وصدى مدوٍ لما تعانيه النفس الكبيرة من آمال ، وما تجيش به الهمة العالية من رغائب .

ولد بالكوفة من أبوين فقيرين ، وكان أبوه سقاء بها ، ثم تنقل به بينها وبين بلاد الشام ، يسلمه إلى المكاتب ، ويردده فى القبائل ، ويسرحه فى البوادى ، حتى إنه قضى زمنا طويلا فى بادية السماوة يتلقى عن الأعراب ، ويشافه أرباب الفصاحة . ولعل هذا هو السر فى تمكنه من اللغة وإحاطته بأسرارها ، وهو فى هذه البيئات الأدبية يشب على الفصاحة ، ويكرع من حياض البلاغة . ومخايله تنطق بما ينتظره من مجد ، وتبشر بإمامته فى دولة البيان .

أقبل فى طفولته على الدراسة والعلم يلتهمهما التهاما فى مكاتب الكوفة ومساجدها وحلقات العلم فيها ، واختلف إلى مجالس الأدب ومكاتب الوراقين اختلافه إلى أعراب البادية ، حتى تم له ما أراد من نضج الثقافة واكتمال الشاعرية .

والكوفة بمساجدها ومكاتبها وحلقات العلم فيها ، وبأئمتها فى الدين واللغة والأدب والبيان والشعر ، أحفل بيئة فى ذلك العصر ، وكأنها جامعة كبيرة تخرج الشباب إلى الحياة مزودين بشتى الثقافات ، فتتلقفهم مصر والشام وبغداد وغيرها من العواصم

لتهيء لهم سبل المجد فى بلاط الخلفاء والأمراء . والكوفة بعد ذلك مسرح لصراع عنيف بين شتى الأحزاب والفرق الاسلامية ، من شيعة وخوارج ومعتزلة ومرجئة وغيرها ، وفيها الراية العباسية تظللها حينا ، وتعصف بها ثورات القرامطة ، ودعوات الاسماعيليين أحيانا أخرى ، وفى هـــذه البيئة واصل أبو الطيب دراسته ، متصلا برجالات الكوفة كأبى الفضل الكوفى وسواه ، معللا نفسه بكبار الآمال ، وعذاب الأمانى ، يرددها فى قصائد من شعر الشباب تنضح بشعوره وطموحه وأحلامه ، متخذا من سمو حسبه فى أدبه بديلا عن ضعة حسبه فى نسبه ، مفتخراً لا بآبائه وأسرته ولكن بنفسه وعصاميته ، متطلعا إلى سبل المجد يسلكها بعزيمة وقوة وتضحية .

إلى الشام :

وطارده شبح الطموح والمجد حين ضـــاقت الحال به فى وطنه فهاجر فى سن السادسة عشرة إلى الشام ، وفى صدره فؤاد يدفع آلام الحياة بعجيج الآمال ، وبين جنبيه نفس كبيرة نضجت ثقافتها ، ونبغت شخصيتها ، وتفجرت شاعريتها ، فتطلعت إلى مجد أدبى كبير ومستقبل سياسى خطير ، تلمس هذا الطموح البعيد فى أبياته :

أى محل أرتقى أى عظيم أتقى
وكل ما خلق اللـــه وما لم يخلق
محتقر فى همتى كشعرة فى مفرقى

وتنقل الشاب بين بوادى الشام وحواضرها ، ولكن الحياة لم تمنحه السعادة المرموقة ولا الآمال المرتجاة ، فامتلأت نفسه ثورة وصمم على أن ينهج سبيلا جديدا :

ضاق صدرى وطاب فى طلب الرز ق قيامى وقل عنه قعودى
أبداً أقطع البلاد ونجمى فى نحوس وهمتى فى سعود
عش عزيزاً أو مت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود
فرؤوس الرماح أذهب للغيظ وأشفى لغل صدر الحقود

وانتهى به المطاف إلى اللاذقية ، فأقام يذيع فيها آراء مسرفة فى السخط على الولاة الذين ملأوا البلاد جورا ، وفى التبشير بإمارة جديدة يقام فيها على يديه للحق صرح جديد يكون منارة العدالة فى ظلمات الحياة الاجتماعية إذ ذاك .

وسار أبو الطيب بدعوته ـ التى مزج فيها السياسة بالدين على نهج الدعوات التى شاهد القرامطة يقومون بها فى الكوفة ـ فى طريق التنفيذ ، فخرج إلى أرض من أقليم حمص ، ليعلن فيها الثورة بتأييد بعض أنصاره ومريديه ، ولكن يقظة لؤلؤ والى

حمص جملته يشعر بمرامى أبى الطيب فاعتقله ، ولبث فى السجن بضع سنين ، وهكذا قذف به الطموح إلى تضحية ليس بعدها من نهاية ، وإن كان أبو الطيب لا يبالى بأية تضحية يبذلها فى سبيل آماله :

فاطلب العز فى لظى وذر الذ ل ولو كان فى جنان الخلود

واستشفع الشاعر إلى الوالى بقصائد كثيرة نفى عنه فيها كل تهمة وأخذ يردها إلى وشاية الحاقدين ورماية الناقمين :

دعوتك عند انقطاع الرجاء والموت منى كحبل الوريد
دعوتك لما برانى البلى وأوهن رجلى ثقل الحديد
فما لك تقبل زور الكلام وقدر الشهادة قدر الشهود
فلا تسمعن من الكاشحين ولا تعبأن بمحك اليهود
وكن فارقا بين دعوى أردت ودعوى فعلت بشأو بعيد

وأخيراً أطلق سراح الشاعر فتجددت فى نفسه آماله ، وأخذ يناضل فى سبيلها بسلاح من عاطفته وفنه وبإلهامه ، بعد أن فل سيفه وكل رمحه فى محاولاته وثوراته ، ونشد الشاعر الإمارة والولاية فى ظلال الملوك والأمراء فسعى اليهم بمواهبه الشعرية القوية الأسباب الرائعة الاشجان ، طالبا منهم لنفسه المجد والامارة وأسباب الحياة ، فاتصل بعلى بن المنصور الحاجب وبدر بن عمار من ولاة الشام ثم سار إلى أبى العشائر والى أنطاكية من قبل سيف الدولة فامتدحه ، وأكرم أبو العشائر مثواه ،

ووثق به أسبابه ، وفتح له باب الأمل على مصراعيه من جديد ، حتى قدمه إلى سيف الدولة حين قدم أنطاكيه سنة ٣٣٧ وأثنى عليه عنده وعرفه منزلته فى الشعر والأدب ، فضمه الأمير اليه ، وحسن موقعه عنده وعلمه الفروسية والطراد ، وأنعم وطابه .

فى ظلال سيف الدولة :

نعم المتنبى فى ظلال سيف الدولة ، بيد أن نفسه أبت عليه أن يكون مظهره مظهر رجال الحاشية الذين يفنون شخصياتهم فى شخصية العرش ، فشرط عليه أن يعفيه من قيود التقاليد وأعباء المراسيم فلا يكلف تقبيل الأرض بين يديه ولا أن ينشد شعره قائما فى مجلسه وألا ينظر اليه إلا نظرته إلى الصديق الحميم ، وقبل سيف الدولة ، فأقام أبو الطيب فى بلاطه تسع سنين ، لم ينس فيها آماله وأمانيه ، وكان يرى نفسه خلالها صديق الأمير ومستشاره والعزيز المكين لديه ، فلازمه فى سلمه وحربه ، وجده

ولهوه وحله وترحاله ، ينفحه الأمير بنعيم الحياة ، ويهبه الشاعر مجد الأدب وعز الأبد ، ففي كل مناسبة خطيرة ينشد الشاعر الأمير قصيدة يسجل فيها عواطفه ومشاعره وآماله ويرسم فيها شخصيته ونفسيته ، ويذكر فيها ماتستدعيه هذه المناسبة الحافزة من معان تدور حول الإشادة بالأمير والثناء عليه وذكر بلائه في الحروب وسياسته للدولة وفتكه بالأعداء وبطشه بالعابثين ورحمته للعافين ، وقد لاتزيد هذه القصائد في العام على ثلاث . وكانت هذه الحقبة أخصب طور في حياة الشاعر وشاعريته ، ففيها عاش بحلب في بلاط سيف الدولة ، الذي تسنم العرش بعد والده من (٣٣٣ — ٣٥٦) فأسكن الفتن ووطد دعائم الملك ورد عادية أعداء الدولة من الروم والأخشيديين والفاطميين وسواهم ، وفيها عاصر أبو الطيب النهضة الأدبية واللغوية التي رعاها سيف الدولة ، والتي كان من رجالها أبو فراس ابن عم الأمير والسرى الرفاء والسلامى وأبو العباس النامى(١) وكشاجم والخالديان وأبو الفرج الببغاء وابن نباته السعدى ، وسواهم من الشعراء .

وفيها اتصل في بلاطه بابن نباته الخطيب وابن خالويه النحوى وأبي الطيب اللغوى الأديب والفارابي الفيلسوف وسواهم من رجال الدولة وزعمائها في الدين والادب وفي الفكر والثقافة وفي السياسة والاجتماع ، مما كان له أثره الفكرى والادبى في نفس أبي الطيب ، وفيها رأى الشاعر عيون النقاد والمنافسين ترنو اليه وأسماعهم تصغى له فأذكت المنافسة عاطفته ، وهاجت شاعريته ، وفيها كانت تجيش في صدره كل حوافز الشعر ودواعيه من الشباب الناضر والمجد الباهر ، والشاعرية الطامحة ، مما كان يحفزه إلى الجودة في القول والابداع في القصيد ، حتى إنه لما فارق بلاط الأمير فقد الكثير من هذه الحوافز والأسباب فتجوز في قوله وأعفا طبعه واغتنم الراحة كما يقول المتنبي نفسه .

ولم يكن أبو الطيب في شتى اتصالاته « تاجرا من تجار الأدب(٢) » كما ظن بعض الباحثين الذين جهلوا نفسية أبي الطيب وغاياته فرموه بالجنون حين التجأ إلى أمير بعد أن كان يطلب لنفسه الإمارة ، وبالتجارة بالأدب بعد أن كان يطمح إلى أسمى مايطمح اليه الطامحون ، وليتهم علموا أن قصائد أبي الطيب التي كان يهديها إلى الملوك

---

(١) توفي عام ٣٩٩ عن تسعين عاما ١/٤٦ ابن خلكان

(٢) ١١٩٤ إلى ١١٩٩ العدد العاشر من الهلال عام ١٩٣٥

والأمراء ، إنما كانت وسيلة إلى المجد ولم تكن مدائح بالمعنى الضيق المحدود . إنما كان أغلبها تصويرا لنزعات الشاعر واتجاهاته وآرائه فى الحياة ، وإشادة بنفسه هو قبل كل شىء ، وقد عاش رجال الفن والأدب فى كل العصور على اتصال برجال السياسة ووجدت أمثال هذه الصلات فى الغرب كما وجدت فى الشرق : ورعاية أصحاب العروش للنهضات الفكرية والأدبية ولرجال هذه النهضات لم يزر بها ناقد عربى ، وكان لها أثرها الخطير فى توجيه الحياة الإنسانية فى شتى مناحيها ونزعاتها .

جفوة :

وغيرت الحوادث قلب الصديقين : الشاعر والأمير ، فكبرياء المتنبى ، وكثرة منافسيه ، ووشاياتهم به — لاسيما أبو فراس الأمير — ، وثورة النقد والخصومة بين أبى الطيب وابن خالويه فى مجلس الأمير ، وطموح المتنبى وعدم وصوله فى ظل سيف الدولة إلى كل ما كان ينشده من آمال كبار . كل ذلك كان له أثره فى هذا التطور الجديد ، وسكن الشاعر سكون من يتبين اتجاهات الأمور وعواقبها ، ولكنه لم يعد يجد فى الأمير صديقه الوفى ، ولا فى صداقته عزته العزيزة لديه ، وقاتل الله غربة الرجل فى وطنه :

شر البلاد مكان لاصديق به   وشر مايكسب الانسان مايصم

وأخذ الشاعر يلوح له بما فى نفسه وبالنتائج الدامية التى تعقب هذا الجفاء :

يا أعدل الناس إلا فى معاملتى   فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
ماكان أخلقنا منكم بتكرمة ..   لو أن أمركم من أمرنا أمم
إن كان سركم ماقال حاسدنا   فما لجرح إذا أرضاكم ألم
وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة   إن المعارف فى أهل النهى ذمم
أرى النوى تقتضينى كل مرحلة   لاتستقل بها الوخادة الرسم
لئن تركن ضميرا عن ميامننا   ليحدثن لمن ودعتهم ندم

وما ضمير إلا جبل عن يمين السائر فى الطريق من الشام إلى مصر فهو يصرح له بأنه إذا اضطر إلى الخروج من بلاطه فسيندم لأنه لابد ذاهب إلى بلاط أعدائه الإخشيديين .

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا   ألا تفارقهم فالراحلون هم

رحيل :

وأخذ أبو الطيب يحمل حملاته العنيفة على خصومه ومنافسيه فلم يبق أمل فى

الوئام ، فخرج أبو الطيب من حلب إلى دمشق حيث زين له أحد أتباع كافور أن يرحل إليه بمصر فيمم وجهه شطر مصر قاصدا بلاط بني الإخشيد ، وكفت صلات الصداقة القديمة الباقية الشاعر عن أن يرمى الأمير بداهية من لسانه وآبدة من شعره .

ولكن سيف الدولة لم يترك الشاعر حذارا من لسانه ومن أن يطلع أعداءه على أسرار دولته فأرسل إثره الجنود ليردوه فرجعوا خائبين ، وكانت هذه منة امتن بها الشاعر بعد على كافور .

فلو لم تكن في مصر ما سرت نحوها   بقلب المشوق المستهام المتيم

ولا نبحت خيلي كلاب قبائل   كأن لها في دياجي الليل حملات ديلم

ولا اتبعت آثارنا عين قائف   فلم تر إلا حافراً فوق منسم

وسمنا بها البيداء حتى تغمرت   من النيل واستذرت بظل المقطم

في بلاط كافور :

واستظل الشاعر بظل المقطم كما يقول ، فنزل في فناء كافور عام ٣٤٦ ، وكانت الخلافة العباسية آنئذ في ضعف سياسي ، وولاة الأقاليم في شبه استقلال عن الخلافة وعهد الخليفة الراضي إلى محمد بن طغج الاخشيدي في القيام بأعباء الحكم في مصر عام ٣٢٣ فاستقل بها استقلالا داخليا ، وأخذ يوسع حدود بلاده شمالا في ملك الحمدانيين ، وكان كافور مولى الأمير آنس فيه الكفاءة ، وحسن التدبير ، ونضوج الثقافة ، فعهد إليه بتربية ولى عهده ثم عينه عام ٣٢٣ قائدا للجيوش التي أرسلها لصد هجمات الحمدانيين على دمشق وحمص ، ولكن الأجل أسرع بابن طغج ، إلى لقاء ربه فأعلن كافور ولاية ابنه العرش وأقام نفسه مقام الوصي عليه يدبر الأمور ويسوس الدولة ، ومات الملك الطفل بعد بلوغ سن الرشد بقليل ، فانفرد كافور بالأمر وظل يحكم مصر ثلاثا وعشرين عاما (٣٣٤ - ٣٥٧) ، وكان اسم أبي الطيب وشاعريته قد ذاعا في أرجاء العالم العربي إذ ذاك ، ثم علم كافور أن الثرى قد جف بين الشاعر وسيف الدولة ففاوضه ليتوجه إلى بلاطه فتم له ما أراد ، ولقد ترك أبو الطيب لنا صورة رائعة لنفسيته العميقة الثائرة حين فارق سيف الدولة في قصيدة يقول فيها الرواة إن أبا الطيب نظمها لما بلغه وهو في مصر أنه نعى في مجلس سيف الدولة ، وهي قصيدة رائعة فيها عتاب مرير وهجاء ثائر لسيف الدولة وأبياتها كلها موجهة إليه ، وتعريض به كما يقول العكبري (٤/٢٢٦) ولعل فيها سمات من الألم العنيف تجاه الحوادث التي حالت بين الشاعر والوفاء لصديقه الأمير ، فهو يقول فيها إنه لا يصون العرض جاره

ولا يدر على مرعاه اللبن وانه ينقم على من نال رفده ، والغريب لايجازيه إلا مللا ، والمحب لا يجازيه إلافتورا ، وانه اضطر إلى هذه الهجرة تضحية براحته وطمأنينته فى سبيل كرامته وعزته ، وان ذكريات الصداقة بين الشاعر والأمير قد أخذت تتلاشى من مخيلته ، وانه يعيش فى طور جديد من التجربة لكافور ومطلع هذه القصيدة :

بم التعلل ، لا أهل ولا وطن ولا نديم ولا كأس ولا سكن
أريد من زمنى ذا أن يبلغنى ما ليس يبلغه من نفسه الزمن

ومنها :

يا من نعيت على بعد بمجلسه كل بما زعم الناعون مرتهن
كم قد قتلت وكم قد مت عندكم ثم انتفضت فزال القبر والكفن
رأيتكم لا يصون العرض جاركم ولا يدر على مرعاكم اللبن
جزاء كل قريب منكم ملل وحظ كل محب منكم ضغن
وتغضبون على من نال رفدكم حتى يعاقبه التنغيص والملل
إنى أصاحب حلمى وهو بى كرم ولا أصاحب حلمى وهو بى جبن
ولا أقيم على مال أذل به ولا ألذ بما عرضى به درن
سهرت بعد رحيلى وحشة لكم ثم استمر مريرى وارعوى الوسن
وإن بليت بود مثل ودكم فإننى بفراق مثله قمن

وسام الشاعر طموحه آلام هذه التجربة الجديدة التى عصى فى الدخول فى غمارها آراء أصدقائه ومشيريه ، كما صنع كافور فى تقريب الشاعر مخالفا رأى وزيره ابن الفرات

وأبلج يعصى باختصاصى مشيره عصيت بقصديه مشيرى ولومى

ولم تكن هذه الهجرة الجديدة فى سبيل مال بل كانت فى سبيل الملك والدولة كما يقول الشاعر نفسه فى كافور :

قالوا هجرت إليه الغيث قلت لهم إلى غيوث يديه والشآبيب
إلى الذى تهب الدولات راحته ولا يمن على آثار موهوب

وأخذ الشاعر يدعو الأمير إلى تحقيق آماله فهو وإن كان شاعرا إلا أنه قد خلق للسياسة والملك :

فارم بى ما أردت منى فإنى أسد القلب آدمى الرواء
وفؤادى من الملوك وإن كان لسانى يرى من الشعراء

وانتظر الشاعر فى الوطن الجديد وعد كافور انتظار المستبطىء المترقب .

أبا المسك أرجو منك نصراً على العدا وآمل عزاً يخضب البيض بالدم
ويوماً يغيظ الحاسدين وحالة أقيم الشقا فيها مقام التنعم

وألح عليه يطالبه عاجل وعده فالعمر يضيق عن طول الانتظار :

ولو كنت أدرى كم حياتى قسمتها وصيرت ثلثيها انتظارك فاعلم
ولكن ما يمضى من العمر فائت فجد لى بحظ البادر المتغنم

ويتأخر عن الشاعر وعد الأمير فلا تهن آماله :

وإن تأخر عنى بعض موعده فما تأخر آمالى ولا تهن

وطال مطال كافور لأنه كان يحذر على نفسه وعرشه من أبى الطيب وكانت الوشايات تملأصدره بالحقدعليه ، وكان وزيره ابن الفرات الذى ترفع أبو الطيب عن مدحه يحول بينه وبين البر بما وعد وكان وجود أبى الطيب فى بلاطه مجال الحديث ، ومنبع الوشايات من رجال الحاشية ورجال السياسة والأدب ، فأخذ أبو الطيب يعرض لكافور بأمانيه وآماله :

أبا المسك هل فى الكأس فضل أناله فإنى أغنى منذ حين وتطرب
إذا لم تنط بى ضيعة أو ولاية فجودك يكسونى وشغلك يسلب

ثم أخذ يلح فى الطلب والتعريض :

أرى لى بقربى منك عينا قريرة وإن كان قرباً بالبعاد يشاب
وهل نافعى أن ترفع الحجب بيننا ودون الذى أملت منك حجاب
وما أنا بالباغى على الحب رشوة ضعيف هوى يبغى عليه ثواب
وما شئت إلا أن أدل عواذلى على أن رأيى فى هواك صواب
وأعلم قوماً خالفونى فشرقوا وغربت انى قد ظفرت وخابوا

ثم أخذ يكرر الطلب والرجاء :

إذا اكتسب الناس المعالى فى الندى فإنك تعطى فى نداك المعاليا
وغير بعيد أن يزورك راجل فيرجع ملكا للعراقين(١) واليا

وعلم أبو الطيب بالوشايات ، فطلب من كافور أن يتخذه والياً ولو على سبيل التجربة والاختبار :

فكن فى اصطناعى محسناً كمجرب يبن لك تقريب الجواد وشده
إذا كنت فى شك من السيف فابله فإما تنفيه وإما تعده

---

(١) الكوفة والبصرة .

وأعلن اليه رغبته فى السلطان لاحاجته إلى المال :

وما رغبتى فى عسجد أستفيده ولكنه فى مفخر أستجده

وأنه سيحمده على مايفعل حمداً يفوق كل حمد :

يجود به من يفضح الجود جوده ويحمده من يفضح الحمد حمده

ولكنه فقد الأمل وعز عليه الرجاء :

أقمت فى أرض مصر فلا ورائى تخب بى المطى ولا أمامى

قليل عائدى سقم فراشى كثير حاسدى صعب مرامى

وما صعوبة مرامه إلا لما يطلبه من الملك والامارة كما يقول شارح ديوانه (العكبرى) ٤/١٤٥ ، فأخذ ابوالطيب يسخر بكافور ويتهكم به سخرية الممعن فى الاغراب حينا بمدحه بسواد لونه مع علمه أن ذكر السواد على مسامع كافور أمر من الموت - كما قال الوحيدى(١) - زاعماً أنه لون المسك :

وبمسك يكنى به ليس بالمسك ولكنه أريج الثناء

وأن بياض الجلد خير منه بياض الفؤاد :

إنما الجلد ملبس وابيضاض النفس خير من ابيضاض القباء

وحينما يبالغ فى التهكم والاستخفاف :

وما طربى أنى رأيتك بدعة لقد كنت أرجو أن أراك فأطرب

حتى قال ابن جنى لصديقه الشاعر لم تزد على أن جعلته قردا (٦٥ صبح) ، وفى هذه القصيدة بيت بلغ مبلغ الاعجاز فى التهكم والسخرية :

وأظلم أهل الظلم من بات حاسدا لمن بات فى نعمائه يتقلب

يريد أن كافور يحسده ظلما وعدوانا على مايتقلب فيه من نعمة هى من يد كافور ولكنه أخفى غرضه بصياغة البيت صياغة فنية رائعة ذات معان كثيرة ، وهكذا تقرأ له فى كافور :

ولله سر فى علاك وإنما كلام العدا ضرب من الهذيان

وساءت علاقة أبى الطيب بكافور فوضعت عليه رقابة شديدة دقيقة استطاع المتنبى أن يفلت منها هارباً يوم عرفة عام ٣٥٠ هـ بعد أن يئس من الحياة ومن مجد الفن واتخاذه وسيلة لمجد الحكم والسلطان :

حتى رجعت وأقلامى قوائل لى المجد للسيف ليس المجد للقلم

---

(١) ٤٦ صبح

ونظم الشاعر فى رحيله قصيدته :

عيد .بأية حال عــدت ياعيد ... بما مضى أم لأمر فيك تجديد ؟

التى وسم بها وبسواها من قصائده كافورا بميسم الذلة والهوان إلى الأبد .

وأكفر يا كافور حين تلوح لى ... ففارقت مذ فارقتك الشرك والكفرا

عودة إلى الكوفة :

ويمم الشاعر وجهه نحو الكوفة فأقام بها حيناً تردد خلاله على بغداد وسواها من مدن العراق ، تسومه نفسه الكبيرة عذاب العبقرية :

وإذا كانت النفوس كبارا ... تعبت فى مرادها الأجسام

ويطارده دهره فى سبيل العظمة وحيداً غريبا :

أهم بشىء والليالى كأنها ... تطاردنى عن كونه وأطارده

وحيد من الخلان فى كل بلدة ... إذا عظم المطلوب قل المساعد

يسائله كثير من الناس فى عجب عن غاياته البعيدة التى لا تنتهى الى غاية :

يقولون ما أنت فى كل بلدة ... وما تبتغى؟ما أبتغى جل أن يسمى

وعاش كذلك قريبا من ثلاث سنوات فى هدنة بينه وبين نفسه يعدها لعظائم الأمور .

فى بغداد :

وأخيراً قذف به طموحه الى بغداد مرة أخرى عام ٣٥٣ هـ ففاوضه رجالاتها كالصابى الكاتب والمهلبى الوزير وسواهم على أن يتوجهم بثنائه فاعتذر وانتظر معز الدولة الملك والخليفة العباسى أن يعيش أبو الطيب فى ظلالهم أو يشيد بدولتهم ولكنه لم يفعل ، وأثار وجود المتنبى فى بغداد مشكلات سياسية وأدبية ، فأغرى به رجالات الدولة بعض أدباء بغداد كالحاتمى وبعض الشعراء كالحجاج وابن سكرة والحسن ابن لنكك البصرى وسواهم ، وعقدت مناظرة أدبية بين الحاتمى الاديب والمتنبى الشاعر ، دونها الحاتمى بعد حين (١) ، وهجاه شعراء بغداد والبصرة حتى قال فيه بعض الشعراء :

أى فضل لشاعر يطلب الفضـ ... ـل من الناس بكرة وعشيا ؟

عاش حينا يبيع بالكوفة الماء ... وحينا يبيع ماء المحيا

(١) راجع المناظرة الحاتمية فى ٢/٢٣٢ ابن خلكان ، ٧١-٨٠ صبح ٦/٥٥٦ ، ياقوت ، ٢/١١٤ النثر الفنى

في إيران :

ولكن طموح المتنبي كان يشغله عن هذه الترهات ، فتوجه إلى إيران ميمماوجهه شطر عضد الدولة بشيراز ، وطمع الصاحب ابن عباد في زيارته بأصفهان وكتب اليه يرحب بقدومه ويعلن استعداده لمشاطرته جميع ماله فأبى أن يسير شعره في شاب كالصاحب ، فكان ذلك باعثا على عداوة ابن عباد له ونقده إياه (١) ، وعلى حمله الأدباء والكتاب كأبي هلال العسكري وأبي بكر الخوارزمي ، على ثلبه ومهاجمته بسلاح النقد .. وعرج الشاعر على ابن العميد بارجان في أوائل سنة ٣٥٤ هـ وأقام عنده يشيد به ويطلب منه الولايات لا الصلات :

إن لم تغثني خيله وسلاحه فمتى أقود إلى الأعادي عسكراً ؟

وبعد قليل شخص إلى شيراز حيث عضد الدولة ، لنفس غاياته لا رغبة في إشباع شهواته :

ول السلاطين من تولاها والجأ اليه تكن حدياها

يقول : كل أمر السلاطين إلى من يتولى أمرهم واعتمد عليه في آمالك تكن واحداً منهم كما يقول شارح ديوانه (٢) . وفي بلاط عضد الدولة وثقت صلات الأدب بينه وبين أبي على الفارسي وأبي الفتح ابن جنى ، وأغدق عليه عضد الدولة عطاءه ولكن الشاعر استأذن في الرحيل بعد قليل على أمل أن يعود :

لعل الله يجعله رحيلا يعين على الاقامة في ذراكا

مصرعه :

وودع الشاعر الملك ، وسار ، وفي طريقه إلى بغداد لقى أبو الطيب حتفه على يد فاتك ابن أبي جهل في رمضان عام ٣٥٤ ، وكان يحنق على المتنبي لهجائه ابن أخته ضبة كما يقولون ، وأرى أنه كان مدفوعا مع ذلك بيد السياسة الحانقة على أبي الطيب .. وغربت العبقرية الطامحة ، وانطفأت شعلة القريض الساحر ، وفيض الشاعرية الثر ، وكما يقول صديقه ابن جنى في رثائه :

غاض القريض وأودت نضرة الأدب وصوحت بعد ري دوحة الكتب

وهذه هي قصة طموح المتنبي وتضحياته التي ملأت كل طور من أطوار حياته

---

(١) راجع الكشف عن مساوىء المتنبي للصاحب

(٢) ٤/٢٨٠ عكبرى

عظمة وخلوداً ، فأبو الطيب فى طفولته وفى شبابه المثقف المتطلع إلى مجد السياسة ، بعد أن ملأ جعبته من شتى ألوان الثقافة ، وفى رجواته حين شعر بالاخفاق ومرارة الفشل فيما قام به من محاولات كان يرجو من ورائها العز والجاه ، والامارة والملك ، فسعى إلى سيف الدولة ، ثم إلى كافور ، ثم إلى عضد الدولة . امله ينال فى ظلالهم ماينشده من مجد ومايطمح اليه من جاه . هو هو الطامح إلى أبعد حدود الطموح ، الساعى لعظيمات الأمور ، مهما كافه هذا السعى وذلك الطموح من تضحية وألم ، وهو الذى شقى بطموحه ، وسامته نفسه عذاب المجد وجحيم العبقرية ، فآب بعد طوافه بالفشل والحرمان .

تنبؤ المتنبى

أحقا أن أبا الطيب قد ادعى النبوة فاستحق هذا اللقب ؟ أم أنها فرية نبذه بها أعداؤه الحاسدون له الحاقدون عليه ؟ إن الكتاب والأدباء ليختلفون فى ذلك ويذهبون مذاهب شتى فى الاستنتاج والتعليل .

والحق الذى يمكن أن نستسيغه أنها نبوة أدبية ، وأن الناس لا يطلقون عليه ذلك إلا من باب التشبيه : تشبيه الرسالة الأدبية بالرسالة الدينية ، وأن أبا الطيب كان صاحب دعوة سياسية ، كان يطلب الملك ويمنى نفسه به ، ويعد العدة له ، ويطوف بالبوادى ويستجمع للوثبة . ومهما يكن من أمره ، فقد أراد أن يترك الشعر إلى السياسة فردته الأيام من السياسة إلى الشعر ، وهكذا يخطىء أبو الطيب من حيث يصيب القدر ، فما المجد السياسى الفانى إلى جانب مجده الأدبى الخالد .

هذا ما نقبله فى حق أبى الطيب ، أما ادعاؤه النبوة فلا نستطيع أن نتقبله فى يسر مهما قيل فى الظروف التى كانت تهيء لذلك فى عصره من كثرة الدعوات الدينية والسياسية ، وإلا فكيف كان أبو الطيب يأمن على نفسه من الناس وهو كثير الطواف والتردد عليهم ، وكيف يمكن أن يصح هذا عنه وهو المثقف الواسع الأمل النافذ البصيرة .

إننا نستبعد ذلك ونستعرض الأمور الآتية دليلا لرأينا :

١ ـ سئل المتنبى نفسه : على من تتنبأ ؟ فقال : على الشعراء فقيل له : إن لكل نبى معجزة فما معجزتك ؟ فقال : معجزتى هذا البيت :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوا له مامن صداقته بد(١)

وكان إذا سئل عن حقيقة هذا اللقب قال : هو من النبوة أى المرتفع من الأرض

(١) ٣٢ صبح

فهو يفسرها : حينا بما كان فى نفسه من كبرياء وعظمة واعتزاز بشخصيته ، وحينا بإعجاز فنه وسحر قريضه .

ب ـ وكذلك صديقه وتلميذه ابن جنى م سنة ٣٩٢ فقد قال فى تعليقه على بيت أبى الطيب :

أنا فى أمة تداركها الله غريب كصالح فى ثمود

« وبهذا البيت لقب المتنبى(١) ، فهو يرجعها إلى أن المتنبى كان يتشبه بالأنبياء ويردد ذلك فى شعره :

جـ ـ وكذلك رأى الثعالبى م ٤٢٩ هـ حيث يقول فى يتيمته : « ان المتنبى بلغ من كبر نفسه وبعد همته أن دعا إلى بيعته قوما من راثشى نبله وحين كاد يتم له أمر دعوته تأدى خبره إلى والى البلدة فأمر بحبسه(٢) ، ثم قال : « ويحكى أنه تنبأ فى جبال ، وفتن شرذمة بقوة أدبه وحسن كلامه(٣) » ، إلى أن يقول : « ومازال فى برد صباه إلى أن أخلق برد ثيابه ، يدور حب الولاية والرياسة فى رأسه ، ويظهر مايضمر من كامن وسواسه فى الخروج على السلطان والاستظهار بالشجعان والاستيلاء على بعض الأطراف ويستكثر من التصريح بذلك » (٣) . . وذلك فى ترجمة الثعالبى للمتنبى(٤) .

د ـ وكذلك رأى الواحدى م ٤٦٨ إذ يقول متبعا رأى ابن جنى فى شرحه لبيت المتنبى :

مامقامى بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود

وبهذا البيت لقب المتنبى لتشبيهه نفسه بعيسى فى هذا البيت وبصالح فى بيت آخر (٥) .

هـ ـ وكما رأى الشعراء المعاصرون لأبى الطيب ، فأبو القاسم المظفر الطبستى الشاعر يقول فى رثائه :

ما رأى الناس ثانى المتنبى أى ثان يرى لبكر الزمان
كان من نفسه الكبيرة فى جيـ ـش وفى الكبرياء ذا سلطان
هو فى شعره نبى ولكن ظهرت معجزاته فى المعانى

د ـ ورأى عبد الكريم النهشلى أن أبا الطيب إنما سمى متنبئا لعظمته ، وقال

---

(١) ١/٣٢٤ عكبرى
(٢) ١/٩٢ اليتيمة
(٣) ١/٩٣ المرجع
(٤) ٩٠ — ١/١٩٠ اليتيمة
(٥) ١/٣١٩ العكبرى

غيره : بل قال أنا أول من تنبأ بالشعر (١) .

ز ـ وقد عرض المعرى م٤٤٩ لنبوة المتنبي ، نقل الأساطير التي رددها في ذلك وأدلى برأيه فيها في أسلوب دقيق من أساليب المعرى التي خفي وجهها على كثير من الباحثين ، قال أبو العلاء :

« وما صح أن ذلك الرجل — المتنبي — حبس بالعراق ، فأما حبسه بالشام فشهور ، وحدث أنه كان إذا سئل عن حقيقة هذا اللقب قال هو من النبوة أي المرتفع من الأرض ، وكان قد طمع في شيء طمع فيه من هو دونه ، وإنما هي مقادير ، وقد دلت أشياء في ديوانه أنه كان متألها ، ومثل غيره من الناس متدلها ، فمن ذلك قوله :

تغرب لا مستعظما سوى نفسه ولا قابلا إلا لخالقه حكما

وإذا رجع إلى الحقائق فنطق اللسان لا ينبيء عن اعتقاد الإنسان ، لأن العالم مجبول على الكذب والنفاق ، ويحتمل أن يظهر الرجل القول تدينا ، وإنما يجعل ذلك تزينا (٢) »

وقد أخطأ العقاد في فهم رأي أبي العلاء حيث قرر في مطالعاته أن أبا العلاء وقف موقف الشاك المتردد في فهم ما نسب إلى المتنبي من دعوى النبوة ، وإذا كان هذا الحافظ الثقة القريب العهد بالمتنبي يشك ويتردد فغاية جهة الأدب والتاريخ أن يقفا هذا الموقف(٣) » ، والعقاد بعد ذلك لا يستبعد دعوى النبوة على المتنبي ولا يجدها غريبة منه ، لأن نشأة المتنبي ، وحالة عصره ، وشعره ، وترجمته ، كلها مما يوسع العذر للمشتبه ويوائم مقتضيات الدعوى التي نسبت إليه . فنشأته في الكوفة منبع الفتن وثورات القرامطة التي خالطها دعوات الاسماعيلية ، وسلوكه الذي يظهره صاحب مطامع دنيوية ، ونظره في كتب الفلاسفة ، واستعراضه بعض آرائهم ، وغيظ المتنبي ممن كان يذكر له دعوى النبوة ، ورغبته في دفن هذا الحديث ، من كل ذلك نرى أنه ليس غريبا عنه أن يطلب المجد من طريق الدين ، ولكن هل فعل الرجل ذلك فادعى النبوة ؟ هذا ما لا سبيل إلى البت فيه برأي قاطع ، ولكننا بين قولين : أرجحهما أنه فعل وادعى ، والمرجوح منهما أنه لقب ، على أنني أرجح الأول ترجيحا قويا حتى

---

(١) ١/٥٩ العمدة

(٢) ١٩و٢٠/٢ رسالة الغفران — كيلاني ، ٢٢و٢٣ صبيح

(٣) ١١٨ مطالعات

أكاد أرفض الاحتمال الثانى . هذا هو رأى العقاد(١) .

وإذا رجعنا إلى رأى أبى العلاء وجدناه يقرر :

١ — أن أبا الطيب لم يحبس بالعراق ، إنما كان حبسه بالشام والأمر بعيد عن النبوة ودعواها ، وهو أمر يتصل بطموحه إلى الملك والولاية .

٢ — أن فى شعر المتنبى ما يدل على نزعات دينية تناقض نزعة ادعاء النبوة .

٣ — وأبو العلاء يشك فى دلالة الأدب على حقيقة ما تجيش به النفس الانسانية من شك أو يقين .

ا — فأما أن حبسه كان بأسباب طموحه إلى الملك فهذا ما رأيناه من دراسة نفسية المتنبى وشعره وبسطنا فيه القول فى كلامنا على طموحه وما أبداه ثقات الباحثين

ب — وأما أن أبا الطيب لم يخامره شك فى العقيدة كما يدل على ذلك أشياء فى ديوانه فذلك ما اختلف فيه الباحثون اختلافا كثيرا . فكثير من النقاد شك فى عقيدة المتنبى ونقد أبياته البعيدة عن روح التقديس للعقيدة : كالصاحب(٢) وكالثعالبى(٣) والبديعى (٤) ، وكذلك رأى باحث معاصر أن المتنبى كان ضعيف العاطفة الدينية ، وأن فى شعره إشارات كثيرة تختلف وضوحا وخفاء تنم عن وهن العقيدة ، وضعف الايمان ، وشأنه فى ذلك شأن شكسبير ، وأن المتنبى آثر أن يسلك طريق الفن وحده ولئن كان نصيبه من الدين قليلا فلقد فاز من الفن بأعظم نصيب(٥) ، وكذلك ذهب العقاد فى مطالعاته فرأى أن نشأة المتنبى وحالة عصرة وبيئته وجملة ترجمته كلها دليل على ذلك (٦) ، وغير هؤلاء من الباحثين . وقد نعى القاضى الجرجانى م ٣٩٢ هـ فى وساطته على من أزرى بالمتنبى لأبيات وجدها فى شعره ، تدل على ضعف العقيدة ، وقرر أن الدين بمعزل عن الشعر ، وأن منزلة الشاعر الأدبية لا يبوئه إياها إلا خصائصه الفنية(٧) .. أما أبو العلاء فقد رأى أن المتنبى كان كغيره قوى العقيدة بعيد الايمان ، ورأى أن أبا العلاء كان مصيبا فيما يقول ، وأنه يجب أن نفرق بين شيئين : جنون العظمة والكبرياء فى نفس المتنبى ، وروح المتنبى الدينية ، وأن نرد إلى كل مصدر

---

(١) ١١٨ — ١٢٣ المرجع

(٢) ١٩ و ٢٠ رسالة الصاحب (٣) ١/١٤٢ اليتيمة

(٤) ٢٣١ و ٢٣٢ الصبح

(٥) ١٢٠٤ — ١٢٠٨ هلال أغسطس ١٩٣٥

(٦) ١١٩ مطالعات (٧) ٦١ الوساطة

منهما مظاهره الفنية والنفسية فى شعر المتنبى وأدبه . فالمتنبى شاعر طموح ، ساخط حينا وراض حينا آخر ، وهو يمثل فى شعره عواطف سخطه ورضاه ، فى ثورة وقوة وفى حرية واسعة فى التفكير وفى التعبير ، وفى مبالغة مغرقة فى الابتداع والخيال والتصوير ، وليس ما يأخذه عليه الباحثون عندى ضعفا فى إيمان الشاعر وعواطفه الدينية ، إنما هو جنون الطموح وحرية الفكر وإلهام الفن وثورة الحياة فى سخطها ورضاها وألمها وأملها . وأبو الطيب فى أعماق نفسه وقرارة فؤاده متدين كل التدين متأله غاية التأله ، وجنون الطموح والكبرياء يقترنان غالبا بروح قوية من الايمان فى نفس الرجل العظيم ، على أن ما أخذ على المتنبى فى هذه الناحية لم يدع أحدا من المنصفين إلى القول بأن أبا الطيب كان فى عقيدته وهن ، فإذا قال أبو الطيب فى معرض المدح :

مذل الأعزاء المعز وإن يحن به يتمهم فالموتم الجابر اليتم

له رحمة تحيى العظام وغضبة بها فضلة للجرم عن صاحب الجرم

فليس ذلك ضعفا فى إيمانه وإنما هو الاغراق فى التصوير يدفعه كبرياء العظمة فى نفس الشاعر . وإذا قال فى كافور :

ألا متى يورد الهندى هامته كيما تزول شكوك الناس والتهم

فإنه حجة يؤذى القلوب بها من دينه الدهر والتعطيل والقدم

فإنما هو هادم للمظاهر الاجتماعية التى يحملها الشاكون من جور القضاء وفوضى الحياة . وإذا استهان برجال لا يرون للدين قداسته كما يقول :

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ويستبيح دم الحجاج فى الحرم

فإنما هو غرور الكبرياء ، وثورة الغضب على من يعيثون فى الأرض فسادا تحت ستار واه من العقيدة . وإذا وقف من خلود الروح موقف الشاك :

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم إلا على شجب والخلف فى الشجب

فقيل تخلص نفس المرء سالمة وقيل تشرك جسم المرء فى العطب

ومن تفكر فى الدنيا ومهجته أقامه الفكر بين العجز والتعب

فليس من رقة دين ، بل من اعتقاد جازم بصعوبة الوصول إلى رأى حاسم فى هذه المشكلات العقلية والفلسفية ، وليس هناك من إيمان بمذاهب مادية فى قوله :

تبخل أيدينا بأرواحنا على زمان هن من كسبه

فهذه الأرواح من جوه وهذه الأجسام من تربه

بل هو ذهاب إلى أن الروح نفحة من السماء كما أن الجسد قطعة من الأرض ، فالروح داعية الخير ، والجسم باعث الشر والهوى ، واذا قال :

أبنى أبينا نحن أهل منازل أبداً غراب البين فيها ينعق

فليس ذلك لأنه تطالعه أشباح الفناء من كل واد ، وإنما هو إعراب عما يراه من لجاج الموت فى طلب البشر . وإذا قال :

تمتع من رقاد أو سهاد ولا تأمل كرا تحت الرجام
فإن لثالث الحالين معنى سوى معنى انتباهك والمنام

فذلك ليس إنكارا للموت ، ومن ذا الذى يشك فى الموت ، إنما هو تفاؤل بالسلامة من حماه ، وتفريق بين آلام المرض : فى الرقاد والسهاد ، وآلام الموت فى الضجعة الأخيرة وعند النفس الأخير . وليس سخرية بآدم ما يقول :

يقول بشعب بوان حصانى أعن هذا يسار إلى الطعان
أبوكم آدم سن المعاصى وعلمكم مفارقة الجنان

إنما هو إيمان بالشقاء المفروض على جبين الناس فرضا ، والذى لاقى أبو الطيب منه نصيبا مفروضا ، وإذا شبه نفسه بالأنبياء فى قوله :

ما مقامى بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود
أنا فى أمة تداركها الله غريب كصالح فى ثمود

فليس استهانة بمقامهم المعظم الكريم ، إنما هو بلوغه بنفسه — فى كبرياء — إلى أسمى الدرجات الروحية ، وكذلك ما كان فى قوله :

لو كان صادف رأس عازر سيفه فى يوم معركة لأعيا عيسى
أو كان لج البحر مثل جبينه ما انشق حتى جاز فيه موسى
أو كان للنيران ضوء جبينه عبدت فكان العالمون مجوسا

تناول لمعجزات الأنبياء بالتهوين ، إنما هو إغراق فى المدح والتعبير . وليس عدولا عن العقيدة مايقول ابن العميد :

لنا مذهب العباد فى ترك غيره وإتيانه نبغى الرغائب بالزهد
رجونا الذى يرجون فى كل جنة بأرجان حتى ما يئسنا من الخلد

إنما هو تصوير بالغ لما فى أرجان من مدنية وترف حتى كأنها جنة ، وكأن العيش فيها حياة فى دار الخلود . وإذا جعل أبو الطيب سلافة الرضاب أحلى من روحية التوحيد :

يترشفن من فمى رشفات هن فيه أحلى من التوحيد

أو جعل شرف من مدحه من العلويين فخرا لجده الأعلى الرسول (ص)

وأكبر آيات التهامى أنه أبوكم وأجدى مالكم من مناقب

أو رفع ممدوحه إلى المقام الأسمى :

تتقاصر الأوهام عن إدراكه مثل الذى الأفلاك فيه والدنا

أو رفعه إلى رتبة الرسالة :

لو كان علمك بالإله مقسما فى الناس ما بعث الإله رسولا

أو كان لفظك فيهم ما أنزل الـــقرآن والتوراة والإنجيلا

أو جعله أعظم من أن يؤتمن عليه جبريل الأمين :

لعظمت حتى لو تكون أمانة ما كان مؤتمنا بها جبرين

أو قال :

ونصفى الذى يكنى أبا الحسن الهوى ونرضى الذى يسمى الإله ولا يكنى

أو جعل الرعية عبادا للملوك :

أنلت عبادك ما أملوا أنالك ربك ما تأمل

أو جعل طاعة الممدوح كعبادة الله :

الناس كالعابدين آلهة وعبده كالموحد اللاها

فذلك كله لم يكن من ضعف عقيدته بل من شدة تأثر عواطفه الحساسة بحنان الأيدى الكريمة التى كانت تؤازره فى سبيل الوصول إلى ما كان يتمناه من فخار ومجد

وبعد فذلك تحليلنا لهذه الأبيات التى أخذت على المتنبى فى شعره ـــ مما رماه بها بعض النقاد بضعف العقيدة ـــ على ضوء نفسيته وعقليته واتجاهاته ونزعاته ، ولا يضيرنا بعد أن نقول إن أبا الطيب كان إسماعيليا من الإسماعيليين ، لقن آراء هذا المذهب فى الدين والاجتماع والسياسة ، ممن اتصل بهم من رجالاته وأبطاله فى الكوفة ، فآمن به ، واتخذه شعاره ، شأنه فى ذلك شأن ابن هانىء الأندلسى ، شاعر المعز لدين الله . والاسماعيليون يرون أن صفات الله عز وجل واقعة على الامام : فإذا قال ابن هانىء للمعز : « فاحكم فأنت الواحد القهار » فإن لأبى الطيب بذلك نظيرا وهو قوله لممدوحه « مذل الأعزاء المعز . . الخ » ولم لايكون أبو الطيب إسماعيليا ؟ والكوفة كانت من أهم بلاد دعوات الإسماعيليين ، وكانت أهم منبع للنشاط الاسماعيليين ، ذلك معقول ، وهو يفسر لنا ناحية أخرى من النواحى الغامضة

فى حياة أبى الطيب ، وهى عدم مدحه لأحد من الخلفاء العباسيين ، أفلا تكون اسماعيلية أبى الطيب وخصومتها السياسية للخلافة العباسية سببا من أسباب مقاطعة المتنبى لخلافة العباسيين والخلفاء العباسيين ، ذلك أمر غير بعيد .

ثم لنفرض فرضا آخر وهو أن أبا الطيب لم يكن إسماعيليا ، أفليس من المعقول بعد هذا أن يكون قد تأثر بنزعات الاسماعيليين الذين كانوا يعيشون معه فى محيطه الاجتماعى وبلدته الأولى الكوفة ؟ والاسماعيليون يرفعون إمامهم إلى أسمى درجات التقديس والتقدير ، ويخلعون عليه أوصاف الخالق العظيم ويرونه نور العالم ومصدر سعادته ، فليس بغريب أن يتأثر أبو الطيب بهذه النزعات وتلك الآراء التى كانت تزخر بها مجامع الكوفة ونواديها الثقافية والسياسية ، فظهرت تلك النزعات واضحة فى شعره

وبعد فخلاصة رأينا فى عقيدة أبى الطيب أنه كان قوى العاطفة الدينية ، أو ليس هو القائل عن نفسه ؟ :

تغرب لا مستعظما سوى نفسه ولا قابلا إلا لخالقه حكما

والواثق بالله الشديد الثقة حيث يقول :

فثب واثقا بالله وثبة ماجد يرى الموت فى الهيجا جنى النحل فى الفم

والذى يشيد ببطولة النصر ويجعله من هزيمة التوحيد للشرك :

ولست مليكا هازما لنظيره ولكنه التوحيد للشرك هازم

والذى يقول كما يروى عنه (١١٩ وساطة) :

لست الملوم ، أنا الملوم لأننى أنزلت آمالى بغير الخالق

والذى يقول :

ولعلى مؤمل بعض ما أبـــلغ باللطف من عزيز مجيد

إلى غير ذلك من الأبيات... ورددنا للأبيات السالفة الذكر فى وهن العقيدة إلى أحد أمور ثلاثة :

١ — أنها لم تكن تعبر عن وهن فى العقيدة ، بل عن جنون العظمة فى نفس أبى الطيب .

٢ — أو أن أبا الطيب كان إسماعيليا تبيح له عقيدته ما أباحته لابن هانىء .

٣ — أو أنه تأثر بنزعات الاسماعيليين فى تقديس أئمتهم تقديسا روحيا بعيد المدى ، فألف ذلك وظهر فى شعره واضحا جليا

جـ — وأما عدم ثقة أبى العلاء بدلالة الأدب على ما فى الضمير الانسانى من شك ويقين

فهو فى ذلك جد معذور ، فقد عاش فى عصر ضعف سياسى جرد النفوس المسلمة من فضائلها وحبب إليها كثيرا من الرذائل الاجتماعية الموبقة ، كالملق والرياء والنفاق والخداع والدهاء ، فحكم أبو العلاء على الأدب حكمه متأثرا بعصره وبيئته ، وإن كان لا يطرد فى الحكم على عصور القوة التى حررت فيها النفوس من وهن العبودية ومداجاة المجتمع والناس ، بل لا يمكن أن نطرح دلالة الأدب على الضمير الإنسانى فى أى عصر مهما بلغ من ضعف وهوان ، فالأدب مرآة الروح الانسانية تشف عما حجب عنا من غيوبها ، ومهما بالغ الأديب فى إخفاء عواطفه حتى لا تظهر صورتها فى أدبه فليس يمنعنا ذلك من أن نستدل بالآثار الضئيلة الخافتة على جوانب هذه الحياة الغامضة .

هذا هو تعليقنا على رأى أبى العلاء فى نبوة المتنبى ، ولا ننس بعد أن نذكر أن كل من أرخ للمتنبى ممن ذكروا أمر نبوته قد ذكروا الآراء الأخرى التى تصف المتنبى مدعيا للنبوة ، كابن خلكان(١) وسواه .

ثقافة المتنبى

وثقافة المتنبى العقلية والأدبية ثقافة واسعة ، وهى ثقافة عملية لا نظرية ، جعلها وسيلة إلى غاياته من المجد والسلطان ، فدراسته الطويلة فى صباه ، واختلافه إلى أعراب البادية فى الكوفة ، واختلاطه بهم فى الشام ، ولزومه مجالس العلم واللغة والأدب والفن ، وتردده الكثير على مكاتب الوراقين(٢) ، ودؤوبه على القراءة فى شبابه ورجولته وحتى فى أيام مجده مع سيف الدولة(٣) ، وإيثاره الكتب على كل شىء ، ثم اتصالاته برجالات الثقافة وزعماء النهضات العلمية والفكرية فى شتى أرجاء العالم الاسلامى ، ثم حدة ذكائه وخصب عقله ، ونشأته فى عصر ازدهرت الحياة الفكرية والأدبية فيه (القرن الرابع) .

كل ذلك جعل المتنبى ذا ثقافة فكرية وأدبية ولغوية بعيدة ، حتى تعجب أبو على الفارسى من إحاطته باللغة ، وشهد له بالتفوق فيها ، والإلمام بعلومها وغريبها(٤) ، وحتى كان شعره فوق آثاره الأدبية ثروة لغوية واسعة فى ألفاظه وأساليبه ، وفى إحيائه للغريب المهجور من الألفاظ ، وحتى أعجب بثقافته الأدبية وذوقه الشاعر وملاحظته الدقيقة فى النقد ، صديقه سيف الدولة ، وهو هو أدبا وشعرا ونقدا (راجع ٤٣ صبح) .. ولكن ثقافته العلمية فى البيان كانت ضعيفة حتى لقد أخذ عليه النقاد قوله :

---

(١) ١/٤٥ (٢) ٣ صبح (٣) ٥٠ صبح (٤) ٨٠ صبح

أمط عنك تشبيهى بما وكأنه　　فما أحد فوقى ولا أحد مثلى

وقالوا : إن مالا تكون للتشبيه ، أما ثقافته الفكرية فهى ثقافة رجل من خاصة رجال الفكر فى عصره ، يدل عليها عمق الثقافة العقلية فى شعره ، وكثرة تجديده وابتكاره فى أفكاره ومعانيه ، وروعة حكمه ، التى أرجعها الحاتمى إلى حكم أرسطو وآرائه فى فلسفة الحياة ، ونرجعها نحن إلى ثمرات التجربة للحياة ، وبعد غور فكر الشاعر ، وكثيرا ما تشابه آراء المفكرين والعبقريين كما يقول شكيب أرسلان(١) .

ولكن هل تأثر المتنبى فى ثقافته الفكرية بالفلسفة وعلومها ؟ ينفى بعض الباحثين ذلك كابن الأثير فى مثله السائر وسواه من الباحثين القدامى والمعاصرين ، ولكنى أرى أن المتنبى قد تأثر بثقافة الفلسفة لأنه عاصرها فى عصر النضوج الفكرى والعقلى الذى غمرت موجته الحياة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، وكانت كتب الفلسفة اليونانية المترجمة ، والاسلامية المؤلفة ، فى متناول يده فى كل مكان يحل فيه ، ولا شك أن المتنبى وقد اتصل بسيف الدولة سنة ٣٣٧ قد اتصل بالفارابى الفيلسوف م٣٣٩ ، واطلع على مؤلفاته وترجماته فى الفلسفة ، وكان الفارابى يقيم فى حلب تحت رعاية سيف الدولة. كما اتصل بسواه من رجال الفلسفة . وطموح المتنبى لابد قد حفزه إلى توسيع معارفه الثقافية والفكرية حتى حين خطا نحو الرجولة المكتملة ، فلم لا يطلع على الفلسفة وهى محور الثقافة الفكرية فى عصره ، ثم إن فى شعر المتنبى كثيرا من النظرات الفلسفية العميقة ، وأسلوبه أسلوب فكرى دقيق يتردد فيه أساليب المنطق ، وآراؤه نراها أبدا مقرونة بأسبابها وحججها ، على نمط لا تكاد تفرق بينه وبين أسلوب الفلاسفة فى التدليل ، فقوله :

إذا أتت الإساءة من لئيم　　ولم ألم المسىء فمن ألوم ؟

وقوله :

فطعم الموت فى أمر خطير　　كطعم الموت فى أمر حقير

وقوله :

إلف هذا الهواء أوقع فى الأنفس أن الحمام مر المذاق
والأسى قبل فرقة الروح عجز　　والأسى لا يكون بعد الفراق

وسوى هذا ، يتجلى كله فى أسلوب ليس بينه وبين أسلوب المنطق فرق كبير(٢) .

---

(١) ١١٨٩ الهلال أغسطس ١٩٣٥

(٢) راجع ١٢١و١٤٥و١٤٦ مطالعات

وإذا قرأنا أن المتنبي قرأ بعض كتب الفلسفة ، وسمع الحجاج فيها في مجالس الأمراء وبيآت الفلاسفة في شتى الأقطار التي أقام في فناء أمرائها وملوكها ، وتأثر بهذه النزعات العامة الفكرية والعقلية التي كانت تسود الثقافة في القرن الرابع ، وزادته خبرته بالحياة وتجاربه فيها سعة في آفاق تفكيره ؛ وأن ذلك كله أثر في عقليته الواعية وغير الواعية ، وأثر في ذهنه الخصب المنتج ، فظهرت آثار هذا كله في شعره : حكمة بعيدة الغور ، وأسلوبا دقيق التفكير ، وأفكارا عميقة المنزع ، وتعرضا لبعض المشكلات العقلية العامة التي كانت محور حجاج الفلسفة والفلاسفة في عصره ، حتى إن النقاد لكل ذلك سموه الشاعر الحكيم ، وأشركوا معه في ذلك أبا تمام ، من حيث خلعوا على البحترى لقب الشاعر المطبوع ، ثم أخذوا عليه بعد ذلك اتجاهه بالشعر إلى الفلسفة .

وبعد فكثيرا مانرى أبا الطيب يمدح رجالات العالم الإسلامي بأنهم كأرسطو فكرا وثقافة ، كما يقول في ابن العميد :

من مبلغ الأعراب أني بعدها شاهدت رسطاليس والاسكندرا
وسمعت بطليموس دارس كتبه متملكا متبديا متحضرا

وأثر هذه الثقافة الفكرية في نفس المتنبي لم تجعله على كل حال فيلسوفا لأنه لم يخلق للفلسفة ، إنما خلق للأدب والشعر ، ولكنه أفاد منها دقة نظر وعمق فكر وخصب عقل ، وكون له من ورائها مذاهب اجتماعية ترسم مناهج جديدة لعلاقة الفرد بالمجتمع لاتصلح أن نسميها مذاهب فلسفية . . أما الكلام في مصادر الحياة ومصائرها فقد عافه المتنبي ، وقد عالج في صباه فتح رتاجه كما يظهر من قصيدته الميمية التي نظمها في المكتب ، فأتعبه فتحه ثم مل هذا البحث الذي لاتسكن اليه نفسه ، أخذ - كما يقول الأستاذ العقاد - حينا بمذهب القائلين بأن الانسان ربيب هذه الأرض ، وربيب الزمن ، فهذه الأرواح من جوه ، وهذه الاجساد من تربه ، ثم رأى الناس مختلفين في خلود النفس فوقف منهم موقف الشك والحيرة :

فقيل تخلص نفس المرء سالمة وقيل تشرك جسم المرء في العطب

وماله ولهذا الشجب العقيم ؟ فزوى وجهه عن مباحث وراء الطبيعة ، ولم يكن له صبر على هذه النزعات والفلسفات التي تبحث فيما وراء الطبيعة ، إنما هو فيلسوف الحياة والمجتمع ، وأثر ثقافته الفكرية الواسعة إنما يظهر بوضوح في فلسفته الاجتماعيـــة .

فلسفة المتنبي الاجتماعية

والمتنبي شاعر ، ولكنه شاعر ذو رسالة ، وقل من كان كذلك من الشعراء ، وقد استمد رسالته من أمله وفشله ، وطموحه وإخفاقه .

ا ـ فنشأته فى الكوفة ورؤيته ثورات القرامطة فيها ، وكيف يستبد بملكها رجال لايستحقون شرف الحياة فضلا عن شرف الملك ، ذلك مما جعل أبا الطيب يعقد العزم على أن ينال منالهم طامحا رافعا رأسه إلى السماء .

ب ـ ودم أبي الطيب العربي وروحه العربية ونشأته فى بيآت عربية صميمة ، كل ذلك جعله فى نفسه وخلقه وفى شخصيته واتجاهاته وفى شعره وفنه مطبوعا على طابع عربي خطير الأثر فى حياته ، ولكن مجد العرب السياسى ونفوذهم الأدبي فى عصر المتنبي كان خاملا خافتا ، ففى بغداد وإيران النفوذ البويهي يعصف بمقومات الروح والمجد العربي ، وفى مصر العرش الإخشيدى تضع دعائمه من كرامة العرب الأدبية ، وفى البلاد الأخرى الملك عربى لكن الملك والنفوذ والدولة للعناصر الأجنبية ، وهكذا تغلغل النفوذ الأجنبي فى كل بلد ومكان كما يقول المتنبي فى معرض التهكم والسخرية أو الحمية والاشفاق :

سادات كل أناس من نفوسهم　　وسادة المسلمين الأعبد القزم

وتلك حال لافلاح معها للعرب :

إنما الناس بالملوك وما　　تفلح عرب ملوكها عجم

ودفع المتنبي طموحه وروحه ودمه إلى أن :

ا ـ يطلب الملك بالسيف والرمح فى بدء شبابه ، ثم بأدبه وفنه وشعره فى اتصاله بالملوك والأمراء فى بدء رجولته بعد ماأخفق فى ثورته ووسيلته الأولى ، فما هؤلاء الأعبد القزم الذين يحكمون العالم الاسلامى ؟ ماشأوهم وماشأنهم ؟ :

لا أدب عندهم ولا حسب　　ولا عهود لهم ولا ذمم

فى كل أرض وطئتها أمم　　ترعى بعبد كأنهم غنم

يستخشن الخز حين يلبسه　　وكان يبرى بظفره القلم

لقد كانوا هم شغل أبي الطيب الشاغل ، وهمه المقعد المقيم ، وجدير بهم أن يساموا سوء العذاب :

ألا ليست الحاجات إلا نفوسكم　　وليس لنا إلا السيوف وسائل

وهم أحق بضرب الرأس من الوثن :

ولا أعاشر من أملاكهم أحدا إلا أحق بضرب الرأس من وثن

لأنهم لا يستحقون من الملك إلا لفظه ، ولا من الإنسانية إلا اسمها :

أرانب غير أنهم ملوك مفتحة عيونهم نيام

وأبو الطيب يمقتهم ويتجنبهم فى بدء حياته :

وجنبنى قرب السلاطين مقتها وما يقتضينى جماجمها النسر

وأين هم من هذا الفتى العربى الطموح الأبى العزيز :

أيملك الملك والأسياف ظامئة والطير جائعة لحم على وضم

من لو رآنى ماء مات من ظمأ ولو مثلت له فى النوم لم ينم

ودعائم الملك الخلق والمال أو الطموح والإباء ، وقوة النضـــال مع قوة الصحة :

١ ـ لذلك ربى أبو الطيب نفسه على حب الفضائل النفسية والاجتماعية والإيمان بها والمبالغة فى تقديرها وتقديسها ، فترك لذاته وشهواته ومآرب الشباب :

وترى الفتوة والمروة والأبوة فى كل مليحة ضراتها

هن الثلاث المانعاتى لذتى فى خلوتى لا الخوف من تبعاتها

وصرف نفسه عن العذارى الغيد :

وغير فؤادى للغوانى رمية وغير بنانى للرخاخ ركاب

وزهد أولا فى حياة الأسرة حذارا من أن تشغله الأسرة عن كبار أمانيه التى كان فى شغل بها عن كل شىء :

شغلت قلبه حسان المعالى عن حسان الوجوه والأعجاز

ولئلا يلد نسلا ضعيفا خائرا :

فى الناس أمثلة يدور حياتها كمماتها ، ومماتها كحياتها

هبت النكاح حذار نسل مثله حتى وفرت على النساء بناتها

ولأن الدهر ليس أهلا لأن يشتاق فيه إلى النسل :

وما الدهر أهل أن تؤمل عنده حياة وأن يشتاق فيه إلى النسل

وعاش أبو الطيب فى الحياة وبقلبه منها ملالة :

بقلبى ـ وإن لم أرو منها ـ ملالة وبى عن غوانيها ـ وإن وصلت ـ صد

نعم وقف أبو الطيب أمام متع الحياة ولذاتها بين إقدام وإحجام ، فحينا يطلق لنفسه الحرية فى ما تريد من لذاذات :

دع النفس تأخذ قبل بينك وسعها فمفترق جاران دارهما العمر

ويقول :

انعم ولذ فللأمور أواخر أبدا إذا كانت لهن أوائل
ما دمت من أرب الحسان فإنما روق الشباب عليك ظل زائل

ثم ينظر إلى غاياته ومطامحه حينا آخر فيهجر اللذات سعيا إلى أكرم الغايات وطلبا للمجد المنشود :

وللخود منى ساعة ثم بيننا فلاة إلى غير اللقاء تجاب

وكيف لا يغلب المجد نفسه على شهواتها :

تلك النفوس الغالبات على العلا والمجد يغلبها على شهواتها

وليس المجد زقا وقينة ، إنما هو كفاح طويل فى سبيل العظمة والفخار :

ولا تحسبن المجد زقا وقينة فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتضريب أعناق الرجال وأن ترى لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركك فى الدنيا دويا كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر

فالمجد هو لذته الكبرى وأنشودته المكرورة وغايته من الحياة ، وأبو الطيب هو قبل كل شىء رب المعالى ، لا ترب الحسان وخدين الغوانى الصيد ، ولذلك لم يكن من الشعراء الغزلين كجميل وابن أبى ربيعة ، ولا من دعاة اللذة كبشار وأبى نواس إنما كان غزله صناعيا تقليديا لا يمت إلى نفسه بأوثق الأسباب ، وهو حريص على التجديد فيه والمبالغة فى شتى أخيلته ومعانيه ، وكثير من غزله تبدو عليه سمات التكلف والإغراق ، وإن بدت فيه أحيانا مظاهر الطبع والجمال كقوله :

إن الذين أقمت وارتحلوا أيامهم كديارهم دول
الحسن يرحل كلما رحلوا معهم وينزل كلما نزلوا

ويذكر أبو الطيب أن حبيباته إنما كنى بهن فى شعره عن رماحه وسيوفه الأثيرات عنده :

حسب كنى بالبيض عن مرهفاته وبالحسن فى أجسامهن عن الصقل
عدمت فؤادا لم تبت فيه فضلة لغير الثنايا الغر والحدق النجل

ومطامع أبى الطيب كانت تسعى به إلى الكمال الإنسانى المنشود ، وتقربه منه ، حتى كان الشاعر يرى نفسه مجموعة من الفضائل :

ما أبعد العيب والنقصان عن شرفى أنا الثريا وذان الشيب والهرم

وكان حريصا على الظهور بمظهر العزة والإباء والشمم والكرامة والوفاء وعلى

الصدق والصراحة وعلى شتى الفضائل والأخلاق ، وبالغ فى الاعتزاز بشخصيته ، حتى رأى نفسه كما يقول :

أنا الذى بين الإله به الأقدار والمرء حيثما جعله

ورأى كل رجل ـ مهما عظم ـ دونه :

أمط عنك تشبيهى بما وكأنه فما أحد فوقى ولا أحد مثلى

مفتخراً بعصاميته لا بأسرته :

لا بقومى شرفت بل شرفوا بى وبجدى سموت لا بجدودى

ويقول يرثى جدته :

ولو لم تكونى بنت أكرم والد لكان أباك الضخم كونك لى أما

كما بالغ فى الاعتزاز بشاعريته :

ما نال أهل الجاهلية كلهم شعرى ولاسمعت بسحرى بابل

وكان هذا الاعتزاز مثار وشايات طويلة بينه وبين من اتصل بهم من الملوك والأمراء ، وسببا من أسباب فشله فى إدراك ما كان يصبو إليه من غايات :

وقوة الخلق عند أبى الطيب هى فضيلة الخلق ، فما كان من الأخلاق قويا أو صادرا عن قوة فهو محمدة فاضلة ، وما كان منها ضعيفا أو صادرا عن ضعف فهو مذمة مرذولة ، كن حليما مع القدرة :

كل حلم أتى بغير اقتدار حجة لاجىء إليها اللئام

وكن حييا اذا لم يضع عليك الحياء غنيمتك :

فما ينفع الاسد الحياء من الطوى ولا تتقى حتى تكون ضواريا

وكن قانعا إذا وصلت إلى ما تريد من مجد :

ذكر الفتى عمره الثانى وحاجته ما فاته وفضول العيش أشغال

واحرص على المال :

ليس التعلل بالآمال من أربى ولا القناعة بالاقلال من شيمى

فلا مجد فى الدنيا لمن قل ماله ولا مال فى الدنيا لمن قل مجده

وأما المال فقد حرص أبو الطيب على جمعه وادخاره لأنه كما يقول وسيلة المجد ودعامة التوفيق فى الحياة ، وما أشقى الفقير الطموح :

وأبعد خلق الله من زاد همه وقصر عما تشتهى النفس وجده

فلا ينحلل فى المجد مالك كله فينحل مجد كان بالمال عقده

ودبره تدبير الذى المجد كفه   إذا حارب الأعداء والمال زنده
فلا خير فى مجد لمن قل ماله   ولا خير فى مال لمن قل مجده

٢ — وأما الصحة فرآها أبو الطيب وسيلة العيش وآلة الحياة :

وإذا الشيخ قال أف فما   مل الحياة وإنما الضعف ملا
آلة العيش صحـــة وشباب   فإذا وليا عن المرء ولى

٣ — وأما النضال فمهده به طويل فغاياته التى لاتنتهى عند حد والتى يصورها فى قوله :

يقولون ماأنت فى كل بلدة   وما تبتغى ؟ ماأبتغى جل أن يسمى

وقوله :

تحقر عندى همتى كل مطلب   ويقصر فى عينى المدى المتطاول

غايات تتطلب بذل تضحيات عظيمة ، ولا بد للمجد من ثمن :

تريدين إدراك المعالى رخيصة   ولابد دون الشهد من إبر النحل

والسيادة محفوفة بالمشقات من كل جانب وصفو الحياة من نصيب العاجزين الغافلين أو الحالمين المتحللين الذين ينعمون فى الشقاوة بجهلهم ويشقى كبار النفوس فى النعيم بعقولهم ؛ وقد بذل أبو الطيب هذه التضحيات راضياً مبتسما فعاش ماعاش ساعياً فى سبيل آماله بين الأقطار والأمصار :

لولا العلى لم تجب بى ماأجوب بها   وجناء حرف ولا جرداء قيدود

يؤجج قبس الأمل والظفر فى قلبه شعلة الإقدام :

فلا قضى حاجته طالب   فؤاده يخفق من رغبه

فتستوى عنده الحياة والهلاك :

ومن يبغ ما أبغى من المجد والعلا   تساوى المحايا عنده والمقاتل

ويستعذب فى سبيلها مرير العذاب مضنياً فى طلبها جسمه وصحته :

وإذا كانت النفوس كباراً   تعبت فى مرادها الأجسام

ب — وأخذ أبو الطيب يثير الروح العربية ويوقظها من سباتها العميق، فدعاها إلى فضائلها الأولى من الطموح والشمم والإباء ودعاها إلى التمرد من قيود الوهن والجبن والذلة والرياء ، فالذل موت وسقام :

واحتمال الأذى ورؤية جانيه   غذاء تضوى به الأجسام

ذل من يغبط الذليل بعيش رب عيش أخف منه الحمام
من يهن يسهل الهوان عليه ما لجـــرح بميت إيلام

ودعاها إلى أن تعتز بشخصيتها وعزتها :

عش عزيزاً أو مت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود

وإلى أن تؤمن بشخصيتها وتسعى لاسترداد حقها المسلوب ، فذلك سبيل المجد لمن يطلب المجد وطريق الحياة لمن يؤثر الحياة ، وكان ذلك أبرز دعوة فى رسالة المتنبى وكانت عاملا قوياً فى إيقاظ الروح العربى من ناحية وفى امتداد شهرة المتنبى ـ التى كانت من صنع القدر لاتغالب ولا تقهر كما قال رجل لابن العميد ـ فى كل مكان حل فيه عربى صميم من ناحية أخرى ؛ كما كانت سببا كبيراً فى فشله وإخفاقه كما سنذكره بعد قليل .

دعا أبو الطيب دعوته السياسية فى بادية الشام فأخفق ، فذهب إلى الدولة العربية التى أقامها بنو حمدان فى حلب يرضى بمجدها كرامته ويثلج بسلطانها فؤاده ، وأطال المكث مع سيف الدولة ، ولكن كرامته هو قد أهينت ، ولا حياة بدون كرامة ، فليرحل المتنبى ، وإلى من وفى أى اتجاه يسير ؟ ليرحل حيث يرى لآماله الظفر والتوفيق ، إلى بلاط كافور ، ولكن أحلامه لم تتحقق ، فالويل لكافور الذى لا ينتمى إلى العرب بشىء ، وبعدا له وهجرة من بلاطه إلى الكوفة وبغداد ؛ ولكن أبا الطيب لا حياة له فى بغداد لأن من فيها من الوزراء والعظماء لم يكن لهم مثل عزمه ولا همته وهم يريدون منه الثناء ، ولا ثناء حيث تجرح كرامته وعزته ، فليترك بغداد إلى بلاط عضد الدولة ، ولكن الروح العربية فى نفس المتنبى توقظه وتدعوه إلى الرحيل ، فليس عضد الدولة بالعربى الذى يشعر الشاعر أن مجده مجد له ولقوميته ، وبلاده بعيدة عن بلاد الضاد والعربى إن نزل بها فهو الغريب الوجه واليد واللسان :

ولكن الفتى العربى فيها غريب الوجه واليد واللسان

وهكذا عاش المتنبى مخفقا فى أمله ، غريباً فى أهله وفى وطنه ، يسير من فشل إلى فشل ، ومن إخفاق إلى إخفاق ، طلب من الدنيا أن تمطره مجداً وجاها فأمطرته مصائب وآلاما :

أظمتنى الدنيا فلما جئتها مستسقيا مطرت على مصائبا

وعركته الأيام حتى كأن الأحداث حليفته ، وكأنه كان لها نقيبا :

عرفت نوائب الحدثان حتى لو انتسبت لكنت لها نقيبا

وأخذ ينعى حظه من الحياة :

فمالى وللدنيا طلابى نجومها ومسعاى منها فى شدوق الأراقم؟

ورجع من ذلك كله بشيئين خطيرين كان لهما أكبر الأثر فى حياته ورسالته :
أولا : أورثه فشله سخطاً على الحياة ، ونقمة على المجتمع وتشاؤما بالناس حتى لو برز إليه الزمان شخصاً لقتله :

ولو برز الزمان إلى شخصاً لخضب شعر مفرقه حسامى

وامتلأ غيظاً من الأيام :

وغيظ على الأيام كالنار فى الحشا ولكنه غيظ الأسير على القد

ورأى الحياة كذباً وخداعاً :

ومن صحب الدنيا طويلا تقلبت على عينه حتى يرى صدقها كذباً

والزمان إن أحسن عادت لياليه فكدرت الاحسان :

ربما تحسن الصنيع لياليه ولكن تكدر الاحسانا

وليست آراؤه فيها إلا ثمرة التجربة الطويلة :

عرفت الليالى قبل ما صنعت بنا فلما دهتنى لم تزدنى بها علماً

ولقد كان حظ المتنبى سيئاً فى زمان ذهب لغيره خيره ، وبقى له شره :

أتى الزمان بنوه فى شبيبته فسرهم وأتيناه على الهرم

وذلك غير بعيد من الحياة فإنما :

تصفو الحياة لجاهل أو غافل عما مضى منها وما يتوقع
ولمن يغالط فى الحقائق نفسه ويسومها طلب المحال فتطمع
لحا الله ذى الدنيا مناخا لراكب فكل بعيد الهم فيها معذب
وما الجمع بين الماء والنار فى يدى بأصعب من أن أجمع الجد والفهما

وهل بعد إخلاف الدهر آماله من شىء ؟ .

لله حال أرجيها وتخلفنى وأقتضى كونها دهرى ويمطلنى

وليت القدر خلقه فى أمة غير أمته :

وقت يضيع وعمر ليت مدته فى غير أمته من سالف الأمم

وكذلك كان مع الناس ، فهو يحتقرهم ويذمهم ، ويرى أعلمهم فدماً :

أذم إلى هذا الزمان أهيله فأعلمهم فدم وأشرفهم وغد

ويراهم مفطورين على شتى الرذائل الاجتماعية من شر وخداع وبهتان ونفاق .

إذا ما الناس جربهم لبيب فإنى قد أكلتهمو وذاقا
فلم أر ودهم إلا خداعا ولم أر دينهم إلا نفاقا

ويقولون : العدالة ، وأين هى العدالة بين الناس :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لايظلم

كما يتشادقون بالصداقة ،والصداقة خداع وزور :

خليلك أنت لامن قلت خلى وإن كثر التجمل والكلام
ولما شمت ود الناس خبأ جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن أصطفيه لعلمى أنه بعض الأنام

وكثيراً ماتكون الصداقة سبب الشر للصديق :

ومن العداوة ماينالك نفعه ومن الصداقة مايضر ويؤلم

وكيف يمجد أبو الطيب الناس وهم مثيرو الشر فى الحياة :

كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء فى القناة سنانا

يتنافسون على الحياة :

إنما أنفس الأنيس سباع يتفارسن جهرة واغتيالا
من أطاق التماس شىء غلابا واغتصابا لم يلتمسه سؤالا

والحياة لاتستحق أن يتنافس عليها :

ومراد النفوس أصغر من أن نتعادى فيه وأن نتفانى

وأبو الطيب يترفع بنفسه عن أن ينسب إلى هؤلاء :

وما أنا بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام

وإذا كانت الدنيا بأسرها ليس فيها مكان يسر بأهله الجار المقيم :

أما فى هذه الدنيا مكان يسر بأهله الجار المقيم
تشابهت البهائم والعبدى علينا والموالى والصميم
وما أدرى أذا داء حديث أصاب الناس أم داء قديم ؟

فليضطرب فى الأرض ان فقد فى مكان منها عزته وكرامته :

فى سعة الخافقين مضطرب وفى بلاد عن أختها بدل

فلا صحبته مهجته إن استكانت إلى ظلم أو نامت على ذل :

فلا عبرت بى ساعة لاتعزنى ولا صحبتنى مهجة تقبل الظلما

ولم يقف أبو الطيب أمام سخطه على الحياة ونقمته على الناس موقف الحائر

المتردد بل مضى قدما إلى غاياته التي لم يتخل عنها داعيا : إلى احتقار الناس لأنهم مهما عظمت منزلتهم لا يستحقون الاجلال ، وإلى البطش بهم لأنهم لا يستحقون الرحمة والرحمة ليست فى قلوبهم :

ومن عرف الأيام معرفتى بها وبالناس روى رمحه غير راحم
فليس بمرحوم إذا ظفروا به ولا فى الردى الجارى عليهم بآثم

وإلى إحلال مبادىء القوة والعنف والقسوة محل العدالة والخلق والرحمة ، فذلك جدير بالناس وبالمجتمع ، وجعل الحق للقوة وحدها :

من أطاق التماس شىء غلابا واقتسارا لم يلتمسه سؤالا

وهذه هى سنة الحياة فى نظر المتنبى ، وهى حياة حرب يجب أن نخوضها فى سبيل القهر والعز والسيادة أو عملا بإرادة القوة كما يقول العصر الحديث ، وإذا كان داروين يرى أن أصل الفضائل هو إرادة الحياة ، ونيتشه يراها فى إرادة القوة فرأى المتنبى توفيق بين الرأيين :

أرى كلنا يبغى الحياة لنفسه حريصا عليها مستهاما بها صبا
فحب الجبان النفس أورده التقى وحب الشجاع النفس أورده الحربا

فكل إنسان إنما يحب حياته هو لا كل حياة ، فلا تناقض بين حب المرء حياته وحبه القوة فى بعض الأحيان(١) .

ثانيا : وكانت هذه الحياة العميقة الفكرة البعيدة الأمل الخصبة التجارب سببا فى نضوج ملكات المتنبى الفكرية حتى أصبح أبعد شعراء العربية منزع فكر وأعمقهم تجربة وحكمة وأصدقهم إفصاحا عن خبايا النفس البشرية ، وشدوا بثمرات التجارب الإنسانية التى فهمها المتنبى ووعاها وأحاط بها عن تجربة واقعية ، وأبو الطيب كان رجلا واقعيا فى ثقافته واتجاهاته العقلية والوجدانية ، ولكنه كان مضطربا فى حياته السياسية والاجتماعية ، يسير فى اتجاه غير الاتجاه الذى كان يسير فيه الناس ، ويدعو إلى آراء لا تتلاءم مع ما ألفه الناس ودرجت عليه المجتمعات ، ويتوسل إلى غاياته بوسائل تبعده عن الظفر والفوز ، فالمتنبى كما يقول العقاد «كان شريكا فى العظمة الدنيوية والأخلاق العملية لرجال عصره فى ما هو من باب الشعور والملاحظة ولم يكن شريكا فيها فى كل ما هو من باب الانجاز والتنفيذ ، كان يشعر شعور عظماء

(١) ١٦٥ - ١٧٣ مطالعات .

الرجال ولكنه لايتمم الأمور كما يتممونها ولا يسوس الحوادث كما يسوسونها، (١)

وقد أيقن أبو الطيب أن الشعر لايكفي وحده للوصول إلى ما يطمح إليه من أحلام فغمر نفسه في مجال الحياة السياسية لعله يظفر بتقدير السياسة له وخدمتها إياه، فقضى جل حياته في بلاط الملوك والأمراء، ولكنه لم يستطع أن يظفر بهذا التقدير وتلك المكافأة، لأن أبا الطيب لم يكن من رجال السياسة، وكانت روحه ونفسيته وأخلاقه ومناهجه العملية بعيدة عن دبلوماسية السياسة وخداعها، كان يؤمن بشخصيته ويجعلها فوق شخصية الملك أو الأمير، مما كان يغضب عليه الملك أو الأمير، ويريان فيه مغامرا سياسيا خطرا على عروشهم وكيانهم، وكان يحاول أن يتعالى على رجال الحاشية والسياسة والأدب والشعر، فنقموا عليه، وكان يتعصب للعرب والعربية تعصبا كبيرا لأن نفسه العربية لاتريد أن ترى شيئا في الحياة العربية لغير العرب، ولكن العالم الإسلامي في ذلك الحين كانت تدير أموره أيد غريبة عنه من أبناء الترك والفرس والروم وسواهم من العناصر القوية التي اندمجت في الدولة الإسلامية وتثقفت بثقافتها ونالت الحظوة والتقدير في قصور ملوكها، فنظرت هذه العناصر القوية إلى المتنبي بعين الحذر والخوف، والمتنبي الذي حلم في شبابه بتكوين دولة عربية صرفة في الشام يسوسها، والذي لم يكف عن طلب الحكم والولاية من كل أمير يتصل به، والذي دأب على التهكم بهذه العناصر الأجنبية، والسخرية بالملوك الذين لايمتون إلى الروح العربية بصلة، أفما يكون مصدر خطر على نفوذ هذه العناصر الكبيرة بدعواته الجريئة وتهكمه الساخر؟، لقد كان أبو الطيب بمزاجه وطبيعته أرستقراطيا إلى أبعد حدود الأرستقراطية، حتى احتقر أن يرضى بالحظ الجميل إذا ساواه فيه من هو دونه، ويأبى الصيد الشهي إذا اجتمعت عليه كرام الطير وبغاثها:

وشر ماقنصته راحتي قنص   شهب البزاة سواء فيه والرخم

وهو قد يؤثر الموت على حياة يشاركه فيها حساده:

وما موت بأبغض من حياة   أرى لهم معي فيها نصيبا

لذلك حورب أبو الطيب من كل عنصر وكل طبقة وفي كل بلاط، ولم يدعه هؤلاء ولا هؤلاء يظفر بما كان ينشده من آمال، ودعوه إلى أن يعيش مشردا في البلاد غريب الأهل والوطن، بل كان مصرعه بسبب منهم، ففتك فاتك به إنما كان مؤامرة سياسية دبرتها السياسة أولا ودفعتها الأغراض الشخصية أخيرا، فقضت على حياة هذا

---

(١) ١٢٦ و ١٢٧ مطالعات.

الشاعر العظيم ، ويؤيد ذلك ماذكره الصبح من أن المتنبى كان يستقل عطاء عضد الدولة بجانب عطاء سيف الدولة وأنه جهز إليه حين انصرف من بلاطه قوما من بنى ضبة فقتلوه (٩٩ و ١٠٠ الصبح) ونقله عنه العباسى فى معاهد التنصيص (١٠ و ١١ ج ٢) ، ولو أن المتنبى كان كسواه من الزعماء الذين يسعون إلى مجد أشخاصهم ويفنون شخصياتهم فى شخصية الملك أو الأمير لعقد على رأسه إكليل الظفر والفخار .

وظاهرة أخرى فى حياة أبى الطيب تستحق العجب والتساؤل ، فما بال أبى الطيب الكوفى يسعى فى شبابه إلى الشام ثم فى رجولته إلى مصر ولم يسع إلى بغداد ؟ وما باله يمدح الحمدانيين الأخشيديين وسواهم من الشخصيات البارزة فى العالم الإسلامى فى عصره ، ولم يمدح خلفاء بنى العباس ولا من اتصل بهم من الأمراء والوزراء والعظماء ، ورفض الأيدى الكثيرة التى مدت إليه فى بغداد بالرجاء ؟

أعتقد أن ذلك مبعثه المتنبى نفسه وما كان يتأجج به صدره من غيظ على العناصر الأجنبية التى استبدت بخلافة بنى العباس فى بغداد ، ومن عقيدة إسماعيلية تأثربها أو آمن بها ، فكره بسبب أيهما الخلافة العباسية وخلفاء بنى العباس ، ومن طموح إلى الملك فى بلاد بعيدة عن سيطرة بغداد وولاتها ، ولم تكن تلك الأقاليم إلا الشام ، حيث تتصارع فيه القوى السياسية بين بنى حمدان وبنى الأخشيد ، ثم حلب حيث الدولة والملك والرعية عربيو الدم والعقيدة واللسان ، ثم مصر حيث الملك ضعيف العنصر ضئيل الشخصية لا يغطى على الشاعر ولا يبعد عليه أن ينال فى دولته آماله ، ثم شيراز حيث يستريح من آلام الخصومة والحقد والمنافسة فى دولة يطمح أن ينال فى ظلالها غاياته ، وعلى كل حال فإن ذلك لم يمح من قلب الشاعر هذه الصلات الروحية التى يشعر بها كل مسلم نحو الخلافة العباسية فى بغداد مما ترى مظهره فى شعر الشاعر ، فهو حينا يمدح سيف الدولة بتبعيته لدولة الخلافة ويذكر أنه سيف من سيوفها :

وشركت دولة بنى هاشم فى سيفها   وشققت خيس الملك عن رئباله

ويكرر هذا المعنى فى قوله :

ياسيف دولة هاشم من رام أن   يلقى منالك رام غير مرام

يقول هو سيف دولة الخلافة وبه تصول على الأعداء كما يقول شارح ديوانه ، ويقول(١) :   قلد الله دولة سيفها أنت حساما بالمكرمات محلى

---

(١) ١٣ ج ٤ عكبرى .

وله فيه :

إن الخليفة لم يسمك سيفها ... حتى ابتلاك فكنت عين الصارم

وإذا تتوج كنت درة تاجه ... وإذا تختم كنت فص الخاتم

وحينا يذكر دولة الخلافة بالتقدير فيقول فى سيف الدولة :

إن الهمام الذى فخر الأنام به ... خير السيوف بكفى خيرة الدول

ثم ترى الشاعر حين عصفت بموطنه الكوفة ثورة القرامطة وأبادها داعي القائد إلى نفوذ دولة بنى العباس يمدحه بقصيدة من رائع شعره(١) ، فهل ينبىء ذلك عن حب المتنبي لتبعية الكوفة للخلافة العباسية ؟ وأيا ما كان فإن المتنبي لم يقم ببغداد حذارا على نفسه وعلى مكانته من عسف النقد ولدد الخصومة وبطش هذه العناصر الأجنبية الساخطة .

شاعرية أبى الطيب

تمهيـــد :

بلغ التراث الشعرى قبل عهد المتنبي وفى عصره مبلغا كبيرا من الحياة والقوة والابتداع ، فشدا بآمال الحياة وآلامها ، وترنم بالجمال الإنسانى فى شتى مظاهره ، ونطق بما يختلج فى قلوب الناس من عواطف هذبتها الحضارة ، ومشاعر أغرقها الترف والنعيم ، وعبر عما يتردد فى صدر المجتمع من رجاء وشكوى ، وما تطامح إليه الانسانية من مثل عليا فى الاجتماع والسياسة وسواهما من شتى نواحى الحياة

وتطور الشعر فى أسلوبه مثل ما تطور فى اتجاهاته ، فاتسع للتعبير عن جميع هذه الأفكار ، والدعوة إلى كل تلك المذاهب ، وغلبت على أساليبه الشعرية سمات الجمال والترف البيانى ، وأخذ يسير بعد عهد أبى تمام والبحترى فى سبيل النضج ، والقوة يغلب عليه الروح الشعرى المطبوع ، وتظهر فى أسلوبه القدرة على أداء الفكرة البعيدة مهما طالت واستعصت ، فى انسجام وتساوق . لا يشوبهما شائبة من التفكك أو الضعف أو الاستكراه .

وجمع أبو الطيب هذه الثروة الأدبية من الشعر فأوعى ، قرأ وحفظ ، وهزته طبيعته الشاعرة وفطرته الحساسة ، هزة الطبع الشاعر والعاطفة المبدعة والروح الوثاب ، فاجتمعت فى نفسه الشاعرة القادرة أسباب الشعر : من الذوق الأدبى البليغ

---

(١) ٢٨٩ - ٢٩٩ جـ ٣ المرجع .

والعاطفة الشعرية المتأججة ، والدراسة الأدبية العميقة لألوان الأدب وفنونه ، والنشأة الأدبية القوية بين رجال اللغة والأدب فى البادية ، وبين أئمة العربية وشيوخها ، فى مجالس العلم ونوادى الأدب ، ثم ذلكم الخيال الشاعر ، وهذا الطموح الوثاب ، كل ذلك فجر ينابيع الشاعرية فى صدره ، وأجرى جداول الشعر فى قلبه وعلى لسانه .

شعر أبى الطيب :

صاغ أبو الطيب شعره صياغة فنية تتجلى فيها روح القوة والحرية والحياة ، وقوة التعبير سمة من سمات شعر أبى الطيب تجدها فى ألفاظه وأساليبه ، كما تجدها فى معانيه وقد أفاضت روح القوة فى نفس الشاعر على شعره وفنه هذه السمة الواضحة ، وكذلك حرية التعبير من أهم خصائص المتنبى الفنية ، فقد كان مع إحاطته التامة باللغة وأساليبها يطلق نفسه وفنه من كل قيد لا يتلاءم مع شعوره وإلهامه الشعرى وذوقه الفنى الحساس ويختار من الصيغ اللفظية أو البيانية ما يوائم شعوره ، ويعبر عن عواطفه ، ويطرد مع روحه وشخصيته وأمانيه ، يرسل القصيدة إرسالا لا يبالى بنقد النقاد :

أنام ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

وهو فى ذلك نظير الفرزدق وأبى تمام اللذين كانا ينهجان هذا الأسلوب ، ولقد هب النقاد فى عصر المتنبى وبعد عصره يؤاخذونه على ما أسرف فيه من استكراه لفظ ، وتعقيد معنى ، وخروج على قواعد اللغة ، أو على الوزن الشعرى ، ومن استعماله الوحشى النابى ، وهبوطه أحيانا إلى مستوى الركاكة والسفسفة ، ومن إفراطه فى المبالغة والأغراق ، وخروجه على المنهج العربى ، وذلك ما أخذه عليه الثعالبى فى اليتيمة ، فقد لاحظ شدة التفاوت فى شعره وأنه يجمع بين البديع النادر والضعيف الساقط ، هذا إلى تعسفه فى اللغة والتراكيب وقبح المطالع أحيانا .. غير أن هذه الحرية كشفت لنا عن نفس الشاعر وآرائه وآماله فى أسلوبه ، ولم تستطع قيود البيان والشعر أن تحد من نزعاته ، وتقيد من حريته ، أو تخفى فى ثناياها اتجاهاته وأفكاره ، لا ولم تستطع هذه القيود أن تطمس روح الشاعر فى شعره أو تضعف شخصيته فى أسلوبه ، بل تستطيع أن تقرأ أية قصيدة من قصائده ، أو بيت من أبياته ، فسترى فيما تقرأ روح الشاعر تطل عليك ، وتتحدث إليك ، وتتناجى بآمالها وآلامها لديك ، فتهز من عواطفك ، وتدعك مؤمنا بما آمنت به من : نزوع إلى المثل العليا ، وثورة صاخبة على الحياة ، ثم تحفز همتك إلى السير فى النهج الذى يريده الشاعر الثائر الداعية

وفى شعر أبى الطيب تظهر سمة أخرى لها خطرها وأثرها ، فالشاعر لا يترك هذا

المذهب الفنى الذى رفع لواءه من قبل أبو تمام ، إذ يؤثر تجويد المعنى على تسهيل العبارة ، فهو من شعراء المعانى وشعره امتداد لمذهب أبى تمام الشعرى ، والخصائص الفنية البارزة تتجلى بوضوح فى شعر الشاعرين ، لاسيما فى روعة التعليل ، وسمو التخييل ، ودقة الطباق ، وجمال الجناس ، وسحر الاستعارة والكناية والتشبيه ، وبلاغة التقسيم والمقابلة والتفسير ، والتورية والتوجيه ، ونحو ذلك .

وهو كأبى تمام فى كثرة الحكم والأمثال حتى قيل : « أبو تمام والمتنبى حكيمان والشاعر البحترى » ، غير أن أبا الطيب كما قلنا خرج على أساليب العرب المعروفة فى اللغة والتراكيب فى بعض شعره ، وأطلق الشعر من بعض القيود التى قيده بها أبو تمام ، ومن ثم أطلق عليه زعيم الطريقة الابتداعية فى الشعر العربى لخروجه على هذه الأساليب وقلة كلفه بالقيود الصناعية .

على أن فى شعر المتنبى روح العمق والقوة التى لا تظهر على أسلوبه سمات التكلف ، وإن كان بيته يضيق أحيانا بمعناه فيعسر فهمه . ولقد سئل أبو الطيب عن صلته بأبى تمام فقال(١) :

« أولا يجوز للأديب أن يعرف شعر أبى تمام ، وهو أستاذ كل من قال الشعر » ويقول ابن الأثير : « إن أبا الطيب أراد أن يسلك مسلك أبى تمام فقصرت عنه خطاه ، ولم يعطه الشعر من قياده ما أعطاه ، وكان المتنبى ينشد بدائع أبى تمام ويروى جميع شعره » ، ولقد امتاز أبو الطيب كما أسلفنا بعمق الفكرة الشعرية ، ويقظة وبعد الخيال الأدبى ، الذى وعى التراث الشعرى للقدامى والمحدثين ، فهضمه وأخرجه أدبا حيا جديدا ، رائعاً فى فكرته وحكمته ، روعته فى مادته وصياغته ، قويا فى دعواته ومراميه ، قوته فى أسلوبه ومعانيه .

وبذلك الطبع وفى هذه الأساليب نظم أبو الطيب روائع فنه وإلهامه ، داعيا إلى حياة اجتماعية وقومية قوية ، تتحرر فيها نفوس بنى قومه من أغلال الذل والاستعباد ، وتتطلع إلى حياة العزة والكرامة ، لتسترد الروح العربية نفوذها ومجدها ، ويستعيد أبناء الشعوب العربية تراثهم المفقود ، ومجدهم المنشود .

وكان شعره مثالا رائعا للحياة القومية فى عصره ، وصورة بارزة للحياة الفكرية والأدبية ، ثم كان فيه تصوير للنزاع بين المثل العليا والحقائق الواقعية ، ونضال بين الألم والأمل ، وبين اليأس والرجاء والسخط والرضاء ، والحب والبغض ، وفيه

---

(١) ٨٠ صبح .

صورة زاهية لثورته النفسية المتشائمة ، ودعوته الاجتماعية النظرية الداعية إلى القوة والطموح التي دعى إليها « نتشه » في العصر الحديث ، ولقد حارب أبو الطيب الضعف الإنساني في جميع مظاهره كما حاربه « نتشه » ، ودعى إلى الثقة بالنفس والعمل للحياة بأقصى ما يمكن من قوة وإقدام كما دعى إليه « نتشه » . وأصل الفضائل جميعها عند الرجلين هو إرادة القوة والسعي إليها والظفر بها في شتى صورها وذلك هو السعادة المنشودة المرتجاة ، وبين آرائهما كثير من ألوان الاتفاق تراها في « مطالعات » للعقاد (١٥٧ - ١٦٣) . وشعر المتنبي يتحدث كثيرا عن منازع الحياة البشرية ويصف الطباع الإنسانية وصف المحيط بها الذي أكلها تجربة وبحثاً ، وقد امتاز شعره بسمو الحكمة الإنسانية ودقة تغلغلها في صميم الحياة وإدراكها لبواطن الأمور وتمشيها مع ثمرات التجربة والواقع .

وشعره فوق ذلك تصوير بارع لحياة الشاعر نفسه بما كان يختلج في صدره من طموح إلى المجد وثورة على نظم السياسة والاجتماع ، ودعوة إلى القضاء على مظاهر الضعف فيها بظبا السيف أو بشباة اليراع . . . وأبو الطيب رائع في رثائه كما هو رائع في مدحه وفخره وهجائه ووصفه وحكمته .

وعلى رثائه مسحة من الفلسفة الحائرة التي يستمدها الشاعر من ثقافته وحياته ، ويضمنها فلسفة الحياة والموت والفناء والخلود ، كما يودعها فلسفة الحزن والبكاء والصبر والعزاء ، ومدحه ليس تفانياً في شخصيات ممدوحيه ، إنما هو اعتزاز بشخصيته ونفسيته ، والشاعر يتخذه سلماً يصعد عليه إلى ذروة المجد والسلطان .

وتشيع في أعطاف هجائه روح التهكم والسخرية والإقذاع ، وفلسفة السخرية نشدها المتنبي في ثورات غضبه وسخطه فأجاد الحديث فيها في دقة وخفاء ، ولكنها عند ابن الرومي نزعة طبيعية في نفسه ظهرت في شعره ، فكان أبعد الشعراء منزعا في تصويرها ، وإبعاد مرماها ، وإصماء رقمها ، وترى روح السخرية عند المتنبي في أهاجيه لكافور ، وفي مدائحه التي كان يثني بها عليه وكان يطوي فيها المدح على الهجاء حذقاً منه بصنعة الشعر كما يقول ابن جني(١) ، ويمكننا أن نرجع روح الشاعرية عند المتنبي إلى بعد آماله ، وطول إخفاقه فيها ، وسخطه على الناس والحياة ، وإلى روح العظمة وشذوذ العبقرية في نفسه ، وإلى نهمه في الانتقام ممن يتعرض له بشر أو يحول بينه وبين غاياته ، وهي في وضوحها وغلبتها على شعره لا يعادلها إلا دعواته

(١) ٢٧٩ جـ ١ العكبري .

الساخطة وآراؤه المتشائمة الناقمة على الحياة والأحياء ، وأبو العلاء يستمد من أبي الطيب هذا الاتجاه ، وإن كان يخالفه في بواعثه وفي نتائجه . فسخط أبي العلاء وتشاؤمه يقوم على شعور وثيق ببعد الإنسانية عن حياتها المثلى ، أما تشاؤم أبي الطيب فراجع إلى إخفاقه في آماله ، وسخط أبي الطيب ينتهي به إلى خوض غمار الحياة دون مبالاة بالحياة ، وسخط أبي العلاء ينتهي به إلى الزهد فيها والانصراف عنها .

وقد كان هجاء أبي الطيب معولا هدم به صروح المجد التي أقامها من هجاهم ، فإذا هم صورة مشوهة هي سخرية الأجيال وحديث القرون .

ويبلغ وصفه مبلغ الروعة والقوة حين يصف به معارك القتال وحومات الوغى . وروح البطولة واضحة من قصائد المتنبي لاسيما في الفترة التي قضاها في بلاط سيف الدولة حيث الصراع الدائم والكفاح الطويل بين سيف الدولة وأعدائه .

وفخره حديث عن عصاميته واعتزاز بشخصيته وكرامته وتصوير لآماله وغاياته . وللمتنبي نسيب ولكنه متكلف مصنوع ضئيل في معانيه ، بعيد عن روح الغزل في أسلوبه ، لأنه لم يكن بين الغواني وقلب أبي الطيب صلة ، فهو طالب مجد وداعي قوة وشاعر سيف ورمح ورسول فضيلة ومثل ، فما له وللغواني والنسيب بين ? والنسيب إنما هو وحي الحب الصادق والروح الوادعة والعواطف المتيمة حين يقع القلب في أسر الهوى ، وما أبعد المتنبي عن ذلك ، وهل عرف الحب من يقول :

وما العشق إلا غرة وطماعة يعرض قلب نفسه فيصاب
وغير فؤادي للغواني رمية وغير بناني الرخاخ ركاب

وهو الذي يدعو على الغواني مثل هذا الدعاء الجاف :

أياخدد الله ورد الخدود وقد قدود الحسان القدود

وليس لنسيب المتنبي خطر في روحه ، إنما أثره في فنه وأسلوبه كقوله :

سقاك وحيانا بك الله إنما على العيش نور والخدود كمائمه

وقوله :

نزلنا عن الأكوار نمشي كرامة لمن بان عنه أن نلم به ركبا
نذم السحاب الغر في فعلها به ونعرض عنه كلما طلعت عتبا
ذكرت به وصلا كأن لم أفز به وعيشاً كأني كنت أقطعه وثبا

ونسيبه على العموم تقليدي بحت ، ولم يكن المتنبي ممن شغفوا بجمال الطبيعة وأسرارها ، ولا ممن تأصلت في نفوسهم روح المرح والفكاهة ، ولكنه جاد ، أقبل

بجملته على جهاد الحياة ، وشعره صورة لما يختلج فى النفوس المجاهـــدة من آمال . وروح الخيال عنده كما هو عند أبى العلاء ضعيف ، إذ كانا رجلا حقيقة وتفكير لا خيال وتصوير .

شهرته :

وشهرة المتنبى الأدبية الذائعة ترجع إلى خصائص فنه الأدبى كما ترجع إلى عوامل أخرى سياسية واجتماعية :

فحياة أبى الطيب فى قصور ملوك الشرق وأمرائه : الحمـــدانيين والاخشيديين والبويهيين ، وفى عواصم العالم الإسلامى إذ ذاك : حلب ودمشق ومصر والكوفة وبغداد وشيراز ، وتعرفه برجالاتها وزعماء النهضات الثقافية والفكرية والأدبية والاجتماعية والسياسية فيها مما أذاع فى العالم الإسلامى شهرته ، ثم هذه الخصومات العنيفة التى منى بها المتنبى فى كل بلد حل فيه ، وتضاؤل الشعراء عن مجاراته أو تحديه فى سحر القريض ، ثم ذلك التجاوب بين عواطفه وشتى العواطف الإنسانية ، وهذا التساوق بين آرائه وتجاربه وحكمة الحياة ، والتمازج بين مشاعره ومشاعر خاصة الأدباء والمفكرين ، وهذا السمو بنفسه وبالفن الذى يؤدى رسالته كل ذلك كان من عوامل إذاعة شهرته الخالدة .

وقد تأثر بشعره الكتاب والشعراء والأدباء فى عصره وبعد عصره ، فالصابى والصاحب وسواهما من الكتاب المعاصرين له اقتبسوا من شعره فى رسائلهم ، وكذلك نسج الشعراء على منواله وحاكوه فى شتى العصور ، لاسيما فى حركة الأحياء الأدبى فى العصر الحديث ، وعصبية شاعر كأبى العلاء له هى عصبية للفن والأدب قامت برغم امتداد الزمن وانتفاء المؤثرات بينهما .

المتنبى والنقد الأدبى

ولا نكاد نعد شاعراً اختلف الناس فى منزلته الأدبية ومكانته بين فحول الشعراء فى عهده وبعد عهده مثل المتنبى ، فقد افترق النقاد فيه فرقاً ثلاثاً :

فطائفة بالغت فى التعصب له ورفعته إلى منزلة كبيرة فى الأدب وعلى عرش القريض

وطائفة بالغت فى التحامل عليه والوضع من شأنه وشعره ، فوضعته فى مكانة دون مكانته ، ومنزلة دون منزلته لخصومة خاصة بينهم وبين الشاعر وحده ، أو لخصومة عامة بينهم وبين المحدثين جميعاً ، وأغلب هذه الخصومات نشأت بتأثير

عواطف شخصية ومنافسات أدبية وأغراض سياسية ، والقليل الأقل منها كان بريئا من الغايات لم تدفعه إلا يد النقد الأدبي النزيه .

وطائفة أخرى جعلت تعصبها للأدب ، لاله فعرضت ووازنت ونقدت وحكمت على ضوء العدالة الأدبية ، وكانت هذه الخصومات سببا فى كثرة الدراسات الأدبية التى تدور حول شعره ، وكان فيها ثروة كبيرة للنقد الأدبي خاصة والأدب والشعر والبيان عامة .

وحسبك أن المتنبي شرح شعره وعلق عليه وألف فى نقده وكتب عن شعره لحول الأدباء والنقاد والعلماء ، من المشرقيين والمستشرقين .. كتب عن المتنبي الثعالبي م ٤٢٩ فى الجزء الأول من اليتيمة كتابة فيها دراسة لحياته ونقد لشعره ، وترجم له ياقوت م ٦٢٦ هجرية(١) ، وابن خلكان م ٦٨١ هجرية(٢) ، وألف البديعي م ١٠٧٣ هجرية فى حياته وشعره كتابه « الصبح المنبى » ، وكذلك فعل كثير من كتاب الأدب فى العصر الحديث نخص منهم المرحوم السيد محمد توفيق البكرى فى كتابه « أخبار أبى الطيب المتنبى » ، « والمتنبى » للأستاذ جبرى ، و « مع المتنبى » فى جزأين للدكتور طه حسين ، و « ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام » للدكتور عبد الوهاب عزام ، و « المتنبى » للأستاذ محمود محمد شاكر ، وقد نشرته مجلة المقتطف فى عدد خاص ، ومجلة الهلال العدد العاشر عام ١٩٣٥ الخاص بالمتنبى ، وصحيفة دار العلوم ، ثم هذه الدراسة للمؤلف ، وكان العيد الألفى لذكرى أبى الطيب عام ١٩٣٥ هو المثير لهذه الدراسات ، فامتلأت الصحف والمجلات بالحديث عن حياته وشعره وظهرت المؤلفات الحافلة بالبحوث الأدبية فيه ، وفى « مطالعات » للعقاد و « حصاد الهشيم » للمازنى دراسة واسعة للمتنبي وفنه ، وقد شرح ديوانه شرح دراسة وتحليل ونقد ابن جنى م ٣٩٢ هجرية فى ثلاثة مجلدات ، وله كتاب فى « معانى أبياته » . ولابن فورجة : « التجنى فى الرد على ابن جنى » و « الفتح فى الرد على أبى الفتح » ، ورد على ابن جنى كذلك على بن عيسى الربعي المتوفى سنة ٤٢٥ هـ فى كتابه « التنبيه » ، وشرح ديوانه كذلك ابن الأفليلى م ٤٤١ هـ ، وأبو العلاء م ٤٤٩ فى كتابه « اللامع الغزيزى فى معجز أحمد » ، والواحدى م ٤٨١ هـ ، وعبد القاهر الجرجانى م ٤٧١ هـ ، والتبريزى م ٥٠٢ هـ ، والعكبرى م ٦١٦ هـ ، واليازجي والبرقوقى فى عصرنا الحديث .

---

(١) ٣٦٦ جـ ١ طبقات الأدباء

(٢) ٣٦ جـ ١ ابن خلكان .

ونقد شعره كثير من النقاد فى مختلف العصور ، فللصاحب م ٣٨٥ هـ فى نقد شعره رسالته « الكشف عن مساوى شعر المتنبى » ، وللخوارزمى م ٣٨٣ هـ كتاب مفقود(١) ، ولأبى الحسن الجرجانى م ٣٩٢ هـ كتابه الممتع « الوساطة بين المتنبى وخصومه » ، وللحاتمى م ٣٨٣ هـ « رسالته الحاتمية » وكتابه « جبهة الأدب » تحدث فى الأولى عن مناظرته للمتنبى ، وفى الآخر عن سرقاته من أرسطو(٢) ، ولمحمد بن وكيع المصرى الشاعر م ٣٩٣ هـ كتابه « المنصف » فصل فيه سرقات المتنبى(٣) ، وللعميدى كتابه « الأبانة » وقد نقل عنه البديعى كثيرا من نقده وناقشه(٤) ولابن حسنون المصرى كتابه « نزهة الأديب فى سرقات المتنبى من حبيب » ، وألف أديب آخر كتاب « المآخذ الكندية من المعانى الطائية » أى سرقات المتنبى من أبى تمام ، وغير ذلك من كتب النقد التى تدور حول شعر المتنبى »

وقد أبدى علماء الأدب فى شتى العصور رأيهم فى المتنبى وشعره كالشريف الرضى م ٤٠٥ هـ(٥) وابن رشيق م ٤٥٦ هـ فى «عمدته» وابن خلدون م ٨٠٨هـ فى «مقدمته» وابن الأثير م ٦٣٧ هـ فى «مثله السائر» وابن شرف القيروانى م ٤٦٠ هـ فى « مقامته عن الشعر »(٥) وسيف الدولة الحمدانى م ٣٥٦ هـ(٦) وابن العميد م ٣٦٠ هـ وأبو فراس الحمدانى م ٣٥٧ هـ(٧) وابن خالويه النحوى (٨) وسيبويه المصرى (٩) والحاتمى(١٠) . وقد عرض الكيلانى فى كتابه « صورة جديدة من الأدب العربى » مناظرة الحاتمى لأبى الطيب . وغير هؤلاء من الباحثين . ونقده كثير من الكتاب المحدثين ، وكثير من المستشرقين :

مثل : رايسكى ، دى ساسى ، بولين ، بركلمان ، نيكلسون ، هامر ، ديتريشى ، وكتب المستشرق الإنجليزى هندلى فى تاريخ حياة أبى الطيب بحوثاً قيمة نشرها فى القرن التاسع عشر .

ويطول بنا البحث لو أحصينا رأى كل ناقد وأديب ، من هؤلاء وغير هؤلاء

---

(١) ١٦١ صبح ، ٢٦١ جـ ٢ النثر الفنى .

(٢) ١١١ - ١١٩ جـ ٢ المرجع .

(٣) ١٥٨ و ١٦١ صبح

(٤) ١١٤ - ١٥٩ صبح .

(٥) ١٠٣ صبح .

(٦) ٤٣ صبح .

(٨) ٤٦ - ٤٨ صبح .

(٨) ٤٥ و ٩٠ - ١٠٣ صبح .

(٩) ٦٣ صبح .

(١٠) ٧١ - ٨٠ صبح ، ١٠٦ - ١٣٧ صور جديدة لكيلانى .

وبعد فهذا هو أبو الطيب المتنبي شاعر العربية فى حياته وشعره وشاعريته وحكمته .. وإلى هنا نمسك القلم ، محيين عبقرية ذلكم الشاعر العظيم .

فهرست الكتاب الخامس

الكتاب السادس :

قصص من الادب

مع أديب تونسى

من حظ الأدب العربى المعاصر أن يصدر كتاب « حصاد القلم » للأديب التونسى الموهوب « أبى القاسم محمد كرو » ، جامعا بين المقالة والقصة والبحث ، فى أسلوب بليغ منوع بين النثر والشعر المنثور ، وأغراض شتى تتردد بين الشعر والأدب والنقد والثقافة والاجتماع والوطنية .

والمؤلف يقدم كتابه إلى القراء فى تواضع جم ، وأدب كريم ، وشعور بليغ بالرسالة التى يحملها . . ويعرف القراء بكتابه فيذكر عنه أنه « آراء وخواطر ، قد يرضى عنها أناس ، وقد لا يرضى عنها آخرون ، ولكنها فى كلا الحالين لا تستهدف رضاهم ولا سخطهم ، بل تسعى إلى خدمة الحقيقة ، والتعبير عن مظاهرها الواقعية فى مناحى حياتنا المختلفة »(١) . . ويرى أن من واجب الكاتب « أن يبذل من دم قلبه ، وإكسير قلبه ، زكاة صالحة لوطنه ولأمته»(٢) .

ويمثل هذا الشعور بالمسئولية ، والإحساس بواجب الأديب نحو وطنه ، يمضى المؤلف فى فصول كتابه ، رائعا جليلا ، قوى التصوير والتعبير والتأثير ، سامى الأهداف والغايات ، هاتفا بالحرية والمجد لوطنه وأمته وللعرب فى كل مكان . . ينحو نحو الواقعية الحديثة فى أدبه وكتابته ، يعزز ذلك كله طبع أصيل ، وملكات قوية ، وشعور إنسانى ووطنى كريم ، وإيمان بحق شعبه فى الحرية والحياة العزيزة بين الأمم والشعوب .

والأستاذ أبو القاسم كرو يعرفه الأدباء والقراء فى البلاد العربية كافة ، كاتبا مخلصا ، وأديبا حرا ، ومؤلفا مجيدا فى مؤلفاته : « الشابى » ، و « كفاح وحب » و « مايس شهر الدموع » . . ولقد كانت مقالاته ودراساته وبحوثه خير تعريف

(١) ص ١٨ من الكتاب (٢) ص ١٩ من الكتاب

لأبناء البلاد العربية بتونس وأدبائها وشعرائها الماضين والمعاصرين ، بعد أن كان الأدب التونسى فى شبه عزلة عن العالم العربى فى مختلف أقطاره وأمصاره . . . وهو كذلك زميلنا فى عضوية رابطة الأدب الحديث بالقاهرة . . . ومن ثم كان فرحنا بظهور هذا الكتاب شديدا ، وتهنئتنا لمؤلفه مزدوجة ، وإنا لنرجو له التوفيق كل التوفيق فى خطواته الأدبية الرائعة الرائدة ، ولكتابه هذا الذيوع والعناية من القراء فى كل مكان . . .

حياة الأديب

كان الناس فى العصور القديمة يضربون بشقاء الأديب المثل ، وكانوا يعتبرون الأدب مهنة تجلب على صاحبها الحظ التعس ، وإذا أرادوا أن يقولوا عن إنسان إنه صار شقيا قالوا « أدركته حرفة الأدب » .

ويقول ابن بسام الشاعر القديم يرثى ابن المعتز الخليفة العباسى الشاعر حين مات مقتولا :

لله درك من ميت بمضيعة ناهيك فى العلم والآداب والحسب

ما فيه لو ولا ليت فتنقصه وإنما أدركته « حرفة الأدب »

وأول من ضرب المثل بحرفة الأديب هو المفكر العبقرى الخليل بن أحمد المتوفى فى أواخر القرن الثانى الهجرى ، حين شاهد شقاء الأدباء ، ورأى حظوظهم التعسة وحياتهم الشقية . وأمامنا فى تاريخنا الأدبى القديم ابن الرومى وأبو تمام وأبو العلاء المعرى ومهيار والبهاء زهير وسواهم من الشعراء ، الذين أطالوا الحديث عن شقائهم فى المجتمع لحرفة الأدب التى كانت السبب فى هذا الشقاء . ويطيل الأديب الكبير أبو حيان التوحيدى فى كتبه الحديث عن شقاء الادباء فى حياتهم وعن شقائه هو بأدبه .

هـــذا فى قديم العصور التى كان الملوك والامراء والخلفاء والولاة يغدقون العطاء فيها على الأدباء والشعراء والكتاب والمؤلفين ، وكان الشاعر يقصد أميرا من الامراء يمدحه بقصيدة ، فيهتز الامير أريحية وكرما ، ويمنح الشاعر المكافآت السنية ، كما كان الادباء يقصدون بلاط الخلفاء والوزراء ويعيشون فى ظلالهم الوارفة متمتعين بالمال والثراء والنفوذ ، وكان المؤلفون كذلك يؤلفون الكتب ويهدونها لأمير من الامراء ، فما يلبث أن يهدى إليهم جليل المنح ، وجزيل العطاء . ولقد أثيب الجاحظ على كتابه « الحيوان » بعشرة آلاف دينار ، وأثيب الاصفهانى بآلاف

الدنانير على كتاب « الاغانى » من سيف الدولة الحمدانى ، وكان أبو تمام والمتنبى والبحترى وسواهم من الشعراء يعيشون فى بذخ ورفاهية ونعمة لامثيل لها ، من الأموال المتدفقة عليهم ، من كبار رجالات الدولة .

ونحن مع ذلك نعيب عليهم حياتهم على أموال الملوك والوزراء ، ونرى ذلك مما قيد حريتهم فى القول ، وأضعف شخصيتهم الفكرية والتوجيهية فى المجتمع

والآن فى العصور الحديثة لانزال نرى مظاهر الفاقة والشقاء التى يعيش فيها أدباؤنا وشعراؤنا ، دون ماعناية من المجتمع ، أو رعاية من الدولة ، فالأديب لا يستطيع الحياة بقلمه إلا إذا عمل فى مهنة ، أو كانت له وظيفة ، والصحافة ليست ميدانا لتشجيع الأدباء ، وإنما ينتفع بها كثير من العالة على الأدب ، والأدعياء للشعر ، ويدخل أبوابها المنافقون والمراءون ، ممن لهم فى كل يوم لون ، وعند كل كبير وجه ، وفى كل مقام كلام . والصحافة لاتهتم بتشجيع المواهب واستنباط ذوى الملكات ، ولا تبحث عن العبقريات المدفونة فتحييها ، والدولة لاتعمل على مساعدة الأديب فى حياته ورزقه ، وقد يحفى بعض الأدباء فى سبيل البحث عن عمل فلا يجد معينا ، وليست للأدباء جماعات تعاونية أو نقابة جماعية على نمط نقابة الصحفيين أو المحامين مثلا ، فترعى حقوقهم ، وتسهر على مساعدة المحتاج منهم ، وتوفر لكل أديب حياة كريمة ، وعونا ماليا مناسبا ، وخاصة لمن يقعد به المرض أو الشيخوخة ، ولا يزال المؤلفون حتى الآن يؤلفون دون أن يكون هناك قانون يحمى حقوقهم ، وقد بادرت حكومة الثورة بالتفكير فى وضع قانون جديد لهم نرجو أن يكون له أثره الحميد فى محيطنا الأدبى . . فضلا عن عدم اقبال المجتمع على العناية بالآثار الأدبية وتشجيعها ، وضعف ثقة الأديب بالجمهور الذى يعتقد أنه لم يعد حريصا على قراءة الأدب والشعر ، حرصه على قراءة القصص الماجنة والروايات الخليعة . .

هذا إلى غير ذلك من المؤثرات الكثيرة ، التى تجعل الأديب يرزح تحت أعبائها ، ويصطلى بنارها ، فهو يجهد نفسه فى الكتابة والتجديد والبحث والاثارة والامتاع ، ومع ذلك لايجد لأدبه قارئا ، ولا يجد صدى لمايكتبه فى أذهان الناس ، ولايحس بتجاوب بينه وبين الجماعات حتى المثقفة منها . . . مما يدل دلالة واضحة على انصراف الناس بتأثير مادية القرن العشرين عن الأدب ، وزهدهم فى الشعر ، فأى شقاء للأديب أكثر من هذا الشقاء ؟ .

وكثيرا مايحمل الأدباء كتبهم إلى دور النشر لتنشرها لهم ، فلا يجدون إلا صدا

وإعراضا ، بدعوى عدم رواج الكتب الأدبية في هذه الأيام . . والدولة كذلك لم تعد تفكر فى شراء كتب الأدب المختلفة لمكتبات مدارسها، تخفيفا عن ميزانيتها المرهقة التى تصرف على مصالح الشعب الأخرى .

ونحن لم ننس بعد ما لاقاه أمثال أبو شادى وزكى مبارك وإبراهيم ناجى وعبد الحميد الديب والشرنوبى واحمد محرم والهمشرى وسواهم من شقاء وظلم ، وشعراؤنا الممتازون مثل حسن كامل الصيرفى وكمال نشأت والفيتورى وحسن جاد والعتيل وسواهم لا يستطيعون اخراج دواوينهم الشعرية المخطوطة حتى اليوم .

فمن مبلغ الناس ان الأدب يحتضر اليوم ، وأننا مقبلون على عهد لا نكاد نجد فيه انسانا يؤمن بالأدب وبالشعر ، مادام الأديب يعيش شقيا بأدبه ، والشاعر يحيا تعسا بشعره ؟

ومن مبلغ الأدباء أنفسهم بأن عليهم أن يعيشوا على مهنة أخرى، فكل مهنة أفضل من حرفة الأدب عند الناس ؟ .

ومن مبلغ أبناء العروبة بأن مفاخر العروبة فى القديم والحديث لن تجد بعد زمن قريب من ينظمها أناشيد علوية ساحرة عذبة ؟ .

إن الأدب لا يجد له قارئا أو ناشرا أو صدى بين الناس ، فكيف نجد الناس بعد اليوم أديبا يحيا بالأدب وللأدب ؟

ندوة أدبية

هذه الندوة التى دعا إليها الشباب ، من أبناء كلية اللغة العربية ، ترتكز على دعامة ثابتة قوية ، من ماضى الأزهر الأدبى التليد ، وتسير بعزم متوثب مبشرة بكل طريف وجديد ، وتؤمن بالأدب رسالة ، وبالفن غاية ، وبالتجديد منهجا ، وبالدقة والعمق أسلوبا . . غايتها أن تضيف إلى تراثنا الأدبى القديم ، كنوزا من ابتداع الخيال ، والهام الشاعرية ، وعمق التجربة ، ووحدة القصيد ، ووسيلتها إلى ذلك الدرس والبحث ، والفهم والنقد ، والدعوة إلى خير مافى الأدب القديم من عناصر ، وإلى أجمل مافى الأدب الحديث والمعاصر من أصول ومذاهب ومقومات .

ولشباب الأزهر ماض عريق فى الأدب : شعره ونثره ، وجهود كريمة فى تغذية نهضتنا الأدبية بالمواهب ، وآثار طيبة محمودة فى المحافظة على تراثنا الأدبى القديم ،

واصطناعه نهجا فى البيان ، ومذهبا فى الأسلوب ، وطريقا إلى الوضوح والإفهام والإمتاع والجمال الفنى الخالص .

ونحن فى الأزهر نؤمن بمواهب الشباب ، كما نعتد بأذواق الشيوخ ، ونحاول جاهدين أن نصبغ إنتاجنا بصبغة ترضى أذواق أولئك الذين يهيمون غراما بالقديم ، وتوائم طموح هؤلاء الذين يذوبون هياما بالجديد ، فلم نعد نؤمن بالقديم وحده ولا نحن نؤمن بالجديد وحده ، وإنمـــا نؤمن بهما معا طريقا إلى التجديد الأدبى المنشود .

والأزهر الحديث يعتز بأعلامه فى الأدب والشعر والنقد ، ومنه خرج أفواج من العلماء والأدباء يبشرون برسالة الأدب والشعر فى الجامعة ودار العلوم وشتى المعاهد والجامعات المختلفة فى مصر والشرق العربى ، ونحن لاننسى محمد عبده وسعد زغلول وطه حسين والمنفلوطى والمرصفى والبشرى ومصطفى عبدالرازق والزيات ، كما لاننسى القاياتى وأحمد الزين ومحمـــد الأسمر وسـواهم من أعـلام الشعراء والأدباء والمفكرين .

ونذكر بالفخر : حسن جاد ، وإبراهيم نجا ، وإبراهيم بديوى ، والفيتورى، وتاج السر ، وعبد الحميد ربيع ، وسند كيلانى ، وغانم أبو النصر، وسواهم من الشعراء ، كما نذكر السيد صقر وفهمى عبد اللطيف وأحمـد الشرباصى وعبـد اللطيف بدر وطه حراز وسواهم من الأدباء .

والندوة تضم عدة شعراء ، ذوى مواهب فنية أصيلة ، وآخرين توشك مواهبهم أن تتفتح وتتحرر من إسار الصنعة والاحتذاء والتقليد . . ونحن نحتفى بهؤلاء وأولئك ونرى فى شعرهم صورة جميلة لإلهام الشباب وطموحه الأدبى . . والشعراء مـن الشباب قد تتعلق بشاعريتهم قصيدة ، أو أبيات من قصيدة ، يستدل منها على الأصالة الفنية ، والموهبة الشعرية المنطلقة فى أفق رحيب ، من الابتداع والخيال المشبوب والعاطفة الثائرة . . ولسنا نقدر أمثال الشابى والتيجانى بشير والديب والهمشرى والشرنوبى ، بكثرة مانظموا لأنهم ماتوا فى زهرة الشباب ، وإنما نخلد ذكرهم فى الشعر المعاصر لأن فى قصائدهم لمحات بارعة مشرقة بالأصالة والموهبة والحرية الفنية والشخصية المتميزة فى الشعر ونظمه .

ونحن نرحب بالندوة مظهرا قويا لفكرة أدبية جديدة ، وشخصية فنية متميزة ، ونرجو أن تستكمل يوما بعد يوم كل أسباب القوة والأصالة والجودة والابتداع .

فى الطريق إلى مجتمع جديد

يصدر هذا الكتاب الجديد والسفر النفيس من تراث المرحوم العالم الكبير مصطفى الصاوى الأستاذ بالأزهر الشريف ، فترجع بفكرنا قليلا إلى الوراء ، لنذكر هذا الرجل الجليل ، والعالم البحاثة ، والأديب الكاتب الشاعر الناقد ، والصحفى الممتاز اللبق ، والداعية إلى الاصلاح الاجتماعى والدينى فى مصر ، وصاحب مجلة البشير الذى اتخذها منبرا عاليا سمحيا كريما للجهر بدعوته ، وإذاعة آرائه ومبادئه ورسالته ، ولنذكر مع ذلك سماحة الرجل ونبله وكريم أخلاقه ، وشممه وإباءه وهمته ومروءته وشخصيته القوية ، ونفسه العالية الوثابة المتحفزة إلى الاصلاح ، ولنتذكر هذا الماضى الجميل العذب الذى كنا نسعد فيه برؤية الشيخ وزيارته ، والتمتع بحسن لقائه وطيب مجلسه وعفف أحاديثه ، والافادة من دقيق آرائه وأفكاره ونظراته الثاقبة إلى الحياة .

قضى الأستاذ حياته العلمية فى الأزهر طالبا ومدرسا ، وحمل أعباء الجهاد فى الحياة شابا قويا جريئا متحمسا ، ورجلا صلبا مثقفا حليما دقيق النظر إلى الأشياء ، وشيخا كهلا حكيما يضنيه المرض فيقعده ، وتدعوه فكرته إلى الاصلاح فتنهض به وبجسمه المجهود .

وفى صيف عام ١٩٤٩ ، فى منتصف شهر يونيو تقريبا ، طويت صحيفة هذه الحياة الحافلة ، ومات الرجل الذى كان يسخر من الحياة ، وانتهى بعد حافل بجلائل الأعمال ، وأودع الشيخ قبره بين ذكرى الذاكرين ، وبكاء المشيعين وعبراتهم الثرة الهاطلة .

من منا لايذكر الشيخ مدرسا قوى البديهة ألمعى الفكر ، متوقد الذهن ؟ ومن منا لايذكره كاتبا أديبا شاعرا ، يربى تلاميذه على حب الأدب والشغف به وتذوقه ؟ ومن لايذكر مجلته البشير وكيف كان الفقيد الكبير يسجل فيها دعوته وآراءه فى حماس المؤمن ولباقة الأديب ، وجمال أسلوب البليغ ، وكيف كانت مقالاته إرهاصا بما جد من أحداث الحياة ومن مشكلاتنا الاجتماعية فى الحرب العالمية الثانية وبعدها ؟ .

لقد ضمن الخلود لهذا العبقرى النابغة أن يحيا دائما فى الناس ذكراه ، وأن ينشر بيننا كل وقت صحيفة حياته الحافلة الرائعة .

وإنا فى مدلهم الأحداث والمشكلات الاجتماعية التى تحيط بنا لنترحم على هذا

الرجل الذى أنار الطريق وكان رائدا من رواد حركة الاصـــلاح الاجتماعى فى وطننا العزيز .

وإذا نسيه الناس فستردد اسمه وذكراه مؤلفاته القوية العميقة الممتعة ، التى منها هذا الكتاب وكتاب « الورد الصافى لطالب العروض والقوافى » وكتب أخرى فى علوم الدين والشريعة ، وستحيي دائما سيرته بيننا مقالاته الباقية المدوية التى كان يذيعها فى مجلته « البشير » ، وفي سواها من المجلات : كمجلة الأزهر الشريف ومجلة الشئون الاجتماعية .

عبرة وذكرى

كان أستاذنا الكبير المرحوم الشيخ محمد عبد الله أبو النجا من أفذاذ العلماء ، ومن أمثلهم خلقا ودينا وورعا ، وحجة ثبتا فى علوم الدين والعربية ، وكان يسيطر على قلوب تلامذته ومريديه : بأدبه الجم ، وتواضعه المأثور ، وصلاحه النادر ، وعفة لسانه ، وقوة بيانه ، وشجاعته فى قول الحق والجهر به . وكانت محاضراته ودروسه فى كلية اللغة — فى النحو والصرف وأصول الفقه والحديث والتفسير وغيرها — ميدانا لتسابق العقول ، وشحذ الملكات ، وتربية المواهب . ولا يزال إخوانه وأبناؤه فى العلم يذكرون ذلك بالوفاء والتقدير وعرفان الجميل . أية موهبة كان يضمها إهابه ، وأى دين كان ينطوى عليه قلبه ، وأى عقل كنا نعتز بالانصات لتفكيره والتأدب بأدبه ! !

كان رحمه الله من خيار أساتذته فى طلب العلم : والده المغفور له الشيخ عبد الله أبو النجا ، العالم الكبير ، والأزهرى النابغة ، الذى اختير للتدريس بمعهد الاسكندرية الدينى (١٩٠٨-١٩٢٢ م) ، وعند إنشاء أقسام التخصص فى الأزهر اختير لتدريس الفقه والأصول فيها .

وكان من خيار شيوخه فى الله : العارف بالله الشيخ منصور أبو هيكل ، وولده الشيخ عثمان الذى وصل عليهما أستاذنا ، والشيخ عبد الخالق الشبراوى الذى كان ملازما له ، والشيخ عبد الحميد إبراهيم . وسواهم من أولى الصلاح والولاية .. وكانت لذة البحث والعلم عند أستاذنا الكبير واضحة جلية فى جميع أطواره فكان يلازم والده فى غدواته وروحاته ، ويناقشه فى مسائل العلم والدين حتى حين تناول الطعام وفي

أوقات الراحة ، وكثيرا ما كانت تعقد الندوات العلمية فى منزل والده فيشترك فيها سامعا ومناقشا وموجها .

وقد ولد رحمه الله عام ١٨٩٧ فى قرية « كفر عيسى » من بلاد مركز فاقوس ، ونال العالمية بتفوق كبير عام ١٩٢٥ . ثم عين مدرسا فى المعهد الابتدائى الأزهرى ، ونقل للتدريس فى المعاهد الثانوية ، ثم مدرسا فى كلية اللغة العربية منذ إنشائها عام ١٩٣١ ، إلى أن نقل وكيلا لمعهد القاهرة ، فمفتشا بالأزهر ، فوكيلا لكلية اللغة العربية . وفى ٨ مارس عام ١٩٤٩ شعر الفقيد الكبير بتعب وإجهاد ، فاستراح فى منزله يومين استأثرت به بعدهما رحمة الله تعالى فى ١٠ مارس سنة ١٩٤٩ ، فخسرت كلية اللغة بوفاته علما من أعلامها ، وركنا من أقوى أركانها ، واذهلت لوعة المصاب فيه عقول تلامذته ومريديه وعارفى فضله .

ومن آثار أستاذنا الجليل ، كتاب فى علم أصول الفقه ، يجمع صواب الرأى ودقة الملاحظة وعمق الدراسة ، وقوة الملكة . وقد توليت نشره وطبعه عام ١٩٥٠ ، وانتفع به تلاميذ كثيرون . . فعليه رحمة الله .

تجنب هذه الأخطاء

كنا فى حياتنا الطويلة فى الأزهر لا نؤمن بأنفسنا ولا بعصرنا ونرى أننا شىء تافه بالنسبة إلى الماضى المجيد الزاخر بأسباب العظمة والفخار ، وكنا نقيس أنفسنا بمقياس ما نملك من أسباب مادية نستطيع بها التغلب على صعوبات الحياة . . ثم دارت الأيام دورتها ، وأخذنا نسترد ثقتنا بأنفسنا وبمقوماتنا وبعصرنا وبمجتمعنا الذى نعيش فيه ، وعلمتنا الحياة أن تلك الثقة لابد منها للرجل الذى يجب أن يؤدى رسالته وأن انعدامها معناه انعدام الأمل الذى يمدنا بالقوى الروحية والمعنوية فى معيشتنا ، فإياك أيها الأزهرى أن تفقد الثقة بنفسك أو تعدم الأمل فى الوجود الروحى لك .

وكنا ننظر إلى أنفسنا وإلى شيوخنا فنتضاءل ، نعتقد أنهم أوتوا علم الدين والدنيا ، وأننا لن نصل إلى ما وصلوا إليه أبدا ، ثم دارت الأيام دورتها ، ووجدنا أن أساتذتنا ما هم إلا كائن حى مثلنا ، فيهم النابغة والمتوسط والضعيف ، وأن إجلالهم وتوقيرهم شىء وادعاء أنهم معصومون شىء آخر ، أيها الأزهرى إياك أن ترفع أساتذتك إلى درجة التقديس ، فإن ذلك معناه أنك ستعيش لا تبتكر ولا تستطيع التجديد والمثابرة على الحياة العلمية الطويلة .

وكنا نعيش ننظر إلى المجتمع كله على أنه شر محض وإلى كل مستحدث على أنه بدعة . وإلى كل تجديد على أنه عبث ، وعلمتنا الأيام أن الأزهري يجب عليه أن يزن كل شيء بميزان سليم معقول ، وأن يعطى لكل شيء حقه ، وأن يتجنب سوء الظن والفهم للحياة والمجتمع والبيئة التي يعيش فيها ، وأن ذلك كله شيء لابد منه له .

وكنا ـ أدبا مع شيوخنا ـ لانجرؤ على أن نصارحهم بما فى نفوسنالهم ، وعلمتنا الأيام أن الإنسان لاغنى له عن أن يتعود الصراحة فى القول ، والشجاعة فى الرأى، والحرية فى التعبير عن أفكاره ، وأن ذلك بالنسبة له شيء ضرورى جداً . فإياك أيها الأزهرى أن تفرط فى الحرية التى وهبها الله لك .

رسالة الفكر فى الحياة

— ١ —

قرأت بإمعان فى مجلة « صوت البحرين » ما كتب حول « الاستعمار وهل يمكن أن يكون فكريا ؟ » ؟ وتبينت ـ كما تبين القراء ـ الدوافع النفسية للكتابة فى هذا الموضوع ، وكلها تهدف نحو هدف كريم واحد ، هو تلمس العزة والحرية والحضارة للشعوب العربية ، وتنبع من معين واحد هو الروح الوطنى الفياض ، الذى يجيش فى صدر كل عربى حر ، يؤمن ببلاده ومجدها ورفاهيتها .

ففي عدد ذى القعدة ١٣٧١ هـ من المجلة كتب الأستاذ « جبران مسوح » من بوانس أيرس . ينعى على الأحرار فى لبنان اشتراكهم فى الاحتفال بافتتاح مكتبة امريكية فى « زحلة » ، ويرى أنها قاعدة ثقافية للاستعمار الأمريكى . . وفى عدد جمادى الآخرة ١٣٧٢ هـ كتب الأستاذ وديع فلسطين كلمة رأى فيها أن افتتاح مكتبة فى مدينة ما نعمة ، وأن الثقافة إنسانية ، وإن اتخذت لوناً وطنياً ، وأن اللغة والآداب والعلوم تترفع عن حدود القومية أو العنصرية أو المذهبية الضيقة ، ومن ثم فالاستعمار لا يمكن أن يكون فكرياً ، لأن هناك تعارضاً جوهرياً بين رسالة الاستعمار ورسالة الفكر ، وقد أيده فى ذلك « أبو موسى » من كلمته فى عدد ذى الحجة ١٣٧٢ هـ ، من حيث عارضه فى ذلك « ابن الصحراء » بالظهران فى كلمته المنشورة فى عددى رجب وشعبان ١٣٧٢ هـ ، وروز غريب من لبنان فى كلمتها فى العدد نفسه ، و « حر » فى كلمته فى عدد شوال ١٣٧٢ هـ .

— ٢ —

وإنى مع احترامى لحرية الكاتب ورسالته الفكرية والوطنية ، وتقديرى للبواعث النبيلة التى تدفع الكاتب الحر فى بلادنا للنضال من أجل حرية الوطن وحرية الفكر معاً . . أحب أن أسجل رأيى فى الموضوع ، دون أن يكون تسجيل هذا الرأى تناولا لكاتب أو لرأى بالنقد والتعليق :

للشعوب العربية العزيزة ، إبان عهد قوتها ومجدها وعزتها ماض كريم فى احتضان الفكر والثقافة ، مهما اختلفت القوميات المناصرة لها ، والأجناس التى اشتركت فى تكوينها . . ففى أواخر الأمويين ، وفى عهد العباسيين أقبل العرب فى شغف زائد وظمأ شديد ، ينهلون من معين الثقافة الفارسية والهندية واليونانية والرومانية والسريانية القديمة ، فترجموا إلى العربية أصول هذه الثقافات ، واحتفوا بها ، وتتلمذوا عليها ، دون أن يعد أحد ذلك غزواً فكرياً تقوم به جماعات من الشعوب لحسابها الخاص ، على حساب العرب أنفسهم . . وفى العهد الحديث ذهبت جماعات من شباب الشرق تنهل من ينابيع الثقافات الحديثة فى أوربا وأمريكا ، فلم يؤول ذلك أحد بأنه غزو فكرى لبلادنا ، ثم افتتحت مصر وبعض البلاد العربية منذ أمد قريب معاهد للثقافة الإسلامية فى العواصم الكبرى فى أوربا وأمريكا ، فلم يقل إنسان إن ذلك غزو عربى للفكر الأوربى والأمريكى . . بل إن مراكز الثقافة العربية القديمة فى صقلية وإيطاليا والأندلس كانت تعج بالشباب من مختلف شعوب أوربا قبيل عصر النهضة بقليل ، ومع ذلك لم تدع الشعوب المختلفة حينذاك إلى عدم الإقبال عليها ، والتعليم فيها . . وإقبال المستشرقين فى الغرب على دراسة الثقافة العربية والإسلامية عمل جليل لم يغض من قيمته كاتب أوربى .

وإذا رجعنا إلى أصول الأديان السماوية وجدناها تدعو أول ما تدعو إلى الإخاء والتعاون والتعارف والمحبة ، وإلى اشتراك العقول والأفكار جميعاً فى العمل لخير الشعوب والأمم ، ومستقبل الانسانية جمعاء ، دون نظر إلى مذهب أو دين أو جنس أو أمة أو طائفة بعينها .

إن الثقافة إنسانية خالصة ، وإن من الظلم للثقافة أن نحشر فيها حشراً بعض مقالات تكتب للدعاية وحدها ، دون أن يكون فيها طابع البحث والثقافة والفكر ، ثم نحاول من أجل بعض مقالات تكتب للدعاية هدم صرح الثقافة ، أو التشكيك فى أثرها الانسانى ، وأهميتها بالنسبة لجميع الشعوب .

إن اليابان - منذ اتصلت بالثقافات الحديثة فى آخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين - كانت أظهر مثل فى استفادة الشرقى المتحضر من الثقافات العالمية الحاضرة الحديثة ، الاستفادة الروحية والمادية معاً . ونحن الشعوب العربية لم نبدأ عصر التحرير القومى فى بلادنا إلا بعد تيقظنا على جلجلة الثقافات الحديثة فى أوربا وأمريكا ، وبعد أن شاهدنا أثر هذه الثقافات فى الحضارة العالمية الراهنة .

— ٣ —

وأذكر أنه منذ نحو عشرة أعوام صحبت رجلا كبيراً إلى صحيفة كبرى فى القاهرة ، وكان هذا الرجل مثقفاً بثقافة انجليزية واسعة حيث عاش فى انجلترا نحو عشرة أعوام وكان معه مقالة وطنية ، وكانت المقالة ثورة وطنية مشتعلة ضد الاستعمار . . ولما قدمت الرجل إلى رئيس تحرير الصحيفة الكبرى أردفت كلامى ذلك بقولى : « إنى أتعجب ياسيدى من أن يكتب بهذا الأسلوب الوطنى المتطرف رجل درس فى الغرب وتثقف بثقافته ، فقال لى رئيس التحرير : « لا ياسيدى ، وهل حمل مشعل الوطنية والحرية إلا هؤلاء الذين تثقفوا فى أوربا ؟ » .

إن غزو الاستعمار ياسيدى القارىء لايمكن أن يحمله أو يساعده الفكر والثقافة بأية حال ، فالاستعمار كما قال الكاتب الصحفى الوطنى « وديع فلسطين » عنصرى النزعة والهدف ، والفكر والثقافة تسيطر عليهما النزعات الإنسانية الحرة ، التى تؤمن بأن من حق الناس جميعاً أن يعيشوا أخوة متحابين فى الأرض ، وأن يقتبس بعضهم من الآخرين العلم والحكمة .

وإن نساعد على تقدم شعوبنا وبلادنا العريقة ، إلا إذا أصابتها حمى الثقافة والفكر فأقبلت على القراءة والاطلاع ، وترجمت للعربية أصول الثقافات العالمية الراهنة ، وزاد انتشار المعرفة باللغات الحديثة زيادة كبيرة فى محيطنا العام .

إن المفكرين لايخافون أبداً من افتتاح مؤسسات ثقافية أوروبية أو أمريكية فى بلادنا . . فضلا عن افتتاح مكتبة ثقافية ، لاتحمل إلا طابعاً واحداً متميزاً هو طابع العلم والروح الانسانى الكريم الأهداف والنزعات . إننا نبغض الاستعمار ، ونبغض وسائله الكريهة فى محاربتنا ، ولكننا نقدس رسالة العلم والفكر والأدب ونسمو بها على كل اعتبار ، ونحب الحكمة ولا نبالى من أى طريق تصلنا ، واليد التى تمتد إلينا تحمل اللهب والنار غير اليد التى تحمل نور العلم والفكر وشعلة الثقافة المقدسة .

معانى الشاعر

المعانى التى يصوغها الشاعر الملهم هى المعانى الرفيعة المختارة ، والجديدة المبتكرة ، والخاصية الشريفة ، التى لا يصل إليها عقل العامة وإدراكهم . . فهو يستمدها من كل شىء فى الحياة ، وكل جديد فى الكون ، وكل مشهد من مشاهد الطبيعة ، ومنظر من مناظر الوجود . ، وفطنة الشاعر بالمعانى لا تقف عند حد ، ولا تنتهى إلى غاية. فهو ينظر إلى الأشياء نظرة خاصية ، ولا يكتفى بالنظرة العابرة وما توحى به من أفكار فى بادىء الرأى ، وإنما يدقق وينظر إلى التفاصيل ، ويأخذ ما يأخذ ، ويدع ما يدع فى دقة وحذر شديدين ، فإذا نظر إلى الزهرة لا يكتفى بملاحظة ألوانها وإدراك عبيرها ووصف جمالها ومتعة المحبين بها ، وإذا نظر إلى البحر الثائر لم يرض أن يقف عند وصف أمواجه العاتية ونهايته الغير المحدودة ، ومياهه التى ليست لها نهاية، وإنما يتحدث عن مصدره ومورده وأسرار الأبدية الخالدة التى أودعها الله فيه ، والحياة المتدفقة التى يفيض بها ، والشباب المتجدد الذى تنطوى عليه قطراته وترتدى به أمواهه ، والكون العجيب الذى يضم عليه جوانحه ، وعوامل الجاذبية والمد والجزر المستمرة المشاهدة على شطئانه ، إلى غير ذلك من دقائق فطنة الشاعر بالمعانى ، ومحاولته الكشف عن كل جديد فى الوجود .

والشعراء يختلفون فى فطنتهم الذهنية . وفى المعرض الذى يعرضون فيه معانيهم ، اختلافاً كثيراً ! ومرد كل ذلك إلى الصفات الفكرية ، والمواهب الذهنية عند الشاعر . فالشاعر لا بد أن يكون دقيق الإحساس ، مرهف الشعور ، سريع التذوق للجمال وأسراره ، قوى الإدراك لكل شىء ، وهذه هى فطنة الشاعر التى نعنيها ونقصدها ونطالب بها ، وهى تنافى السطحية والعامية والعموم فى الفكرة والإجمال فى المعنى ، وتنافى وقوف الشاعر عند المشاهد المرئية العامة يصفها وصفاً عادياً لا عمق فيه ولا متعة ولا دقة ولا شعور بالجمال .

وفطنة الشاعر يقويها فى ذهنه تجربته العميقة . وثقافته الواسعة ، وذكاؤه اللماح ، وخياله الخصب ، وتصوفه وتبتله فى موضوعه ، ووقوفه موقف المتأمل المفكر فى كل ما يناجيه به خاطره ، ويهجس فى خلده . . . ووحدة القصيدة عند الشاعر ، والتحام معانيها وأغراضها وأفكارها ما هى إلا أثر لهذه الفطنة الشعرية العميقة .

إن الشاعرية الأصيلة تحرم على نفسها التفاهة ، وتأبى إلا أن تكون مجددة مبتكرة ،

تضيف إلى ثروة الشعر فى المعانى جديداً ، وتبعث اليقظة الذهنية والوعى الفنى فى كل أثر أدبى جديد ، يحدثه الشاعر ويبتكره . والناقد مهمته أن يكشف عن الموهبة ويجليها ويشيد بها ، ويظهر أدعياء الشعر ومنتحليه ، ويزيف غرورهم ودعاواهم الكاذبة المموهة ، وشعورهم السطحى الذى لا أثر له فى الحياة ، ولا قيمة له فى التفكير .

وقد يولد الشاعر فى المعانى التى يعرفها ، ويحاول التجديد فى حواشيها وتفاصيلها ، فيضيف اليها زيادة تحسنها ، أو ينفى عنها عيبا يهجنها ، مما يدل على فطنته . . فالتوليد فى المعانى ، ومحاولة التفصيل فيها ، والاحتراس مما يهجنها ، مظهر من مظاهر فطنة الشاعر ودقة بصره ونفوذ فكره ، وهى ما نطالب به شعراءنا ، فلا يكفى أن يصوغوا معانيهم عامية مبتذلة سوقية ، ولا أن ينظروا إلى الاشياء نظرة سطحية لا تعمق فيها ، ولا أن يسوقوا من معانى القدماء ما يشاءون . . وإنما نريد أن يكون للشاعر موهبة فنية كاملة تفهم الحياة وتتذوقها وتعبر عنها فى إجادة .

وقد لا تكون المعانى الجديدة فى شعر الشاعر كثيرة ، وقد يستعير معانى السالفين ويحاول التجديد فى أسلوبها ، وإضافة شىء اليها ، والتفصيل فى بعض جوانبها ، فيأتى بما يعجب ويروق . . ولا ضير على الشاعر فى أن يستعير من معانى القدماء ما يشاء ، ويحذو حذوهم فى التعبير عما أعجبه من دقائق الآراء والأفكار ، متى كانت المعانى التى استعارها منهم ذائعة معروفة ، وعامية مشهورة . . أما المعانى الخاصية التى تنسب لشاعر بعينه وأنه مبتكرها والذى كشف عن غوامضها ، فإن أخذها واستعارتها سرقة شعرية ، لا يكون للشاعر معها فضل ، ولا يخصه النقاد من أجلها بمحمدة ، وقد تغفر له هـذه السرقة متى أضاف إلى المعنى مايحسنه ، أو إلى الأسلوب ما يزينه .

ونحن نطالب الشاعر بدقة الإدراك وعمق الشعور ، وصدق الإحساس ، وبساطة التعبير ، وتقديس المثل الكريمة ، ومشاركة الناس فى آلامهم وآمالهم ، مشاركة حية موجهة ، قوامها الإخلاص والجمال والحرية ، والهتاف بكل جميل وحق وخير فى الحياة .

فهرست الكتاب السادس

الكتاب السابع

قصص
من الشعر الحديث وحياة الشعراء المعاصرين

مدرسة أبولو وأثرها فى الشعر المعاصر

كان الشعر العربى المعاصر قبل « مدرسة أبولو » ينحو غالبا منحى التقليد والاحتذاء والمعارضة للشعر القديم ، لم تكن هناك فى مصر أو فى البلاد العربية ، مدرسة أدبية واضحة المناهج ، بينة الأهداف والرسالة ، وكان الشعراء يخضعون لشتى التيارات السياسية والاجتماعية والأدبية المختلفة ، فلم تكن لهم شخصية ظاهرة ، ولا وجود ذاتى مستقل ، ينظم الشاعر قصيدته متأثرا بالمناسبة الطارئة، والضرورة الوقتية الملحة ، يجعل موضوعها مدحا لكبير ، أو تهنئة لصديق ، أو رثاء لفقيد عزيز ، ويصوغ معانيها من المعانى المألوفة أو شبه المألوفة ، محتذيا القدماء فى معانيهم ، مقلدا للمجيدين من الشعراء فى خيالاتهم وتصويراتهم وأفكارهم . أما الأسلوب فهو عربى فى الأكثر ، لكنه لا يبين عن فطرة ، ولا ينطق عن طبع ، ولا يترجم عن عاطفة ، ولا يصور شيئا من خلجات نفس الشاعر ومشاعره وأحاسيسه ووجدانه ، هو أسلوب يغلب عليه الصنعة والتكلف والابتذال والتنافر فى أحيان كثيرة . وكان الشعراء فى مصر يرتمون فى أحضان السياسة كسباً لجاه ، أو حبا لمغنم ، أو طمعا فى عطف ، فإذا أقبل العيد مثلا لا يهتم الشاعر بوصف مشاعره ومشاعر الشعب وآلامه وآماله وطموحه إلى الحرية ، وتطلعه إلى الكرامة والعزة ، وإنما يصوغ القصيدة يهنىء فيها الأمير ، أو يتملق بها سدة العرش ، أو ينافق بها لدى سياسى كبير ، أو رئيس حزب من الأحزاب ، ولكل حزب شاعر أو شعراء لا تعرف سواهم ، مهما كانت مكانتهم الأدبية ، ومهما كانوا ناشئين فى الشعر أو غير ناشئين . وشاعر القصر يجلجل شعره فى كل مناسبة رسمية ، وينشد قصائده فى كل حفل يؤمه الأمير ، والصحف السياسية كانت قلما تنشر إلا لشاعر كبير ، ثم هى لا تنشر إلا ما ترضى عنه وتباركه السياسة . . وكانت العصبيات الأدبية فوق ذلك متعددة متخاصمة ، فلكل أديب كبير

أو شاعر خطير حلقة يجلس فيها أنصاره ومريدوه ومبايعوه بالإمارة ، لاينشدون إلا شعره ، ولا يرون معه أحدا سواه ، ولا يعترفون بفضل إلا له ، والويل لمن يهاجم عميدهم بنقد أو يمسه بكلمة سوء ، حينئذ تشرع الأقلام للهدم والتسفيه ، والذم والتشويه ، ولكيل السباب والرمى بالإثم والعيب . . وظل الجو الأدبى كذلك ، حتى ظهرت مدرسة أبولو فى أول عام ١٩٣٢ ، تبشر بمذهب أدبى جديد ، وتدعو الشعراء إلى الايمان برسالتها وأهدافها وغاياتها

وكان الفضل الأول فى ظهور هذه المدرسة الأدبية الجديدة راجعا إلى رائد من رواد التجديد فى أدبنا الحديث ، هو الشاعر الناقد الكاتب الدكتور زكى أبو شادى .

وأبو شادى شخصية متميزة فى الشعر المصرى ، وعلى الرغم من أنه طبيب متفوق فى الطب ، فقد عاش طول حياته للأدب يحمل فى يمناه مشعل التقدم والبناء والاصلاح والتجديد ، ويحمل فى قلبه رسالة الفن والشعر والأدب الرفيع ، وقد درس الطب فى انجلترا ، ولكنه كان متأثرا بنزعات أدبية عميقة ، غرسها فى نفسه حبه للأدب ، وتذوقه له ، ومواهبه فيه ، ونماها فى قلبه وعقله نشأته الأدبية الأولى ، بين أب اديب وأم شاعرة ، ثم أستاذية مطران له ، وتوجيهه إياه ، وتخرجه على يديه فى الشعر ، ثم اطلاعه على الآداب الغربية وتأثره بنزعاتها الحرة الرائدة ، هذا فضلا عن أن البيئة المصرية فى أوائل القرن العشرين كانت جد حفية بالأدب والشعر ، وكانت الآذان المرهفة أكثر إصغاء لنشيد الشاعر ، وأكبر إقبالا على قراءة آثار الشعراء ، مما لفت عقل الشاعر الناشىء ، ووجهه نحو الشعر منذ طفولته .

وفى أوائل الربع الثانى من القرن العشرين ، كان الشاعر أحمد زكى أبو شادى يفكر ، ويطيل التفكير ، فى حاضر الأدب والشعر ومستقبلهما فى مصر والشرق العربى ، كان حيثما التفت لايجد إلا رجعيية وجمودا وعجزا عن فهم حقيقة الأدب وروحه ، وإلا تقليدا فى الشعر لايحمل له معه خطرا ، ولا يدع له فى توجيه الحياة شأنا .

واندفع أبو شادى بحماسة الشباب ومضائه ، وبعقل الكهولة وتفكيرها . يؤلف الجماعات الأدبية ، للنهوض بالأدب والشعر ، وبعث روح الحياة والتجديد فيهما ، وكان مما أنشأ « جمعية أبولو » الشعرية المشهورة ، ذات الأثر البعيد فى مستقبل الشعر العربى المعاصر ، وحاملة لواء التجديد فيه على أوسع نطاق ، والداعية إلى مبادىء

خطيرة فى تاريخ الفكر الأدبى الحديث ، فى مصر والأقطار العربية على السواء .

وجمعية أبولو هى هيئة أدبية ، أعلن أبو شادى ميلادها فى سبتمبر ١٩٣٢ ، وجعل مركزها القاهرة ، وحصر أغراضها فيما يلى :

١ — السمو بالشعر العربى ، وتوجيه جهود الشعراء توجيها شريفا .

٢ — مناصرة النهضات الفنية فى عالم الشعر .

٣ — ترقية مستوى الشعراء أدبيا واجتماعيا وماديا ، والدفاع عن كرامتهم .

وكانت عضوية الجمعية مفتوحة فى جميع الأقطار العربية ، للشعراء خاصة وللأدباء ومحبى الأدب عامة ، ممن يهمهم تقدم أغراض الجمعية .

وتولى أبو شادى سكرتاريتها بصفة دائمة . وأنشأ مجلة لتكون لسانها الناطق ، سماها كذلك « مجلة أبولو » ، وقد صدر العدد الأول منها فى سبتمبر ١٩٣٢ ، وكان هو رئيس تحريرها . . وقد اختير الشاعر أحمد شوقى رئيسا للجمعية ، ورأس جلستها الأولى فى دار « كرمة ابن هانى » بالجيزة يوم الاثنين ١٠ اكتوبر ١٩٣٢ ، ولما استأثرت به رحمة الله فى فجر يوم الجمعة ١٤ أكتوبر من العام نفسه ، اجتمع الأعضاء فى يوم السبت ٢٢ أكتوبر ١٩٣٢ بمقر « رابطة الأدب الجديد » بالقاهرة ، واختاروا الشاعر خليل مطران رئيسا للجمعية ، وكان من أعضائها : أحمد محرم ، وحسن كامل الصيرفى ، والدكتور على العنانى ، وإبراهيم ناجى ، وأحمد الشايب ، ومحمود أبو الوفا ، وأحمد ضيف ، وعلى محمود طه ، ومحمود صادق ، وكامل كيلانى ، وسيد إبراهيم . . ثم انضم إليها الكثير من الشعراء والأدباء والنقاد ، وفى مقدمتهم مصطفى عبد اللطيف السحرتى ، ومختار الوكيل ، وصالح جودت ، وعبد العزيز عتيق ، وسواهم .

ويقول أبو شادى فى مطلع أول عدد من أعداد مجلة « أبولو » وقد صدر فى سبتمبر ١٩٣٢ : « لا يختلف اثنان فى أن الشعر العربى تسامى وانحط فى آن : تسامى بتأثره بنفحات الحضارة الراهنة ، ونزعاتها الانسانية ، وروحها الفنية ، وانحط بما أصاب معظم رجاله من الخصاصة ، التى ما كانت لتدركهم فى عصور الحفاوة بالأدب الخالص ، فتدلى الشعر معهم تبعا لعجزهم المادى ، وتبرمهم بالحياة ، وعزوفهم عن الانتاج الفنى ، الذى يطالبهم بالجهد والتدبر » . ويستمر أبو شادى

فى كلمته فيقول : « ونظرا للمنزلة السامية التى يحتلها الشعر بين فنون الادب ، ولما أصابه وأصاب رجاله من سوء الحال ، حينما الشعر من أجل مظاهر الفن ، وفى تدهوره إساءة للروح القومية . لم نتردد فى أن نخصه بهذه المجلة التى هى الاولى من نوعها فى العالم العربى . كما لم نتوان فى تأسيس هيئة مستقلة لخدمته هى جمعية أبولو ، وذلك حبا فى إحلاله مكانته السابقة الرفيعة . وتحقيقا للتآخى والتعاون المنشود بين الشعراء » . ثم يقول فى ختام كلمته : هذا هو عهدنا للشعر والشعراء ، وكما كانت الميثولوجيا الإغريقية تتغنى بألوهة « أبولو » رب الشمس والشعر والموسيقى والنبوة ، فنحن نتغنى فى حمى هذه الذكريات التى أصبحت عالميـة . بكل مايسمو بجمال الشعر العربى ، وبنفوس شعرائه . .

ويعلل أبو شادى سر اختيار هذا الاسم لمجلته بأنه الرغبة فى أن تحمل اسما فنيا عالميا يلائم صبغتها(١) .

وقد حيا شوقى المجـــلة بقصيدة عصماء ، نشرت فى صدر العدد الاول منها ، وجاء فيها :

أبولو مرحبا بك يا أبولو فإنك من عكاظ الشعر ظل

عكاظ وأنت للبلغاء سوق على جنباتها رحلوا وحلوا

عسى تأتيننا بمعلقات تروح على القديم بها ندل

لعل مواهبا خفيت وضاعت تذاع على يديك وتستغل

ومجلة أبولو كانت أول صحيفة عربية تقف نفسها على الشعر ، وتعمل على النهوض به ، والتجديد فيه ، وتهذيبه من التقليد والصناعة والابتذال ، وتحرير الشعراء من كل قيد لايقبله الذوق ، ومن كل تقليد تأباه شخصية الشاعر ومنزلته الفنية ومكانته فى عصره ومجتمعه .

وكانت مجلة أبولو تفسح صدرها للأدب والنقد والدراسات الأدبية ، وإن كانت مهمتها الأولى هى العناية بالشعر والشعراء المعاصرين . . فكانت تنشر الروائع : لشوقى ، ومطران ، وأحمد محرم ، ومصطفى صادق الرافعى ، وعباس محمود العقاد ، وإبراهيم ناجى ، وحسن كامل الصيرفى ، وزكى مبارك ، وخليل شيبوب ، وعلى محمود طه ، ومختار الوكيل ، وصالح جودت ، وأحمد نسيم ، والسيد حسن القاياتى ، ومحمد

(١) أبولو ـ عدد فبراير ١٩٣٣ ـ ص ٦٠٣ .

الأسمر ، وتوفيق البكرى ، ورمزى مفتاح ، ومصطفى عبد اللطيف السحرتى ، وسهير القلماوى ، وجميلة العلايلى ، والشاعر أحمد الزين (١٩٠٠ - ١٩٤٣) ، ومحمد عبد الغنى حسن ، ومحمود حسن اسماعيل ، والشاعر محمد عبد المعطى الهمشرى ، ومحمود غنيم ، ومحمود رمزى نظيم ، ومحمود أبو الوفا ، ومحمود عماد ، والشاعر عبد الحميد الديب ، ومحمد صادق عنبر ، وعبد العزيز عتيق ، ومحمد فريد عين شوكة ، ومحمد مصطفى الماحى ، وسيد قطب ، وبشر فارس ، وطاهر الطناحى ، وعبد اللطيف النشار ، وكامل كيلانى ، وعامر محمد بحيرى ، وعثمان حلمى ، وفخرى أبو السعود ، والعوضى الوكيل ، وطاهر أبو فاشا ، ومحمد زكى إبراهيم ، ومحمد عبد الغنى بخيت ، وحبيب عوض الفيومى ، وعلى باكثير ، ومصطفى الدباغ ، ومصطفى كامل الشناوى ، ومأمون الشناوى ، واسماعيل سرى الدهشان ، وزكى غازى ، ومحمد سعيد السحراوى ، ومحمد برهام ، ومحمد المهدى مصطفى ، ومحمد الهيياوى ، وسواهم

وقد أفسحت المجلة صدرها لشعراء السودان ، وفى مقدمتهم : عبد الله عبد الرحمن(١) ، ومحمد أحمد المحجوب ، وتوفيق أحمد البكرى ، وسواهم . . كما كانت تنشر لشعراء البلاد العربية ، وفى مقدمتهم : أبو القاسم الشابى ، ومحمد الحليوى ، الشاعران التونسيان ، وكذلك محمد مهدى الجواهرى وحسين الظريفى العراقيان ، وغيرهم من شعراء سوريا ولبنان وشتى الأقطار العربية .

ومن شعراء المهجر الذين كانت تنشر المجلة لهم : إيليا أبو ماضى ، وإلياس أبو شبكة ، وشفيق المعلوف ، ورياض المعلوف ، وشكر الله الجر ، وسواهم . .

ومن ثم صار شعراء أبولو ممن كانوا أعضاء فى جمعيتها ، يكونون مع رائدهم أحمد زكى أبو شادى ، مدرسة شعرية وأدبية جديدة ، لها أهدافها ومناهجها ؛ وقد أطلق عليها أبو شادى نفسه اسم « مدرسة أبولو » ، وذلك فى صدر عدد إبريل سنة ١٩٣٣ من مجلته ، حيث يقول : « يعمل شعراء أبولو على تطهير بيئات الشعر ، وعلى التسامى بالنقد الأدبى ، ومدرسة أبولو مدرسة تعاون وإنصاف وإصلاح وتجديد »

وقد أصدرت أبولو الكثير من دواوين الشباب ، ومنها ديوان الشاعر عبد العزيز عتيق ، وديوان الشاعر صالح جودت ، وديوان مختار الوكيل ، وديوان « الألحان الضائعة » للشاعر حسن كامل الصيرفى ، وديوان أزهار الذكرى للشاعر الناقد مصطفى عبد اللطيف السحرتى .. كما نشرت كتاب « رواد الشعر فى مصر »

---

(١) راجع مجلة أبولو - عدد اكتوبر ١٩٣٢ - قصيدته «ملجأ القرش بالسودان»

للشاعر مختار الوكيل ؟ وغيره من مؤلفات الشباب

وكان أبو شادي يبشر دائما بالأدب الرفيع والشعر الجديد ، في مجلاته المديدة ، التي أنشأها ، ومنها « الامام » ، و « أدبي » وسواهما ، كما كان يبشر بهما كذلك في الهيئات الأدبية والثقافية التي كونها ، ومنها : رابطة الأدب الجديد في الاسكندرية(١) وشقيقتها في القاهرة (٢) ، وندوة الثقافة ، والمجمع المصري للثقافة العلمية ، وغيرها .. ولكن الفضل الأكبر فيما وصلنا إليه من نهضة أدبية مرموقة ، يرجع إلى جمعية أبولو ومجلتها ذات الأثر الكبير في تشجيع الشعراء من الشباب ، والتنويه بالموهوبين المغمورين منهم .

وكان لأبي شادي كثير من التوجيهات الصائبة للشباب من شعراء مدرسة أبولو ، سواء في علم الفكر أم الأدب أم الشعر أم الاجتماع .. وكان بأحاديثه المنوعة معهم وديمقراطيته الجذابة الجميلة في معاملتهم ، وبمناقشاته معهم في القديم والجديد ، وفي كل ما يمس حركة التجديد في الشعر ، وبآرائه في النقد ومناهجه ، والأدب وأصوله وبروائعه الفنية الخصبة من شعره وقصائده المتعددة الألوان والسمات ، كان بذلك كله قدوة عالية للشباب ، ومثلا كريما لمن يتطلعون إليه ويتأثرون خطاه في نظم القصيد .

وكان أبو شادي يحارب الفردية وروح الذاتية والأنانية في الأدب ، ويؤمن بجمهورية الأدب وديمقراطيته وبوحدته ، وبإخاء الأدب والاخلاص فيه ، كما يؤمن بضرورة خدمة الفكرة . وكان يحرص على الدقة في المعنى ، ويميل غالبا إلى الثورة على مناهج الأداء ، ميله إلى العناية بالناحية القصصية ، والجانب الصوفي في الشعر ، مع تميزه بالروح الانســـاني العالمي في شعره ، وبالرومانتيكية التي اتسم بها أغلب شعره وقصائده .

وترجع مدرسة أبولو إلى الأدبين : العربي والغربي معا ، تأخذ منهما أخيلتها ومعانيها وصورها المتعددة ، مع التناول الفني السليم للفكرة والموضوع والمعاني ، والدعوة إلى الحرية الفكرية والأدبية والفنية ، وإلى تمثيل الشعر لخلجات النفوس ، وتأملات الفكر ، وهزات العواطف والمشاعر ، وإلى الطلاقة والحرية وظهور الشخصية الفنية ووضوح الطاقة الشعرية الخلاقة ، التي هي الجوهر الأول لأية شاعرية متفوقة ، وتوكيد الحفاوة بالأصالة ، والاهتمام بالفكرة ، وتوسيع آفاق

(١) أنشأها أبو شادي عام ١٩٢٧

(٢) أنشأها أبو شادي عام ١٩٢٩

التفكير والتأمل والذوق ، وكسر قيود التقليد ، مع الابتعاد عن الافتعال والتكلف والتصنع ، ونبذ المذهب الفردى فى الأدب ، واحترام النقد والمذاهب الأدبية المختلفة ، ومع إيثار الطبع ، والإيمان برسالة « الشعر بالشعر للشعر » ، وتجاوب الشاعر مع الطبيعة ، وتناول الموضوعات الإنسانية والعالمية ، والاعتماد على القوة الشعرية فى ذاتها ، حتى يؤدى الشعر رسالتسه ، من إعزاز الخير وتقديس الجمال ، وتحرر الشخصية الفنية ، والطلاقة فى التعبير ، والأصالة والفطرة الشعرية ، وصدق العاطفة ، والوحدة التعبيرية ، والاعتقاد بتطور لغة الشـاعر وأخيلته وتعابيره ، بالإضافة إلى تطور نفسيته وأفكاره ومثله العليا . . ولقد نظم شعراء مدرسة أبولو من الشعر المرسل ، والشعر الحر ، وأعلنوا بدء الحركة التحريرية للنظم ، ودخلوا فى معارك كثيرة من معارك النقد ، كان الطرف الآخر فيها أصحاب الذوق اللغوى القديم ممن لا يؤمنون بفتح باب التجديد على مصراعه ، ومن الجامدين ذوى الثقافة المحدودة ، والرجعيين الذين يريدون أن يعيشوا فى ظلال العصر الجاهلى وحده . وكان إيمان مدرسة أبولو بالتجديد على أوسع نطاق ، وبعدهم فى أحيان كثيرة عن المناهج المألوفة فى النظم ، وتطويعهم اللغة والأسلوب للفكرة والخيال والمعنى والقصة الشعرية ، كان كل ذلك مدعاة لزللهم فى بعض الأحيان ، وحجة للمحافظين عليهم ، ولكنهم أنطلقوا فى أفقهم الرحب لا يلوون على شىء ، ينظمون وينظم رائدهم الشعر الوصفى أو التأملات الصوفية والفلسفية ، وينظمون القصة والتمثيلية ، والألوان الغنائية المتعددة السمات ، ويصوغون الأناشيد فى الهيام بالطبيعة ، ووصف الجمال ، والتحدث عن أعمق خطرات النفس ، غير مبالين بالمناسبات الطارئة ، والحاجات الوقتية الملحة .

ومع ذلك كان أبو شادى رائد هذه المدرسة يعلن فى غير لبس أن الشعر إنما هو بأحاسيسه وارتعاشاته وومضاته وخيالاته وحقائقه الأزلية ومثالياته ، وأنه إذا قدر ألوان الشعر المرسل أو الحر أو الرمزى أو السريالى ونحوها ، فليس معنى ذلك أنه يبخس الضروب الأخرى من الشعر حقها ، أو يدعو إلى إغفالها . كما يدعو إلى ذلك بعض الأدباء الذين لا يقدرون أن ثروة أية لغة إنما هى بمجموع آدابها ، وأن الخير كل الخير فى تنوع ضروبها لا فى حصرها ، فمذهب الحصر مضاد للحرية ، فى حين أن الحرية هى صديقة الآداب والفنون بل المعارف عامة ، فالإملاء على الشعراء والتحكم فيهم هو أولا قتل لمواهبهم ، ثم قتل للشعر وممكناته ، ثم إفقار للغة وآدابها . .

هذه وقفة قصيرة حول مدرسة أبولو ومذاهبها فى الأدب النقد والشعر ، مما تأثر به

الشباب بل الكهول فى مصر ، تأثرا عميقا . عن قصد أو غير قصد : بل إن الذين خاصموا هذه المدرسة فى مصر تأثر بها عقلهم الباطن ، وأخذوا يقلدونها دون أن يشعروا بأنهم يقلدونها . . وقبل أن أختم هذا الحديث ، لاأرى بأسا فى أن أتحدث قليلا عن بعض الأعلام من شعراء ونقاد مدرسة أبولو .

وفى مقدمة هؤلاء الناقد الكبير مصطفى عبد اللطيف السحرتى مؤلف « الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث » ، و « أدب الطبيعة » ، وصاحب « ديوان أزهار الذكرى » ، ورئيس تحرير مجلة « الإمام » ، والذى لايزال فى كل مناسبة ينشر البحوث الأدبية والنقدية العميقة الخصبة التى تقابل من القراء بالاهتمام والتقدير والإعجاب .

ومن شعراء مدرسة أبولو الممتازين المحلقين : الشاعر حسن كامل الصيرفى ، ويصفه أبو شادى فى المقدمة التى كتبها عام ١٩٣٤ لديوانه « الألحان الضائعة » ، فيقول : انتظمت مدرسة أبولو شعراء ممتازين ، ولها أن تفخر كل الافتخار بالصيرفى وشعره ، فهو ثروة جديدة للشعر المصرى الحديث ، وللشعر العربى عامة ، وكيف لايكون كذلك وهو الجامع ماجمع : من الطلاقة البديعة والخيال الرائع ، والموسيقى المستحدثة ، فى نظام هو نظامه ، لا يقلد فيه أحدا ، وإن تجاوب مع أقرانه من أعلام النهضة الشعرية فى العالم العربى . ويستمر أبو شادى فى حديثه عنه فيقول : والصيرفى شاعر مبتدع ، بعيد الخيال ، رومانطيقى النزعة غالبا ، رمزى أحيانا ، بعيد فى طوره الحاضر عن المثل القديمة ، رسالته فى شعره هى رسالة الحياة الفنية الخالصة ، حيث يرى الفن وحده هو خلاص الإنسانية وسعادتها ، والفن ينتظم الجمال بما يعنيه الجمال من حب ورحمة وتجاوب شامل للوجود . . وقد صدر ديوانه « الألحان الضائعة » عام ١٩٣٤ ، وفى عام ١٩٤٨ أخرج ديوانه « الشروق » وفيه مجموعة من القصائد تمتاز بجدتها وبروح التجديد والابتكار فيها فى كل ما تتناوله القصيدة من عناصر . . وللصيرفى عدة دواوين مخطوطة ، منها : « حول النور » ، و « رجـــع الصدى » ، ودموع وأزهار ، و « قطرات الندى » . . وله دراسة نقدية ممتعة عنوانها « حافظ وشوقى » ويعمل الآن فى تحقيق ديوان البحترى وشرحه ، معتمدا على صور فوتوغرافية لجميع نسخ الديوان الخطية فى مكتبات العالم . . وهناك عدا الشاعر حسن كامل الصيرفى شعراء آخرون ، فى مقدمتهم الدكتور مختار الوكيل ، والشاعر صالح جودت ، وسيكون لنا جولة قريبة فى شعر هؤلاء الشعراء وخصائصهم الفنية .

هذه هى مدرسة أبولو فى صورتها الحقيقية ، دون مبالغة أو مغالاة ، وهذا هو

ماخص لنشاطها الأدبى ، الذى لم يتوقف بتوقف مجلة أبولو عن الصدور عام ١٩٣٥ ، ولا بهجرة الشاعر أحمد زكى أبو شادى إلى نيويورك عام ١٩٤٦ ، وإقامته بها حتى اليوم ، فلاتزال مبادىء أبولو حية فى قلوبنا وأفكارنا ، ولاتزال الدعوة إلى مناهجها أصل من أصول دعوتنا الأدبية ، ولقد قامت « رابطة الأدباء » فى القاهرة عام ١٩٤٧ برياسة الشاعر إبراهيم ناجى على أصول مبادىء مدرسة أبولو ، ثم خلفتها رابطة الأدب الحديث التى كونت فى القاهرة عام ١٩٥٣ ، لتدعو إلى مادعت إليه « مدرسة أبولو » العتيدة من مناهج ، مع مسايرة روح النهضة والتجديد والحياة فى أوسع نطاق ، وهى تضم العديدين من حواريى أبولو وأدبائها وكتابها وشعرائها

ولاشك أن مدرسة أبولو كانت هى أول مدرسة أدبية حرة مجددة عرفها الشعر المصرى والعربى الحديث ، كما كانت مدرسة بكل مافى هذه الكلمة من معان ، فلها آراؤها فى الأدب ، وفى النقد ، وفى الشعر ، وفى التجديد ، ولها مجلاتها ومؤلفاتها ودواوينها ولها من الحيوية والفتاء والقوة والمثابرة ماكان يدعو إلى العجب ، وهى التى أشاعت روح التقدم فى الشعر المعاصر ، وحولته من كلاسيكية غالبة ، إلى ألوان جـــديدة خصبة من الرمزية والرومانتيكية والسريالية ، لاتعادى شعر الكلاسيكية وإنما تعاونه وتؤاخيه .

وقد كان ظهور مدرسة الشعراء الشباب اليوم من أمثال الفيتورى وكمال نشأت والعنتيل ، وتاج السر ، والجيلى ، وكامل أمين ، وسواهم ، أثرا ضروريا ، ونتيجة منطقية لمبادىء مدرسة أبولو الشامخة ، التى لا يزال نشاطها الأدبى يدوى صداه فى البلاد العربية ، وفى أذهان الشعراء المعاصرين وعقولهم

الشعر السودانى المعاصر

— ١ —

هناك فى الوطن الحبيب فى الجنوب ، فى مدنه وقراه ، التى يلفها النيل بذراعيه ، ويضمها الكفاح من أجل الحرية بجناحيه . وتعبق فى أرجائها أطياف المجد الخالد . هناك : فى الخرطوم ، وأم درمان ، وعطبرة ، ووادى مدنى ، والأبيض وسواها ، يحيا الكثير من شعراء السودان المعاصرين ، ممن ألهمتهم الطبيعة والذكريات الجميلة آثاراً عديدة من القصيد ، وروائع الآيات فى الحرية والحب وأوصاف الجمال .

وهنا فى شمالى الوادى ، فى القاهرة والاسكندرية ، وغيرهما من مدننا الجميلة ،

يحيا الكثير من الشباب السودانى يلتمسون المعرفة والآداب ، وينظمون ماتجود به عواطفهم من صادق الإلهام ، ووحى الشاعرية ، ويرفعون للشعر السودانى المعاصر صرحا من الذكر والمجد والخلود

وهنا وهناك ، تتطلع بعقولنا إلى ذخيرة السودان من شبابه الاحرار الأباة ، وفتيانه الأبرار المكافحين ، وشعرائه العبقريين الملهمين ، الذين يرددون أعذب أناشيد الحرية والعزة والجهاد ، ليدفعوا بها إخوانهم فى الجنوب إلى اليقظة والحياة ، وإلى النضال من أجل شعب يريد أن يتبوأ مكانته الكريمة بين الشعوب .

وقد ألقت على « رابطة الأدب الحديث » ، عبء الحديث عن الشعر السودانى المعاصر ، الذى لاتزال الدراسات عنه معدومة أو شبه معدومة ، والذى هو فى أمس الحاجة إلى بحوث الشباب السودانى ، من خريجى الكليات المختلفة فى مصر .. وإن دراسة الأدب السودانى ، ونشر المطوى من ذخائره ، والكشف عن المجهول من تاريخه ، والكتابة عن المنسيين من أعلامه ، لدين فى أعناقنا جميعا ، يجب أن نؤديه بقوة وعزم ومثابرة ، وإخلاص لوطننا المحبوب فى الجنوب

— ٢ —

ترجع النهضة الأدبية والشعرية المعاصرة فى السودان إلى أسباب عديدة ، من أهمها ما يلى :

١ - أثر مصر الثقافى والفكرى والأدبى فى الجيل الجديد من أبناء السودان ، ممن يواظبون على قراءة صحافة مصر ، وأحدث ماتخرجه المطابع فيها من آثار أدبية وفنية ، أو ممن يختلفون معنا إلى شتى الكليات فى مصر ، وإلى الحلقات العلمية والنوادى الأدبية فيها ، ويتصلون بالفكر الأدبى المصرى المعاصر اتصالا روحيا وثيقا ، يترك أثره ، ويدوى صداه ، فى عقولهم وعواطفهم وتصوراتهم ونزعاتهم وأساليبهم .. ويصور شاعرنا المرحوم التيجانى بشير (١٩١٢ - ١٩٣٧) ذلك بوضوح ، فى قصيدته « ثقافة مصر » ، فيقول متحدثا عن السودان وأثر مصر الفكرى فى شبابه :

مصر راشت وثقفت وأعدت منه شمسا ، وأطلعت منه بدرا
هيأت فكره فأزغب فاستشـ ـرى ، فأعيى ركضا وأعجز طفرا
ففرى الدهر خابرا ، وشأى السـ ـهم مضيا ، وزاحم الريح مسرى
كيف ياقومنا تباعد من فكـ ـرين شدا وساندا البعض أزرا

كيف قولوا بجانب النيل شطيـ ـه ويجرى على شواطىء أخرى
كلما أنكروا ثقافـــة مصر كنت من صنعها يراعاً وفكرا

وأثر شعراء مصر وأدبائها واضح فى الشعر والأدب السودانى المعاصر، بل هو أعمق فى عقول الشعراء من الأدبين: العربى والمهجرى، وكان لمدرسة أبولو الشعرية كثير من الأصداء البعيدة فى السودان، وكذلك كان للمجلات الأدبية المصرية شأنها هناك. وتبدو هذه الآثار واضحة فى شعر التيجانى، الذى كان معجبا بشوقى وشوقياته، وكان يقول عنها: «إنها تكاد أن تكون قرآنا»، وبسبب كلمته هذه فصل من المعهد العلمى، ولم تتح له الفرصة لاكمال دراسته فيه.. ويضرب الشاعر محمد سعيد العباسى المثل بشوقى الشاعر والرافعى الكاتب، وهما من أعلام البيان فى مصر، ممن تأثرهم العباسى معجبا ومقدرا، فيقول من قصيدته المؤتمر»(١):

كمثل شوقى إذ شعر والرافعى إذ نثر

٢ ـ البيئة الأدبية فى السودان، التى يشترك فى تكوينها المعهد العلمى بأم درمان، وقد نشأ فيه التيجانى، وعبد الوهاب القاضى، وسواهما من الشعراء، وكلية الخرطوم الجامعية، ويمثلها الشاعر الدكتور سعد الدين فوزى.. والخلوة الكتيابى حظ موفور فى كثرة من خرج منها من الشعراء، وفى مقدمتهم: التيجانى بشير، والشاعر المرحوم محمد عبد الوهاب، ومحمود عبد الوهاب، وعبد المنعم حسب الله، ومحمد أحمد عبد الله الكتيابى.. وللمهرجانات الأدبية التى ينظمها مؤتمر الخريجين سنويا، وتلقى فيها روائع من الشعر والنثر وفنون الأدب والدراسات الأدبية، أثر طيب فى رفع مستوى هذه البيئة الأدبية فى السودان، وكذلك تعمل الصحافة والنوادى الأدبية هناك عملها فى نهضة الأدب، ويقبل الشباب على قراءة هذه الصحف، والتزود بقسط من ثقافتها، وفى مقدمة المجلات الأدبية فى السودان: مجلة النهضة وقد صدرت عام ١٩٣١، ثم مجلة الفجر وقد أصدرها الأديب السودانى: عرفات محمد عبد الله عام ١٩٣٤، وكان يكتب فيها التيجانى بشير، ويوسف مصطفى التنى، ومحمد أحمد المحجوب، والمرضى محمد خير (ميان)، ولما مات صاحب الفجر تولى بعض أصدقائه إخراجها، ثم صمتت إلى الأبد بعد قليل.. ومن صحف السودان التى تولى الشعر والأدب قسطا من عنايتها: جريدة الصراحة ويصدرها الأستاذ عبد الله رجب بالخرطوم مرتين فى الأسبوع، ومجلة كردفان الأسبوعية، وتصدر فى الأبيض، وصحيفة النيل اليومية التى يصدرها الأستاذ محمد أحمد عمر، وكذلك صوت

---

(١) صـ ٤٧ ـ ديوان العباسى ـ طبع القاهرة ١٩٤٩

السودان ، والرأى العام ، والأمة ، وهى صحف يومية .. أما النوادى فى جنوب الوادى فى مقدمتها : النادى الثقافى بأم درمان ، والنادى المصرى بالخرطوم ودار الثقافة بالخرطوم كذلك ، ولها مكتبة ضخمة .. وكذلك أخذت آثار الأدباء والشعراء السودانيين أنفسهم تقوى من نهضة الأدب والشعر وازدهارهما فى ربوع السودان الحبيب ، ويتأثرها الشباب السودانى ، ومن أهمها : ديوان (إشراقة) للتيجانى بشير ، وينطق عن موهبة شعرية خصبة ، وديوان (الشاطىء الصخرى) للشاعر حسين منصور ، وديوان (دموع وأشواق) للشاعر حسن عزت ، وديوان (الحرية والجمال) للشاعر جعفر حامد البشير سكرتير تحرير جريدة صوت السودان ، وديوان الشاعر سعيد العباسى ، وديوان البنا ، وديوان (الفجر الصادق) للشاعر عبد الله عبد الرحمن الضرير ، ويصور التاريخ المعاصر للسودان تصويراً واضحاً ، وكان الشاعر مفتشاً للغة العربية بمعارف السودان سابقاً ، وسوى ذلك من الدواوين الشعرية الحديثة .. ومن الكتب الأدبية التى ألفها أدباء سودانيون : كتاب (نفثات اليراع) للأستاذ محمد عبد الرحيم ، وقد صدر عام ١٩٢٤ ، وكتاب (شعراء السودان) ويجمع مختارات لكثير من الشعراء المشهورين إبان ذاك .

٣ ـ تأثر بعض الشعراء بمدرسة شعراء المهجر ، التى يحمل لواءها إيليا أبو ماضى ، وإلياس أبو شبكة ، وميخائيل نعيمة ، وسواهم من الشعراء ... ويظهر هذا التأثر واضحاً فى شعر (ميان) الذى كان يعد أقرب الشعراء إلى الشعر المهجرى مع خصبه فى التصوير ، ورقته فى التعبير ، ووضوحه فى الأداء ، وكان ينادى فى شعره بمبدأ اللذة أينما كانت .. والغموض والإبهام والرمزية فى شعر التيجانى بشير أثر لقراءته فى الشعر والأدب المهجرى ، ولأدب (جبران) على ما أرجح وإن كان لأدب (الرافعى) المصرى نصيب من هذا التأثير ، ويعلل الأستاذ إحسان عباس هذا الغموض بأنه كان أثراً لمحاولة التيجانى تحليل الأجزاء الصغيرة فى المعنى العام ، والإحالة المفرطة فى تصوير النواحى المعنوية (١)

٤ ـ أثر الآداب الغربية ـ مترجمة أو فى لغاتها الأصلية ـ فى الشعر السودانى المعاصر ، مما يظهر أحياناً فى شعر سعد الدين فوزى ومحمد السيد الباقر ، وسواهما

— ٣ —

والشعر السودانى المعاصر تمثله مدارس أو طبقات ثلاث من الشعراء :

(١) مجلة الأديب ـ يناير ١٩٥٤ ـ إحسان عباس

١ — أما الطبقة الأولى فهى طبقة الشيوخ ، وفى مقدمتهم : محمد سعيد العباسى وهو اليوم فى الثالثة والسبعين من عمره ، وعبد الله عبد الرحمن الضرير ، وأحمد محمد صالح ويلقب بشاعر البيان وهو عضو فى مجلس الشيوخ السودانى ، وعبد الله عمر البنا ويلقب بأمير شعراء السودان ، وكان عميد الأدب العربى فى كلية غوردون سابقا ، وبا بكر بدرى ، والطيب السراجى ، ومحمود الفكى ، ومحمد الأمين القرشى ، ومدثر البوشى ، ومحمود أنيس ، وحسيب على حسيب ، وصالح عبد القادر ، وعبد الرحمن شوقى ، وحسين منصور ، وهو اليوم موظف بالمجمع اللغوى فى القاهرة ، وقد أقام بمصر منذ سنوات طوال ، وللتيجانى بشير قصيدة جديدة أهداها إليه حين نزح إلى مصر ، وكان أستاذا فى المعهد العلمى ، وتتلمذ عليه التيجانى حينا .

وهذه الطبقة تنظم شعرها متأثرة غالبا بمذاهب البيان القديمة الرصينة ، وبالشعراء القدامى الذين خلد ذكرهم فى صحائف التاريخ الأدبى ، وبأعلام الشعر فى مصر من المحافظين والمجددين فى أفق الاتباعية الفنية ، كشوقى وحافظ والجارم والزين والرافعى وسواهم .

ويمثل هذه الطبقة محمد سعيد العباسى ، الذى يجمع شعره ألوانا أنيقة من الديباجة والموسيقى والتصوير والخيال والمعانى مع قوة العاطفة ، وهو يجود فى قصائده حتى لتكاد تبلغ فى المنزلة الأدبية ما بلغته قصائد البحترى والمتنبى والشريف الرضى والخيام والبارودى ، وشوقى ، والرافعى ، وسواهم من فحول الشعراء . ونجده يعارض المتنبى فى قصيدته :

باتت تبالغ فى عذلى وتفنيدى ... وتقتضينى عهود الخرد الغيد

وهو يشيد فى قصيدته « وادى هور » بالمعرى والخيام ، فيقول فيهما :

نظما القصائد مشرقا ... ت ، نظم أسلاك الدرر(١)

ويعارض الشريف الرضى وينوه به فى قصيدته « رسائل الصفا » ، ويثنى على شوقى والرافعى فى قصيدته « المؤتمر » ، وهو محب لوطنه مصر ، داعية للوحدة بين شمال الوادى وجنوبه ، يقول : (٢) .

فمصر هى اليوم كهف الرجاء ... لنا ، وهى المرضع الحانية
لها ولأبنائها الأكرمين ... أياد بنا برة آسية

(١) صـ ٥٢ ديوان العباسى .
(٢) ٦١ — ديوان العباسى — من قصيدته « رسائل الصفا » .

ويصف شعوره الحي نحو مصر فيقول :

مصر ، وما مصر سوى الشمس التى بهرت بثاقب نورها كل الورى
ولقد سعيت لها فكنت كأنما أسعى لطيبه أو إلى أم القرى
وبقيت مأخوذا ، وقيد ناظرى هذا الجمال تلفتا وتحيرا

ويذكر مصر بالخير والحب العميق ، فيقول :

إن يورى عنكم أناس فما من مذهب الحب والوفا أن أورى(١)

وينوه العباسى بالوحدة بين الشمال والجنوب ، ويدعو إخوانه الحذر من مطامع الاستعمار الغربى فى قصيدة له(٢) ، ويؤكد مذهبه فى الوحدة فى قصيدته « يوم التعليم » فيقول فيها :

إنا بنى النيل لا نرضى به بدلا فما جفانا ، ولا يوماً بنا ضاقا
ولا أخص به دارى ولا سكنى بل ساكنى النيل تعميما وإطلاقا
هذى سبيلى ، وهذا مذهبى ، بهما أعطيت ربى والأوطان ميثاقا

وللشاعر الكبير أحمد محمد صالح شعر كثير ، منه قصيدة عنوانها « يوم التحرير » يقول منها :

يوم تفرد بالخلود عيد لعمرك أى عيد
فلقد تحرر فيه وا دى النيل من ذل القيود
المجد للأقوى فلا تغمد السيوف إلى الغمود
حتى تطهر مصر من أعلى الصعيد إلى رشيد
وترد للسودان حقا فى الحياة وفى الوجود

وهى نموذج لشعر هذه الطبقة ونهجها الفنى فى نظم القصيد .

٢ ـ أما الطبقة الثانية فهى طبقة الشعراء الشباب ، وفى طليعتهم : سعد الدين فوزى ، ومحمد أحمد المحجوب ، ويوسف مصطفى التنى ، وخلف الله خالد ، والمرضى محمد خير (ميان) ، وحسن عزت ، ومحمد السيد الباقر ومحمد السيد حمد ، ومحمد عثمان عبد الرحيم ، وأحمد عبد الله المغربى وهو من أم درمان ، وعبد القادر إبراهيم ، وحسن طه وله ديوان شعر ، وهو مدرس بمدرسة المؤتمر الثانوية فى الخرطوم ، ومحمد عبد القادر كرف وكان زميل التيجانى فى الدراسة ، ومحمد على بخيت ، وإدريس محمد

---

(١) صـ ٧٠ المرجع نفسه . (٢) صـ ٧٣ المرجع .

جماع ، والشاعر توفيق أحمد البكرى ، والشاعر مبارك المغربى صـــاحب ديوان عصارة قلب .

ويحمل الكثير من شعراء هذه الطبقة لواء التجديد فى الشعر السودانى المعاصر ويمثلون المدرسة الحديثة فيه : ويعد التيجانى بشير (١٩١٢ - ١٩٣٧) أول الشعراء من دعاة التجديد ، وهو يمثل فكرة جديدة فى الشعر السودانى : فقد طفر الشعر على يديه إلى طور الاستقلال والذاتية والنضوج الفنى . وأصبح تعبيرا واضحا متميزا عن البيئة والمجتمع والشعب وآماله وآلامه وثورته فى سبيل الحرية ، وشعره صورة رائعة للطبيعة والوصف ، ولوجدان الشاعر وأحاسيسه النفسية العميقة ، وتسوده نزعة غالبة من القلق الفكرى والروحى ، ومن الصوفية العميقة الممزوجة بموسيقى عذبة ، ومن الفلسفة الحرة التى تمثل مذهبا فى الفكر والحياة .

والكثير من شعراء هذه الطبقة اطلعوا على الادبين : المصرى والغربى . وتأثروا بالتيجانى ومذهبه الفنى فى الشعر : فنجد فى شعر المحجوب موهبة وطلاقة ، وثراء فى تجاربه الشعرية الأصيلة ، وتأثرا بالأدب الغربى الذى اشتدت صلته به . وينادى جعفر البشير فى شعره بحق الشعب فى الحياة والعيش الكريم ، ويعطف على الكادحين والفقراء من أبناء وطنه : من حيث وقف جماعة من الشعراء يتحدثون عن المناقب الاسلامية ، والنزعات العربية الحرة .

٣ ـ وأما الطبقة الثالثة فهى طبقة الجامعيين والمعهديين ، الذين يدرسون فى جامعات مصر وكلياتها المختلفة ، ومعاهدها المنوعة ، وفى طليعتهم : الشاعر محمد مفتاح الفيتورى والجيلى سيد عبد الرحمن ، وتاج السر الحسين ، وصالح آدم بيلو ، ومحيى الدين فارس ، وابراهيم عبده شعراوى ، ومحمد أحمد عبد الله الكتيابى ، والعوض أحمد الحسين ، ومحمد زروق محمد شريف ، ومحمود عبد الوهاب ، وأحمد عبد الله المغربى ، وعبد المنعم حسب الله ، وسواهم .. وإذا كانت الطبقة الأولى كلاسيكية النزعة ، والثانية رومانطيقية المذهب والاتجاه غالبا ، فإن شعر الطبقة الثالثة يميل فى أغلبه إلى المذهب الواقعى ، ويؤمن بضرورة مشاركة الشعر للمجتمع مشاركة قوية ، مع الإيمان بالتجربة والاتكاء على الحس ، والبراعة فى تصوير الحقيقة وواقع الحياة ، ووصف المجتمع وحياة الكادحين من أبنائه ، والثورة على الفروق الاجتماعية الصارمة . والواقعيون لا يستمدون موضوع الفن من الخيال أو الأساطير أو المبالغة ، بل من التجربة والواقع والآمال المدفونة فى أعمق مشاعر الأمة ، وهم ينكرون أن يكون هدف

الشعر التسلية أو المتعة ، ولايؤمنون بمذهب الفن للفن ، وينادون بأن الفن للحياة ويشاركون فى بناء الحضارة الروحية والاجتماعية والاقتصادية ؛ وشعرهم مرآة لحياة الجماعة ومايعج فيها من آلام ومسرات ، ويؤمن الشاعر الواقعى بوجوب اطراح العزلة ، وبالاتصال بالحياة ، ليحمل أعباء مسؤليته كاملة . وبهذه المبادىء يصيح شاعرنا السودانى (ابراهيم عبده شعراوى) قائلا :

أمموا الفن فما الفنان فى   شرعة الواقع عبد للقصور
أدخلوا الفن إلى الكوخ فما   عمل الفنان إحراق البخور
صف لنا سخطك يافنان لا   تخدع الناس بلحن وعطور
أنت مثلى جائع مستعبد   أنت مثلى تتلقاك القبور
صف حياتى فهى بؤس خالد   صف طريقى فهو شوك وصخور
صف وجودى أنت فى الخطب أخى   أنت درعى وعزائى فى الشرور

وقلما يعنى شعراؤنا الواقعيون بشعر العاطفة ، أو بالشعر الغنائى ، أو بشعر الطبيعة والوصف ، لأنهم فى شغل برسالتهم الاجتماعية التى حملوها فوق كواهلهم المتعبة

وللواقعية صورها العديدة الجميلة الآخاذة فى شعر الفيتورى .. فهذا قصر مترف لغنى مثر ، يقف أمامه الشاعر فيصيح قائلا :

ماذا أرى يادموع ؟ قصر   أراده المجد أن يكونا
كأن جدرانه الزواهى   سقين بالشمس أو طلينا
يا جنة الخلد فى مداه   وحوله ، تفتن العيونا
إنا عدمناك مشتهينا   كما اشتهيناك معدمينا
لا ترقصى للربيع إنا   من ظلمة الكوخ قد عمينا

ويرى العائدين المنهوكين من الحرب يعودون لالينعموا بالحياة والعيش والأمان والسلام ، ولكن ليصنعوا لأسيادهم الثراء ، وليعملوا مرة أخرى مسخرين فى خدمة السادة وفى صنع القنابل والمدمرات والطائرات لحرب جديدة ، فيقول على لسان واحد منهم :

ألا يا ليتنا متنا بعيداً عن أراضينا
لقد عدنا من الحرب إلى الحقل ، إلى المصنع
لكى نحرث ، كى نبذر ، كى نحصد ، كى نجمع
لكى تبنى للغير لكى نطوى ولا نشبع

لـكى نحـــلم بالفجر الذى من يدنا يسطع
لـكى نصنع حربا ضخـ ـمة أخرى ، لـكى نصنع
لقد عدنا إلى الأكوا خ : أكواخ أهالينا
ألا ياليتنا متنا بعيدا عن أراضينا

وينظم الفيتورى الأناشيد فى تمجيد كفاح الأحرار للاستعمار ، وثورتهم على المستعمرين ، فنراه مجودا فى قصيدته « ماو ماو » أو « نشيد إفريقية » التى صور فيها ثورة المارد الجبار ، وتحديه للقوة الغاشمة التى أذاقت بلاده الوبال ، واستمع له من هذه القصيدة الرائعة يقول :

يا أخى فى الشرق فى كل سكن يا أخى فى الأرض فى كل وطن
أنا أدعوك فهل تعرفنى ؟ يا أخا أعرفه رغم المحن
إننى مزقت أكفان الدجى إننى هدمت جدران الوهن
لم أعد مقبرة تحكى البلى لم أعد ساقية تبكى الدمن
لم أعد عبد جمود ، لم أعد عبد ماض هرم ، عبد وثن
أنا حى خالد رغم الردى أنا حر رغم قضبان الزمن
إن نكن سرنا على الشوك سنينا ولقينا من أذاه ما لقينا
إن نكن بتنا عراة جائعينا أو نكن عشنا حفاة بائسينا
إن نكن أوهنت الفأس قوانا فوقفنا نتحدى الظالمينا
إن نكن سخرنا جلادنا فبنينا لأمانينا سجـــونا
فلقد ثرنا على أنفسنا ومحونا وصمة الذلة فينا
الملايين أفاقت من كراها ماتراها ؟ ملأ الأفق صداها
خرجت تبحث عن تاريخها بعد أن تاهت على الأرض وتاها
حملت أفؤسها وانحدرت من روابيها وأغوار قراها
فانظر الإصرار فى أعينها وصباح البعث يجتاح الجباها
يا أخى فى كل أرض وجمت شفتاها واكفهرت مقلتاها
قم تحرر من توابيت الأسى لست أعجوبتها أو مومياها
انطلق فوق ضحاها ومساها يا أخى قد أصبح الشعب إلها
هاهنا واريت أجدادى هنا وهم اختاروا ثراها كفنا
وسأقضى أنا من بعد أبى وسيقضى ولدى من بعدنا

وستبقى أرض إفريقيا لنا فهى ما كانت لقوم غيرنا

وبهذه الواقعية المحببة إلى القلوب والأسماع ينظم الفيتورى قصائده وأناشيده الممعنة فى الجمال الفنى ، وفى الرمزية فى بعض الأحيان .

ولننتقل إلى شاعر آخر من شعراء هذه المدرسة الواقعية ، إلى جيلى سيد عبد الرحمن ، لنرى صورا أخاذة من التصوير الفنى الدقيق فى قصيدته « عبرى » التى يصف فيها حياة أهله فى هذه القرية النائية ، حيث يقول فيما يقول :

أنا ظمآن ياعبرى إلى الأمواه والطير
إلى كثبانك الغرقى هناك بحافة النهر
يذهبها سنا الشمس بأكوام من التبر
وخلف جبالك الشكلى عتاة الجن والشر
وأعراب ، وألغاز تحير عالم الفكر
وساقية مرنحة تجرجرها قوى الثور
تدلت أذنه تعبا من الإنهاك والسير
ويمشى خلفه الفلا ح وهو مقوس الظهر
تغيم بعينه الدنيا ويلعن ذلة الفقر

ثم لنراه بعد ذلك فى قصيدته « أبى » يصف حياته وحياة شعبه الشقية ، فى تناول فنى لطيف ، وواقعية حلوة بديعة ، ووحدة للقصيدة متلاحمة ، يقول فيما يقول :

لماذا أبى فى عروقى النشيد يمور دماً عاصفاً ساخنا
لماذا يؤرق تلك الليالى وكانت لظلى راكدا آسنا
ويضرم قلبك مثل اللهيب وقد كان ياأبتى آمنا
وأنت ركزت على الأمانى وأنت عقدت على المنى
ولكنهم ياأبى قد أرادوا بأن أستذل وأن أجبنا
ومن قبل قد كمموا شعبنا وبلوا المشانق من دمعنا
ليبنوا القصور ويبنوا الغنى وتذوى هنالك أشلاؤنا
ونمضى نبارك أهل الخنا ويضحكهم كالدمى فننا
وأقسم أنى ان أذعنا فما كنت ياأبتى عائنا
وما كنت يا أبتى كافرا بشعبى ، بدمعى ، بحقى ، أنا
وفى غدنا سوف يزهو الصباح رشيق الخطا مشرقا لينا

ويرقص في العيد أحفادنا ويهزج بالنصر أولادنا
ويبقى بنا شعبنا خالدا ويبقى لنا خالدا فننا

وانظر إلى حديث الجيلي عن نفسه ، وعما يملكه أبوه ، من موقد ، وحصير قديم وأشياء أخرى تافهة ، وإلى حديثه عن الشقاء الذي يحيط به من كل جانب ، انظر إلى جمال الواقعية في هذه الأبيات من قصيدة أخرى له :

أبي : أنت تسمع هذا الصراخ صراخي من العمق : قلبي ، أبي
وأنت هناك مع الاخوة تقص عليهم لظى قصتي
وتطرق في صمتك العبقري وتنزو الحديث مع السعلة
وموقدنا والحصير القديم وموت السراج مع الفجوة
وأختي الصغيرة فيها رؤاي وعيني التي أحرقت مهجتي
دموع صغار على خدها دموع التعاسة والغربة
فيا قلبها لاتزدها أسى من البؤس ، من حظها الميت

وكذلك الشاعر تاج السر ينسى كل شيء إلا فنه الواقعي ، الذي يستمده من جهاد الأحرار ، من الحرية ، من حياة اللاجئين ، من دموع الغربة ، من كل شيء واقعي في الحياة . يصف حركة التحرير في إفريقيا فيقول :

بعث جديد يتحدى الظلمات الغاشية
قد أشرق الأسود في يديه دمدمات الهاوية
يقذفها في أوجه المستعمرين الذاوية
وتنتشي بجثة السفاك نار عاليـــة
حيث تعود الأرض ، أرضي حرة ، إفريقية

ويتحدث كذلك في قصيدته « حريتي » عن الحرية ، فيقول في لحن أخاذ جميل .

سأظل ياحريتي لحنا تفجره الحياة
وأظل آمالا تشارك كل محروم أساه
ويثور قلبي يملأ الدنيا نداء للحياة
حتى تعود الأرض لي ، للشعب حرا في رباه

ويصور في قصيدته (قصة لاجيء) حياة أولئك اللاجئين المترفة قبل تشريدهم ، ثم يصف انقضاض الذئب الإسرائيلي على الوطن العربي في فلسطين ، والدم الأحمر الذي سال

فى رباها ، والأشلاء الطاهرة التى مزقت على الأرض ، والأمن الذى صار خوفا ، والسلام الذى استحال فزعا ورعبا وأنينا ودموعا ، ويختم هذه القصيدة بقوله :

فأنت منى ، نحن ترنيمة ونحن صوت يتحدى القرون
ليسمع الخلود أنشودة رائعة التصوير حرى الرنين
وسوف نحدو ونغنى الشعوب وسوف ينداح الدجى والظنون
ونبعث المستضعفين الألى ماتوا هنا فى ظلام القرون

وقصيدته (عرف الغربة) من روائعه ، وتمتاز برمزية غالية ، وموسيقى حلوة وخيال جميل ، ويقول فيها :

الغربة الحمقاء تطغى عليه وترسم الحيرة فى مقلتيه
وقصة واغلة فى الأسى كان يغنى صوتها مسمعيه
وقلبه نأى بعيد الصدى صدى حياة أفلتت من يديه

ولنترك هؤلاء إلى الشاعر محي الدين فارس ، لنرى لونا من ألوان الواقعية فى شعره ، يحدثنا عنه الشاعر فى قصيدته (نفير الكفاح) حيث يقول :

ودوى النفير ، نفير الكفاح من العالم الحر فى موعد
من الهند والصين من كل أرض يلوثها الغاصب المعتدى
ملايين ثارت على أمسها على ذلك الشبح الأسود
سينهار يوما جدار الظلام وينبثق الفجر من هاهنا
وتمشى الملايين مزهوة تطرز للغاصب الأكفنا
وأبصر فى الأوجه البائسات دماء الحياة ، دبيب المنى
وأزرع أرضى ، أرضى أنا وأجنى الزنابق والسوسنا

وكذلك نجد فنه الواقعى فى قصيدته (احرار الباستيل) التى نظمها من وحى شمال إفريقيا ، وفى قصيدته (أطلال قرية) ، وفى قصيدته (خذوا حذركم) ، ويتلاق فنه التصويرى مع واقعيته فى قصيدته (طفل) التى يقول فيها :

هناك فى سرحتنا الخضراء ، عند النهر
عربدت الأطفال فى المنعطف المزدهر
تسلقت ضفائر الصفصاف تحت القمر
وعانقت أرجوحة الظلال فى المنحدر
مثل فراشات الضحى ترف بين الشجر

ويستمر فى وصف هذه الطفولة المرحة البريئة ، حتى يقول :

سوى غلام شاحب مستغرق فى الفكر
تفجرت دموعه كاللهب المستعر
مات أبوه ، أمه ماتت ، فيا للقدر
تمزق الشراع فى نهر الحياة العكر
وانطفأ المصباح فى دنياه دنيا الصغر
ومر لم يحفل به قلب الزمان الحجرى

وهو فى قصيدته « انتظار » يصعد فى جو الأحلام كما شاء له الحب أن يصعد ، ويقول منها فى موسيقى لطيفة :

عد ياحبيبى إننى أنا فى انتظارك فى الخميلة
أرعى خيالك عابرا فى الوهم ، فى الذكرا الجميلة
أرنو إلى الأفق البعيد ، إلى مغانيك الظليلة

ولننتقل من هؤلاء الشعراء إلى صالح آدم بيلو الشاعر المستغرق فى النشوة فى قصيدته « عصر المدنية » وسواها من روائع شعره ، يقول من هذه القصيدة :

هاهو العالم فى بركانه يغلى اضطرابا
هاتف يهتف بالحرب اشتعالا وخرابا
من ترى الجانى ومن ذر على العقل الترابا
قلت : ياقوم تعالوا واسألوها المدنية
إن هذا الشرق مفتون بلفظ العبقرية

لم ينته بعد حديث هؤلاء الشعراء الواقعيين ، ولم تفرغ قصة هذه المدرسة العجيبة ، التى خطت بالشعر السودانى المعاصر خطوات جبارة رائعة حقا . . فهناك شاعر آخر هو « إبراهيم عبده شعراوى » ، الذى نلمس واقعيته فى قصيدته « كفاح كينيا » ، وفى قصائده : « خوفو » ، والتأميم ، و (قصة البربرى) ، و (وصية الشهيد) وسواها من بديع شعره . . استمعوا إليه يقول من قصيدته (وصية الشهيد) :

وتساءلت وقد واجهتهم : وأنا ماعددى وكم عددى
لم أكن وحدى ، فقد كان معى أمل النصر وعزمى ويدى

أنا إن أمض فما كنت سوى   خنجر فى جنب باغ معتدى
أنا إن أمض لحسبى أننى   أزرع الورد ليجنى ولدى

وهو يتهكم فى قصيدته (رحماء) بمنتحلى صفة الرحمة والإنسانية من أغنيائنا ليستعبدوا باسمها الفقراء ، وينادى فى قصيدته (التأميم) بتأميم كل شىء حتى الفن بل حتى السرور ، والفرحةمابين الصدور .. واستمع إليهفى قصيدته (كفاح كينيا) يقول :

كيف قام الزنجى يفرك عينيه وقد نام من قديم الدهور
عاصر الذل منذ أن عرف الذل ، أحب الحياة فى الديجور
كيف يصحو ؟ بل كيف نام عن الزهر ، عن الظل ، عن جمال النور
عاد « جومو »(١) ليغسل الذل عن وجه أبيه وأمه والصبية
عاد جومو إذن ليغرس فى الأرض بذور الإباء والحرية
وليروى تلك البذور بآمال كبار وبالدماء الزكية
فإذا بالرصاص مرتعشا كالرمل يمضى إلى القلوب الفتية
وإذا بالدماء تنقش فى الأرض عميقا : تعيش إفريقية

وهو فى قصيدته « خوفو » يحتقر تسخير الشعب لبناء الأهرام ، ويصرخ قائلا يتحدث عن « خوفو » :

جمع الصخر والرمال بناء   لموات ، ومجد الأوهاما
ليته شاد خبزا لجياع   أو بناء تأوى إليه اليتامى
الحياة الحياة تبسم حولى   وتغنى وأعبد الأصناما ؟

ويبلغ شعراوى فى قصيدته « قصة البربرى » غاية كبيرة من الإجادة الفنية ، والتصوير الواقعى الجميل .

وننتقل إلى شاعر رقيق آخر من شعراء هذه المدرسة ، يجيد الوصف ، ويستغرق فى نشوة روحية عميقة فى الطبيعة الجميلة ، فى الفجر الضاحك ، فى مذهب الحب الذى آمن به ، وهو العوض الحسين ، الذى يقول :

أهلا بهذا الفجر مرحى بالصباح الباسم
أهلا بمقدمك الكريم يزف أكرم قادم

---

(١) جومو قائد من قواد حركة التحرير فى كينيا .

يالجو حيتك النفوس وكل قلب هائم
ورنت إلى دنيا جمالك فى شرود الساهم
أحيا بروحى فى الجمال وفى الحقيقة والخواطر
الحب دينى فى الوجود وهبته أسمى المشاعر
ووهبته للكائنات وللسواجع والجآذر
للغابة العذراء ، والروض المفتح ، والأزاهر
وأخى ، أخى الانسان ، فى البيد أو بين الحواضر

وهذا الشاعر الغنائى الرقيق يحدق بعينيه فى السكون ، يستقصى أسراره ، وهو يقول من رباعيات له :

من أودع الفتنة هذا السحر   من أكسب الرقة ذاك القمر
ماأجمل العالم لولا النوى   ورحلة مزمعها لايعود

أما أحمد عبد الله المغربى فيسحره الجمال ويصيبه ، فيقف يشكوه وهو يقول :

حببت لى دنيا الهوى فطرقتها   ودنوت منك فما ظفرت بنائل
وبسمت لى حتى إذا ازدهر المنى   وشغلتنى منيتنى بالباطل

ويطرح الشاعر محمد زروق محمد شريف هذا الخيال والتأمل ، إلى الواقع فيصف حياة طريد فى قصيدته الرائية الطويلة، التى تمسك عن الاختيار منها لطولها وتلاحمها وضيق المقام .

هذه هى قصة الشعر السودانى المعاصر ، بأعلامه وطبقاته ومذاهبه الفنية المتعددة .. ومن الغريب أن الشعر والأدب السودانى لم يكتب عنهما إلا القليل النادر الذى لايفى بحاجة الباحث الأدبى ، وقد تكون هذه الصورة التى رسمتها أمامكم للشعر السودانى المعاصر صورة دقيقة لم يرسمها أحد قبلى بهذا الوضوح والاستقصاء والتحليل .

وإنى لأشكر لرابطة الأدب الحديث فضلها فى الدعوة إلى هذه الندوة الأدبية مظهراً كريما من مظاهر تعلقنا بالسودان الحبيب ، وحرصا على تسجيل النهضات الأدبية المعاصرة فى البلاد العربية عامة وفى السودان الشقيق خاصة ، وتقديراً لشعراء السودان المجودين فى كل غرض ، المجيدين فى كل مذهب .

— ٤ —

وهذه نماذج منوعة من الشعر السودانى المعاصر ، توضح بعض ما أجملته من خصائص الشعر السودانى ومميزاته ..

١ - يقول الشاعر السودانى أبو القاسم عثمان من قصيدته « أيها العام » :

أيهـــا العام مرحبا بالطعان مرحبا بالنزاع والطغيان
مرحبا بالصراع والزبد الدا فق والعنف واللظى والدخان
مرحبا باللهيب والضرم الدا وى ودنيا الأوجاع والأحزان
مرحبا بالظلام والحلك المطبق والعثير الوخيم المجانى
مرحبا بالخطوب تبلو سرانا مرحبا بالصخور والكثبان
أيها العام أنت عبء جسيم كالذى مر فى ركاب الزمان
لست ألقاك بالورود ولكن سوف ألقاك باللظى والسنان
أنا ودعت فى الشباب طلاقا تى وأترعت بالدموع دنانى
غيرت رسمى السنين اللواتى شردت مهجتى وهزت كيانى
وأمان زودتها عزمات أين منها عزائم الشيطان ؟
أورثتنى من الهموم جبالا ودهتنى بالجهد والأشجان
ها أنا أعبر القفار وحيدا فى جفاف من المنى والحنان
ها أنا أعبر المهامه والبيد وأشقى باليأس والحرمان
أين منى قيثارى وكؤوسى وهتاف الرفاق والخلان ؟
وزمان كفنته بمضائى وزمان يسعى إلى الأكفان ؟
أيها العام ماطلبنا جديدا حسبنا من جديدنا ماتعانى
أيها العام مرحبا بالرزايا فى سرانا . لامرحبا بالأمانى

٢ - ويقول ادريس جماع من قصيدته : « النيل » :

واد من السحر أم ماء وشطآن أم جنة زفها للناس رضوان
كل الحياة ربيع مشرق نضر فى جانبيه وكل العمر ريمان
تمشى الأصائل فى واديه حالمة يحفها موكب بالعطر ريان
وللطبيعة شدو فى جوانبه له صدى فى رحاب النفس مرنان
إذا العنادل حيا النيل صادحها والليل ساج فصمت الليل آذان
حتى إذا ابتسم الفجر النضير لها وباكرته أهازيج وألحان
تحدر النور من آفاقه طربا واستقبلته الروابى وهو نشوان
أقبلت من ربوة فيحاء ضاحكة فى كل مغنى بها للسحر إيوان
وسرت تخطر مأنوسا بمعشبة حياك من نبتها زهر وريحان

وفى حمى جبل « الرجاف » مختلب | للناظرين وللأهوال ميدان
إذا صحا الجبل المرهوب ريع له | قلب الثرى وبدت للذعر ألوان
فالوحش مابين مذهول يصفده | يأس وآخر يعدو وهو حيران
ماذا دهى جبل الرجاف فاصطرعت | فى جوفه حرق وارتج صوان ؟
هل ضاق حين رأى قيدا يكبله | على الثرى فتمشت فيه نيران ؟
والنيل مندفع كاللحن أرسله | من المزامير إحساس ووجدان
حتى إذا أبصر الخرطوم مشرقة | وخالجته اهتزازات وأشجان
بدا له الأزرق الصفاق وامتزجت | روحاهما فكلا النيلين ولهان
وردد الموج فى الشطين أغنية | طليقة مالها بحر وأوزان
تحدر النيل فى البيداء يدفعه | قلب بمصر شديد الخفق هيمان
إذا الجنادل قامت دون مسربه | أرغى وأزبد فيها وهو غضبان
ونشر الهول فى الآفاق مندفعا | جم الهياج كأن الماء بركان
وحول الصخر ذرا فى مدارجه | فبات وهو على الشطين كثبان
عزيمة النيل تفنى الصخر حدتها | فكيف إن مسه بالضيم إنسان ؟
مشى على الصخر موصول الخطا مرحا | حتى انجلت من ستار الأفق (أسوان)
فانساب يحلم فى واد يظلله | نخل تهدل فى الشطين فينان
بادى المهابة شماخ بمفرقه | كأنما هو للعلياء عنوان

٣ — ويقول الفيتورى من قصيدته « فى طريق الأبدية » :

.. وحملت مصباحى أشق به الدجى | شق السيول طريقها فى الغاب
أمشى على أرض معذبة الثرى | مفروشة بالشوك والاحطاب
ضفرت يد الاقدار تاج كآبتى | من عشب أدغال وشوك شعاب
ومضت تخيط من الثلوج عباءتى | وتحوك من قطع الدجى جلبابى
فكأننى بين المفاجع زورق | بجناحه الاعصار فوق عباب
وكأن خلفى قوة جبارة | عمياء ، تجذبنى إلى الأعقاب
وكأن فوقى صخرة مصلوبة | قد أثقلت كتفى بالأوصاب
وكأن تحتى هوة مسعورة | جنت لها روحى وجف شبابى
وكأن فى قلبى مناحة شاعر | شبت ملاحمها بجوف ربابى
وكأن فى أذنى لحن جنازة | قامت قيامتها بغير حساب .. !

وكأن في عيني حسرة آدم   وكأن في شفتي لحن عذاب .. !
وصرخت كالمجنون صرخة مارد   متكبر الآمال والآراب ..
« يا أرض إلى نغمة علوية   هيهات يخرسها طنين ذباب
يا ليل إلى قبة أبدية   هيهات يحجب ضوؤها بحجاب
يا صمت إلى فكرة صوفية   فوق القيود ... وكل سجن كاب
يا أيها القدر المقدس إنني   قدر .. وهذا الكون بعض كتابي
يا أيها اليأس المعربد في دمي   من قال إني يا تراب (ترابي !)
وحملت مصباحي أشق به الدجى   شق السيول طريقها في الغاب . .

٤ ـ ويقول الشاعر مبارك المغربي في ديوانه (عصارة قلب) المطبوع في القاهرة عام ١٩٥٤ وذلك من قصيدة عنوانها (صدى الذكرى) ، ويبدو فيها روح التأثر بابن زيدون :

يا مالكا مهجتي ظلما وإحساسي   إن تنس عهدي فإني لست بالناسي
وكيف أنساك يامن بات يشغلني   رغما من النفس عن صحبي وجلاسي
بددت صبري حتى ضاق ذو ثقتي   من الصحاب وحتى ضقت بالناس
إن كنت تذكر ما ولى وتحفظه   ما في صدودك يادنياي من باس
إياك أدعوك مفتونا فتصحبني   جذلان تمرح في ود وإيناس

٥ ـ ويقول محي الدين فارس من قصيدته (أحرار الباستيل) :

وقيل هنالك منفى عجوز   وأمعاؤه أتخمت بالبشر
على بابه الحجري العتيق ..   زبانية من بقايا العصر ..
تغني على صرخات الضحايا   وترقص فوق اللظى المستعر
ولكنهم رغم نار السياط   وزمجرة العاصف المكفهر
مضوا يعزفون نشيد الصباح   ويستلهمون الغد المنتظر !!
وكان العبيد حفاة .. عراة   يساقون قسرا إلى المقصلة
تجرجر أقدامها المتعبات   وتعبر أيامها القاحلة ...
وأجفانهم علقت بالفضاء   مكثفة بالأسى .. ذاهلة
وجوه عراها اصفرار كئيب   لجفت ينابيعها الحافلة
وتمضي الليالي بهم في وجوم   كتنهيدة في الدجى موغلة !!
وفي حفرة غاب عنها الضياء   مدى العمر .. جاثمة في جمود

ويلطم جدرانها المظلمات سعال عنيف كقصف الرعود
وأم هنالك عند الجدار تطوقها حلق من حديد
وطفل يئن على صدرها تشبث بالثدى واه عنيد
وإن راح يصرخ ملء الظلام تروعه صرخات الجنود
وعن كثب.. تحت مصباح ضوء شحيح .. تراعش كالمحتضر
تجمع أحرارنا الماجدون على وحدة الألم المستعر
ورفقتنا . . . وخطا الامتحان تدق عنيفاً . . شتيتو الذكر
فذاك يذاكر فى صفحة وذاك يلسلم خيط الفكر
وذاك . . . تهالك فى مقعد تهدم . . . يسعل ما يستقر
ويارب شيخ براه الهزال وأقعده الزمن الأرعن
على ظهره لاحات السياط تؤج لهيبا وما يذعن
أقاموه فى حفرة كالجحيم نسيم الحياة بها يأسن
تململ فوق حصير قديم وطال به أرق مزمن
كذلك يمضى قطيع الشعوب ليمتصه ذلك المدفن
فياقلعة من حصون الظلام تشامخ كبرا على أرضنا
تطل .. فتذكى خبايا النفوس وتضرم نيران أحقادنا
ولكن غدا من فصول الزمان ستمحى روايات مأساتنا
ونسحق أعداءنا المتخمين ومن دنسوا أرض أجدادنا
ونهدم مقبرة الأبرياء ونطلق أنغام أفراحنا
أخى فى متاهات سجن الحياة تجلد . . لتعبر ظلماءها
فبعد الغيوم يطل الصباح فتكسو النضارات أرجاءها
لنا فى غد ثمرات الحياة نغنى . . . وتبدع آلاءها
أخى قد نفضت غبار السنين وواريت فى الأرض أرزاءها
ورحت أعانق كل الشعوب وأدفن فى النور ظلماءها
فاحسست أحسست أنى احب أحب الحياة وأبناءها
غدا تزدهى جنبات الحياة باشراقة الأمل الباسمه
وتبنى الحياة .. حياة الجموع منغمة . . . حلوة . . ناعمة

٦ ـ ويقول الفيتورى فى قصيدته « قدر » :

خلف هذا الجدار هذا الجدار الفخم هذى النوافذ الحمراء
نصب هشة سأهدمها يوما بفأسى القوية الصماء
نصب بل هياكل أطلتها جبهة الضعف بل قوارير ماء
نصب تشمل الدماء لياليها ليالى لذاتها العمياء
نصب تأكل اللحوم لخدم الآدميين فى طباق الهناء
نصب ترتدى الربيع وتمشى كبرياء على جبين السماء
نصب تسكن القصور قصورا بنيت من جماجم الفقراء
نصب تقتنى الضياع وماقيها من الميتين والأحياء
نصب لاتحس حتى طبول الرعد حتى ملاحم الأنواء
ولقد يشعر الجدار برعشات العرايا ، بالأنة الصفراء
ولقد يشعر الجدار فيرتج فيبكى بجاعة الضعفاء
هى سكرى إلا عن القدر الذائب بين السيقان والأثداء
والشفاه المخمورة الرعشاء والعيون المسحورة الخضراء
وهى فى غفلة بشهوتها الحمقاء عن نمتى وعن بغضائى
واحتقارى لها احتقارى لهذا المجد ، هذه السعادة الجوفاء
ولقد تزدرى بما فى يدى من خصل النار أو غصون الضياء
غير أنى يوما سأهوى عليها بعزيفى بكل هول شتائى
فاسمعى أيها المقادير ! ياأيتها الآفاق ، ياقوة الوجود ، دمائى
إننى ماخلقت إلا لكى أبنى على هذه القبور سمائى
إننى ماخلقت الا لكى أو قد نورى بهذه الأشلاء !

٧ ـ ويقول فى قصيدته « لن أغنى » :

لن أغنى ابدا لن تسمعى من فمى غير هدير الألم !
سوف أجتاز حياتى قلقا شاحب الانغام حتى تبسمى
عندما افتح عينى على الشعب حر اليد حر القدم
وعلى الفلاح يجنى قطنه مخصب النفس شفيف النغم
وعلى الصانع فى مصنعه غير منبوذ ولا متهم
وعلى العامل فى معمله صافيا مثل مياه الديم

وعلى آخر وجه أحمر سرقت حمرته لون دمى
وهو يمضى مظللا بمتقما ساحبا أقدامه كالهرم
كاتبا فى قصة المحتل آخر فصل من ليالى المأتم
فهنا تفتر أنغامى وتذهب آلامى ويصفو حلمى
وهنـــا يسكرنى النور هنا تثمل الفرحة حتى قلمى
فاسمعى الآن نشيدى إنه صرخات النسر فوق القمم
اسمعيه إننى أنحته من أحاسيسى من نار دمى
من جنون النهر المقتحم وانفعال العاصف المحتدم
من أناشيد الضحايا حينما يتحدون جبال العزم
يحصدون الأرض عظما ودماً ويدوسون رقاب الظلم
ويسيرون إلى الموت وقد حدقت شهوته بالرمم
وعلى أفواههم أنشودة نارها ملء فراغ الأعظم
مصر يامصر التى نعبدها لن تموتى أبدا لن تهرمى
نحن والدنيا طعام للردى أو تعيشى حرة فى الأمم
ياجلادك جلاد المقادير جلاد النسور الحوم
أحرق السبعين عاما عبثا كشموع أوقدت فى منجم
بذر الآلام فى أرضك فى منبت الشمس وحقل الأنجم
صفد الأغلال فى كل يد سكب الظلمة فى كل فم
حشد الأسوار حتى لم يعد منك إلا باب قبو مظلم

٨ — ويقول فى قصيدته « لايا أخى » :

ألئن وجهى أسود ولأن وجهك أبيض سميتنى عبدا
ووطئت إنسانيتى وحقرت روحانيتى ، فصنعت لى قيدا
وشربت كرمى ظالما وأكلت بقلى ناقما وتركت لى الحقدا
ولبست مانسجت خيوط مغازلى وتركت لى التنهيد والكدا
وسكنت جنات الفراديس التى بيدى نحت صخورها الصلدا
وأنا كم استلقيت فى كوخ الدجى أتلفع الظلمات والبردا
كالشاة أجتر الكآبة عاقدا حولى دخان تفاهتى عقدا
حتى إذا انطفأت مصابيح السما وانساب نهر الفجر ممتدا

أيقظت ماشيتى الهذيلة وانطلقت أقودها لمراحها قودا
فإذا سمن نعمت أنت بلحمها ونبذت لى الأمعاء والجلدا
لا ياأخى إن التهاب مشاعرى هيهات بعد اليوم أن يهدا
هيهات لم أخلق عليها بومة تقتات بالديدان أو قردا
أنا كائن أمى وأمك طينة والنور ليس لأينا جدا
فإلام تحرمنى حقوقى بينما تلق الرغادة أنت والمجدا
وإلام تستعلى بأنفك سيدا وأنا أطأطىء هامتى عبدا
إنى صحوت، صحوت من أمسى، وذى فأسى تهــد قبوره هدا
سأكون نارا فالحياة تريدنى نارا وأرقص فوقها رعدا
فاخلع براقع كبريائك إننى أسكنت جيفة ذلتى لحدا
واضمم يديك إلى يدى نشد معا صرح المحبة بيننا شيدا
إنى أخوك فلا تعق أخوتى فتزيد بركانيتى وقدا
إياك لاتبذر بذور عداوتى فتروح تحصد شوكها حصدا
إياك لاتزرع حقولك عوسجا إنى زرعت حقولى الوردا

٩ ـ ويقول فى قصيدته « الينابيع الجديدة » :

اتخمت قيثارى بهذا الحب هذا الضعف هذى اللعنة السوداء
واليوم يوم المحرقين دماءهم فى مذبح الحرية الحمراء
لاتلهمينيه غناء مائعا متناوحا متجاوب الأصداء
لكن أعاصيرا ممردة الذرى وحرائقا ممتدة الأرجاء
فالويل كل الويل للشادين بين مآتم الأموات والأحياء
الراقصين على الطريق مشيدا بجماجم التعساء والبؤساء
والويل للمتوشحين بنورهم وربيعهم فى ظلمة الفقراء
الباسمين إلى الحياة وحولهم أمواج نهر الأدمع الخرساء
والويل للمتوسدين صباحهم ومساءهم فى حيرة الضعفاء
الراقدين على الحرير وغيرهم متوسدون سواعد الظلماء
لاتلهمينيه غناء مائعا متخنثا مترجرج الأصداء
فالويل للفن الذى لم يستجب لمواجع البشرية الصفراء
والويل للنسم الذى لم يحترق ليعود عاصفة من الأنواء

والويل للنهر الوديع المستحم بضعفه من قوة الدأماء
والويل للسفح المجلل بالدجى من سخريات القمة الشماء
والويل للبيت الذى لم ينتفض فى قبره ليعود فى الأحياء
ثم ماذا ؟ روحك الخالد لم يفن ، روح العبقرى الملهم
وتمردت وفى كفك شعلتك الحمراء لم تنهزم
عبثا تهدم شرفات الضحى كل فأس فى أيادى الظلم
عبثا تخنق أنفاس الشذى الغض كف السارق المقتحم
عبثا حتى البلى - حتى الردى - لن ينالا من خلود الهرم
كنت يا مصر وكانت قصة الكون حلما فى خيال العدم
وعلى حجرك أغفى زمنا قبلما تصحو جفون البرعم
وبعينيك رأى الله ، رأى نفسه فى ظلمات القدم
كنت يا مصر ! ! وما آلم ان يصبح الواقع ذكرى ألم
فاحملى جرح الضحايا وابسمى . لاتنوحى خلفهم - لاتندمى
انها ليست جراحا . انها ومضات الأمل المبتسم ! !
ياأيها الشعب العظيم وإنما ادعو ألوهة روحك المتمرد
القيد قيدك أنت نار حديده لاصنع جبار ولامستعبد
فإذا تشاء سحقته فتلقفت ذراته ريح الفناء الأسود
وإذا تشاء غصصت افواه الردى برمائم المعبود والمتعبد
فاهتف باشواق الحياة تجبك أصوات الحياة بقلبها المتوقد
وازحف على ظلمات يومك ينبثق نورالغد القدسى من قبل الغد
تلك النباتات المدنسة التى كم عانقتك بشوكها المتجرد
لست الذى يثنيه شوك جذوعها لا كنت ان لم تقتلعها باليد
أنا لن أنوح عليك لن أبكى على نيرانك المستغرقات الهمد
لازلت ألمح فى رمادك قوة إن تنطلق تطفىء صباح المعتدى
وأحس فى معنى سكوتك رعدة ياويح أحلامى إذا لم ترعد
يارعشة الأشواق أشواقى إلى جيشان أرضك بالدم المتسعر
ولواك المخضوب يخفق عاليا بجناح نسر فى الأصائل مبحر

والأوجه السمراء فى جبهاتها وعيونها ايماضة المتجبر
والأذرع المتجمدات وقد تعرقها انتقام المارد المتحدر
عقل من النيران والدم صارخ بزوال مجد الغاصب المستعمر
وبناء إنسانية لم تحتقر ذل الضعيف ولا أنين المعسر
لم تبن جنتها الجميلة بين آلام الأجير وضحكة المستأجر
لم تبتدع يوما رسوم سقوفها فرشاة مصدور ولا متكدر
لم تجر أنهرها وخلف سياجها تفنى الألوف من الهجير الأكبر
لم تزه كرمتها ويحن نخيلها والجوع يعصف بالجسوم الضمر
فهناك يا شعبي ستنبت فرحتى فى مهجتى وتعود رقة مزهرى
ويعود بلبلك الجميل معطرا بغنائه قلب الربيع الأخضر

على الجارم الشاعر

فى يوم الثلاثاء الثامن من فبراير عام ١٩٤٩ توفى الشاعر على الجارم ؛ بعد حياة أدبية زاخرة بالجد والطموح والأمل ، وأقيم له يوم الخميس الثالث والعشرين من يونيو من العام نفسه حفل تأبين بمسرح حديقة الأزبكية ، أبان فيه كثير من أعلام الأدب رأيهم فى الشاعر وشاعريته

ولقد ولد الشاعر فى رشيد ، وتلقى دراسات دينية هيأته لأن يلتحق بالازهر ، ثم بدار العلوم ، ثم تخرج منها ، وسافر إلى انجلترا . . وكان الشعر يجرى على لسانه وهو تلميذ صغير سهلا مترقرقا ، فلما سافر إلى انجلترا تفتحت عيناه على صور جديدة كانت مادة لشاعريته . . كما أمدته بيئة رشيد الساحرة بأوصاف جميلة للطبيعة .

وعمل الجارم فى دار العلوم أستاذا ، ثم فى وزارة المعارف مفتشا للغة العربية ، ثم عميدا لتفتيش اللغة العربية ، وترك ديوانا ضخما فى أربعة أجزاء يزخر بالكثير من شعر الاجتماع والوطنية والحكمة ، كما ترك كتبا عديدة ، منها « الشاعر الطموح » و « هاتف من الأندلس » ، و (شاعر ملك) و (البلاغة الواضحة) و (النحو الواضح) بأجزائه . وسواها . . وله كثير من المقالات والدراسات الممتعة التى كان ينشرها فى الصحف والمجلات الأدبية .

وشعره على العموم معارضة واحتذاء للقدامى ويفيض بنزعة كلاسيكية قوية . وهو ثروة كبيرة للأدب العربى فى عصرنا الراهن . فقد كان الجارم حجة فى اللغة والبيان والأدب ، وكان ذواقة للمعانى عارفا بأقدارها وصاحب ملكات قوية فياضة

يخاطب الجارم الشباب فيقول من قصيدة له :

أهبت بالشعر أن يعودا ... إلى الصبا ناعماً رغيدا
يذكر ما مر من عهود ... لله ما أنضر العهودا !
فى كل يوم أرى فناء ... وهو يرى حوله خلودا
طار حثيثا بكل أفق ... لما مشت خطوتى وئيدا
وصوحت دوحتى ومالت ... ولم يزل صادحاً غريدا
يأخذ ما أبقت الليالى ... ويبتغى فوقه مزيدا
تجاربى الباكيات عادت ... تجرى بأوتاره نشيدا
فى حكمة الشيب لى عزاء ... وكم وعيد حوى وعودا
كادت أياديه وهى بيض ... تنسى حلى الشباب سودا
علوت طود الزمان حتى ... رأيت من فوقه الوجودا
وبان مالم يبن لغيرى ... وكان عن عينه بعيدا
كان شبابى رفيق عمرى ... فعشت من بعده وحيدا
غاب فلما مضى وولى ... جعلت شعرى له بريدا
أبعث بالشوق كل يوم ... ويبعث الهجر والصدودا
أين ورودى وأين كأسى ... ماذا دهى الكأس والورودا؟
لم يبق منى سوى لسان ... يجيد ما شاء أن يجيدا
وفكرة صورت نضاراً ... وحكمة نظمت عقودا
فيا شباب البلاد صونوا ... شرخ الصبا قبل أن يبيدا
يعود فى الكون كل شىء ... وذاهب العمر لن يعودا
إن اشتكى النيل مس ضيم ... فحرموا حوله الورودا
تجارة الرق قد تولت ... فما لنا نلبس القيودا ؟
قد ذهب العمر فى جدال ... كنا لنيرانه وقودا
لايدرك السؤل غير عزم ... مثابر يقرع الحديدا
فأيقظوا مصر من جديد ... فإنها ملت الرقودا
لاترسموا للطموح حداً ... فالمجد لايعرف الحدودا
العلم أمضى من المواضى ... فجردوا نحوه الجهودا
مصر تريد السماء وثباً ... وأول النجح أن تريدا

ويقول من قصيدته الزهراء فى مولد محمد بن عبد الله ، وهى مما غنى به من شعره ، وقد عارض بها همزية شوقى المشهورة ، قال الجارم :

تبسم ثغر الصبح عن مولد الهدى ... فللأرض إشراق به وزهاء
وعادت به الصحراء وهى جديبة ... عليها من الدين الجديد رواء
ونافست الأرض السماء بكوكب ... وضيء المحيا ماحوته سماء
تألق فى الدنيا يزيح ظلامها ... فزال عمى من حوله وعماء
ورد إلى العرب الحياة وقد مضى ... عليهم زمان والامام وراء
حجاب طوى الاحداث والناس دونهم ... فاظهر ما تجلو العيون خفاء
بنت أمم صرح الحضارة حولهم ... واقنعهم إبل لهم وحداء
بدا فى دجى الصحراء نور محمد ... وجلجل فى الصحراء منه نداء
نبى به ازدانت أباطح مكة ... وعز به ثور وتاه حراء
ينادى جرىء الأصغرين بدعوة ... اكب لها الأصنام والزعماء
دعاهم لرب واحد جل شأنه ... له الأمر يولى الأمر كيف يشاء
دعاهم إلى نبذ الفخار وأنهم ... أمام إله العالمين سواء
دعاهم إلى ان ينهضوا بعفاتهم ... كراما ، فطاح الفقر والفقراء
دعاهم إلى ان يفتحوا القلب كى ترى ... بصيرته مايبصر البصراء
دعاهم إلى القرآن نورا وحكمة ... وفيه لأدواء الصدور شفاء
دعاهم إلى ان يهزموا الشرك طاغيا ... تسيل نفوس حوله ودماء
دعاهم إلى ان يبتنوا الملك راسخا ... له العدل أس والطموح بناء
دعاهم إلى ان الفتى صنع نفسه ... وليس له من قومه شفعاء
دعاهم إلى ان يملكوا الأرض عنوة ... مساميح ، لا كبر ولا خيلاء
فلباه من عليا معد غضافر ... كماة إذا اشتد الوغى شهداء
أشداء ماباهى الجهاد بمثلهم ... وهم بينهم فى أمرهم رحماء
أساءوا إلى الاسياف حتى تحطمت ... وما مرة للمستجير أساءوا
وقد حملوا أرواحهم فى أكفهم ... وليس لهم إلا الخلود جزاء
فهل تعلم الصحراء أن رعاءها ... حماة بآفاق البلاد رعاء ؟
وانهم ان زاولوا الحكم ساسة ... وإن أرسلوا أحكامهم فقهاء ؟
لقد شربوا من منهل الدين نغبة ... مطهرة ، فالظامئون رواء

وقد لمحوا من نور طه شعاعه ... فكل ظلام فى الوجود ضياء
نبى من الطهر المصفى نجاره ... سماحة نفس حرة وصفاء
وصبر على اللأواء مالان عوده ... ولامسه فى المعضلات عناء
وزهد له الدنيا جناح بعوضة ... وكل الذى تحت الهباء هباء
تراه لدى المحراب نسكا وخشية ... وتلقاه فى الميدان وهو مضاء
إذا صال لم يترك مصالا لصائل ... وإن قال ألقت سمعها البلغاء
كلام من الله المهيمن روحه ... ومن حلل الفصحى عليه رداء
كلام أرادته المقاويل فالتوى ... عليها، وضلت طرقه الحكماء
كلام هو السحر المبين وإن يكن ... له ألف مثل الكلام وباء
عجيب من الأمى علم وحكمة ... تضاءل عن مرماهما العلماء
نبى الهدى قد حرق الأنفس الصدى ... ونحن لفيض من يديك ظماء
أفضها علينا نفحة هاشمية ... يلم بها جرح ويبرأ داء
فليس لنا إلا رضاك وسيلة ... وليس لنا إلا حماك رجاء
حننا إلى مجد العروبة سامقا ... وما نحن فى ساحاته غرباء
زمان لواء العرب يزهى بقومه ... وما طاله فى العالمين لواء
زمان لنا فوق الممالك دولة ... وفى الدهر حكم نافذ وقضاء
نناجيك هذى راية العرب فاحمها ... فمن حولها أجنادك البسلاء
رمينا بكف أنت سددت رميها ... فما طاش سهم أو أخل رماء
أعرنا بحق المصطفى منك قوة ... فليس لغير الأقوياء بقاء

وكان الجارم عضوا فى المجمع اللغوى. وكانت له فى افتتاح كل دورة من دوراته قصيدة عصماء. ومن قصيدته فى افتتاح الدورة الثانية للمجمع :

ذكريات ردد الدهر صداها ... وعهود يحسد المسك شذاها
وصل العرب الغطاريف إلى ... غاية لاتبلغ الطير ذراها
وجروا صوب العلا فى طلق ... زاحم الأنجم واجتاز مداها
تقف الأوهام حرى دونه ... لاهثات، قصر الأين خطاها

مر بالشمس فلم تشعر به   اذ جرى إلا ظنونا واشتباها
أمة بالصحراء أقوى جلدا   من مهاريها وأهدى من قطاها
صخرها أوحى إليها عزمة   من بنى رضوى وثهلان بناها
وسكون البيد فى رهبتها   جرد الروح وبالنور كساها
رب صدر نافس الحلم به   كل صحراء بعيد منتهاها
وخلال أنبت الجدب بها   عزة البأس فما لانت قناها
أبت الضيم فما مدت يداً   لذوى النعمى ولم تعفر جباها
تحفظ العرض مصونا ناصعاً   والى الطراق مبذول قراها
أمم إن يهلك المال فإن   لمست أعراضها حلت حماها
رددت أشعارها شمس الضحى   وسراج الليل لما أن تلاها
آية من نفحة الله فلو   كان للنسيان كف ما محاها
روضة قد لقبوها كلما   تخجل الحسن إذا الحسن رآها
كم حكيم أوتى الحكم فتى   وفتاة ملأ التبيان فاها
ترسل الأمثال تسرى شرداً   لاتبالى أينما كان سراها
قف على الاطلال واذكر أمة   خلد الأطلال مأثور بكاها
بعث الله بها نور الهدى   من قريش فاصطفاه واصطفاها
أشرق الصبح على الدنيا به   بعد أن طال على الدنيا دجاها
وجرى فى الأرض ينبوع هدى   بعد أن حرقها حر صداها
قلد الفصحى حلى قدسية   فزهاها من حلاها مازهاها
وبيانا هاشميا لو رمى   قلل الاجبال لانهدت قواها
أسهم من كلم مسنونة   جاهدت فى الله ، والله براها
يزعم الشعر سفاها أنه   لو عفت عنه القوافى لحكاها
نزل القرآن بالضاد فلو   لم يكن فيها سواه لكفاها
حسبها أن صورت من آيه   معجزات عظمت أن تتناهى

وله قصيدة تصويرية بديعة . يصور فيها الأعمى . ويتحدث عن حياته . قال منها :

من يجيرى من حالكات الليالى ؟   نوب الدهر : مالكن ومالى ؟

قدطوانى الظلام حتى كأنى   فى دياجى الوجود طيف خيال
كل ليل له زوال وليلى   دق أطنابه لغير زوال
لا أرى حينما أرى غير حظى   حالك اللون عابس الآمال
هو جب أعيش فيه حزينا   كاسف النفس دائم البلبال
ما رأت بسمة الشموس زوايـ   ـاه ولا داعبت شعاع الهلال
فإذا نمت فالظلام أمامى   أو تيقظت فالسواد حيالى
عبثاً ارسل الأنين من الجـ   ـب إلى ساكنى القصور العوالى
من لهذا الأعمى يمد عصاه   عاصب البطن لم يبح بسؤال
من رآه يرى خليطا من البؤس   هزيلا يسير فى أسمال
فقد الضوء والحياة ، وهل بعـ   ـد ضياء العينين سلوى لسال
مطلته الأيام والناس حقاً   فقضى عيشه شهيد المطال
أنقذوا العاجز الفقير وصونوا   وجهه عن مذلة وابتذال
علموه ، يطرق من العيش باباً   وامنحوه مفاتح الأقفال
لاتضموا إلى أساه عمى الجهـ   ـل فيلتق النكال بعد النكال
كل شىء يطاق من نوب الأيـ   ـام إلا عماية الجهال
علموه ، فالعلم مصباح دنيا   ه ولا تكتفوا بصنع السلال
بالأيادى الحسان يمحى دجى البؤ   س ، وتسمو الشعوب نحو الكمال
يذهب الفقر والثراء ويبقى   مابنى الخيرون من أعمال

وهكذا كان الجارم ينظم الشعر ، وهكذا كان شعره مشرق البيان . سمح العبارة قوى الأسلوب . مطبوعا بطابع الجزالة ، يبدو عليه آثار القراءة الواسعة فى آداب العرب وشعرهم . والاحتذاء الكثير لأشهر القصائد العربية القديمة

أحمد الزين وقصة حياته

يقول الشاعر أحمد الزين فى جزالة وقوة وبلاغة أسلوب :

ياغلة الصدر من حر الجوى زيدى   أبت شفاءك حتى بالمواعيد
سحرية الفم لو مست بقبلتها   فم العيى لحلت كل معقود
تكاد من رقة تغرى مقبلها   أن يحتسيها رحيقاً غير مورود

قد صاغها الله لما أشركت أمم ... به وقال اشهدوا برهان توحيدى
قل للبخيلة جودى لالقيت جوى ... إن كان يشفع لى قولى لها جودى
وساعة تحت أفياء الهوى سلفت ... ياساعة تحت أفياء الهوى عودى
ماضر لو أنها فى قبلة سمحت ... منت بوعد وإن ضنت بموعود
هل حاذرت حر شوقى حين ألثمها ... أن تذبل الورد أنفاسى بتصعيد
رحماك لليائس المطول يقنعه ... من الوجود خيال غير موجود
ظمآن لا رشفات الماء صافية ... تروى صداه ولا بنت العناقيد
شفاؤه قبلة لو أن محتضرا ... داوى بها الموت ردت غير مردود
فكم أقبل ثغر الزهر من شبه ... بثغرك العذب فى حسن وتوريد
عين من الخلد من ينهل بكوثرها ... ورد الحياة يفز منه بتخليد
صوت من القلب أمليه على فمها ... وعهد حب على الأيام ممدود
وللقلوب لغات ليس يدركها ... سوى فؤاد بنار الوجد معمود
حديث شوق بلا حرف ولا كلم ... تفضى به شفتى للخد والجيد
معنى من الحب يسمو أن أؤديه ... بكل لفظ من الألفاظ محدود
اللفظ يثقل بالترديد موقعه ... وتلك تحلو معانيها بترديد
دع الرسائل فيما لاتحيط به ... تلك اللغات ودع صوغ الأناشيد
فللشفاه على أمثالها لغة ... أحلى على السمع من مزمار دواد
أدت عن القلب مايعيا اللسان به ... كمنطق الطير غريد لغريد
كم قبلة لا أرى الدنيا لها ثمنا ... فلا تبع غير معدود بمعدود

من هذه القصيدة التى سماها الزين الشاعر « القبلة المنشودة » نلمس خصائص شاعرية الزين من الطرافة والروعة والفن الغنائى الجميل . وأقوى ماتبدو شاعرية الزين – كما تقول الناقدة الدكتورة بنت الشاطىء(١) – فى اجتماعياته . إذ يصف حال مجتمعنا وصفا بارع النكتة ، لاذع الفكاهة ، مرير السخرية ، فليس هنالك مايفوق شعر الزين الاجتماعى دقة تحليل ، ولطف حس ، وقوة انفعال ، وبساطة أداء . واقرأ من قصيدته « خدعة الثناء » :

كلهم فى الهوى يزين دينه ... ألف مفت ومالك فى المدينة
كل من صاح بالنبوة فينا ... قام أوس وخزرج ينصرونه

(١) الأهرام ١٩/١٠/١٩٥٣ .

ملأوا رأسه من الوهم حتى ظن إثما أن النبوة دونه
ليس ذنب الدعى هذا ولكن ذنب شعب بالزور يمتدحونه
كل يوم يكرمون دعيا كان عدل الجزاء لو يرجمونه
ودعى فى الدين، والدين يشكو فعلات كالكفر منه لعينه
هو فيهم كالذئب بين دجاج أو شياه يختار منها السمينه
غلب المدعون فى الفن حتى أخرسوا بالصياح من يتقنونه

ويقول فى قصيدته « الملق » :

يالسان الحق لاتنطلق فاز بالحظوة أهل الملق
علمونا ياأولى الصنعة ما قد علمتم من طلاء الخلق
أو فدلونا على صناعه نجتليه ببقايا الرمق
ألبس الشمس ظلاما دامسا وكسا الاظلام شمس المشرق
يمنح الفطنة أغبى خلقه والذكاء المحض رأس الأحمق
لاتقل أفنيت عمرى دائبا وبذلت الجهد جهد المرهق
ليس للدائب حظ بينهم لا ولا الجهد سبيل المرتقى
تزن العمر وعمرا مثله لحظة تبذلها فى الملق
لاتقل سهدي وجهدي عدتى إنما الجهد عتاد الأخرق
كم كفايات نفاها قومها وجهود ألقيت فى الطرق
فأت علياءهم من بابها لاتضع عمرك بين الورق

واقرأ قصائده : « صرعى الأغراض ، والضمير ، وغربة النبوغ » ، وفى دار الكتب » تجد فيها مثل هذا التشخيص الدقيق اللاذع لامراض ظلت أمدا تنخر فى جسم المجتمع حتى انهار أو كاد .

وللشاعر « الزين » إلى جانب براعته فى الشعر الاجتماعى ، مقدرة ممتازة فى الشعر العاطفى الرقيق ، ومن قصائده العاطفية أغان عذبة مؤثرة مثل قصيدة « معاودة الذكرى » ، حيث يقول :

عاود القلب حنينه من على الشوق يعينه
ويح قلبي من غرام هاج بالذكرى أنينه
يالخفاق إذا ما قر هزته شجونه
واصل من صد عنه صائن من لايصونه

أو قصيدة « العهود المطاولة » إذ يقول :

عللينا بالأمانى وابخلى	وعدينا بالتدانى وامطلى
وإذا لم تسعدى الشاكى بما	يرتجيه اسعدى بالأمل
كم سألنا وقنعنا اننا	نأمل البذل وإن لم تبذلى
فاسأليه مرة : ماسقمه	حسب من أسقمته أن تسألى
حسبه علمك عنه أنه	مسه الحب بداء معضل
اخطرى وهمك فيه مرة	خطرة الشجو على بال الخلى

وأدع الأستاذ « عبد المغنى المنشاوى » الذى أعد ديوانه للنشر يتحدث عن صاحبه «الزين» فيقول : .. الزين شاعرموهوب عالج قرض الشعر وهوالصبي الحدث وكان مفتونا فى نشأته الأولى بمحاكاة لفحول شعراء الجاهلية ومعارضتهم ، ولكنه ماكاد يخلع الصبا حتى خلع عن نفسه هذا الأسلوب الذى لايوائم العصر فخرج شعره للناس فى هذه الصورة الحية ، التى تلمح فيها الأسلوب الواضح والخيال الرائع والحس الرقيق الدقيق .

ويقول الأستاذ عبدالجواد رمضان من دراسة له عن الزين نشرت فى مجلة الأزهر : قرظ المغفور له اسماعيل صبرى كتاب « قلائد الحكمة » الذى ألفه الزين وهو لما يزل طالبا فى سن العشرين ، وقدم له الأستاذ محمدفريد وجدى بمقدمة فى فلسفة الأخلاق جاء فى ختامها : « هذا غيض من فيض أسوقه بين يدى ما أنا فيه السانحة من النظرفى أرجوزة الأخلاق الموسومة بقلائد الحكمة للشاعر المطبوع أحمدالزين ، فقد جمعت فى أقل من ألف بيت ، ماتشتت من شمل الكلم ، وتفرق من درر الحكم . . ولا غرو فقد نبغ الأستاذ الزين عبقريا بطبيعته ، كبيرا على حداثته ، مبرزا وهو فى سن العشرين على فحول المعرقين » . ومن هذه القلائد فى آداب الأصدقاء :

أرى القطا أسرابا	فاطلب الأصحابا
إن الصحاب عدة	ذخــــيرة للشدة

وقد طبعت هذه القلائد سنة ١٩١٨ ؛ وكان قد سبقها إلى الوجود « القطوف الدانية » فطبعت سنة ١٩١٧ ، وهى « باكورة شعر الزين » ، جمع فيها طائفة من قصائده فى المدح والغزل ، وختمها بتخميسه لمعلقة امرىء القيس ، الذى نشره قبل ذلك على حدة . . وكان له فى آفاق الأزهر وخارج الأزهر صدى بعيد المدى ، وعلى

الرغم من قوة شعر الزين فى هذه الباكورة الرائعة المبكرة ، فقد طغت عليها محفوظاته الزاخرة ، فظهرت المحاكاة فى مواضع منها ، قوية حينا ، وضعيفة حينا ، ولكنها على كل حال بواكير نابغة موهوب . فمن غزله الرقيق :

أهاج الشوق من سلمى ادكار ... عشية خف بالركب القطار
وزار لها على الهجران طيف ... وهل أبقى الهوى بى ما يزار ؟ !
تردت من غدائرها بليل ... كذلك يرتدى الليل النهار
أترهب غرب سيفك أسد وج ... ويعييك التجلد حين ساروا
تسائل أربعا بالجزع أقوت ... ومحى رسمها ديم غزار
فما لطلولها تأبى جوابا ... وأنى تنطق الدمن القفار ؟
وقد حل البلى فيهن حتى ... كأن على معالمهن قار
كأن لم تغن بالسمار ليلا ... ولم توقد بها للضيف نار

ومما يبدو فيه المحاكاة ، قوله فى الأستاذ محمد فريد وجدى معارضا مروان بن أبى حفصة فى قصيدته : « طرقتك زائرة فحى خيالها » :

قف بالربوع مسائلا أطلالها ... أمست يجر بها الصبا أذيالها
دمن عفون وأصبحت عرصاتها ... تزجى بها قلص النعام رئالها
ولقد نعمت بها ودهرك مقبل ... بوعود خود ماخشيت مطالها
دار لبيضاء السوالف طفلة ... رود تزير على الفراق خيالها
وكأن بارق ثغرها إن حدثت ... هندية ضمن القيون صقالها
وكأن فى فيها سلافا قرقفا ... تسقيك من بعد السكرى سلسالها
عهدى بها تصل الحبال ، فما لها ... قطعت حبالك بعد وصلك ، مالها ؟
أرأت نذير الشيب لاح بمفرقى ... أم قد أطاعت فى الهوى عذالها
لاتحسبي يانعم شيبى كبرة ... لكنها غير الخطوب ، فيالها !
مما حمى عينى كراها أننى ... فى أمة قد سودت جهالها
مازال ليل الجهل فيها ضاربا ... حتى رأيتك يا « فريد » هلالها

فأما تخميس المعلقة ، فقد أحدث — كما أسلفنا — ضجة ، كان بها خليقا ، فإن القوة تشيع فى أطرافه ، ويضاعف الإعجاب به حداثة ناظمه ، مما طار بذكره ومهد له فى الأزهر وفى غير الأزهر ، وأثار فى نفوس كثيرين من لداته ومن غير لداته الحسد له ، والغيرة منه ، ويقول فيه :

بكيت على ربع ورسم معطل يجود ثراه كل أسحم مسبل
وقلت وقد حلت بفلج فأسل قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل
ربوع بعيد بالظعائن علها ودار بذات الأثل أطفل رثمها
وأخرى بحزوى مثلما لاح وشمها فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها
لما نسجتها من جنوب وشمأل

ويسير فيها على هذا النسج البارع ، حتى يختمها بقوله :

ومازال طير الأيك يسجع بكرة ولم يدر أن قد هاج للقلب لوعة
يحن وما تذرى له العين دمعة كأن مكاكى الجواء غدية
صبحن سلافا من رحيق مفلفل

ولقد أدركته حرفة الأدب ، منذ تخرجه سنة ١٩٢٥ فتركته يردد :

فيالك بحرا لم أجد فيه مشربا على أن غيرى واجد فيه مسبحا !

وهكذا ، أحرام على بلابله الدوح ، حلال للطير من كل جنس ؟

ثم دخل دار الكتب المصرية فى سلك عمالها بالمياومة من سنة ١٩٢٦ ، وأخيرا رقى إلى الدرجة السادسة .

وقد غلب على الزين لقب « الشاعر الراوية » منذ حداثته ، لكثرة محفوظاته ، التى جرت فى شعره أولا محاكاة وتقليدا ، ثم لما أخل سرت فيه جزالة ، وفخامة وشدة أسر ورصانة قافية وحلاوة جرس ، وكان الزين جميل الالقاء ، لايتكلف ولايتصنع بل كان يرسل الكلام على سجيته ، متغنيا مطبوعا ، فيخلب الألباب ، ويسحر النفوس ويستولى على القلوب .

وقد نشر الزين طائفة من المقالات الأدبية الممتعة فى مجلة الثقافة بعنوان « من أحسن ماروى » (١) تحدث فيها حديثا أدبيا جميلا عن عدة شعراء وأشهر آثارهم الشعرية الطريفة ، كما تحدث عن أغراض متعددة ، راويا ماقاله الشعراء فى كل غرض منها ، مع الموازنة والتفضيل : كما نشر عدة مقالات نقدية فى مجلة الرسالة بعنوان « النقد والمثال » : وله كثير من الشعر الواجدانى والاجتماعى الرقيق ، يقول من قصيدة فى ذكرى حافظ إبراهيم نظمها عام ١٩٣٧ :

---

(١) راجع مجموعة السنة الأولى من مجلة ، الثقافة ابتداء من العدد ١٩

في كل حين وقفة إثر ذاهب وصوغ دم أقضى به حق صاحب
اودع صحبي واحدا بعد واحد فأفقد قلبي جانبا بعد جانب
تساقط نفسي كل يوم فبعضها بجوف الثرى والبعض رهن النوائب
فيا دهر دع لي من فؤادي بقية لوصل ودود أو تذكر غائب
ودع لي من ماء الجفون صبابة اجيب بها في البين صيحة ناعب
وهل صيغ قلبي أو ذخرت مدامعي لغير وفاء أو قضاء لواجب
فقارب أخاك الدهر والعيش مسعف فسوف ترى بالموت غير مقارب
حياة الفتى بعد الاخلاء زفرة تردد مابين الحشا والترائب
رعى الله فتيانا وفوا حق شاعر وفى على مض الخطوب الحوازب
وفى لمصر لم يدنس قريضه بحمد خؤون أو بإطراء كاذب
وفى وفاء الرسل بين معاشر نصيب الحمى منهم وفاء الثعالب
يدورون بالامداح يبغون مأربا فياضيعة الأوطان بين المآرب
فبينا ترى حمدا ترى الذم بعده يريك فصول العام شعر الاكاذب
فدع عنك شعر الحمد والذم إنني نصحت بما قد أقنعتني تجاربي
وكن أمة لم تعن إلا بامة فنفسك لم تخلق لسخر الألاعب
متى تخلص الاقلام للنيل وحده فمن شاعر عالي الشعور وكاتب
لقد فقدت مصر بفقدان حافظ لسانا كوقع المرهفات القواضب
بواتر صاغتها قريحة شاعر من اللفظ لم تحفل بحشد الكتائب
يرى شعره بين الصفوف محاربا وصاحبه في الناس غير محارب

ويقف على قبر الشاعر محمد الهراوي الذي استأثرت به رحمة الله عام ١٩٢٩ ، فيرثيه بقصيدته :

ذكرى إذا حال موت بيننا تصل ماتنقضي لك حتى ينقضي الأجل (١)

وقصيدته العهود الممطولة يقول في مطلعها :

عللينا بالأماني واغلي وعدينا بالتداني وامطلي(٢)

وللزين قصيدة مشهورة عنوانها : سحر الحديث ، يقول فيها

ماغناء الراح قد ظلت سنينا حدثينا تبعثي النشو فينا

---

(١) الثقافة ـ العدد ١٨ ـ ٢ مايو ١٩٣٩ .

(٢) الثقافة ـ العدد ٤١ ـ ١٠ اكتوبر ١٩٣٩

قبلك الكأس فهاتى نصطبح ... من سلاف لذة للشاربينا
أسمعينا نبرات أخجلت ... وتر العود حنانا وحنينا
واهمسى فى يابس النبت به ... تلبسيه نضرة للناظرينا
ملك أنت فإن شك امرؤ ... حدثيه يعد الشك يقينا
ألهميه منك فرقان الهوى ... فى حديث يجعل الصبوة دينا
توشك النسمة إذ تحمله ... منك أن تحسد فيه السامعينا
تتمنى العين فيه لو غدت ... أذنا تعفلى بعقد المنصتينا
ومنى الآذان إذ تسمع عن ... مجتلى حسنك ، لو كانت عيونا
فتنة جل الذى أودعها ... فيك لاتدركها إلا ظنونا
أرسلى سحرك فى صوت إذا ... ماسرى فى اليأس منى اليائسينا
صاغه الله من الرقق كما ... صاغ ظل الخلد والفيض المعينا
ذاب حتى كاد يخفى رقة ... لست أدرى ارنينا أم أنينا
حدثينا وأعيدى مامضى ... من حديث واحسبى أنا نسينا

وبعد فالزين شاعر مطبوع مجيد ، قل أن تعثر على ند له بين الشعراء الازهريين ويقول الزين من قصيدة له عنوانها : إلى الامام :

إلى الامام لاتنى ... سابق ركاب الزمن
خل الهوينا لامرىء ... أيامه فى كفن
إن الحياة فرص ... من لم يبادرها فنى
دع المنى فإنها ... كم أورثت من محن
ستنثنى عنك وتبـ ... ـقى لوعة لاتنثنى
والمجد فى الدنيا سبا ... ق لا عطاء المنن
ليس سوى الاقدام والـ ... ـعزم له من ثمن
أد الحياة ناهضا ... تؤد حق الوطن

شاعر من السودان

هذه الوحدة المقدسة بين شمال الوادى وجنوبه ، بين مصر والسودان ، ليست شيئا من صنع التاريخ ، ولكنها حقيقة خالدة من صنع الله ، وشعور أبدى بروابط الفكر والروح والآمال والآلام ، وحنين متصل إلى الحرية والقوة والمجد ، كما يعبر

عن ذلك شاعرنا ، لا بل شاعر السودان ، لا بل شاعر الوادى ، المرحوم التيجانى بشير ، أبلغ تعبير ، فيقول من قصيدته « ثقافة مصر » :

عادنى اليوم من حديثك يامصـ ... ـر رؤى ، وطوفت بى ذكرى
وهفا باسمك الفؤاد وجلت ... بسمات على الخواطر سكرى
من أتى صخرة الوجود ففرا ... ها وأجرى منها الذى كان أجرى
هو من صاغنا على حرم النيـ ... ـل وشطآنه دعاء وشكرا
إنما مصر والشقيق الأخ السو ... دان كانا لخافق النيل صدرا
حفظا مجده القـــديم وشادا ... منه صيتا ورفعا منه ذكرا
كلما أنكروا ثقافة مصر ... كنت من صنعها يراعا وفكرا

ويعبر كذلك فى قصيدته « رسل الشباب فى مصر » عن هذه الوحدة المتينة ، وعن مكانة مصر فى قلوب الشباب السودانى ، فيقول :

مصر دين الشباب فى الحضر الرا ... فه والبدو من قرى وبقاع
حبذا الموت فى سبيلك يامصـ ... ـر لنشء عن الحمى دفاع

وهذا الشعور الملتهب فى نفس الشاعر بوحدة الوادى ، ألهمه روائع الآيات فى « النيل » ، نهرنا الخالد ، الذى وثق عرى الاخاء بين الجنوب والشمال ، فـنراه يتحدث عن مجد النيل فى التاريخ فى قصيدته « فى محراب النيل » حديثا بليغا ويقول فى آخرها :

إن عبدنا فيك الجلال فلما ... نقض حق الذياد عن محرابك
أو نعمنا بك الزمان فـلم نبـ ... ـل بلاء الجدود فى صون غابك

ولا ينسى شاعرنا النيل ، حتى وهو يدير أحاديث الحسن والجمال ، فيشبه حبيبته بالنيل تشبيها جيدا عمتعا ، فى قصيدته « أنت أم النيل ؟ » ، فيقول :

أنت يافاتنى أم النيل زخا ... را ؟ بنفسى كليكما من شبيه
غننا السحر من شواطئه الخضـ ... ـر ، وغن الزمان من ماضيه
واذكر سالفا مجيداً على الدهـ ... ـر ، عزيزاً على كرام بنيه

ويركب الشاعر زورقا يسبح به فى النيل ، فتتقاذفه الأمواج ، حتى ليشرف به على الهلاك ، فيقول الشاعر يخاطب النيل :

رفقا بمـــن آواك إلهامه ... وصاغ فى صدرك وحى الجمال
آماله يانيل أحلامه ... شبابه الغض الوريف الظلال

ويكرر ذلك فى قصيدته « الزورق الأخضر » ، التى وصف فيها رحلة فى النيل مع أحبابه ، ويقول يخاطب النيل فى بشر وحب وأمل:

الله فى الزورق من غافل   يا نيل لم يظفر بربان
شراعه الحب ومجدافه   قلبان طفلان غريران
احفظ صبييه وباركهما   للحب يا نيل وألحانى

وهكذا كان يغرد التيجانى ، الشاعر المؤمن بوحدة الوادى ، والذى أذاب نفسه ألحانا ساحرة ، كان يبعث بها الحياة والعزم والقوة والامل ، فى قلوب السودانيين والمصريين على السواء .. وهذه إحدى خصائص شاعرية التيجانى ، ابن النيل البكر وشاعر الوادى الخالد المجيد .

والتيجانى يمثل فكرة جديدة فى الشعر السودانى الحديث فقد طفر الشعر فى السودان على يديه من عهد الاناشيد العامية والمعارضات الأدبية للقدماء ، إلى طور الاستقلال والذاتية والنضوج الفنى ، وأصبح الشعر السودانى ـ بفضل عبقريته ـ تعبيرا واضحا متميزا جميلا عن البيئة والمجتمع والشعب ، وحياة الامة وآلامها وآمالها ، وثورتها فى سبيل الحرية والعزة والاستقلال . . وتلك خاصية ثانية لشاعرية الشاعر ، ومن ثم انتظم شعره النزعات الوطنية الحرة ، التى تمثلها قصيدته « الزاهد » ، وقصيدته « ثورة » ، وقد أعلن فيها ثورته العاصفة على الاستعمار والتأخر فى بلاده ، وقصيدته الأخرى « أمل » ، والتى عبر فيها عن أمله فى رؤية مصر ، والحياة بين معاهدها الناضرة . ومن شعره الوطنى كذلك قصيدته (وحى المحامد) ، وقد عبر فيها عن تقديره لزعيم وطنى فى السودان ، هو السيد إسماعيل الأزهرى ، مفتى السودان سابقا ، بمناسبة عودته من الحج ، وكذلك قصيدته « ملاحن فيها الهوى » ، وقد نظمها فى صديقه وأستاذه الروحى ، السيد حسين منصور ، حين نزح إلى مصر ، وقصيدته فى رثاء فقيد الصحافة والأدب السيد أبى بكر محمد عليم ، ومرثيته لفقيد البلاد الشيخ أبى القاسم أحمد هاشم . . كما انتظم شعره كثيرا من أوصاف الطبيعة والاستغراق الذهنى فى تصويرها والتبتل الصوفى فى محرابها ، والتأمل العميق فى مشاهد الجمال والسحر فى السودان ، بما يتجلى فى قصيدته الجميلة « الخرطوم » مدينة الشعر والجمال ، وفى قصيدته « توتى فى الصباح » ، وهى من روائع شعره فى الطبيعة ، وتوتى جزيرة مشهورة أمام الخرطوم ، وفى قصيدة ثالثة أخرى ، عنوانها « من أغوار القلب » ، وقد وصف فيها استقبال قلبه للربيع وجماله الأبدى ، وتحدث فيها كذلك عن حبه وأحبابه ، حديثا شيقا جميلا

وللتيجانى شعر وجدانى كثير ، يمثل نزعات نفسه وخلجات قلبه ، وأعمق مشاعره ووجداناته . وهذا الشعر الواجدانى يتمثل فى غزله وحبه وفى حديثه عن نفسه وآلامه وشقائه ولهوه وجده .

أما شعره فى الحب والغزل فتصوره قصائد كثيرة فى ديوان الشاعر ، منها قصيدته « لوحة الشاعر » ، وقد تحدث فيها عن حب غامض له ، وقصيدته « كذلك الحب » ، التى يستعيد فيها صلات حب مهجور ، وقصائده : « على قبر حبيب » ، و « نظرة ساحر » ، و « من وراء النافذة » ، و « هوى قاصر » ، و « تعويذة » التى يعوذ بها حبيبه فى مرضه ، و « من هنا وهناك » التى وصف فيها روحاته وغدواته فى الحب فى أم درمان ، و « جراح واحدة » التى وصف فيها جراحه فى الحب ، و « زهى الحسن » ، وقد خاطب فيها حبيبة له ، و « المصير » ، و « نعيم الحب » ، و « فى الموحى » التى يصف فيها نشوته الروحية بساعات لقاء فى الظلام ، و « النائم المسحور » و (رجاء) ، وسواها . . ومن أمتع شعره فى الغزل قصيدته القمر المجنون ، وقد تحدث فيها عن حبيبة له تسمى قمرا ، أحبها وأحبته ، ثم تزوجت قسرا سواه ، فدفع بها الحب إلى الجنون ، والقصيدة بليغة الوصف والتصوير ، وقصيدته الأخرى « جمال وقلوب » ، هى رائعة حقا ، وتعبير ساحر عن مشاعر محب وامق ، وفيها يقول :

وعبدناك ياجمال ، وصغنا لك أنفاسنا هياما وحبا
ووهبنا لك الحياة وفجر نا ينابيعها لعينيك قربى
من ترى وزع المفاتن ياحسـ ن ومن ذا أوحى لنا أن نحبا ؟
من ترى وثق العرى بين مسحو رين أسماهما جمالا وقلبا

وأما شعره فى نفسه فكثير متصل فى الديوان ، ومنه قصائده : الخلوة ، وقد وصف فيها عهد شبابه النضير فى المكتب ، حيث كان يحفظ القرآن الكريم ، و « المعهد العلمى » ويصور فيها حياته العلمية الأولى فى معهد أم درمان العلمى ، وبدء ظهور نزعات الشك فى تفكيره ، و « دنياى » التى يقول فى مطلعها :

مالى ثراؤك من ذخر ولامال فاستبق دنياك حسبى كنز آمالى

وكذلك قصيدته (قلب) وقد تحدث فيها عن قلبه ومنازعه وخطراته العميقة ، ويتحدث الشاعر عن فقره وهواه وصنيع دنياه معه ، فى قصيدته « هوى وفقر » التى يقول فيها :

غفرت لها أنى شقيت وأنها يصبح بها مرضى النفوس وأعتل
ولى فى كنوز الروح سلوى ورغبة بحسبى لاخلف لديها ولا مطل

وكذلك صنع فى قصيدته الأخرى « دنيا الفقير » . ويؤلم الشاعر ضياع أدبه وعبقريته فى وطنه ، فيشدو بقصيدته « الأدب الضائع » ، ويصف نفسه فى قصيدته « نفسى » التى يقول منها متحدثا عن نفسه :

هى فى صفحة الشباب قوى تز خر بالحب أو تموج بسخط
هى قسطى من السماء ، فما أضـ ـيع فى العالم الترابى قسطى

ويعبر فيها عن قلقه فيقول :

أنا والنجم ساهران نعد الـ ـصبح خيطا من الشعاع لخيط

ويصور أحاديث نفسه فى قصيدة جميلة ، عنوانها (إلى) ويقول فيها :

ويامهيض الجناح كم أمل تبغى وكم فى السماء تطلب
تود مصر الزمان وهى لما يأمل منها الشباب مطلب

ويكاثره غنى متكبر مترف ، فينظم قصيدته « قلب من ذهب » يرد عليه فيها ، وهى رائعة حقا ، ويقول منها :

أينا يرحم الوجود حنانا حيـ ـنه ، وتمشى الحياة بين ضميره
لى دنيا الفنون والوحى والإلـ ـهام من صدقه ومن مسحوره

وفى قصيدته « نفس » يصف نفسه الحرة الأبية ، فيقول :

سبحانك اللهم نفس كلها عطف ولين
وتر من الناس المقد س من بقايا المرسلين
من قدس داجية القصو ر ، وطهر واضحة الجبين
من كل سحر فى الوجو د ، وساحر فى العالمين
من مهبط الروح العزيـ ـز وعنصر الجسم المهين
صيغت فكانت حرة أبدا على مر السنين

ويعبر الشاعر عن عاطفة حزينة فى شعره ، الذى نظمه أشجانا وعبرات حرى ، صورها فى قصيدته (قطرات) التى افتتح بها ديوانه . . ويصف آلامه فى مرضه فى قصيدته (على فراش الموت) ، التى عاطب بها صديقا له شاعرا ، ويشكر له فيها وفاءه لصداقته . ، ويذكر الشاعر أنه من نسل علوى ، فيقول فى بعض قصائده (١) :

---

(١) ص ٨٥ ديوان إشراقة .

عجبا للجلال والحسن ماجا في إطارين : فاتر وقوى
ينسجان الهوى من الفجر بردا علويا لشاعر علوى

وتسود شعره الوجد انى نزعة واضحة ، من القلق الفكرى والروحى ، ومن اضطرام ثورته النفسية ، مما يبدو واضحا فى قصيدته « يؤلمنى شكى » ، ويقول فيها :

ما كنت أوثر فى دينى وتوحيدى خوادع الآل عن زادى وموردى
أشك يؤلمنى شكى وأبحث عن برد اليقين فيفنى فيه مجهودى
أشك لا عن رضا منى ، ويقتلنى شكى ويذبل من وسواسه عودى

وتبدو كذلك هذه الثورة فى قصائده « ودعت أمس يقينى » و « حيرة » التى يقول فى مطلعها :

بين اثنتين : أسر أم أبكى قبس اليقين وجذوة الشك

ويقول من قصيدة أخرى :

ومشت غالة الشك إلى جسر يقينى

ويقول :

برح الشك بالفؤاد فآمنـ ـت ، ولكن فى ريبة أو رياء
ثم أيقنت مؤمنا ، ثم ما أد رى ، وكم ذا لديك من لأواء

وأظهر خصائص التيجانى فى شعره نزعته الصوفية العميقة ، المشوبة بلون غنائى رائع مستمد من فنائه فى الله ، وإيمانه بالحق ، ونزوعه إلى الخير والطهر والجلال والجمال ، وقد قوى والده فيه هذه النزعة ، وكان الشاعر وأبوه ينتميان إلى «التيجانية» إحدى الطرق الصوفية الذائعة فى السودان ، ويصف الشاعر نزوعه إلى التصوف منذ طفولته ، فى قصيدته (الصبى العابد) التى يقول فيها :

كنت بين الصبا نعمت بإيـ ـمان رضى ، وأين عهد صبايا ؟
فسلبت الهدى وعوجلت فى النو ر ، وقد كنت صادقا فى هدايا
تاه منى الصبا ، وضلت سنون بعد فى منطق كثير القضايا
ومضى الشك باليقين ، فلله فؤاد تأكلته الرزايا

والشاعر فى قصيدته « الصوفى المعذب » مؤمن عميق الايمان ، وحدة الوجود مذهبه ، وهداية السماء نبراسه ، وأسرار الكون شغله ، ويقول منها :

الوجود الحق ما أو سع فى النفس مداه
والسكون المحض ما أو ثق بالروح عراه

كل ما فى الكون يمشى فى حناياه الإله
هذه النملة فى رقتها رجع صداه
هو يحيا فى حواشيها ، وتحيا فى ثراه
وهى إن أسلمت الرو ح تلقتها يداه
لم تمت فيها حياة الله إن كنت تراه

وقصيدته (الله) كذلك من أروع مانظم الشاعر ، وهى نغمة صوفية ، متصلة بينابيع قلبه ، وقد تحدث فيها عن الله وذاته وجلاله ورسالاته إلى الأرض ، حديثا روحيا عميقا . . ويؤكد الشاعر نزعته إلى التصوف فى قصيدته (قلب الفيلسوف) التى تحدث فيها - فى جمال أخاذ - عن نفسه ، ونزعتها إلى الحق والخير ، بعد رحلة صوفية عجيبة ، ويقول فى آخرها :

فى موضع السرمن دنياى متسع للحق أفتأ يرعانى وأرعاه
هنا الحقيقة فى جنبى ، هنا قبس من السموات فى قلبى ، هنا الله

وللتيجانى نزعات فلسفية عميقة فى شعره ، فهو يذهب إلى أن العقل البشرى يشق إن لم ينهل من ينابيع الأنبياء ، فيقول :

ظمأ فى النفوس ، لاأرى إلا فى ينابيعه إلى الأنبياء
يالك الله من مشايعة الفكـ ـر ، وللحق من هوى الآراء

ويرى أن الأديان السماء تدفع الانسانية نحو الخير والمثل العليا ، فيقول :

كلها فى الثرى دوافع خير بنت وهب شقيقة العذراء

ويرى ان المعركة الأبدية بين العلم والجهل نهايتها انتصار العلم ، مما يصوره فى قصيدته « اليقظة » التى يقول فى آخرها :

فاليوم لامركب الضحى عسر ولا مراق السماء ممتنعه
ضوء من العلم فى مدارجه نسعى ، وللعلم فى الوجود سعه

ويؤكد ذلك فى قصيدته « أنبياء الحقيقة » التى تحدث فيها عن أحرار الفكر ، وعن العقل الإنسانى وقواه الجبارة فى الحياة

وللتيجانى شعر وصفى ، من روائعه قصيدته « لجرف صحراء » ، وقصيدته « قلم » ، وقصيدته « رب ماأعظم الجمال وأمجد » وقد وصف فيها صوت مغن ساحر ، وقصيدته « طفل » التى يصف فيها قدرة الله الباهرة فى خلق الإنسان

ومن أجمل قصائد الرثاء فى شعر التيجانى قصيدته الطويلة « دمعة على طفل » ، ويقول فيها فى استطراد بارع :

فرماك فى العهد البرىء بما رمى حظى به ، ودهى جسيم خواطرى
لوددت أنى فى الطفولة مائت لو كنت أسمع بالشباب العاثر

وبعد فإن شعر التيجانى يمثل عقلا جبارا ، نفذ إلى أعماق الوجود والحياة ، وثقافة واسعة استمدها من اطلاعه على كتب التصوف والفلسفة . . كما يمثل شخصية أدبية مستقلة فى التفكير والتعبير ومذهب الشعر والبيان ، وفى خيالات الشاعر وأسلوبه ووحدة القصيدة فى شعره .

ولقد قرأ الشاعر طويلا فى مصادر الأدب العربى ، القديم والحديث على السواء ، قرأ للجاهليين والاسلاميين والمحدثين والمولدين ، كما قرأ لشوقى وحافظ ومطران ، وشكرى وأبى شادى وناجى والصيرفى وعلى محمود طه وشعراء المهجر وسواهم . . ولكنه لم يقلد فى الشعر أحدا ، ولم يعارض فى قصائده شاعرا قديما أو حديثا أو معاصرا ؛ وذلك ينم عن ملكات شعرية مطبوعة ، متصلة بينابيع الالهام الصادق فى نفسه .

ولقد مهد التيجانى بشعره لمدرسة جديدة فى الشعر السودانى المعاصر ، يمثلها محمد مفتاح الفيتورى ، وتاج السر ، وجيلى سيد عبد الرحمن ، وسواهم من الشعراء الشباب من أبناء السودان .

وفى عمر الزهور ، وإشراقة الشباب ، مات شاعرنا عام ١٩٣٧ ، عن خمسة وعشرين عاما ، ولم يترك وراءه سوى مقالات قصيرة فى الأدب والنقد ، كانت تنشرها له مجلة الفجر السودانية ، ومجلة الرسالة المصرية ، وسواهما ، وغير ديوانه الصغير « إشراقة » ، الذى يحتوى على ست وستين قصيدة ، تمثل أروع الإلهامات الشعرية وأجمل الآيات المعبرة عن شاعرية موهوبة ، لم يعرف السودان لها مثيلا فى الشعر السودانى الحديث . . .

قصة شاعر

لاتجزعوا للشاعر الملهم ما مات لكن صار فى الأنجم
ماكان إلا زائراً عابراً لأى سر جاء ؟ لم نعلم

كان فراشا حائراً في الدنا في نورها أو نارها يرتمى

نعم ما مات ناجى ، فأدبه وشعره وموهبته خالدة لا تموت ، ولقد كان شاعراً ملهماً ، وموهبة عبقرية ، وهبة من السماء ، وقبساً أضاء كما تضىء ذكاء ، ثم غاب وراء الأفق مخلفاً ظلم المساء .

هذا الطبيب النابه هو هو الشاعر المطبوع ، والطب والشعر يتصلان بالعاطفة الانسانية النبيلة في الرجل المهذب، يقول ناجى :

الناس تسأل والهواجس جمة طب وشعر كيف يتفقان ؟

الشعر مرحمة النفوس وسره هبة السماء ومنحة الديان

والطب مرحمة الجسوم ونبعه من ذلك الفيض العلى الشان

ومن الغمام ومن معين خلفه يجدان إلهاماً ويستقيان

ويؤمن إبراهيم ناجى بالنزعة الحرة الرائدة ، وبرسالة القلم الحر الطهور ، فيقول

لا خير في قلم إذا هو لم يكن حراً طهوراً كالشعاع الهادى

ويجل الفن عن أن يمتهن في سبيل أعراض الحياة ومآربها :

اكتب لوجه الفن لا تعدل به عرض الحياة ولا الحطام الفانى

وكان يشعر بالحياة شعوراً عميقاً ، وكان الشعر ينبع من أعماق قلبه . . وما من ريب في أن شاعريته مصدرها الأول إشعاع الألم في نفسه ، لجحود العبقرية في وطنه ، ونسيان المواهب في زمنه ، وفساد القيم والموازين في بيئته ، ولشقائه بحياته وأحلامه وآماله ، بما أورثه قوة العاطفة وصفاءها ، وسمو الروح ، وإشراق البيان ، ونغمة صوفية حزينة حائرة ، فهو بحق شاعر الألم ، كما كان شاعر الحب والجمال والأمل ، ويصف شعره فيقول :

هو آهات شاعر عرف الحب والألم

ويصور جحود البيئة لشاعريته فيقول :

فيا مصر مافيك العشية سامر ولا فيك من مصغ لشاعرك الفرد

ويلخص حياته في قوله :

أشترى الأحلام في سوق المنى وأبيع العمر في سوق الهموم

ومع ذلك فقد عاش معتزاً بعفته وصفاء أخلاقه :

عذبت أيامى بعفتها وقتلتها بصفاء أخلاقى

وكان الشعر هو البلسم الذى داوى به جراح نفسه عندما عز الأساة . . ومن

أجل ذلك أجاد ناجى فى النجوى الرقيقة ، والشكوى الحزينة ، أستمع إليه يقول من قصيدة طويلة :

ياحبيبى هدأ الليل ولم يسهر سوانا
لا الدجى ضمد جرحيـ ـنا ولا الصبح شفانا
لا الهوى رق على الشا كى ، ولا قاسيه لانا

وكان مبرزاً فى القصة والملحمة والغزل ، وفى الوطنية والاجتماع والتحليل النفسى العميق ، والأوصاف الجميلة المعبرة ، وفى الصوفية الحالمة ، والحكمة والفلسفة العميقة ، التى جماعها الألم والحيرة والبكاء لشقاء الناس والهتاف بحياة حرة قوية كريمة للفرد والجماعة والأمة .

وناجى شاعر القومية المصرية بأجلى معانيها ، ويعبر عن فخره بوطنه فيقول :

أمتى أمة العلا وأبى الهول والهرم

وهو أصدق صورة للشاعرية فى مرحها وتفاؤلها وثقتها بالحياة ، وفى صدق الشعور ورقة الاحساس وعمق التجربة . وكان دقيق الفهم لأصول الفن ومذاهبه ، ويعرف الفن بأنه ماحاكى الطبيعة ، ويؤمن بضرورة رجوع الشاعر إلى الطبيعة ، يأخذ عنها ويستلهمها ، لتوحى إليه بسرى المعانى وروائع الصور :

استلهم الأم الطبيعة وحدها كم فى الطبيعة من سرى معانى

وهو من رواد المذهب الفنى فى النقد الذى ينظر إلى الصياغة الفنية ، والتجربة الشعرية ، وكان يرى الشعر موهبة وطبعاً لا أثر للتكلف فيه .

وأشهد أن الشعر شىء مشى بنا مع الطبع ، جل الطبع أن يتكلفا

وكان لايعرف الزيف فى الشعور ، ولا التقليد فى العاطفة ولا المعارضة لآثار القدامى ، ولا يستمد إحساسه بالجمال من إحساس شاعر سواه . . ويعرف الشعر بأنه موسيقى وإقناع وخيال وصور فنية حية .

وناجى مجدد حقاً ، يعرف كيف ينظم قصيدته فى إجادة ، وكيف يملؤها بالصور الناطقة المعبرة ، ويختار لها روائع الأساليب وجديد المعانى والأخيلة ، وأشهد أنه ليس لأحد من المعاصرين رقة ناجى ولا سلامة طبعه . . وكان يدعو إلى محاربة الأغلال الفنية ، والانطلاق من قيود الصنعة والابتذال ، ويؤمن بالحرية فى الأداء ، وبالطلاقة الفنية وبوحدة القصيدة ، ويتجه إلى الجانب العاطفى الغنائى التصويرى ، وهو فى طليعة شعراء المدرسة (الرومانسية) الحديثة فى الشعرى المصرى المعاصر ،

مع جنوح إلى النزعة الصوفية الانسانية . وقصائده الخريف وملحمة الاطلال وليالى القاهرة والسراب من أروع الأمثلة على شاعريته المجددة الموهوبة .

وبعد فتحية لناجى وذكراه العاطرة ، ولأدبه الخالد ، وشعره المتحرر الممتلىء بآيات الجمال والحكمة وأنغام الوطنية والحرية .

القومية فى شعر ناجى

رحم الله ناجى ، لقد كان ذا قلب كبير ، وضمير نقى ، ونفس وديعة ؛ كانت أخلاقه فى رقة الزهر ، وصفاء الماء فى المنحدر ، وكان يعيش للناس لا لنفسه ، ويحيا لوطنه يمجده ويفديه ، ويهتف بحاضره وماضيه ، وينشد له القوة والكرامة والحرية .

وناجى فى الطليعة من شعرائنا المجددين ، لم يكن اتباعى النزعة ، بل ابتداعياً . يفيض شعره بالطلاقة والحياة والتجديد ، وينم عن أصالة وموهبة . . بلغ منزلة رفيعة فى روحه الغنائى ، وشعره الوجدانى ، المتحرر من قيود الصنعة والابتذال والتقليد ، الناطق عن تجربة عميقة ، ووحدة للقصيدة شاملة . ومن أجل هذه الطاقة الفنية الفريدة استحق الذكر والخلود . . ومذهب القصص الغزلى الذى ابتدعه فى أدبنا العربى امرؤ القيس ، وعمر بن أبى ربيعة ، والمخزومى ، وسواهم ، لا يكاد يدانى منحى ناجى فى وجدانياته المستمدة من شاعرية غنية خصبة ، ثرية بالصور والأخيلة والمعانى البديعة .

ومع انقطاع ناجى لشعره الوجدانى ، وتأملاته النفسية ، فإن له شعراً قومياً ، يمثل نزعاته الرائدة ، وآماله الكبيرة فى حرية بلاده ونهضتها وتقدمها .

كان ناجى يؤمن بمصر إيماناً عميقاً ، وتنطوى جوانحه على أبلغ مشاعر الوفاء لها ، ويعتز بتاريخها العريق التليد ، فى هتافه :

أمتى أمة العــــلا وأبى الهول والهرم

ويشيد برمزها العربى ، ومنارتها الإسلامية ، الأزهر الشامخ الرأس ، الباقى على الأدهار :

مطلع (عبده) و (سعداً) ورهط الـ مجد والبأس والعلا والفخار

كما يقول ناجى من قصيدة له ، فى تكريم الدكتور زكى مبارك ، رحمهما الله .

كان يحب بلاده حباً متأصلا فى طوايا نفسه ، يعود إليها بعد رحلة فى أوربا ، وحين يرى شاطىء مصر الجميل يصيح هاتفاً :

هتفت وقد بدت مصر لعينى رفاقى . . تلك مصر ، يا رفاقى

ثار ناجى ، فصاح فى الشباب ، يطالبهم بتحطيم قيود الاستعمار ، وأن يعملوا ويكافحوا لأجل سيادة الوطن ، ولتكون أمتهم فوق الأمم ، قائلا :

زعموكم أمـــة هازلة كذب الزاعم فيما قد زعم

حطموا القيد الذى حطمكم واجعلوا أمتكم فوق الأمم

وكان يصيح دائما فى الشباب ، يحثهم على العمل والتضحية من أجل الوطن ، من أجل عزته ومجده ، لأنه كان نزاعاً دائما بفطرته إلى الحرية .

استمع إليه يقول ، من نداء له وجهه إلى الشباب :

وطن دعا ، وفتى أجاب بوركت ياعزم الشباب

قل للشباب : اليوم يو مكم الأغر المستطاب

اليوم يبدو حب مص ر ، فلا خفاء ولا حجاب

هاتوا الفدا الغالى لمص ر ، وأرخصوه كالتراب

وكان ناجى يرى الفقر والمرض والجهل ، تنهك ثلاثتها جسم الأمة ، وتكاد تقضى على مقوماتها وقوتها ، وتحول دون تقدمنا السياسى والاجتماعى والفكرى ؛ فيتألم ويشتد ألمه ، ويهيب بالشباب أن يعملوا ويكافحوا ، وينقذوا بلادهم من هذه الجراثيم القاتلة . يقول من قصيدته « مصر(١) » :

حلفنا نولى وجهنا شطر حبها وننفد فيها الصبر والجهد والعمرا

نبث بها روح الحياة قوية ونقتل فيها الضنك والذل والفقرا

نحطم أغلالا ، ونمو حوائلا ونخلق فيها الفكر والعمل الحرا

سلاماً شباب النيل فى كل موقف على الدهر يجنى المجد أو يجلب الفخرا

تعالوا نشيد مصنعاً ، رب مصنع يدر على صناعنا المغنم الوفرا

تعالوا نشيد ملجأ ، رب ملجإ يضم حطام البؤس والأوجه الصفرا

تعالوا لنمحو الجهل والعلل التى أحاطت بنا كالسيل تغمرنا غمرا

تعالوا نقل للصعب أهلا فإننا شباب ألفنا الصعب والمطلب الوعرا

فنرى دعوة حارة للتكاتف والجهاد من أجل محاربة أعداء الوطن : الجهل والفقر والمرض ، ومن أجل إشاعة روح النهضة ، وتحطيم الأغلال ، وخلق العمل الحر والفكر الحر ، وحب التقدم .

---

(١) ص ١٧٨ — ليالى القاهرة .

والفلاح المصرى المكافح : ماشأنه وما خطبه ؟ لقد وقف ناجى يرثى لحاله ، ويطالب بإنقاذه ، لأنه عماد الثروة الاقتصادية فى مصر ، ويتألم ألماً شديداً لخيرات الوطن ، التى تغدق على الواردين ، ويحرم منها صميم الشعب وطبقاته الكادحة فيقول :

صونوا البلاد وأدركوا فلا حكم   كاد الحى يغدو بغير عماد
حيران من مرض إلى بؤس إلى   كرب تمر به بلا تعداد
ومن المصائب فى زمانك أن ترى   بلداً كثير مناهل الوراد
والخير مدرارا عليه ، وربه   جوعان محروم الرعاية ، صادى

ويزداد الشاعر ألماً وحسرة وإشفاقاً ، حين يرى أجسام مواطنيه المريضة ، وعقولهم العليلة ، فيقول مخاطباً جراح مصر الكبير على إبراهيم :

نبى الطب أدركنا إذا ما   تطلعت العيون إلى رسول
فكم فى مصر أجسام مراض   بأرواح كأشباح الطلول

وصدق ناجى فيما قال . . ويرى الشاعر التفرق والأنانية وحب الذات وغيرها من صفات هى المعاول الهدامة فى صرح نهضتنا ، فيقول فى ألم مشوب بالحسرة :

كل يعيش لنفسه فى أمة   شقيت بطول تفرق الآباد

ويتلفت ناجى ، فيرى الخمول فى وطنه ، ويرى حرباً سافرة على النبوغ وإهمالا مزرياً لثروة لا تقدر بثمن ، ثروة فكرية وقومية كان ينتظر أن يكون لها أبعد الآثار فى حياتنا ، فيثور ، ويطالب بتقدير النبوغ فى بلاده ، قائلا :

كرموا نابغيكم ، واعرفوهم   فضياع النبوغ فى الإنكار

ويقول :

وا ضياع النبوغ فى مصر إن لم   يك تخليده على الشعراء

ومن مظاهر حب الشاعر لوطنه وتقديسه له ، كثرة حديثه عن النيل ، حتى ليلوذ به ، ويشكو إليه همومه وأحزانه ، وينشد لديه الراحة والطمأنينة والسلام والصفاء ، يقول فيما يقول من شعره :

أقبلت للنيل المبارك شاكياً   زمنى ، وقد كثرت على همومى
ومسحت كفى والجبين بمائه   على أهدىء ثورة الهموم

وناجى لم يكن تفوته غالباً مناسبة وطنية ، دون أن ينظم فيها شعراً يخلدها ، فقد رثى شهيد الوطن عبد الحكيم الجراحى ، حين مات فى مظاهرة وطنية كبرى عام ١٩٣٥ برصاص أذناب المستعمر ، ورثى شهيد الطيران المصرى عام ١٩٣٤ بقصيدة

جميلة يقول منها :

وهلل السين إذا هلت طلائعنا طلائع المجد من أبناء وادينا

ويقول منها :

يا أمتى كم دموع فى مآقينا نبكى شهيديك أم نبكى أمانينا ؟

يا أمتى إن بكينا اليوم معذرة فى الضعف بعض المآسى فوق أيدينا

ولقد رثى كثيراً من إخوانه الشعراء ، الذين لاقوا ربهم ، ومن بينهم الهمشرى والهياوى ، وشوقى . . يذكر (شوقياً) فيذكره بشاعر الحرية والداعى إلى الحق فى الوطن العربى الأكبر ، فيقول :

ياعاشق الحرية الشكلى أفق واهتف بشعرك فى شباب الدار

يامن دعا للحق فى أوطانه ومضى ليهتف فى ديار الجار

عام مضى ، ياللزمان وطبه فينا ، ويا لسواخر الأقدار

شوقى نظمت فكنت براً خيراً فى أمة ظمأى إلى الأخيار

أرسلت شعرك فى المدائن هادياً شبه المنار يطوف بالأقطار

واشترك الشاعر فى تكريم العاملين من أبناء الوطن ، ومن بينهم المرحوم على إبراهيم ، جراح مصر الكبير ، والمرحوم زكى مبارك ، وأنطون الجميل ، وشاعرنا عزيز أباظة ، وعميد مدرسة أبولو الشعرية الدكتور أحمد زكى أبو شادى رد الله غربته ، وسواهم ، فوقف مع الواقفين يمجد بطولة أبطالنا ، ويحيى العاملين من أبناء الوادى ، ويذكر تراثنا الخالد ، والروح المصرى المتوثب الخلاق . . يقول فى بعض هؤلاء :

قد ينام التراث جيلا لجيلا غافياً فى مجاهل خرساء

وتنام الروح العريقة فى المجـ ـد ، لتبدو فى طلعة سمراء

فنراها مصرية السمت والقو ة والعزم والحجا والمضاء

ويؤكد أنه إنما يؤدى حق بلاده عليه ، بتكريم النبوغ ، والاشادة بالعبقرية ، فيقول يخاطب بعض من وقف يكرمهم :

أنا لا أوفى اليوم حقك وحده لكن أؤدى فيك حق بلادى

وينفى الشاعر أنه يقصد بما يقول ملقا أو نفاقا أو رياء ، مؤكدا أنه يقول وهو يعنى ما يقول ، وأنه إنما يكرم الأعمال فى أشخاص بعض الرجال :

لم نكرمك للوزارة والمنـ ـصب والمجد والسنا والرواء

نحن قوم نهيم بالرجل الكا مل يمضي للأمر دون التواء

وتكرم الهيئات الأدبية العالمية شاعرنا « الدكتور أحمد زكى أبو شادى » فى نيويورك ، فى الثلاثين من ابريل عام ١٩٥٠ ، بمناسبة ظهور ديوانه الرائع : « من السماء » ، فيبعث ناجى بقصيدة ألقيت فى هذا الحفل الأدبى الجامع يكرم فيها العبقرية المصرية فى شخص « أبى شادى » ، وجاء فيها :

إن كرموك فكم قلب هنا غرد مكرم لك ، شاد ، بين أيديكا
ماأعظم الفن يسمو وهو مغترب وكيف تجزع بين الفن شاديكا
ياشاعر الفن غرد فى خمائله وغن ، وابسم ، وجدد فى مراميكا
أقول للفن : سبح ، ثم مل طربا أقسمت أن أبا شادى لشاديكا
إن لم تكن أنت عين الخلد دانية فانه لذرى التخليد داعيكا

ويكرم ناجى مع لفيف من الشعراء الشاعر عزيز أباظة ، فيذكر له ما أداه للفصحى ، وللعروبة ، فيقول :

جزيت عن لغة الفصحى وأمتها عمراً مديداً ، وتكريما ، وإحسانا

وللشاعر شعر قليل فى الطبيعة المصرية ، والتنويه بجمالها الساحر ، وأغلبه أوصاف وجدانية ، يعبر فيها عن تأثر نفسه بجمال الطبيعة وجلالها . وكان لناجى غرام بمدينتين مصريتين ، يحبهما ويحب قضاء فراغه فى مدينة منهما : الاسكندرية والمنصورة . . يتحدث عن المنصورة ويصفها فى قصيدة له ، يقول منها :

يا جنة من جنان الله أعبدها لن تبعدى ، ولدى السحر والعبق

وله فى ثغرنا الجميل ، ومصيفنا الوديع : « الإسكندرية » قصيدة عنوانها « الثغر » لم تظهر بعد فى ديوان ، ويتحدث فيها عن المصيف حديث الوامق المحب ، فيقول فيما يقول :

سلاما يا عروس الماء إنى أحبك لا أمل بك المقاما
أسير إلى لقائك نضو شوق وأرجع عن ربوعك مستهاما
بربك أيها الأنوار ماذا تركت بساهر ألف الظلاما
بربك أيها الأمواج قلت على الشطئان ترتطم ارتطاما
عبابك فى دمى ، وشذاك باق وهذا الصوت أسمعه دواما
فؤادى قم بنا نشكو شجانا لصخر فى جدار البحر قاما
تعالى ، ولا تقل هذا جماد وكيف تروم بالصخر اعتصاما ؟

فكم فى الحب من قلب أصم تجاهل أو تنكر أو تعامى
وكم صخر أحس بما عنانا وما عرف الحديث ولا الكلاما

هذه صور من القومية فى شعر ناجى ، الذى يمثل لنا أجمل الصور ، ويجلو أروع الذكريات ، ويجمع بين جمال الفن ودقة التصوير وعمق الثقافة والمعانى والأخيلة .
ولم يكن ناجى شاعر القومية بقدر ما كان شاعر الروح والوجدان ، ولقد أدى ناجى رسالته كاملة فى الحياة ، أداها نحو وطنه وبلاده وشعبه ، ونحو المجتمع الذى عاش فيه وأحبه ، ونحو أصدقائه واللائذين به ، كما أداها بقوة ونبل نحو الكادحين والفقراء من أبناء الشعب ، وترك آثاراً عديدة تدل عليه ، وترشد إليه ، وتنطق بأجمل الذكريات ، وأبلغ الآيات المعبرة عن شخصية الشاعر وشاعريته ، وعن جليل غايته فى الحياة وأهدافه ورسالته ، وسنظل نذكر (ناجيا) كلما ذكرناها ، نذكره فى الخالدين ، ونذكره فى العبقريين الملهمين ، ونذكره فى العاملين لخير شعب مصر . شعبنا الحر الأبى .

أدب ناجى

فى جلال الذكرى وروعتها ، ومن أعماق الأبدية وصمتها ، وبين أطياف العبقرية والمجد والخلود ، تطالعنا شخصية إبراهيم ناجى الشاعر الإنسان . وتطيف بنا فى ألق النور ، وابتسام الربيع ، وأريج الزهر ، وكأنها تتحدى الفناء ، وتهزأ بالحياة . . تلك الحياة التى تحارب الأحرار ، وتعوق ركب التقدم ، وتهدم ما بناه الفكر الإنسانى من صروح ، الحيـــاة التى شقى ناجى بها ، وثار عليها ، ووصفها فى أبيات له فقال :

عشت وامتدت حياتى لأرى فى الثرى ما كان قبلا فى القمم
انهيار المثل العليا ، وإنكا ر الكرامات ، وكفرا بالقيم
من يــكن عض بنانا نادما فأنا قطعت إبهام الندم

ولم يكن ناجى يحارب إلا من أجل عبقريته ومواهبه ، وكانت البيئة الجاحدة للنبوغ ، والكافرة بالعبقرية ، هى التى تحاربه ، البيئة التى يحيلها الحسد إلى ذئب ضار مفترس ، يلتهم كل أثر لبناة الحياة وصانعيها ، والتى يصفها ناجى فيقول :

يا ديارا يومها من سحب وغيوم ، وضباب أفق غد
كل نبت عبقري أطلعت جعلت منه طعاما للحسد

وكان ناجي يقيم فيها ، وهو يوقن أنه مفارقها عما قريب ، حتى ليقول من قصيدته « ظلام » ، وقد نظمها قبيل وفاته بقليل(١) :

أدعى أنى مقيم ، وغداً ركبي المضنى إلى الصحراء سائر

وإذا كان ناجي قد ودع هذه الحياة ومضى ، فإنه حي بأدبه الخالد الباقي ما بقيت الحياة والناس ، في المقالة والقصة والدراسة الأدبية والنقد والتحليل النفسي والقصيدة .. وهو الذي يدعو في أدبه ، ويهتف في شعره ، بمبدأ الحب الإنساني الذي عاش يمجده ويقول فيه :

إنه الحب الذى علمنى أن أحب الناس والدنيا جميعا
إنه الحب الذى صور من مجدب القفر لعينى ربيعا

ومن ثم كان يحيا ملاكا كريما ، يوزع السعادة بين الناس ، ويغرس الخير في صحراء الحياة المقفرة من الخير . وكان يضحي بنفسه في سبيل هذا الحب الذي استبد به وأرقه ، وتبتل في محرابه ، وتصوف فيه .. ثم خلق منه هذا الحب موهبة غنائية فذة في طاقتها ، بديعة في موسيقاها وألحانها ، تنطق عن طلاقة فنية ، وتجربة إنسانية عميقة ، وإيمان بالتجديد والحرية ، موهبة كان يلهمها الجمال ، ويوحي اليها الحسن ، بأجمل النشيد ، وأعذب القصيد ، فتشدو وتترنم هاتفة تقول :

يا كتاب الحسن جلت آية من جمال وكمال وشباب
زعموا أنى قد خلدتها بأغانى وألحانى العذاب
ما أنا شاد ولكن قارىء سورا من ذلك الحسن العجاب
لم أزل أقرأ حتى سجدوا وجعلت الخلد عنوان الكتاب

ولقد كان ناجي عميد الشعر الغنائي المعاصر ، بما أحدث فيه من تجديد ، وأضاف اليه من نغمات ، وابتدع فيه من ألوان وفنون ، وهو ـ في شعره الغنائي هذا ـ قوى التعبير عن تجاربه النفسية العميقة ، يرسم الصور الدقيقة لكل ما تأثرت به نفسه ، واهتزت به مشاعره ، ويعبر عن عواطفه في صدق وإخلاص وبساطة وحرية فنية موهوبة . ولم يكن لناجي في هذا الفن شبيه من شعراء عصره ، ولعله كان فيه أكثر الشعراء شبها بعمر بن أبي ربيعة ، زعيم الشعر الغنائي القصصي في عصر بني أمية .

ولقد ترك ناجي ثروة كبيرة من المعاني والأخيلة والصور والموسيقى والتعابير ،

---

(١) الثقافة ١٣-١-١٩٥٣

وترك قصائد جديدة في الشعر العربي المعاصر ، ودواوين جيدة : من وراء الغمام ، وليالي القاهرة ، والطائر الجريح .. وهي تفيض بالأصالة والملكة والحرية والجمال الفني ، مما يحتذيه فيه شعراؤنا المعاصرون ، ويتأثرونه ، ويتخذون منه نهجا فنيا خالصا في نظم القصيدة . والتجديد فيها .

ويضيق الوقت عن دراسة آثاره في القصة والمقالة والدراسة الأدبية والنقد والتحليل النفسي ، وعن استيعابها وتحليلها ، والإفاضة في وصفها .. أي ناجي : ..

هذه آثارك نذكرك كلما ذكرناها .

ونمجدك كلما طالعناها ورددناها .

وتجلو لنا شخصيتك قوية مهيمنة جبارة .

فسلام عليك في الخالدين .

وسلام عليك في الأحرار الرائدين .

وسلام على ذكراك .

ذكراك الخالدة على مر الأيام والسنين .

قصة نكبة فلسطين في ديوان « مع الغرباء »

عروبة فلسطين قضية يسلم بها التاريخ منذ عشرات القرون ، منذ أن انتهى عهد الرسالات السماوية التي نزلت على بني إسرائيل .. ومن عهد المسيح حتى اليوم وفلسطين عربية بلغاتها ودماء سكانها ونزوح القبائل العربية إليها من كل مكان في جزيرة العرب .. وقد أيد هذه العروبة الفتح الاسلامي لفلسطين في عهد عمر بن الخطاب ، وصارت فلسطين العربية المسلمة من ذلك الحين أمة يعيش فيها المسيحيون واليهود في ظلال راية الإسلام وعدله وإخائه .

وفي التاريخ المعاصر نجد فلسطين وشرقي الأردن وسوريا ولبنان قطرا واحدا يحكمه الأتراك ، ويشرف على أجزاء منه الشريف حسين الهاشمي أمير مكة في ذلك الحين . وفي خلال الحرب العالمية الأولى وعد الانجليز عرب فلسطين والشام بالاستقلال التام ، ومع ذلك فقد أصدرت الحكومة الانجليزية ممثلة في شخص وزيرها الاستعماري اللورد بلفور وعدا مشئوما لليهود عرف بوعد بلفور ، وتعهدت فيه بريطانيا بالعمل على إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ، كسبا لليهودية العالمية لتقف بجوار الحلفاء في الحرب . وانتهت الحرب وعقد الصلح ، وفجأة أصبحت فلسطين قطرا تحكمه قوات

الانتداب الانجليزى الاستعمارية ، وكان اليهود حينئذ أقلية ضئيلة تبلغ نحو ٤ ٪ من مجموع السكان البالغ عددهم مليونا ونصفا .

وبتشجيع حكومة الانتداب الانجليزية فى فلسطين اتسعت الهجرة اليهودية اليها ، وامتلك اليهود كثيرا من أراضى العرب بوسائل عديدة غير مشروعة ، وكونوا الجماعات العسكرية ، واتخذوا تل أبيب مركزا لنشاطهم . ولم تجد ثورات العرب المشهورة عام ١٩٢٩ و ١٩٣٦ و ١٩٣٨ و ١٩٤٧ شيئا ، لأن الانجليز كانوا يعملون لافناء الشعب العربى فى فلسطين وتسليم الوديعة إلى اليهود ، وقد قدم الانجليز إلى الدول العربية عدة حلول لحل قضية فلسطين ، أساسها منح اليهود وطنا داخل فلسطين ، ولكن الرأى العام العربى فى كل مكان كان يقابل هذا بالرفض .

وفى عام ١٩٤٧ بدأنا نسمع أن الانجليز ينهون انتدابهم فى فلسطين ونرى قواتهم تخرج منها ، ونجد فرق اليهود الحربية تقوم بأعمال عسكرية كبيرة للاستيلاء على المدن والقرى العربية ، مما أدى إلى دخول الجيوش العربية أرض فلسطين لتحريرها من اليهود ، وفى ١٥ مايو عام ١٩٤٨ أعلن حاييم وايزمن زعيم الصهيونيين فى فلسطين ميلاد دولة إسرائيل (المزعومة) .

واعترفت أمريكا وانجلترا بها إثر ميلادها ، وتتالت الهزائم الحربية المصطنعة على الجيوش العربية بمناورات الاستعماريين والصهيونيين ودول الغرب وأمريكا الاستعمارية ، وأخذت أمريكا تلبس مسوح ملاك السلام ، ففرضت مشروعا للهدنة بين العرب واليهود ، على أساس الاعتراف باليهود . وحكمهم لرقعة واسعة من أرض فلسطين الخصبة الغنية ، وضم جزء قليل إلى الأردن ، وبقاء منطقة غزة وما حواليها تحت إشراف مصر .. ولم يوقع صلح رسمى بين العرب واليهود حتى اليوم .

ووضع اليهود بذلك أيديهم على مدن وقرى وأملاك العرب ، وأجلوهم عنها ، وقتلوا عشرات الألوف منهم ، وتفرق عرب فلسطين فى جميع البلاد العربية تضمهم معسكرات من الخيام البالية ، ويفتك بهم الجوع والمرض ، ويحنون رؤوسهم لهذه العاصفة الهوجاء ، أملا فى يوم البعث الجديد ، وفى العودة إلى الأراضى المقدسة التى خرجوا عنها بقوة السيف والحديد والنار .

وهذا الديوان ، ديوان مع الغرباء ، تصوير لهذه الفترة الحالكة من تاريخ فلسطين ، ولحياة اللاجئين القاسية المعذبة تحت الخيام ، ولآمالهم فى العودة إلى وطنهم وقراهم ومدنهم العربية ، وحنين متصل إلى هذه المواطن العربية الخالدة ، من قرى

عزيزة ، ومدن سجلت ذكرياتها فى صحائف التاريخ .

والشاعر هارون هاشم رشيد فى ديوانه « مع الغرباء » ، يشمل عزائم اللاجئين ، وينفح فيهم روح القوة والأمل ، ويقف بهم على أبواب الأرض المقدسة هاتفا بأناشيد الحرية والمجد والوطنية ، صائحا بملء فيه : لابد من ميلاد أمة فلسطين العربية

ومن هنا ندرك خطر هذا الديوان ، وأهميته فى تاريخ فلسطين القومى بعد النكبة ، ولا شك أن ديوان « مع الغرباء » سيظل خالدا فى قلب كل فلسطينى ، لأنه رمز لحاضر فلسطين الأليم ، ولمستقبلها المنشود المرموق بالأمل والحنين . . .

شاعر من ضفاف بردى

أنا الذى فى رياض الشام أنفحها ... بكل بيت له اهتزت نواديها

هناك فى جنة « العاصى » وفتنته ... مع البلابل أشـــدو فى روابيها

لما ولدت رضعت الشعر فانفجرت ... على لسانى من الفصحى قوافيها

من كل تغريدة لما أفوه بها ... تصغى لنغمتها الدنيا لترويها

هذا هو شاعرنا الشاب ، « على دمر » ، كما يصور نفسه وشعره ؛ يتأمل الحياة بعقل الشاعر ، ويحيا فيها كالهزار فى الروض ، ويغنى بآماله وآلامه شعرا معطرا ، توحى به إليه بسمات الربيع ، ومفاتن الطبيعة ، ومواكب الغيد ، وصبوات الهوى ، وذكريات الشباب . كما يوحى به إليه ضوء القمر ، وطيف الحبيب ، وصوت الجمال ، ودمعة الحرمان ، والحنين إلى الوطن المفدى على شواطىء « العاصى » و « بردى » حيث النور والجمال ، وذكريات التاريخ العريق فى المجد والكبرياء .

وكيف يرى الشاعر الجمال فى النهر والروض والزهر ، وفى السماء والأرض والشمس والقمر ، وفى العذارى نام فى أحداقهن السحر والشباب ، وفى الماضى المتشح برداء المجد ، وفى ثورة الأحرار وبطولة الابطال . كيف يرى الشاعر هذا كله ثم لا يشعر ، ولا يغنى ، ولا يذيب نفسه الحانا وأناشيد عذابا ؟ أيمشى بين الناس بلا عاطفة ؟ أيحيا لا ينظر بخياله إلى الصور والألوان والظلال ؟ أيصمت فلا يقول للناس شيئا ؟ لا فليس ذلك من طبيعة الشاعر ، الذى يرى الحياة وحدها من غير شعر عبئا ثقيلا ، وعذاباً لا يستطاع احتماله ، كما يقول :

كيف ألقى بواسم الزهر فى الإصـ ... ـباح تاهت بالعطر والأنداء

كيف ألقى الجمال من روعة الكو ... ن تبدى فى طلعة الحسناء

أفلا يستثير ذلك شعرى ... من ضلوعى ، ويستفز غنائى

وشاعرنا « دمر » ينظم قصائده بطبع أصيل ، وإحساس فنى عميق ، وخيال منطلق ، وموهبة شعرية متحررة . ومن ثم نجده يكره التكلف والابتذال والصنعة والادعاء ، كما يقول من قصيدته « نكبة الشعر » :

إنما الشعر ما تفجر بالإحـ ... ساس وحيا ، وأرقص الأرواحا

إنما الشعر كالنبوة لا يز ... داد فيها الكذوب إلا افتضاحا

قد أقمنا للشعر سهرة خمر ... فلأ تم من القذى الأقداحا

تعب المدعى ونحن تعبنا ... ليته قد أراحنا واستراحا

و « دمر » شاعر « يتألم » ، ولكنه يخفى ألمه ليضحك للحياة ، ويبتسم فى وجه الأحداث ، وهو يردد :

الحياة ابتسامـــة وهناء ... ضل من يقطع الحياة كئيبا

ويقول من قصيدته « ذبول » :

كلما سددت قناة مصاب ... لفؤادى تحطمت بقناتى

وهو شبيه بقول أبى الطيب :

فصرت إذا أصابتنى سهام ... تكسرت النصال على النصال

وفى غفوات عقل شاعرنا ، وانطلاق خياله ، لا ينسى أن ينبئنا بقصة حياته ، من بدئها لختامها ، فيقول فى بيت مفرد رائع :

قد كان لى أمل يعلو ويختنق ... فالآن قد ذبحت هنا آمالى

ويصور معركة اليأس والأمل فى نفسه ، فيقول :

أؤمل لكن حين يولد مأملى ... يموت ، فأبغى اليأس واليأس نافر

ويذكر معركته مع الحياة ، وهزيمته فيها ، فى بيت آخر ، فيقول :

وعاركت أيامى عراك مغامر ... إلى أن نبا سيفى وجسمى تضعضعا

ويتحدث فى قصيدته « نهر اليأس » عن نفسه وشاعريته المغردة للجمال فى كل روض ، وعن أمانيه التى تذوى وهى فى المهد ، فيقول :

أنا ذلك العصفور فى الدنيا سرى ... فى كل روض للجمال يغرد

كم من أمان لى ذوت فى مهدها ... كالطفل يولد نعشه إذ يولد

وينتقل الشاعر من ضفاف « العاصى » إلى ضفاف النيل ، فيصور حياته القديمة والجديدة تصويرا جميلا فى أبيات يخاطب بها النيل ، فيقول :

كم شاعر يانيل جاءك شاكيا ... رتلت حلو نشيده ترتيلا
قذفته أمواج الحياة إليك من ... أوكانه فثوى لديك نزيلا
نسيته دنياه فأقبل شارحا ... ألما يكبل روحه تكبيلا
ذكرتنى يانيل أيام الهوى ... إذ فى ربى (العاصى) أهيم طويلا
(وحماة) لوخيرت بين ربوعها ... والنيل لم أرغب بها تبديلا
روحى على العاصى تحوم فإننى ... من أجله أصبحت أهوى النيلا
طابت ربى الوادى السعيد وطاب من ... أمسوا لدى الوادى السعيد نزولا

و (دمر) مع وطأة الأحداث على نفسه ينفيها من خياله بالأمل الضاحك ، والابتسامة الوديعة ، وبالثقة النفسية ، والشعور العميق بكبرياء الشاعر ، مما يصوزه فى أبيات ثلاثة ، فيقول :

عشت فى الطهر وعند الـ ... ـناس لاحت كثيرة هفواتى
غير أنى أراهمو تحت سفحى ... من صغار كالنمل فى الفلوات
فابسمى يامناى فى ليل عمرى ... لتضيئى حوالك الظلمات

ويقول فى بيت آخر :

أنا عصف اللهيب فى حومة الهو ... ل ، ولمع الصواعق الحمراء

والشاعر يسير فى نطاق التجديد والبساطة والغناء فى شعره . . ووحدة القصيدة عنده تلوح فى بعض قصائده ، وتختفى فى بعضها الآخر . . ومن أروع صور التجربة الشعرية العميقة فى ديوانه الثانى « حنين الليالى » ، قصيدته التى جعل عنوانها « صورة » وتحدث فيها عن صورة وجدها معه لذكرى وصال قديم ، وأيام عزيزة عليه ، ويقول فى القصيدة :

لم يبق من دنياك فى خاطرى ... إلا خيـــال الزمن الغابر
وأذكر الماضى الذى ضمنا ... كصفو عيش الروض للطائر
كنا بدنيا من هناء ومن ... مر لدى المهجور والهاجر
قد كفنت أيامنا وانطوت ... وأصبحت فى هدأة الذاكر

ومن قصائد الديوان البديعة كذلك قصيدته « دمعة الحرمان » ، ويقول فيها :

هنا قضينا زمان الحب والهوى ... عليه ما كان أهنانى وأهناك
دنياى لم ألقها من بعدك ابتسمت ... ياليت شعرى كيف الآن دنياك
حرمت وصلك فى هذى الحياة فهل ... إن مت فى عالم الأرواح ألقاك ؟

وتطالعنا فى الديوان قصيدة « إلى أم كهلان » ، وقصيدة « ولدى أنس » ، التى يقول فيها :

أنس وما أحلاه من نغم إذا نوديت يا أنس انتشت آذانى
لما ظهرت رأيت دهرى باسما ومشت مدام الأنس فى أحزانى

وقصيدته (نشوة العمر) ، يتحدث فيها عن قصة حب له ، فيقول :

كأنك بدر لست آمل نيله وهيهات من لى بالصعود إلى البدر
إذا ما بدت أضواء وجهك فى الدجا رأيت الدجى هيمان فى بسمة الفجر
سلام على أيامنا كيف أسرعت مضيا وكانت وحدها نشوة العمر
إذا ما سكرنا بالأحاديث والمنى درجنا نقص الذكريات لدى النهر

وصور الطبيعة وأوصافها عديدة فى الديوان ، ومن أجملها قصيدته (عرس) التى يصف فيها مواكب الربيع وجماله وبهجته وحسنه ، فيقول فيها يقول :

جل من لون الأزاهير فى الفجـ ـر ، وأبدى بها الجمال ضروبا
فكأن الربيع عرس بديع كل شىء يلوح فيه عجيبا
تشرق الشمس فى سماه عروساً ترتدى بالضياء ثوبا قشيبا
وقيان الأفنان تصدح باللحـ ـن وتحلو للرقص فنا غريبا

ويتحدث الشاعر عن الصداقة والصديق ، فيقول من قصيدة له يذكر قصته مع صديق وفى :

ولى صاحب أقنانت منه رجولة وصدقا ومن سقمى به أتطبب
تقلب دهرى والصحاب ولم يزل مقيما على الاخلاص لا يتقلب
إذا نزلت سود الخطوب بساحتى أزاح دجاها فانجلى منه غيهب

هذا هو (دمر) الشاعر الوجدانى الغنائى المجيد فى أوصاف الجمال إجادته فى وصف الطبيعة ، والذى يجنح بشعره إلى البساطة والسهولة والطبع ، تاركا التقليد والتكلف فى أحيان كثيرة .. وفى ديوانه قصائد عديدة بديعة رائعة حقا ، هى من تحليق خياله الشاعر ، وملكاته المصورة ، وفيه كذلك صور يبدو عليها آثار من التقليد والاحتذاء الفنى المتكلف ، ولكن شاعرية الشاعر وهو فى رونق الشباب تنبئنا بقصة شعره وشاعريته فى المستقبل القريب المرموق ، وتدعنا نؤمن بأن (دمر) ابن سوريا العزيزة ، سيصبح بإذن الله بعد قليل فتى سوريا المفرد ، وشاعرها المجيد ، وما ديوانه الأول (رعشات) الذى ظهر فى سوريا منذ سنوات ، وديوانه الثانى

الذى سيظهر عما قليل فى مصر ، إلا شواهد قوية على شاعريته الموهوبة ، ومستقبله المنشود فى القريض ، الذى بدأ حياته فيه مفتونا بشوقى وعمر أبى ريشة وعلى محمود طه وإيليا أبى ماضى ، ثم عاد فركن إلى الاستقلال الفنى فى قصيده بعد أن بدأ حياته العلمية فى مصر .. وبعد : فالمجد لك ياسوريا .

المجد لك بشعرائك ، وبأبنائك العبقريين

والمجد للأدب والشعر فى ربوعك : بدمر ، وديوانه الجديد . . .

شاعر من الكويت

يعيش محمود شوقى الأيوبى الشاعر فى وطنه « إمارة الكويت » ، يقضى حياته بين القراءة والتعليم والتصوف : وهو اليوم ناظر مدرسة حولى بالكويت . . وقد تلقيت منه منذ أمد قصيدته (مع القافلة) التى يقول الشاعر نفسه عنها :

« ألهمت هذه القصيدة بين ٢٢ - ٢٣ ربيع الأول ١٣٧٣ هـ ، وقد بقيت مسودتها عدة أيام لكثرة المشاغل المدرسية فى القرية . ..

وفتح الله على أن أبيضها فى ليلة الأربعاء بعد الغروب : وقد نهضت فى سحر هذه الليلة نفسها وانتهيت عند شروق الشمس .

وأبعثها إلى دار الكنانة فى يوم الخميس ٣ ربيع الثانى سنه ١٣٧٣ هـ ، من الخليج العربى - الكويت - قرية حولى » ..

وقد كتب الشاعر إهداء القصيدة لى فبعث إلى معها برسالة يقول فيها : « سيدى : هذه إحدى ملهمات فجر الشتاء ، أعرضها تحت إشعاع فكركم ، وأقدمها بين يديكم ، اعترافا بفضلكم ، ولشد ما هنأت نفسى بتمامها مع وجدانكم الحر

وهذه هى القصيدة :

مراتع الريم بين القفر والماء	ملهى العذارى ، ومغنى كل هيفاء
مشيت فيها وسحر الوجد يجذبنى	لكل مكرمة تسمو بحوبائى
فكنت كالطيف منسلا بساحتها	فجرا . وتحنان قلبى فى السويداء
وشوقتنى أغاريد مجنحة	رفرافة . بين أشذاء وأضواء
لما قطعت - على قلبى - الظلام ولم	يجنح بى العزم عن تحبير إنشائى
حسبى من الأنس أنى لا أرى كرما	إلا سريت له فى عزم مضاء
هذى الروابى يذوب الطرف منطلقا	فيها برأرىء مسحورا بأشياء

وهبتها الحب ! . لاتغنى مناقشة ... فى الحب !. صورها مغرور دهماء
حرية الروح أسمى فى مبادئها ... من أن تذل لأوغاد أذلاء
أصلتها فى كناس الريم مرهفة ... بين الأجارع فى دل وإغراء
نقبت فى كل ربع عن جآذرها ... فنلت مالم أنله بين أبهاء (١)
دعوت قومى إلى المغنى وبهجته ... ليشهدوا موكب الصيد الأعزاء
لحن من الغيب هز الثائرين إلى ... مفاتن العز زخار بأصداء
صغوا إليه فهبوا من مراقدهم ... مشمرين إلى عز وعلياء
كأنهم فى ذرا الدنيا ملائكة ... تسبح الله صبحا بين قوراء
بعث تجلى من الأطلال مزدخرا ... مفجرا بين أنحاء وأرجاء
شاهت وجوه حماة الرجس يوم بدا ... نور التحرر من عسف الأخساء
تذال الوعر للأحرار منبسطا ... سهلا بكل فتى — للعز — مشاء
فى الشرق والغرب للسارين همهمة ... تنم عن عزة — فى الروح — شماء
راع الأباة جنوح الغاصبين إلى ... كبت النفوس وتشريد الألباء
فخاصموا الجور إيماناً بحقهم ... ولم يناموا على ضيم وإغضاء
وزلزلوا كل طاغوت بوثبتهم ... وروعوا أكبد الزرق الألداء
هبت (مراكش) يحدوها الرجاء إلى ... العز التليد بلا مطل وإبطاء
فكانت الثورة الكبرى وقد أكلت ... جيوش مغتصب فى يوم هيجاء
قاد الرعيل المفدى يوم غضبته ... (عبد الكريم) بآساد أشداء
ألقى على الملإ الغربى يوم مضى ... درسا تشامخ عن طيش وأهواء
لطالما كافح الأحرار غاصبهم ... كفاحهم بين خضراء وجدباء
رياض (تونس) غنتنا عنادلها ... فوق الخمائل لحناً بين غناء
لحنا يثير حميات موزعة ... تبعثرت بين أوباء وأدواء
تجاوب السحر بين الذائدين بنا ... من ذمة الغرب فى ديجور ظلماء
وثار من (عمر المختار) يوم غدا ... فى جانب المجد أرهاط الأجلاء
قاموا ، وللحق صولات مجلجلة ... بكل مستأنس — للموت — عداء

---

(١) الابهاء : جمع بهو وهنا كناية عن القصور والابنية الفخمة

والموت أول فصل فى عروبتنا ... نلقيه درساً لآباء وأبناء (١)
الموت فلسفة الايمان ينشده ال ... فن الرفيع لتحرير وإحياء
ذل الأذلون فى ملهى الخنى وغدوا ... عبيد عبدان تهميل وأزياء
المترفون الوضيعون الألى وردوا ... بين الصغار زعاق السقم والداء
فى (الكادلاك) مع العلجان زادهم ... أوهام كاس، وقيثار، وحمقاء
باعوا الديار وما فيها لشهوتهم ... وعمموا الجيف فى ريف وبيداء
يختال (قوادهم) تيها على الوطن ... المكروب فى كذب ألقاب وأسماء
وليبيا ما دهاها غير كارثة ... من لابسى الدجل تمويها لدى الرائى
أليس فى (مصر) يمشى الظالمون على الا ... عناق، مشى الأجاويد الأصحاء
حر الجهاد وبذل الجهد من ملإ الا ... حرار، أفضى أفاعيل الأرقاء
فراعن من رقيق الخائنين مضوا ... أنكى من السم فى وادى الأحياء
تعرم الكرب فى الجنات مرتشفا ... دم الحياة، وأجرى خبط عشواء
أيام (فاروق) أيام ملبدة ... بظلة من لظى الويلات - سوداء
جريمة العصر فاروق الغشوم له ... يصغى لدى الكاس رهط شر إصغاء
كم ثورة - أشعلتها مصر - صادقة ... من قبل جاءت (بزغلول وبناء) (١)
تفجرت بالدم الأزكى حقيقتها ... بكل مستشهد - للحق - بكاء
بكى على الوطن المظلوم مغتنما ... دمع العيون لإذكاء وإرواء
فسار بالشهداء الفائزين إلى ... نار الحتوف بلا تسويف إرجاء
وأظهر الله فى (دار الكنانة) ... للشعب الكريم زعيم الأسد لا الشاء
فوق الضفاف على (السودان) ألوية ... خضراء تخفق عزا فوق خضراء
يسمو عليها (اللواء) المجتبى شرفا ... إلى المصب بإشراف ولألاء
وتنضوى تحته الأمجاد زاخرة ... (بآدم) مشرق اللقيا و(حواء)
ينساب حولهم النيل العزيز له ... تهفو القلوب بميمون وحوراء
كأنما هو يجرى فى القلوب له ... همس يمج بأنوار وأشـــذاء
ماذا أحس؟ . . وقاك الله خائنة ... يا مصر! . ترعاك أرواح الأخلاء

---

(١) ثورة عمر مختار البطل المغربى الشهيد ، وقد صارع الطليان صراعا تهفو له نفوس الأحرار المغاوير .

(١) يريد بهما : سعد زغلول ، وحسين البنا .

إنى أرى فى ظلال الخصب ناخسة … من الجواسيس فى ألوان حرباء
إنى أرى السم لافازت ثعابنه … يسرى خفياً بأرباف وأحياء
قد يعسر الداء إن لم يمحقوا عصراً … على العباقرة النطس الأطباء
أذناب مستعمرى الأوطان قيمتهم … صفراء تبر أتت من كف برصاء
يسرون للشر فى جنح الظلام كما … تسرى الخيالات فى أفكار عمياء
ماتت ضمائر . سحقاً للألى مردوا … على النفاق بأوغار وبغضاء
يامصر يامصر سيرى للعلا خببا … واستنهضى الروح فى شوق وإنماء
وأول الوهن وهن الغافلين عن … الربع الشهيد : بتبديد وإقصاء
واحسرتاه ألم تقدم جحافلنا … يوم الجهاد على منهاج أخطاء
تبر اليهود ، وخوان ، وقارعة … من السياسات ، زجته بضراء
فنحن ، لاهم ، أحلنا ربعنا غبراً … جهماء تأتى سراعاً بعد جهماء
سرنا على الطوع منا فى صغائرنا … وسار من حولنا أطياف أرباء
يالعنة الدين والدنيا ألا انحدرى … على الألى أرهقوا المنفى بنكراء
الأبرياء يذيب الهلك أكبدهم … بين الفجاج بتجويع وإعراء
كانوا أعزاء فى أوطانهم وغدوا … فى حمأة الويل صرعى بين أنحاء
والكادحون بأغلال منضدة … ماضون فى الرسف أسرى مزمن الداء
ياربع عيسى ومغنى الفاتحين أرى … فيك السلام معاداً بعد نكباء
لسوف توقد حرب لانظير لها … تأتى بداهية لاؤم دهيــاء
تأتى اليهود بتحريق وصاعقة … من الدمار على الأوغاد ـ هوجاء
إنى أرى فى ضمير الغيب فى هجر … الطغام ، قبرآدوين القدس تلقائى
قبراً يضم يهود الأرض أجمعهم … فى مربض الصمع موسوماً بأسواء
من الغرابة حتما أن نرى ملأ … الرهط اللئيم على أكناف فيحاء
غادون فى حلل الديباج يسعفهم … من جانب الغرب إمداد لإلهاء
فالهلك (بنى صهيون) شمت له … وميض برق عجيب بين أنواء
فما لقيناه درس فى مرابعنا … ألقته أقدارنا من بعد إلقاء
لينهض العرب بالسمحاء حسبهم … هذا الشقاق سرى بين الأشقاء
وليسمعوا القدر السارى يعلمهم … علماً من الغيب تمضى غير نساء

إن لم يعوا فلهم رب يحاميهم ... برحمة منه فى عفو وإعفاء
الله يعلم ماتخفى ضمائرهم ... ياويح من ضل يبغى ظهر عنقاء !
جهل، وفقر، وأسقام تعيث دجى ... بكل نفس . عن الايمان ـ صماء
تخب فى الظلم الدخياء (١) كاشحة ... بليلة ـ فى خمار اللهو ـ حمراء
إن الملوك مماليك لشهوتهم ... ودون أن يخشعوا أشواك كأداء
لم تجدهم من صروف الدهر موعظة ... تمر فى كل حين ذات أطواء
تغشى الانام بأقدار منوعة ... مواعظ بين ما وعر ومرداء (٢)
أما ترى وطن البنزين كيف هوى ... فى قبضة الجهل قهرا ، بعد إثراء
ماذا أفاد الرعاة الشوس قومهم ... هل أنموا المجد حرا بعد تهواء (٣)
ران الخمول بأبناء الجزيرة فى ... أعضادهم خدر فى قلب صحراء
هذى الدويلات لاعلم يسددها ... إلى السمو ولا أمجاد أكفاء
لاهون فى غفلة كبرى على ترف ... وآخرون على نيران بأساء
مصفدون بعجب فى مخائلهم ... سكر الجود لدى مدح وإطراء
يبعثرون كنوز الشعب فى سفه ... من اللذائذ ، فى حانات صهباء
ويدعون هوى الإسلام، حسبهم ... هذا الهراء بهذا المهمه النائى
أين المروءات تصبينا منقحة ... لعزة ـ فى سبيل المجد ـ عصماء
أين المعاهد للإسلام مشرقة ... تموج بالخير فى يمن وإرواء
أين المصانع تدوى بالحديد لها ... صنائع ذات إخراج وإنداء
أين التحرر من وهن ومن خور ... فى مشرق بالعلم وضاء
مضى الطويل طويل العمر حيث مضى ... إلى الخلود بكف جد عزلاء
غدا يتوج فينا بعده ملك ... رهن التقاليد لا سيرا بسمحاء
هذى الجماهير تأتيه فتنشده ... من الفهاهات مدحا قصد إسداء
أقول : ماذا برب الخلق مدحهم ... أجبروا النصح فى أبيات غراء
أم جرجروا خلق الاسمال وانتجعوا ... وعر الخسار لأحشاء وأمعاء

---

(١) الدخياء : الادخنة المتراكبة المظلمة

(٢) المرداء : الارض الرملية لاماء فيها ولا شجر

(٣) التهواء : الطائفة من الليل .

مافى الجزيرة فى ربع السكنو زسوى ... بدو جياع ، وخراز ، ونواء (١)
مافى الجزيرة إلا كل نخفخة ... تحكى الانانية الشوهاء ـ شنعاء
رأيتها ـ ورأيت البائسين هم ... ما بين أنياب تنين ورقطاء
وقاحة فى علالى الموسرين لها ... جر الذيول على أجزاء أشلاء
صفاقة فى رحاب المالكين لها ... على المساكين نيران الأخساء
لم يتبعوا أمرهم شورى ولم يدعوا ... للمعوز المتردى فضل إعطاء
تمشى العروبة بالأسمال كاسفة ... حزينة الروح من بخل الاشحاء
بغداد تبكى على الأطلال نائحة ... بكاء ثكلى بآلام وأرزاء
وذى دمشق حماها الله من نوب ... بكل شهم من الإذلال مستاء
وفى الخليج تؤدى كل ماكرة ... فروضها على كتمان وإخفاء
فتائل من خيوط الغاصبين ومن ... صافاهم نسجت أبراد إغواء
أعيذ قومى وأهلى من زخارفها ... أعيذ رائدهم من رأى خرقاء
وكان ماكان مما ظل فى صحف ... ـ التاريخ يملى لتحرير وشداء
قصائد فى رحاب النور خالدة ... يشدو بها ثغر صنديد وغيداء
حوادث تلق جرسها علنا ... غنى بها للتسامى قلب حداء
يستلهم الشعراء الساعون بها ... شعر الحياة بانشاء وإملاء
ويسبح الفكر فى لجاتها شغفا ... بالعبقرية يجلو خير أنباء
وتطمئن قلوب بين أضلعها ... بالأمن راضية من بعد لأواء
سور من النور بالأرواح ملتطم ... دونه تتهاوى كل ضوضاء
ماقيمة الشعر فى أسمى بلاغته ... إن لم يعبر لانهاض وإعلاء
ماقيمة الشعر إن لم يتخذ مثلا ... عليا لتحرير حق بعد إغماء
فلتشدون أناشيدى لمكرمة ... تلق الحقائق بيضا بعد إلغاء
هذى خلاصة مافى النفس من شجن ... جاءت كتر جيع قمرى وورقاء
إلى همام بأرض النيل أبثها ... من غير ما كلفة أو صنع إشداء (٢)
أتت مفيضة الآمال عازفة ... عن الضنى بين إصباح وإمساء

---

(١) النواء : الذى يبيع نوى التمر
(٢) الاشداء : الاجادة فى الغناء .

حسبي بأن يتلقى شدوها كرماً ... قلب المفضل بين الروع والماء

إلى (الخفاجي) عطري الأريج رنت ... إلى مآثره العظمى بنجلاء

الأروع الورع البارى يراعته ... لخدمة العلم فى أكتاف شجراء

فى مصر صرح المعالى عز طارقها ... محميـــة بالمغاوير الألباء

تحيتى ماصفا ليل الشتاء وما ... تلألأ النجم فى أقطار زرقاء

تهدى إلى مصر مغنى الثائرين على ... جهالة من حمى الذوبان ، جهلاء

وقد ترجم الأستاذ أحمد الشرباصى فى كتابه « أيام الكويت » للشاعر ترجمة طويلة(١) ، ذكر فيها هجرته إلى جاوة ورحلاته فى البلاد الاسلامية ، وحياته فى وطنه وكثيرا من شعره .

ويقول عنه : إنه يحب المتنبي ، وشوقى ، وعلى محمود طه ، ومحمد مهدى الجواهرى ، والرافعى ، والعقاد والمازنى ، من بين الأدباء والشعراء .

وقد أسعدنى الحظ بكتابة رسالة إلى الشاعر ، فتلقيت منه بعد حين ردا عليها ، لا أجد مفرا من تسجيله هنا ، لما يتضمنه من إلمام بدواوين الشاعر ، ولما يبدو فيه من صور أدبية تزيدنا معرفة به ، وهو هذا الرد الذى أرخ فى اليوم العاشر من ربيع الثانى عام ١٣٧٣ :

حسبي بأنك فى الظلام أغثتنى ... برسالة قدسية الأشذاء

سيدى : بعيد صلاة العشاء كنت قد تلوت سورة الرحمن وسورا أخرى ، بنغم ذاب به قلبي ذوبان اللجين ، فغفوت غفوة أطيفت لى بها كؤوس من النور فسكرت ثم سكرت ، فاذا الصحو يفعم كل جارحة من جوارحى ، فلم أنهض إلا والنشوة فى أقصى عنفوانها ، وقمت فى أعماق الدجى أناجى رب الكائنات ، فانهمر الدمع كالسيل الزخار ، فرجعت مع القافلة أتلو كلماتك الحلوة . . يا سيدى : تناولت قلبى والليل والسحاب والنجوم فى صراع ، وأهلى وأطفالى حولى كلهم يعبون من كؤوس الأحلام ! فالليل هادىء ساج ، والكون يرنم أغرودته الخالدة ، وقلبى يخفق ويتوثب ويسير ثم يسير ! . . . إلى أين أيها القلب الشجى . . إلى أين أيتها الروح الحائرة ! . . إلى أين أيها الفكر السخى السمح ؟ . إلى أين يا شاعر الحزن والأسى ؟ . . إلى أين أيتها العرائس الراقصة الولهى فى حدائق الكون الخفية ! . . أيتها الأرواح المقدسة الطاهرة من وضر الهون والذل والخمول ! . .

---

(١) صـ ٢١٤ – ٢٣٧ طـ ١٩٥٣ ـ طبعة دار الكتاب العربى

إليك ياسيدى زففت عروسى (مع القافلة) معطارة الأريج ، ثائرة الروح مولهة الفؤاد ، فاذا بك القلب الكبير الحنون ، وإذا بنفسك السامية السكرى برحيق الحق والحب والجمال تتفحى بنغبة من سلافة الحب الخالد ! . . أيها الروح المحب العزيز ! . . ها أنا ذا أناجيك من أعماق الدجى ، أنت فى مصر وأنا فى الكويت فى الصحراء .

هذه رسالتى أبعثها إليك من أعماق الظلام ، ومن مرابع الظلام ، ومن صحراء الظلام :

إيه دنيا مالى بها من نديم غير روح يرى وراء السديم
هائما منشدا نشيد النعيم كلما ازداد عشقه زاد فنا

وهذه ياسيدى دواوينى الشعرية التى نظمتها :

١ ـ الموازين وقد تم طبعه عام ١٩٥٣ بالقاهرة
٢ ـ الملاحم العربية
٣ ـ ديوان رحيق الأرواح
٤ ـ ديوان الينابيع ، وقد فقد فى دار رسالة (الزيات) وعندى منه بعض القصائد
٥ ـ المنابر وهو موجود عندى لم ينسخ بعد
٦ ـ ديوان أحلام الخليج وهو منسوخ كامل عندى
٧ ـ ديوان الأشواق وكله عند الأستاذ الشرباصى فى مجلدين وعندى منه نسخة مبيضة
٨ ـ ديوان الأقلام
٩ ـ قصائد مفرقة لم تجمع بعد وهى (ديوان الصباح)
١٠ ـ ديوان صغير اسمه (أغانى الحمى)

ودونك ياسيدى ابن أختى السيد عبد الله زكريا الأنصارى ، فلديه الكثير من شعرى والكثير جدا . عنده ديوان الملاحم العربية الجريحة وفى أوله تلك المرثية أى رثاء الديوان نفسه .

وعندك الأستاذ الشرباصى ، فعنده لى ديوان كامل وهو ديوان « الأشواق » ، وفيه الكثير من قصائد شتى .

وها أنا ذا أبعث اليكم سيدى بأربعة أجزاء من ديوان رحيق الأرواح ، وهي : « المعصرات ، والبرزخ ، والبروج ، وقيثارة الخلود ـ وسأبعث اليكم

شيدى بالأجزاء الثلاثة الأخيرة بعد أن يتم نسخها وهى : المرايا ، الغياهب ، الشريط ، .. وأحب ديوان إلى من شعرى هو ديوان رحيق الأرواح ، لأنى كتبته بدم قلبى ولم أتقيد بالعروض والقوافى ، لم أتقيد بشىء حيث الروح منطلقة فى فضاء الله اللانهائى ! . .

هذا نوع من الشعر الروحى المحض لعل أبناء العروبة لم يعرفوه ! . . هذا كنز من كنوز الروح أقدمه بين يديك ، وقد كتبته فى أيام محن لو نزلت على الحديد لأذابته .

ولى شعر كثير ضائع ، فقد منى فى أيام الحرب فى اندونيسيا ، وفى أيام الثورة بعضه فقد وضاع ، وبعضه أحرقته خوفاً من تفتيش الاستعمار .

* * *

ويقول الشاعر محمود شوقى عبد الله الايوبى(١) يشرح رسالة الدين فى الشعوب :

ما الدين إلا السعى فى طلب العلا ... مقرونة بالله دون تردد
ما الدين إلا أن ترى لك رايـــة ... خفاقة فى كل فج أبعد
ما الدين إلا أن ترى لك قوة ... تسمو على هام السماك الأوحد
ما الدين إلا أن ترى لك أمة ... مرهوبة يخشى حماها المعتدى
أرأيت دينا فى الوجود شعاره ... دين الحياة ؟ . . فذاك دين محمد

ويقول يبين رأيه فى فلسفة السعادة :

ضل من رام فى الحطام هناء ... فارغاً من جمال حلو المعانى
إن هذا الكون الجميل يحيى ... كل حى فى كل حين وآن
مشرق ضاحك المحيا بشوش ... يبعث الصوت مطربا بالأغانى
كم رأينا بين القصور أناسا ... رهن عيش مؤجج النيران
صاح نقب عن السعادة بين - الر ... وح - والعقل - باحثا - والجنان
فاذا لم تفز بها بين هذى ... فابحثن عن كون - ان اسطعت ثانى
كيف تبكى وللطبيعة صوت ... عبقرى السرور عذب المثانى
وانهضن للحيـــاة سلم عليها ... بجميل الرجاء يوم الرهان
ثم حاول ما اسطعت جهداً بأن لا ... تترك النفس طعمة الأشجان

---

(١) ديوان الموازين ص ٢٧ - نشر دار المعارف القاهرة عام ١٩٥٣

إن أسمى الغايات عندى نعيم خالد مشرق الضيا غير فانى
فتقرب اليه فى فكرة الرو ح لعمر من بعد موتك ثانى

ويشرح حقيقة القدر فى فلسفة ، وإيمان قوى ، فيقول :

قف عند حدك لا تحا ول كشف أسرار القدر
مهما سعيت فلن تنا ل سوى العماية والكدر
ذا باب غيب مغلق ضلت به كل الفكر
سواك ربك عاقلا وحباك سمعك والبصر
فإذا دهيت بنكبة فابحث وقل فى الأمر سر
وإذا أصابك نعمة فمن العزيز المقتدر
قد يبتلى البر التقى وينعم الطاغى الأشر
ولعل أسباب المصائب من أثامك فى العمر
ارجع لنفسك وانهها فالخطب منها منحدر
وتأدبن يا من يلو م الدهر فكر واعتبر
قف ذاكراً ودع المبا حث حول « أسرار القدر »

ويتحدث عن جمال النظام فى الحياة فى فلسفة جميلة ، فيقول :

كل شىء فى السكون حى يغنى كلم الصخر ـ صاح ـ والرمل غنى
تلك تنبيك عن معان جسام اصغ للحن تابعاً كل لحن
رسخ الصوت فى الجماد وغنى بنشيد المصور فى كل وزن
عجباً ! .. هل نظرت هذى الدرارى سابحات تجرى بدون تأن
زاخرات ـ ولا تصادم حيث الـ جذب فيها ؛ والجذب أول عون
فقوام الحياة فى السكون طرا بالنظام العجيب ، بالحق ، مبنى
وأساس النظام فى الناس هذا الـ عقل إن حاز فضل علم وفن
وفساد النظام جهل وشر إن جهل الورى ضياع لأمن

ويرى أن للثورة جمالا ، فيشرح ذلك ، ويقول فى ديوانه « الموازين » :

رسف الحق بأثقال القيود فى حمى الهون وأهلوه رقود
وإذا ما الساعة الكبرى أتت زلزلت من صرخة الحق النجود
فتثور الأسد فى أدغالها بزئير يملأ الدنيا رعود
إن بطش الحق جبار فيا ويح أهل الجور من فتك مبيد

ثورة الفكر وسام مشرق فوق صدر المجد فى الجيش المجيد

ويذكر جمال السلم ويتحدث عنه ، فيقول :

لاسلم فى السلم مادامت أبالسة الـ ورى تعيث فساداً فى حمى الوطن
لاسلم مادامت الأخلاق فاجرة تسيل حمأتها بالفسق والفتن
لاشىء أجمل فى الدنيا وزخرفها من زينة السلم فى بحبوحة الدمن
بالدين والعلم والعقل السليم ترى مباهج السلم بين المربع الحسن
وإن تضعضعت الأركان أربعة أنذر بنى الأرض بالآفات والإحن

ويومىء إلى جمال الصراحة ، ويرى أنها عماد القوة ، فيقول :

صرح بقولك سرا للحق فانصر وجهرا
وإن رأيت ازوراراً بين العباد وكبرا
بادر لكبح جماح الـ بغاة لاتخش ضرا
الحق يعلو إذا لم ترد بفعلك فخرا

ويذكر جمال الوقت ، فى حكمة أخاذة ، فيقول :

قيل فى الحكمة « إن الوقت من ذهب » لكن بهذى لا أدين
إن هذا العمر محدود فهل يرجع اللحظة تبر العالمين
إنما الوقت وعاء العمر فى هذه الدنيا ، فما تغنى العيون ؟ .
حسرتا للوقت إن ضاع سدى خيبة العمر ، وخسر العاملين
إنما اللحظة عمر واحد فإذا ضاعت فقد ضاعت سنين
إنما الوقت كسيف صارم إن تغافلت برى منك الوتين
فاقتل الوقت بما يغنيك من كسب خير ينفع العمر الثمين
قسم الوقت لساعات بها تطمئن النفس فى كل الشؤون

وللنوم جمال فى رأى الشاعر ، ومن ثم تحدث عنه فقال :

أشعل المصباح فالظلمة قد فتحت للناس باب الملعب
سهروا جهلا بملهاة الخنى بين عزف ساحر أو مشرب
ثم روّ الطرف من كأس الكرى وتلذذ بالرحيق الأعذب
بكرن فى النوم وانهض سحرا وإلى ربك بادر وارهب

ودع الأغرار صرعى كلهم جيف السهد بلهو مكرب
نعمة النوم بأعماق الدجى وإذا ماست ذكاء فانصب

ويذكر جمال العبرة وعظاتها ، فيقول :

آيات ربك بينات والدهر خذ هذا وهات
هذا وليد قد أتى وأبوه صار إلى رفات
هذا يروح وذا يجى والعمر بينهما فوات
هذا يزف إلى العرو س وذا إلى الأرض الموات
أنعم بشخص حازم منع الهوى عنه العظات
نظر الحياة بمجهر عجب أراه المعجزات
فخطا جريئا للعلا والجد فى حال النجاة
إن الزهادة فى غرو ر العيش ممن للحياة
أقدم هديت مبادراً للصالحات الباقيات

ويشرح جمال الطمأنينة ، ويتحدث عنها فى قوله :

واجه ظروف العيش مهما نوعت بهدوء بال لا بطيش الأحمق
فالعيش إما فرحة أو ترحة والمرء بينهما بأحرج مازق
قد يسلب الفرح الشديد حجا الفتى ويجن من ترح فؤاد الأخرق
غالط كلا الحالين حتى ينتهى تأثير ما تلقى بعقل مشرق
كن مطمئن البال عند حلول ما يأتى بحال مفرح أو مقلق
والحزم أن تأتى أمورك هادئا من دون ما قلق بعقل مطلق
واستسهل الأهوال عند نزولها ببصيرة وتأمل وتأنق
واعلم بأنك دائما فى هذه الد نيا رهين توجع وتحرق
فإذا أردت العيش حلوا دائمـا فلقد بعدت عن اللذيذ الشيق

ويفيض فى جمال الشباب شارحا ومعللا وذاكرا ، فيقول :

جل مثواك ياحياة الشباب يعشق العيش فيك بين الرحاب
مرح دائم بعـزة مغنى وجمال بين الربا والشعاب
منعة المجـد للمرابع ترجى من شباب مثقف باللباب
ويخوض الأهوال خوضاً بوجه مشرق لا يهاب شم الصعاب
فهو كالكوكب البديع بريقاً وهو فى الحرب شعلة كالشهاب
وهو فى الدين راهب وبفن الـ عيش غيث يدر در الحلاب

وإذا ما هوى الشباب بسوء الـ خلق بشر بلاده بالخراب
وربيع العمر القصير شباب ضاحك الزهر أو عبوس الجناب
فانتهز لحظة الربيع ففيها يضحك القلب للأماني العذاب

هذه مقتطفات قليلة من شعر الأيوبي الشاعر ، كما يجلوه لنا ديوانه « الموازين » الممتع ، وإنه من حظ الأدب العربي أن يصدر ديوان « الموازين »(١) ، صورة واضحة لشاعرية موهوبة مطبوعة ، وعنواناً كريماً على نهضة الأدب والشعر في الكويت العربية الفتية ، العزيزة على كل إنسان يعيش في بلاد العروبة كافة ، ويزيد من أهمية هذا الديوان أنه أضخم مجموعة تنشر من الشعر الكويتي الحديث ، فالمؤرخ والدارس للأدب العربي المعاصر في الكويت لاغنى له عن قراءة هذا الديوان ، ودراسة مؤلفه الشاعر محمود شوقي عبد الله الأيوبي » .

وتستمد شاعرية الأيوبي عناصرها من ميراث عربي عريق في العروبة والبيان ، تلقاه الشاعر عن آبائه وأسلافه ، ثم من حياته العربية التي قضى شطراً كبيراً منها في جزيرة العرب متنقلا بين الكويت والبحرين ونجد ، مما طبعه على البيان ، وفطره على الشعر ، ومنحه مواهب جليلة من البلاغة الأدبية . . ويضاف إلى ذلك ملكات شعرية صافية صفاء السماء الزرقاء ، عميقة عمق البحر الزاخر ، وقراءات مستمرة في مصادر أدبنا العربي القديم وخاصة كتاب الأغاني لأبي الفرج .

وقد أكسبته رحلاته العديدة في العراق ومصر والشام وإيران ، ثم حياته نحواً من عشرين عاماً في أندونيسيا ، عمقاً في التجربة ، وخصباً في الخيال ، ودقة في الشعور ، وتجدداً في الاحساس الفني المتصل بينابيع الالهام الشعري الخالد ، وقد قرأ الشاعر لأعلام الأدب القديم والحديث على السواء . . ويبدو في شعره أثر المتنبي وإقبال وشوقي من بين الشعراء خاصة .

وللشاعر نحو من عشرة دواوين لاتزال مخطوطة ، من بينها : « ديوان رحيق الأرواح » ، و « ديوان الأشواق » ، و « ديوان أحلام الخليج » : وله العديد من القصائد التي تنشر في شتى الصحف والمجلات الأدبية في الكويت والعراق وسوريا ومصر .

وجانب الفلسفة والحكمة في ديوانه « الموازين » أظهر من جوانب الغناء والفن وطيوف الخيال ، وأعتقد أن أثر (إقبال) في هذا الديوان أكثر من أثر سواه من الشعراء .

---

(١) طبع دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٥٣ في ٤٥٢ صفحة

وشاعرية الأيوبي الثرة تجمع بين التفكير العميق والارتجال في نظم الشعر ، وهذه موهبة يندر وجودها بين الكثير من الشعراء . ويظهر في شعر الأيوبي روح الطبع أكثر من روح الصنعة ، فهو يكره التنقيح والتهذيب وتكلف التجويد الفني المتعمل ، كراهته للأغراب والحوشية والابتذال .

والأيوبي شخصية أدبية متميزة السمات والخيوط والألوان . . إنه ليس مقلداً ، وإن تأثر ببعض الشعراء ، تأثر الشاعر بالشاعر .

وقل أن تجد شاعرا يصدر ديوانا ضخما ، ويقفه كله على الحكم والتأمل ، كافعل الأيوبي الشاعر ، ولا بأس أن ننقل لك صورا شعرية أخرى من هذا الديوان .

يتحدث الشاعر عن جمال الشورى ، فيقول :

تحيا المرابع بالدعاة الكمل   من مارسوا في الدهر حل المشكل
فالقوم هم وقفوا لتعزيز الحمى   بالعلم وقفة عابد متبتل
يفدون بالأرواح أمتهم إذا   بليت بخطب من قضاء مرسل
يأتون للشورى ثبات كلهم   روح تدرع بالولاء الأجمل
يتداولون الرأى على محبة   والكل يرجو عصمة للموئل
فكبيرهم كصغيرهم والفخر لل   رأى السديد ولو أتى من مهمل
فبنعمة الشورى يعم العدل في ال   مغنى ويسمو الأمن بين النزل
فلكم رأينا من شعوب مزقت   بضعيف رأى المستبد الأجهل

ويتحدث الشاعر عن جمال الشعور ، فيقول :

تلوت قصيدة الروح المنير   فهزت للجمال ضحى شعورى
رأيت اللطف ينبوعا غزيراً   يسيل من الحجا الخصب الكبير
به من شعلة الحسنى ضياء   يفيض الأنس سيال السرور
محيا فيه تبتسم الأماني   فتصبو نحوه مهج البدور
ألا هذب شعورك مستدراً   له أرج الكمال من الزهور
وكن كالورد روحاً فيك أنس   مثار للكبير وللصغير
شعور المرء يسمو إن تزيا الـ   فتى بالصبر والعلم الغزير
وينمو بالصحاب إذا تغذوا   بخلق الحق في المغنى الطهور
ويزكو بالتفكر في الدرارى   وبين النبع والروض النضير
ويشرق بالتقى في كل وقت   وبالتفكير في خلق القدير
فطهر ما استطعت الحس تسلم   بعطف لليتيم أو الفقير

ويذكر جمال الفقر ، فى فلسفة وحكمة فيقول :

الفقر فقر النفس لافقر الحطام　　هذا القياس الحق ما بين الكرام
إن القناعة والرضا كنزان لا　　يعروهما مس الفناء لدى الهمام
لى فى الدنا بين الورى نظرية　　بجمالها لم ألق جوعا أو أوام
لاأطمعن بمال غيرى ، أو أرى　　فى الفقر عيبا ، لاألوم ولا ألام

ويرى الشاعر جمال الفرح ، ويتحدث عنه فيقول :

حى الحياة برائع الأفراح　　وتجنبن مواطن الأتراح
واصدح كقمرى الصباح مبكراً　　مترنما بالواحد الفتاح
فالحزم أن تلقى المصائب باسماً　　متحلياً بالصبر كل صباح
وتأملن مفكراً كى لاترى　　عند المصاب كريشة برياح
روض فؤادك بالحقائق واحبه　　عذب التجمل دائباً لنجاح
وخلاصة الفرح السعيد بكل ما　　يرضى الإله بفعلك الوضاح

وعلى هذا النمط من الحكم العالية ، والآداب الرفيعة ، يمضى الشاعر فى ديوانه ، الذى هو بحق « لزوميات » العصر الحديث . . .

ومن شعر الشاعر فى غير ديوانه « الموازين » قصيدته «شعلة الوطن» ، وفيها يقول :

كل شىء فيه الحياة تدب　　كل شىء ، من الحياة يعب
كل شىء أنواره تتشادى　　فيغنى لها ، فؤاد ولب
أى خير فى أمة لم يطرز　　فى حماها ، للعلم والمجد ثوب
أى خير فى أمة تخفض الحر　　وتعلى من بين جنبيه ذئب
بين قلب (المعلم) المرح القلـ　　ـب ، وبين الحياة رحم وحب
وكأنى به وقد لقف النو　　ر وأسرى به إلى المجد ركب
هو فى الأرض بائس تتقيه　　كل نفس لها من اللؤم صخب
يتسامى بالبؤس حتى كأن الـ　　ـروح فيه لبرزخ النور جذب
ملك طائر يسبح فى الجو　　ويهفو إلى المعالى ويصبو
فارغ من حطامه فى عذاب　　كلما اكتظ جيبه انشق جيب
عشق الحق والجمال وغنى　　بنشيد أنواره ليس تخبو
وترنى يسقى الشبيبة علماً　　فيه يرقى شعب إذا ذل شعب
يارسول الحياة بشراك صبراً　　لك صرح فى جنة العز رحب

لك فى جنة العرائس لحن مسكر فى مسارح المجد رطب
حسبتك الظنون فى الناس ولكن سوف يأتى لها من العلم حصب
سر بركب الحياة وانثر على النش ء أريج الهدى تمشيك سحب
يافتى العلم ! . . أيها الملك الحو ام ، نقب ، ماشئت فالعلم خصب
ودع الناس فى التراب عليهم من معانى التراب فى الربع نسكب
قد حملت الأعباء حتى رآك الـ دهر تمشى إلى العلا وتخب
أنا أدرى بما تعانيه من قسـ ـوة عيش فيه البلايا تدب
أنا أدرى بما بنفسك من حز ن فصبراً حتى يوافيك إرب
سوف تلقى بعد الجهاد مثارا لجمال الهدى ، ويحمد غب

ويقول من قصيدته « الليلة الخالدة » :

المسجد الأقصى يئن بلهفة تدع الحليم أمامها متحيرا
إن كان ثم عروبة فلم الردى يغتال مابين النفوس مكشرا ؟
أو كان دين يالقومى هذه ذكرى توثب من آفاق وسحرا
أو كان خلق حسبنا من آسه شيم تعطر بالشذى من بكرا
أو كان حب للربوع فكلنا فى حب ربع العرب لن نتأخرا
إن الكويت من العروبة دوحة عذراء من إسلامها لن تدبرا
فلم التخرص والشقاق ألم تروا أمماً عثى فيها الشقاق وخسرا؟
مدوا اليمين إلى اليمين وأدلجوا فالليل ليل والردى لمن افترى
وتذكروا فى ليلة (الاسراء) قد فاز الذى نحو التراحم قد جرى
ربوا بآيات الوفاق قلوبكم وابنوا لكم بحمى الوفاق معسكرا
وطن العروبة واحد وبنوه فى عرف الحقيقة أمة لن تنكرا
فأمومة وأبوة وعمومة وخؤولة أضحت جميعا عنصرا

ويقول الأستاذ على زكريا الأنصارى من دراسة له عن الديوان نشرت فى مجلة البعثة :

إن القارىء لابد أن يلاحظ هذه القدرة العجيبة ـ التى يتفرد بها شاعرنا الصوفى ـ على نسيان وجوده وكيانه لحظة من الزمان ، والانتقال إلى فردوسه الروحى حتى لكأنه استحال إلى جزء صغير صغير ، من وجود وكيان هذا الكون الكبير الكبير ، هذه القدرة العجيبة التى لا تقف عند حد الحواس من بصر وسمع وشم ، ولكنها تخترق

الحجب والأستار وهي غارقة في لجة الذهول ، لترى عجائب العالم الباقي الخفية التي يكل الخيال عن تصورها ويعجز التعبير عن وصفها . . . إنه البحث عن الحقيقة . . . لا الحقيقة الجزئية القريبة التي يحددها العلم بمقاييسه الجافة الناقصة ، ولكن الحقيقة الكبرى ، الحقيقة الكاملة ، الحقيقة المجردة ، التي تتركز في الفضيلة أو الجمال أو الله . . .

آنا ملهوف وملهوف وبي ظمأ للحق قاس موراً . . . (١)

، هو ثائر للحق في الأ كوان ينكر كل آثم (٢)

فوق الدراري في السما وات العلى بالحق هائم

والطريق الوحيد الذي قد يعين الشاعر على تحقيق هذه الرغبة الشديدة الملحة في ارتياد الحق هو هذا الطريق . . . طريق التصوف . . . حيث تنام الحواس ، وتتيقظ الروح ، وتتجلى الحقائق . . فهل استطاع أن يطفىء غليل هذه الرغبة المتمكنة في ارتياد الحق ؟ هل عثر على الحقيقة الكبرى ؟ . . . لنقرأ إذن « بدر السحر » التي تبتدىء في تصوير أطياف جميلة مثلت لروحه في الأحلام . . . ثم يتململ من نومه ، ويطير الكرى عن أجفانه ، ويذهله سحر البدر — في سكون الليل — وهو يسبح في قبته ، في بحر من نور ، فتتمثل له الآية الكبرى . . . وهذه هي القصيدة الخالدة :

ليلة ذقت بها عذب الكرى بعد لأي وللأحلامي سرى

جال روحي في ميادين الرؤى فإذا بالروض مسكي الثرى

روضة وردية مسكية نشرت في مرج روحي عنبرا

نشر النور عليها برده بشعاع جاء سحراً مسفرا

فتجلى عن معاني ناهد سكب الحسن عليها أسطرا

فرأيت الحسن في آياته لم يكيف بخيال أو يرى

ورأيت اللهو في شيطانه يقلب الظلمة نوراً مفترى

ورأيت الجهل تمثالا به من جمال الحسن قبح مزدرى

ورأيت الحكمة الكبرى لها هيكل تحميه آساد الشرى

ورأيت الآية الكبرى لدى آية الليل وقد ولى الكرى

---

(١) بدر السحر ص ٣٨١ (٢) سمو الملك ص ٤١٩

فتململت وللإمعاع في الـ جسم من روحي هيام سحرا
فأسالي الصدر من قبته لفؤادي طيف أنس عبرا
عبر الرؤيا بأحلى نغمة جعلتني نحوها مستشعرا
أي سحر ياترى هذا الذي حل في روحي دجى مزدخرا
آه ياهذا الذي حلق في الـ قبة الخضراء سحري السرا
أكفرت الحق؟ حاشاك ، فذي آية الشكر تغني للورى
أنت موسيقى ذكاء في الدنا جرسها العشق يجتاز الذرى
لم تزل تعكس ألطاف الذي كون الابداع لطفاً مسكراً
أسكرتني منك أنغام الهوى فتهللت لهـــا مستبشرا
لم يسعني غير نطق واحـــد من صميم الروح حلو قد جرى
قلت: الله ! .. . لدى هذا السنى فتقرفصت وقلبي كبرا

أرأيت ؟ إنه لم يكد يقترب من الحقيقة الكبرى حتى يملأه الخشوع وتستولى عليه الرهبة ، ويرجع طرف روحه كليلا حسيرا ولا يملك إلا أن يصيح من الأعماق : قلت الله ؟ . . . لدى هذا السنا .. ولنمض في تتبع بقية الأبيات التي تصور هذه التجربة الروحية ، فماذا حدث له بعد ذلك ؟. ..

أنا أحسست بكلي مجمة لنت فيها وفؤادي زجرا

وما دام ذكر الإحساس قد جرى على لسان الشاعر ، فإن معنى ذلك أنه عاد إلى عالمنا الأرضي، بعد أن زال الذهول، فاستمع إليه يصور أحاسيسه وخواطره . ..

أيها الجاذب خذني سحراً واحبني الجذب العظيم الأكبرا
أيها الجبار في عليائه جبرك اللهم قلبي كسرا
أنا ملهوف وملهوف ولي ظمأ للحق قاس مورا
أنت لاتعقل يا بدر السما مابروحي منك في هذا الثرى
غير أن الله قد أسبغ في جرمك الشكر الجليل الأعطرا
ليت شعري هل رآك الناس في بردك السحري حيا مبصرا

والحياة المبصرة التي يشير إليها الشاعر هنا هي التي لا تعنيها الظواهر التي يصفها العلم من جبال وبراكين الخ .. الخ .. ولكنها الحياة الحقة ، او سر الحياة الذي قصرت العقول في تفسيره ومعرفة كنهه ، لا لأنه ليس حقاً أو أنه مجرد وهم باطل أو

زخرف خيال شاطح ، ولكن لأنه حقيقة بعيدة لانهائية لايستطيع العقل العاجزأن يسبر غورها ولو كان فى قدرته أن يخترع القنبلة الذرية أوالقنبلة الإيدروجينية . .. فوجودها إذن حق لامراء فيه ومعانيها تنطق حتى فى أتفه الأشياء وأصغر أمور هــذه الحياة الفانية لأولى الألباب .. إنهـا سر الحياة ، فهل هناك من ينكر بأن للحياة سراً ؟ :

فهرست الكتاب السابع

دراسات نقـــدية

— ١ —

رائد الشعر الحديث

دراسة للأستاذ أبو الوفا التفتازانى :

تقتضى دراسة أدبنا المعاصر أن يقف الباحث عند أهم الشخصيات التى ظهرت ولا تزال تظهر على مسرح الحياة الأدبية ، ليسجل نشاطها ومدى مشاركتها فى النهضة الأدبية المعاصرة ، وليقدم عنها صوراً حية متعددة ، تكشف لنا عن جوانب هذه النهضة.

وقد لا يجد الباحث مادة دراسته لشخصية ما فى سهولة ويسر ، فكثير من الشخصيات الأدبية المعاصرة قد يتسرب النسيان إليها وإلى ما خلفت من آثار ، لأن يد المؤرخ لا تسرع بتسجيل تاريخ حياتها ، ثم لا يعنى أحد بعد ذلك بجمع آثارها وتراثها الأدبى ، نثراً كان أم شعراً ، وفى هذا ظلم لهذه الشخصيات وللتاريخ معا .

لذلك سررنا حين أقدم الأستاذ الأديب محمد عبد المنعم خفاجى على دراسة منهجية لأحد كبار شعرائنا المعاصرين ، وأعنى به « الدكتور أحمد زكى أبو شادى » ، فقدم لنا كتابه « رائد الشعر الحديث » عن هذا الشاعر الكبير ، فأنصف بذلك أدبنا المعاصر ، وقدم لمن يأتى بعد ذلك مادة سائغة للدراسة ، وكشف لنا بعد هذا وذاك عن شخصية كان لها ، ولا يزال ، أثر بعيد فى الشعر العربى المعاصر.

والمؤلف فى هذا الكتاب يعرض لنا صوراً عامة عن أبى شادى ، فمن كلام عن تاريخ حياته ، إلى كلام عن دعوته التجديدية ، إلى دراسة تحليلية عميقة لشعره ومذهبه، ثم إلى دراسة لمذاهبه الفكرية والاجتماعية ، وهلم جرا . . . ، فالكتاب يعد بحق موسوعة شاملة عن أبى شادى الشاعر المصرى المعاصر .

وعمل جليل كهذا ، يقدمه فى تواضع جم الأستاذ خفاجى ، لابد وأن يكون ثمرة مجهود متواصل شاق . أضف إلى ذلك أن التأريخ لأديب معاصر لا يزال على قيد الحياة ليس بالشىء الهين اليسير ، فالمؤرخ لا يأمن من أن يتأثر : بطريق مباشر أو غير مباشر ، بمن يؤرخ له ، بمعنى أن يجد فى نفسه حرجاً فى كثير من الأحيان حين ينتقد أو يعرض آراءه بصراحة تامة فيمن يعرض له بالتأريخ ، وقد يقوده هذا — على الرغم منه — إلى استرضاء من يؤرخ له على حساب الدراسة العلمية ، وهذا يعنى

من الناحية المنهجية أن تكون هناك عوامل ذاتية تفسد على الباحث ماينبغي لدراسته من موضوعية خالصة ..

ولكن الأستاذ خفاجي ـ والحق يقال ـ قد اصطنع لنفسه منهجاً علمياً بالمعنى الصحيح ، أبان عنه حين قال فى مقدمة بحثه : « .. ولكننى صممت على كتابة هذه الدراسة، وأنا أعتقد أنى سأتعرض لإرهاق غير يسير ، ولغضب كبير من الدكتور نفسه ، ولكنى مؤمن بأنى لن أبعد عن الحقيقة فيما أكتب ، وأنى أخط خطوطاً عامة يسير عليها من يأتى بعدى من الباحثين ، وبأنى لا أعتمد على نفسى فيما أكتب ، فأنا أرجع إلى أبى شادى نفسه ، وإلى النقاد الذين نقدوه وإلى الآراء الكثيرة الذائعة فى بيئتنا الأدبية عنه ، وإلى أصدقاء الدكتور أيضاً أستعين بهم وآخذ عنهم (ص ٤ — ٥)

ونجده كذلك يقول فى ختام كتابه عن منهجه أيضا مانصه : .. وفى هذه الترجمة عن أبى شادى بالذات كنت حريصاً على البعد من كل المؤثرات النفسية والخارجية، ذلك أن الشاعر يعيش خارج وطنه ، وليس لى مآرب شخصى من الكتابة عنه ، ولم أكتب هذا البحث لإرضاء أحد ، وإنما كتبته خدمة للبحث الأدبى الحر والحقيقة وحدها دون أى اعتبار ، وأنا لايعنينى أن أرضى أبا شادى ، وإنما الذى يعنينى هو إرضاء الحقائق الأدبية والتاريخ الفكرى المعاصر » (ص ٢٧٧ — ٢٧٨)

وليس أدل كذلك على أن المؤلف لم يكن رائده من هذا البحث إلا الحقيقة التى تقصدلذاتها ، من أنه عرض للمؤلف بالنقد فى كثير من المواضع ، وقدقال : « ولا يضيرنا فى هذا البحث أن نتناول أدب وشعر أبى شادى بالنقد ، لحق المعرفة علينا أكبر من كل حق » (ص٢) . . وحسبنا أن نشير بهذا الصدد إلى دارسة الأستاذ المؤلف لشعر الشاعر ، وما تضمنته هذه الدراسة من نقد لمنهج أبى شادى وبيان لأخطائه الفنية فى شعره ، ومخالفته لمذهبه الفنى فى الشعر ونظم القصيدة ، ومعارضة المؤلف له ، وما إلى ذلك من ضروب النقد الأدبى النزيه التى أظهرنا عليها المؤلف (ص ٢٦٢ من الكتاب وما بعدها) .

ودراسة تصطنع منهجاً كهذا هى دراسة علمية بالمعنى الصحيح ، ولا تهدف إلا إلى الوصول إلى الحقيقة دون أى اعتبار آخر .

هذا من ناحية المنهج الذى سار عليه الأستاذ المؤلف ، أما من ناحية الموضوع، فإنا نعتقد أن الأستاذ خفاجى ، حين جعل من أبى شادى موضوعاً لدراسته ، قد

قدم من غير شك لدارسى الأدب المصرى المعاصر صورة حية عن شاعر له مكانته الممتازة ، وعن صاحب مدرسة من أهم مدارس الشعر العربى الحديث ، وعن أستاذ من أساتذة الجيل تخرج على يديه فريق من الشعراء الموهوبين حين أتاح لهم فرصة إظهار مواهبهم على صفحات مجلته « أبولو » . فإذا كان ذلك كذلك فليس غريباً إذن أن يقترن اسم أبى شادى بالنهضة الأدبية المعاصرة ، وأن يرتبط اسمه بالتجديد فى الشعر المصرى الحديث .

ولكن مما يؤسف له أنه على الرغم من مكانة أبى شادى الأدبية ، قعد كثير من أبنائه وتلاميذه عن تسجيل مآثره والإشادة بفضله ومكانته ، فلم يتناولوا تاريخ حياته بالتسجيل ، ولم يعمدوا إلى آثاره بالدراسة والتحليل ، وفى هذا ظلم لأبى شادى وللتاريخ معا .

إلا أن الله سبحانه أراد أن يخرج الأستاذ خفاجى لقراء العربية عملا علمياً جليلا عن أبى شادى « رائد الشعر الحديث » ، فكان هذا العمل وضعاً للأمور فى نصابها ، وكان إلى جانب هذا آية من آيات الوفاء ، لا لأبى شادى الشاعر فحسب ، ولكن لأدبنا المعاصر .

وفى كتاب « رائد الشعر الحديث » يقدم لنا الأستاذ المؤلف صوراً مختلفة للشاعر :

فيتحدث أولا عن كيفية معرفته للشاعر ، ثم يعطينا فكرة واضحة عن كتابه من حيث موضوعه ومنهجه ، ثم يعرض بعد ذلك صورته الأولى التى رسمها للشاعر من خلال إنتاجه ودواوينه الشعرية ، وفى هذه الصورة يقدم لنا المؤلف تصنيفاً له قيمته لدواوين الشاعر وكتبه العلمية ، وقيمة هذه الكتب وتلك الدواوين .

ثم ينتقل المؤلف بعد ذلك إلى الصورة الثانية للشاعر من خلال حياته : فهو يدرس بيئة الشاعر الأدبية الأولى ، وميلاد الشاعر ونشأته ، والعوامل المختلفة التى كونت شاعريته ، وصلته بغيره من الشعراء ؛ ثم ما تعاقب على الشاعر من أحداث كان لها أثرها فى نفسيته ، إلى غير ذلك من مكونات شخصية الشاعر .

وفى هذه الصورة الثانية أيضا يتحدث الأستاذ المؤلف عن مجلة « أبولو » الشعرية ، وكيف كان الجو الأدبى فى مصر قبل ظهورها مقفراً من كل حركة ونشاط ، وأن أكثر المجلات الأدبية التى ظهرت قبلها كانت تحترف الأدب ، ولم يكن هناك مدرسة أدبية لها مبادىء معروفة فى الأدب والنقد ، حتى ظهرت هذه المجلة التى خص بها الدكتور أبو شادى الشعر فكانت الأولى من نوعها فى العالم العربى ، كما كانت

لسان حال جمعية « أبولو » التي كان هدفها السمو بالشعر العربي ، وتوجيه جهود الشعر توجيها شريفاً ، وترقية مستوى الشعر أدبياً واجتماعياً ومادياً ، ومناصرة النهضات الفنية في عالم الشعر

وفي الصورة الثالثة التي يعرضها المؤلف ، نراه يقدم إلينا ألواناً من الدراسات النقدية المذهبية:

فهو يدرس مذهب الشاعر في الشعر ، وآراءه في النقد ، وطبقة الشاعر ، ومنزلته بين المجددين والمحافظين ، وآراء بعض النقاد فيه ، واختلاف أذواقهم فيه ، وحرية الشاعر الفنية ، وفطنته بالمعاني ، ونقده الاجتماعي ، ثم يقدم لنا بعد هذا كله صوراً عقلية من شعره ، إلى غير ذلك من ألوان الدراسات العميقة

ثم يقدم لنا المؤلف صورة رابعة للشاعر من خلال دعوته التجديد والإصلاح في الأدب ، فيتحدث فيها عن الإخلاص في الأدب ، وخدمة الفكرة السامية التي لا يبلغ نضوج الأديب إلا بأن يستوحيها دائما ، ودعوة الشاعر إلى الاخاء الأدبي ، ودفاعه عن ديمقراطية الأدب ، وإيمانه بوحدة الأدب ، واهتمامه بإحياء التراث الأدبي ، وآرائه في التجربة الشعرية ، والتجديد في الشعر

ثم ينتقل المؤلف إلى رسم صورة خامسة للشاعر من خلال آرائه في الحياة والثقافة فيعرض آراء أبي شادي ونظرياته في شئون الدين والفكر والثقافة والاجتماع ، وما إلى ذلك مما يكون فلسفته في الحياة ، والمؤلف في هذه الصورة التي يرسمها الشاعر إنما يتناول أطرافا من هذه الآراء والدعوات التي لم تنشر بعد

ويظهرنا الأستاذ خفاجي في هذه الصورة أيضا على أن أبا شادي كان داعية للتآخي الثقافي ، وداعية للعدالة الاجتماعية ، والحرية الفكرية ، ويبين لنا آراءه في المرأة وحقوقها السياسية ، وفي العلم والدين ، وآراءه الأخلاقية في السلوك الاجتماعي السليم .

وفي الصورة السادسة من كتاب « رائد الشعر الحديث » يسوق إلينا المؤلف موضوعات شتى ، منها دراسة أبي شادي للأدب والشعر ، ورأيه في الأدب المعاصر ، ورأيه في الأدب المصري القديم ، وآراؤه في شوقي ومطران وغيرهما من الشعراء المعاصرين ، وآراؤه في الشعر الحجازي والتجديد فيه ، وإيمانه بوجوب البعث الأدبي الجديد لخير الشرق ونهضته ، وجمهورية الأدب ، ثم نرى بعد هذا حديثاً عن الأدب المهجري وخصائصه في رأي الشاعر .

ويختم المؤلف كتابه بصورة سابعة وأخيرة للشاعر أبي شادي ، ضمنها ألواناً

مختلفة من شعره ، وقد أحسن صنعاً بتقديمها للقارىء ، كما أنه كتب فصلا شائقاً عن فن الشاعر الأدبى ، كما يبدو من خلال قصيدة للشاعر بعنوان «تونس الثائرة» ، نظمها لمناسبة الثورة على الاستعمار فى تونس الشقيقة ، وهى مما نظمه الشاعر أخيراً ، ولقد درس المؤلف هذه القصيدة دراسة مستفيضة ، وتناول فى دراسته تلك شاعرية الشاعر ومنهجه الفنى ، وأخطاءه الفنية ، وعرض لموضوع القصيدة ، وأغراضها الشعرية ، ووحدتها ، ثم درس أبياتها دراسة تفصيلية وذلك من الناحيتين البلاغية واللغوية ، وهى دراسة لم يحاب فيها المؤلف الشاعر فى شىء فجاءت دليلا على ما أصطنعه من منهج علمى دقيق ، ثم ختم المؤلف هـــذه الصورة الأخيرة بكلامه عن الشاعر والشعر القومى .

كل هذه الصور التى قدمها المؤلف ، والتى يتألف من مجموعها كتابه : رائد الشعر الحديث» ، أدلة حق وشواهد صدق على مبلغ ما بذل من جهد ، وما وفق فى الوصول إليه من نتائج علمية لها خطرها وأثرها فى دراسة أدبنا المعاصر .

وإنا لنرجو أن يمدنا الأستاذ المؤلف بين حين وآخر بمزيد من دراساته الأدبية العلمية ، التى كرس حياته لها ، والتى يخدم بها أدبنا العربى أجل الخدمات .

تحليل الأستاذ روكسى :

الأستاذ الخفاجى نشاط دائم ، وقلبه المثمر لا يعرف الملل ، ومن روائعه الخالدة حقاً كتاب اليوم «رائد الشعر الحديث» ، الكتاب الذى ظهرت فيه آيات الصدق والوفاء والأنصاف العلمى ، لبطل من أبطالنا الذين عرف الغرب قدرهم ، ونحن نحاول غمط حقهم وانكار فضلهم جاهدين ، هو الدكتور أحمد زكى «أبى شادى» ، فقد تناول فيه حياته وكتبه العلمية ، ومجلاته وقصصه ومسرحياته ، وذكر حياته فى أميركا وعناية أميركا بأدبه وبآثاره .

ثم تعرض لأثر خليل مطران فى الشعر ، مستشهداً بما يقوله الدكتور نفسه : «ويشرفنى أن أكون موضع اهتمامك ولو أنى لا أتجاوز منزلة تلميذ من تلاميذ مطران شاعر العربية الابتداعى الأول مهما أقدمت وجددت بعد ذلك» .

يذكر هجرة الدكتور وأسبابها ، ومذهبه فى الشعر ، وطبقته فى الشعراء ، واختلاف الأذواق فى شعره ، ويثبت مختارات من شعره تنم على ذوق مهذب راق ، وعلى أصالة فى النقد ، كما تدل هذه المختارات على منزلة الشاعر العالية ، وعلى رسالته

الأدبية والقومية ، فلقد قام بالأمانة خير قيام وهو يترجم لإحساساته وإحساسات شعبه .

والكتاب جملة معلمة طريفة ، وهو خير مايرجع إليه فى البحث عن نواحى شاعرية الدكتور أبى شادى ، وانى لواثق بأن كل من أراد أن يؤلف شيئا يخص الدكتور أحمد زكى أبا شادى لابد له من الرجوع إلى كتاب الأستاذ العلامة ، محمد عبدالمنعم خفاجى ، : « رائد الشعر الحديث » ، للإفادة منه ، ومما يزيد فى قيمة الكتاب أن المؤلف مخلص فى أقواله أمين فى أسانيده كل الأمانة ، فهو لا يذكر رأيا إلا عززه بسنده ومرجعه الأمر الذى لاتجده إلا عند الثقات من العلماء . والخفاجى واحد منهم ، تلك الفئة التى تجردت للعلم ، وتطوعت لخدمة الحق . فلا يعد بهما إلا العلم والحق

وذلك مما يزيد فى قيمة الكتاب وفى نفاسته ، لأنه جاء طبيعيا لا أثر فيه للتكلف ، ينم على خصب الأستاذ الخفاجى ، وعلى طواعية العلم لقلمه .

ولو كان لنا أن نقترح لاقترحنا على المعارف المصرية أن تشترى نسخ هذا الكتاب وتوزعها على خزائن الكتب العامة والخاصة بمدارسها للإفادة من هذا السفر النفيس

أما الاستاذ خفاجى فمن حقه على مصر أن يشجع قلمه على الإنتاج فهو همة لا تفتر ، وعبقرية تستحق التحية والتهنئة .

دراسة للأستاذ أنور الجندى :

عندما يكتب الصديق ، مثل هذا الكتاب الذى أخرجه الأستاذ محمد عبدالمنعم خفاجى عن الدكتور أبو شادى ، يقول الناس صديق أعجب بصديقه . أما إذا جاء هذا المؤلف الذى لم ير الدكتور أبو شادى ، ولم يتصل به ، ولم يزر ندوة أبولو ، أو يحظى بقليل أو كثير من صلات الود أو التعارف مع الشاعر الكبير ، ثم يكتب عنه هذا الكتاب ، معتمدا على معلومات وآراء وصور جمعها من أصدقائه ومعارفه وعلى قصائده وكتبه ومؤلفاته ، فذلك هو الإيمان بالشاعر ، ذلك هو الأدب المجرد الخالص الذى لا تشوبه شائبة .

و « الشاعر » فى هذا الكتاب الذى بلغ نيفا وثلاثمائة صفحة واضح الصورة فى جده ولهوه ، وشبابه وشيخوخته ، وفنونه المختلفة فى الشعر والطب والنحل والنقد ، والحق أن تاريخ « أبى شادى » حافل وطويل ، وبعيد الجذور ، فهو ممتد منذ سنة ١٩٢٢ عندما عاد الشاعر إلى مصر وقد فقد أوراقه وأشعاره التى دونها خلال إقامة بلغت عشر سنين فى انجلترا ، فقد طغا نهر التاميز على مكتبته وأوراقه وما أنقذ منها صادره

البوليس السياسى فى مصر عند عودته إليها .

ومنذ ذلك التاريخ والشاعر ينتج ويكتب فى غزارة وفى قوة ، ويراسل المجلات وينشىء الجمعيات .. والشاعر وفى لمطران . لاينى يذكره ويذكر فضله الأدبى عليه .

وتمتد حياة الشاعر ، حتى ينشىء « أبولو » فتجمع حينئذ لفيفا من الأدباء الشبان ، الذين هم الآن من شعراء مصر الواضحين .

ويمضى الشاعر فى جهاده إلى ١٤ أبريل ١٩٤٦عندما يسافر إلى أمريكامهاجرا ، ويظل هناك حتى يومنا هذا .

ومنذ أن وصل الشاعر إلى أمريكا وهو دائب العمل فى سبيل الشرق ، وفى سبيل الأدب ، وفى سبيل مصر ، وقد اشترك فى نشاط المهاجرين العرب اشتراكا فعالا ، وأسس رابطة منيرفا الشعرية ، وما زال يواصل دراساته وأبحاثه فى مختلف المجلات العربية والاذاعة هناك .

وقد فصل الأستاذ عبد المنعم خفاجى هذه الحياة الطويلة العامرة على أساس علمى ، من غير أن يجعل لعاطفته وحبه للشاعر أثرا فى تكوينها ، فكشف عن عبقرية ضخمة ، وشـــاعرية قوية ، وصور كفاح الشاعر مع المحافظين ، ونضاله مع الرجعيين .

وقدم صورا متعددة تصور مذهب الشاعر وفنه وآراءه .

ولا شك أن « كتاب رائد الشعر الحديث » خليق بأن يرضى القارىء الأديب ، فهو قد تناول ـ حين تناول تاريخ أبى شادى ـ الكثير عن الشعر العربى المعاصر منذ فجر ثورة ١٩١٩ حتى اليوم ، ولذلك فإن الأستاذ خفاجى خليق بالتهنئة والتقدير

كلمات أخرى :

١ ـ كتاب نقدى ضخم ، فى ٣٢٠ صفحة من الحجم الكبير ، مؤلفه هو العلامة محمد عبد المنعم خفاجى الأستاذ فى كلية اللغة العربية ، وهو بحث مستفيض فى قصة الشعر الحديث وأعلامه ومذاهبه وحركات التجديد فيه ، وحياة الدكتور أحمد زكى أبو شادى وشاعريته وخصائص أدبه وآثاره فى النهضة الشعرية المعاصرة .

وقد ألفه المؤلف ببواعث أدبية شريفة ، حدت به إلى تصنيفه ، وهى أن يكون الحق الميزان الوحيد لمقاييس النقد ، ولا بد لنوره من أن يكتسح الظلمات ، ويطهر

الجو الأدبي من عوامل التزييف والنفاق ، تلك الأمور التي طالما أفسدت على الأديب الحق عمله في إصلاح المجتمع الذي يعيش فيه .

وقد جاء الكتاب محققاً لتلك الآمال الغالية التي كثيراً ماجاشت بصدور المفكرين والأحرار ، وحالت الحوائل التي كانت قائمة وقتئذ دون الجهر بها وإخراجها إلى حيز الوجود ، إلى أن شاء الله ، بجعل تطهير الأدب ، بل المجتمع ، من تلك العلل ، على يدي المؤلف .

وفي كتابه هذا ، وما قام عليه من مثل عليا ، كل الكفاية للدلالة على أنه جدد به حقاً للأدب نهضته ، وحقق للأدباء الموهوبين مأملهم العزيز ، في تكافؤ الفرص وانفساح المجال أمامهم في بلوغ الغاية التي يرومونها ، من إعلاء شأن أمتهم عن طريق الرسالة الأدبية .

ولئن قصر الجيل الحاضر في إيفاء المؤلف حقه . شأنه في ذلك شأنه مع جميع النوابغ ، الذين كرسوا جهودهم لخدمة الفكر والمجتمع ، فلسوف يذكره التاريخ والأجيال القادمة ، بما هو أهل له من الثناء والتقدير . . كما أن جهده المضنى الذي بذله في سبيل هذه الغاية الكبيرة لم يضع هباء ، بل سوف يجد في راحة الضمير — على أن أدى واجبه كاملا للأدب — خير الجزاء . . . وإني لأقول للمؤلف ماتجب أن أقوله له :

جوامع من ثمين القول تنبئنا	عن اللآلىء كم جالت بأذهان
نهضت فيها بأسلوب زواخره	تروي العطاش وتروي قلب ظمآن
بل رحت تنصف موهوبا وتدفعه	إلى الأمام بدفعات لشجعان
فاهنأ بما سطرت كفاك من درر	في كل سفر جليل ليس بالفاني

عن مجلة — البعثة — من كلمة للشاعر : ب إبراهيم عوض

٢ — من أبرز وأشق مجهودات الأستاذ المفضال والمحقق النزيه محمد عبد المنعم خفاجي ، مجهوده الذي بذله في اخراج كتاب « رائد الشعر الحديث » إذ من السهل — إلى حد ما — إخراج كتاب عن شاعر أو أديب أو قصاص توارى خلف التراب . قد تطالع روحه — إن كانت أرواح الموتى تظل متصلة بالأحياء — ما يكتب عنه . . ولكنه سيعفى الناقد من مواجهته بالشكر أو اللوم . ومهما بلغ عمق استعداد القراء لانصاف الكاتب أو الناقد فانهم لن يشعروا بما وراء الاحاسيس الأصيلة .

. وأبو شادي خير مثل يقدم كرائد للشعر الحديث ، فهو بحق الشخصية الفذة الجديرة بالدراسة والكتابة ، وحياته بمافيها من تضحيات روحانية ، ومادية وانفعالات

شعرية وعقلية ، بمجموعة أقاصيص لمجموعة رجال فى قصة هذا الرجل . لذلك أحسن الكاتب فى اختيار هذا الرائد . ومهمته كانت شاقة بلا ريب . لأن بطل قصته حي ومن حام حولهم واستشهد بهم أحياء ، فلو كانوا أمواتا لما بلغ مابلغه ! وما سوف يبلغه من رضا أو غضب

بقى أن نؤكد للقراء أن كتاب ـ رائد الشعر الحديث أبو شادى ـ من أقوى ماظهر فى التراجم الأدبية الحديثة ، فهو كما قلنا مجموعة قصص فى قصة ومجموعة رجال فى رجل .
هو الدكتور الشاعر الملهم أحمد زكى أبو شادى ـ الاهداف عدد يونيو ١٩٥٣

٣ ـــ نصف قرن يكاد ينقضى والشاعر القروى ينفث روحه ، فى روح هذه الأمة المجاهدة الصابرة . نصف قرن والشاعر القروى يطلق زفرات قلبه ، وشظاياه أشعاراً وطنية خالدة اتهم من أجل بعضها بالكفر والإلحاد ، فماذا صنع له العرب؟ لقد بلغ به العوز أن باع فى يوم من أيام حاجته عوده ، الذى كان يلجأ إلى أناته ليشاطره أنات روحه وتأوهات قلبه الكبير ، فقدر له بعض أنصار الفضيلة والخير من أبنائنا المغتربين جهاده ، وجمعوا له مبلغا من المال ساعده على طبع ديوانه فى سفر نفيس ، نقلب صفحاته والإعجاب به يملأ أنفسنا ، والاعتزاز به ينطق قلمنا

وفى هذه اللحظة نذكر مع الشاعر القروى رجلا آخر . جاء الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى أستاذ الأدب العربى فى كلية اللغة العربية بالأزهر الشريف يفيه بعض حقه الأدبى ، بأن كتب عليه الكتاب الذى عنونه بـ « رائد الشعر الحديث » ، أعنى بذلك الرجل الدكتور المجاهد بقلبه وبلسانه أحمد زكى أبو شادى ، أستاذ الأدب العربى فى معهد اسيا فى نيويورك ، أبو شادى الذى لقى من العقوق والجحود والحرمان فى بلاده مالو منى به جبل لانهد ، ومالو أصيب به ولى من الأولياء لكاد يفكر فى فى سوء المصير ! ولكاد يرجع من بعض الطريق .

هذان رجلان خالدان ترى ماذا صنعنا لهما ؟ والله لو أن نفقات وليمة من هذه الولائم الصاخبة الكاذبة أنفقت فى سبيل نشر مؤلفات هذين البطلين الخالدين ، لكانت كافية أن تضمن للأمة شرفا ، ولشيخوخة الرجلين المجاهدين الرفاهية والاستقرار ! . لكننا أمة عقوق على كل مافيها من عناصر الخير والنبل والفضيلة ، أمة يكاد يصدق فيها مع الأسف الشديد ماقاله الدكتور « شبلى شميل » لو علمت أن الشتيمة تنفعك لبخلت بها عليك . أمة لايكاد يستيقظ ضميرها إلا بعد أن ترى أنهار الدماء ، وبعد

أن ترى المجاهدين من أبنائها يقعون صرعى فى حومة الوغى ، وميادين الجهاد ، فتسرع إلى الولولة والنوح والندب . وتكريم القبور بأكاليل من الأزهار .

أنا لا أعجب إذا رأيت انصراف الكثيرين من أبناء هذه الأمة عن الميادين العامة وعن الخدمة المجاهدة المخلصة ، وهم يرون الحرمان يفتك بالمجاهدين المخلصين ، فماذا يتوقع الرجل بعد أن يرى أمثال القروى والدكتور أحمد زكى أبو شادى فى أيام الشيخوخة يخافان من الغد المظلم ، ويخافان على ذوب روحيهما من الضياع والتلف ، لعدم وجود المال لطبع ما انتجا ! وليس لهما فى الحياة إلا هذه السمعة المجيدة ، وهذا الصيت الأغر ، لكن القفص الذهبى والنعش الفضى لا يغنيان عن العصفور الجائع قليلا ولا كثيراً

قرأت فى إحدى الصحف أنه تقرر فى مصر أن يمنح الأستاذ أحمد الزيات مكافأة مالية محترمة ، فقلت : « الأستاذ الزيات يستحق المكافأة » ، لكن أصحيح أن مثل هذه المكافأة لم تكن ضرورية لرجل مثل الدكتور أحمد زكى أبى شادى أيضا ؟ أنا أعتقد أنه ليس بين حملة الاقلام فى مصر من خدم بلاده فى كل ميدان من ميادين الحياة كما خدمها الدكتور أحمد زكى أبو شادى ، وإنى لواثق بأن مصر فى تاريخها المقبل ستشعر بالخجل إذا رأت أنها لم تنصف هذا العقل الجبار

بالأمس يصور أحد الرسامين أقواس النصر التى أقيمت لمناسبة الاحتفاء بتتويج ملكة بريطانيا « اليزابث » ، فيمنح من أجل ذلك لقب سير ، وما يتلو هذا اللقب من تقدير مكافأة لفنه

ويسلخ الشاعر القروى من حياته نحو نصف قرن وهو يخدم أمته ، فلا يكافأ بلقب ولا بوسام ولا بهبة مالية

ويقضى الدكتور أحمد زكى نحو نصف قرن مجاهدا حائرا ، فلا تطبع مؤلفاته بنفقة وزارة المعارف ، ولا تشترك المفوضية المصرية فى تكريمه فى إبريل سنة ١٩٥٠ ، تناهيا منها فى العقوق . حقا إنها لفضيحة تدل على أن كل نبضة من نبضات ضمير الشرق تعطلت أو كادت ، إلا للمحاسيب

أما ابن مصر البار الدكتور زكى أبو شادى فأعتقد أن خير مكافأة لجهاده ولجهوده فى سبيل سمعتها أن تتولى وزارة المعارف المصرية طبع آثاره بنفقتها الخاصة ، لأن فى ذلك تكفيراً عما لقى الرجل من سيئات العهد السابق ، وإبرازاً لحسنات العهد الجديد الذى أخشى أن يوصم بما وصمت به العهود السابقة من عقوق ، مادام معرضاً عن

البررة من أبنائه إلى الآن ، إنها نفثة مصدور نزيحها عن صدورنا أوحى بها إلينا : ديوان الشاعر القروى ، وروائد الشعر الحديث ، روكس بن زائد العزيزى . . .

— ٢ —

مذاهب الآدب

دراسة ونقد للدكتور الكبير أحمد زكى أبى شادى :

من الكتب مايسد فراغاً ، ومنها ماهو تكرار وترديد ، ولنا فى كتاب « مذاهب الأدب » للأستاذ العلامة محمد عبد المنعم خفاجى أستاذ الأدب العربى بالجامعة الأزهرية مثال للطراز الأول من التصانيف المفيدة ، فقد تحدث فيه عن مذاهب الأدب المقبولة لدى جمهرة الأدباء العرب ، وعلى الأخص بالنسبة إلى الشعر ، وناقش هذه المذاهب مناقشة مستقلة حيناً ، ثم مطبقة على الانتاج الشعرى الحديث ، وعرض تراجم أدبية نافعة لشعراء معاصرين معروفين، شملت : ناجى والتيجانى بشير وأبو القاسم الشابى والزهاوى والأسمر وحسن جاد وأحمد محرم وعلى محمود طه والصيرفى وعبد الله زكريا الانصارى ومحمد العامر الرميح ، وهذه عناية يشكر عليها المؤلف أطيب الشكر ، كما يشكر على جمعه مواد عديدة للبحث كانت فى حكم الضائعة ، وهو فى هذا ينهج نهج السيوطى .. ويختم كتابه بتعليقات قيمة على مواد هذا الكتاب وماشاكله من دراساته الادبية ، أسهم فيها الاساتذة وديع فلسطين ومصطفى عبد اللطيف السحرتى ومحمد رضوان أحمد ورضوان إبراهيم مصطفى .

وإذ يحدثنا المؤلف عن المذاهب الحديثة فى الشعر يقتصر كلامه على المذهب الكلاسيكى والمذهب الرومانتيكى والمذهب الواقعى والمذهب الرمزى والمذهب السريالى والمذهب الوجودى ، ولكن ثمة مذاهب أخرى هامة جديرة بالدرس والتحليل وضرب الأمثال لها ، وفى مقدمتها : المودرنزم، والفوفزم، والأورفزم، والاستقبالية أو الفيوتشرزم ، والتجريدية أو الابسترا كتزم - وقد تحدثنا من قبل عن المودرنزم والفوفزم فى الادب والفن ، وأتينا بمثال شعرى عربى الصياغة لكل من المذهبين(١)، وربما عالجنا المذاهب الاخرى المشار إليها فى دراسات مستقلة مع نماذج شعرية لها،

---

(١) مقدمة ديوان (من أناشيد الحياة) ومؤخرته - عام ١٩٥٣ م .

وقد احسن الاستاذ السحرتى فى تعقيبه النقدى البليغ بالتنبيه إلى التداخل فى الاساليب الممثلة للمذاهب الادبية لدى كثيرين من الشعراء ، كما أحسن بالتعريف الاصح لهذه المذاهب ، وها نحن فى أمريكا ذاتها المتفانية فى الابتداع ، لازلنا نستقبل نماذج رائعة للشعر الكلاسيكى المجدد حتى من بعض شعراء الشباب ، ولعل ما قصد إليه الاستاذ خفاجى من اندثار الكلاسيكية فى الغرب هو ما يقابل « البدوية » فى شعرنا العربى ، تلك التى حاول أن يحييها فى مصر محمد عبد المطلب وعبد الحكيم الجهنى فلم يوفقا إلى ذلك، على الرغم من شاعريتها المطبوعة ، وهو فى هذا مصيب ، فالاساليب الحفرية لم يعد لها مجال فى عالمنا الحاضر ، ثم إنه فى حديثه عن الرومانتيكية قد يكون مصيباً فى الاستشهاد ببعض الشعراء القدامى وابتداعيتهم لو أنه ذكر نماذج من شعرهم الوجدانى الطليق على الرغم من تغلب الكلاسيكية عليهم ، حتى يستنير برأيه عامة القراء .

ومذ كان كثيرون من الأدباء والمتأدبين لا يعرفون غير العربية ، فقد أحسن الأستاذ خفاجى بمراجعاته ومقارناته ونقداته التى تناولت : النزعات الأدبية الحديثة ، وحركة التجديد فى الشعر العربى المعاصر خاصة ، والشاعرية الملهمة وأثرها فى التجديد الشعرى ، ووجوب ملاءمة الشعر لحياتنا ، وحظ الشعر من الخلود الفنى ، وعمل الشاعر والناقد ، وكيف ننقد الشعر ، ومذاهب النقد ، والأسلوب وخصائصه ، وأهم المؤثرات فى الأدب ، وعناصر الأثر الأدبى ، والدراسات الأدبية فى القديم والحديث ، ومطراناً ومذهبه فى التجديد ، غير ما تناوله من الترجمة والنقد لطائفة من شعرائنا المعاصرين ، ووددنا لو كان بينهم بعض الشواعر النابهات مثيلات جميلة العلايلى ونازك الملائكة وفدوى طوقان ، وهذا ما نرجو أن نراه فى أحد مؤلفاته المقبلة ، من حيث أن آفاق دراساته غير موقوفة على قطر بعينه .

ورعاية للدقة التى نعرف احترام مؤلفنا الجليل إياها نلاحظ أنه لا شأن بنا تالايليا أبى ماضى بالشعر المرسل الذى لم يمارسه يوما ما ، فضلا عن الشعر الحر ، كما لا شأن لخليل مطران بالشعر المرسل ولا الحر ولا بالشعر المتداخل أو المختلط الذين أدخلناهما فى العربية منذ ثلاثين سنة ، ثم جارانا فيهما عدد من الشعراء فيما بعد ، وكان فى مقدمتهم خليل شيبوب . وهذه الضروب الثلاثة من النظم ليست من الكماليات ، بل هى ضرورية فى التأليف الدرامى خاصة وفى التأليف القصصى والوصفى إلى حد كبير ، والشعر العربى هو الخاسر بإهمالها ، لأنه بهذا الأهمال يحرم ذاته قوالب التعبير الكلامى أو السردى

الطبيعية والمتنوعة، حسب المواقف ،والتي تداني النثر الفني، بينما تعلو عليه بموسيقاها المتعددة الألوان . ولا يمكن لأي ناقد أو أديب تجاهلها ، فإنها من الأسس القوية لشعر المستقبل (١)

ويرى المؤلف أن الحياة هدف الأدب، وأنه لابد للشعر من مثالية لتكون له قيمة باقية . وهذا مايدعو إلى التدقيق الشديد في التأريخ لهذه المثاليات ، فكم من أدباء سلكوا سلوكا منافياً للوطنية مثلا ، ثم راحوا ينشرون أو ينظمون مايعد مواضيع إنشائية في باب الوطنية تضليلا للجمهور ، وجاء المؤرخون فيما بعد فاغتروا بالكلمة المكتوبة واكتفوا بها ! وحسبنا أن نشير إلى على يوسف صنيعة الخديو عباس وقد ذاق الزعيم الوطني مصطفى كامل المر منهما ، ومع ذلك يؤرخ له بعض الواهمين أو المغرضين على أنه كان من أقطاب الوطنية المصرية ! ومثال آخر ، الشاعر ولي الدين يكن فقد كان من الأحرار الناقمين على مظالم الأتراك ، ولكنه في مصر كان شيئاً آخر إذ كان ضالعاً مع الانجليز ! وفي عهد الطغيان الغابر بمصر ابتليت البلاد وما تزال بطائفة من الأدباء الانتهازيين ، ناثرين وناظمين ، ومن كل صنف ، كان همهم الجرى وراء رتبة أو وظيفة أو علاوة أو منفعة أخرى ، وقد أنفقوا من أجل ذلك جهوداً كبيرة في استرضاء الحكام والتقرب إليهم ، وفي تملق الأمراء والباشاوات وغيرهم ممن نكبت بهم البلاد ، ثم يتظاهرون بعد ذلك بالوطنية الكلامية الجوفاء نثراً ونظما وهذا التأريخ أولى به من كانت حياتهم وأدبهم — لا أقوالهم أو بعضها فحسب — وطنية شريعة ناصعة فوق كل مساومة أمثال معروف الرصافي والجواهري ومحرم وحافظ إبراهيم والكواكبي ورشيد سليم خوري والشابي والصيرفي ، وقد تحمل عدد منهم تضحيات جمة في سبيل مبادئه من بينها النفي أو الاعتقال والخصاصة والتشريد لا كأولئك الآكلين على كل مائدة ، والمكتفين ذر الرماد في عيون الجماهير بالتشدق بالأدب الوطني .

إن ارتباط الأدب بالحياة والمثالية الرفيعة ليس معناه الكفران بمذهب الأدب للأدب والفن للفن ، كما أن هذه المثالية لا يمكن أن تخلق أدباً أو فناً عند غير ذي موهبة ،

---

(١) مجلة « صوت الشرق » عدد يناير سنة ١٩٥٤ . ونلاحظ أن خليل مطران أنتج شعراً منثوراً ، لا شعراً مرسلا ، أو شعراً حراً .

ولكن إذا اجتمع الأدب الرفيع والمثالية الرفيعة معاً فى قرارة نفس نبيلة غيورة ، نتج عن كل ذلك أدب ممتاز ذو قيم خالدة .

ومن سنين بعيدة دارت معارك حول هذا الموضوع ، ولكنها فى الحقيقة خلاف على اتفاق ـ خلاف فى النظرة واتفاق على تقديس الجمال حسب تقدير الناظر المعبر عنه

ومنذ فجر هذا القرن والنقد الأدبى الناضج يحفل أشد ما يحفل بالطاقة الفنية والأصالة والابتداع ، وهى العناصر التقدمية التى دفعت بالأدب وبغير الأدب دائماً إلى الأمام ، بل هى التى تمثل القوة العظيمة التى تزجى العالم إلى الأمام إتقاناً وتجميلا وتلطيفاً ، وهذا أمر لا جدال فيه كيفما قلبنا وجهات النظر علمياً ودينياً وأدبياً وفنياً الخ ، فمن المغالطة لأنفسنا بعد ذلك أن نتوهم فى الأسلوب مثلا ما يغنى عن كل ماعداه من عناصر السمو والتقدم . ولنضرب بعض الأمثلة من الشعر المعاصر ذاته للتدليل على خلود الشعر الفنى الأصيل، مهما اختلفت موضوعاته ومذاهبه . فديوان (مجد الإسلام) أو (الإلياذة الإسلامية) لأحمد محرم ذو طابع أصيل جد متميز تمده عاطفة متأججة وثقافة إسلامية واسعة وشاعرية مطبوعة عظيمة وفن كلاسيكى قوى لايجارى فى عصرنا هذا . فإذا انتقلنا إلى شاعر مسيحى كبير يهز مشاعره الموضوع ذاته وجدنا شعره الأصيل المتميز هازاً للنفوس أخاذاً بأصالته البديعة المشرقة . استمع إلى قوله :

من للزمان بمثل فضل (محمد) وعدالة كعدالة (الخطاب)
رفع الرسول عماد أمة يعرب وأعزها بالآل والأصحاب
غشت الفتوح وصفقت راياتها فى الشرق فوق أباطح وهضاب
وتغلغلت فى الغرب طائرة على أكتاف (صقر) جارح و(عقاب)
لولا تجلد (شرل مرتل) خيمت فى قلبه بسرادق وقباب
ولكان صار الغرب أندلساً به (شوقى) يقول سواحراً وسوابى
حتى (الجزيرة)فى مسارحها وما فى(الريف) من رى ومن إخصاب
واسمع ـ فديتك ـ نبرة مصرية عربية فى منطق خلاب
واستنشد(القرآن) قوما جودوا منه بآى فى النفوس عذاب
واقرأ به فصحى اللغات مدلة فى المشرقين بجوهر الأحساب
أخذت (قريش) بجزلها وبكت بها (غرناطة) فى رقة وعتاب
لولا يد (الاسلام) لم تسلم بما فيها من الأخلاق والآداب
ولو ارعوى من صد عنها زاهداً متعللا بمناكب الأسباب

من لم يصن لغة الجدود فليس من قومية تنميه فى الأنساب

فإذا انتقلنا إلى بشارة الخورى وجدنا له روائع خلدتها أصالته الفنية الممتازة نذكر منها على سبيل المثال قصائده « المسلول » ورثاء جبران خليل جبران و « على ضفاف بردى » .

وهذه الأخيرة من شعره الغزلى الوصفى البديع ، وقد تناول فيها موضوعاً جد مطروق ، ومع ذلك ارتفعت ألمعيته وأصالته به ارتفاعاً مدهشاً ، حتى لنقرأ قصيدته وكأنه غير مسبوق إليها إطلاقاً . استمع إلى هذا السحر الفريد :

فتن الجمال وثورة الأقداح صبغت أساطير الهوى بجراحى
ولد الهوى والخمر ليلة مولدى وسيحملان معى على ألواحى
قد عشت بينهما على نغم الصبا كفراشة علقت ندى أقاح
أشتف روحهما وأعطى مثلها روحا وأسلم ليلتى لصباحى
للحب أكثرها ، وبعض كثيرها لرقى الجمال ، وبعضها للراح
أنا لا أشيع بالدموع صبابتى لكن ألف جناحها بجناحى
إلفان فى صيف الهوى وخريفه عزا على غير الزمان الماحى
دعنى وما زرع الزمان بمفرقى ما كنت أدفن فى الثلوج صداحى
من كان من دنياه ينفض راحه فأنا على دنياى أقبض راحى
إنى أفدى كل شمس أصيلة حذر المغيب بألف شمس صباح
(بردى) نظمت لنا الزمان قصائداً بيضاً وحمراً من ندى وصفاح
فى كل رابية وكل حنية عصماء تسطع بالشذا الفواح
كم وقفة لى فى ذراك وجولة شعرية ، وهوى (الشآم) سلاحى
فديت ليلك والكواكب فى يدى ولثمت بدرك والضياء وشاحى
ليل حريرى النسيج كأنه شكوى الهوى وصبابة الملتاح
وعلى الضفاف إذا تموجت الضحى لونان من أرج ومن تصداح
والغصن فى حضن الرياض وسادة نمت على عنقين من تفاح
متلازمين توجسا إثم الهوى فتنحوفا طرف الضحى اللماح
هل لى إلى تلك المناهل رجعة فلقد سئمت الماء غير قراح
رجعى يعود بى الزمان كأنه صهباء صارخة وليل ضاح

ياذابح المنقود خضب كفه	بدمائه بوركت من سفاح
أنا لست أرضى للندامى أن أرى	كسل الهوى وتثاؤب الأقداح
أدب الشراب إذا المدامة عربدت	فى كأسها أن لا نكون الصاحى
باكرتها والزهر يشرق بالندى	فى فتية شم الأنوف صباح
أهل الندى والبأس إن تنزل بهم	تنزل على عرب هناك فصاح
(الشام) منبتهم ، وكم من كوكب	هاد وكم من بلبل صداح
وطن أعاد الخلد بعض فتونه	وسقى المكارم فضلة الأقداح
(لبنان) ياوله البيان أذاكر	أم لست تذكر نجدتى وكفاحى؟
قبلت باسمك كل جرح سائل	وركزت بندك عاليا فى الساح
أنا إن حجبت فليس ذاك بضائرى	وعلى الخواطر غدوتى ورواحى
تحجب الأرواح وهى خوالد	وترى العيون زوائل الأشباح
ولربما خدعتك صفحة هادىء	منى ، وفى الأحشاء عصف رياح
إنى إذا جنت رياح سفينتى	ذهب الجنون بحكمة الملاح

ثم إذا انتقلنا إلى شاعر المهجر الأكبر نسيب عريضة وجدنا له خوالد لامعة أبقتها مرددة مافيها من لوذعية وشاعرية وإنسانية متفوقة ، وحسبنا من بينها قصيدته « يا نفس » التى يقول فى مطلعها :

يا نفس ، مالك والأنين ؟ تتألمين وتؤلمين !

وقصيدته « ركب النفوس » ، وقصيدته « على قبرى » ، وقصيدته « ادن منى » ، التى تعد من أروع شعره الانسانى .

فهؤلاء الشعراء — حتى فى الموضوعات المطروقة — تميزت أشعارهم لأنها جاءت مطبوعة بطابع شخصياتهم الفنية المتميزة المستكملة لعناصر الخلود ، وليس مثلهم أولئك الذين ينظمون محاكاة فيسيئون إلى الأبصار والأسماع والأذهان بالغث الفاتر من منظوماتهم التى لاتساندها المواهب ولا حرارة الايمان والعاطفة . وأمثال هذه المنظومات الغثة لاعداد لها ، ويجب استثناؤها من كتب المختارات الأدبية ، بل ومن المؤلفات النقدية فالأولى منها بالالتفات الايجابى القصائد الرفيعة ذات القيم الباقية .

يقول فرانشيسكو جبرييلى أستاذ اللغة العربية وآدابها بجامعة روما(١) : «إن اللغة العربية — كاليونانية فى العصر الهلينى ، وكاللاتينية فى الغرب الرومانى المسيحى — قد

---

(١) مجلة (المشرق) الايطالية العربية ، روما ، العدد الأول ، السنة الأولى .

أصبحت لسان الثقافة لأقوام متعددة مندمجة فى عقيدة واحدة ، وتنتظمها ثقافة موحدة ، فاستعمل العربية أداة للكتابة الفرس والترك واليونان والقبط والآراميون والسريان إلى جانب العرب الخلص . وأصبحت عقيدة الإسلام تسمية مشتركة لجميع هذه الأقوام المختلفة ، وأمست اللغة العربية ترجمانا للتعبير ، ومن ثم فهى على هذا المداد ليست سوى ديباجة تنطوى تحتها مضامين ومحتويات من عديد المصادر المتفاوتة . وتصبح دراية المستعرب وسيلة لتفسير العالم الإسلامى وتمحيصه ، كما هى الغاية فى علم الاسلاميات » .. وقال أيضا : « إنا ، نحن الغربيين ، إذ نتناول الآداب العربية بالحكم والتقدير متنزهين عن كل تعصب ، ولا حافز لنا سوى ظمأ البحث عن الحقيقة وحدها والافتتان بالجمال ، ليتجلى لنا أنه وإن كانت تلك الآداب لم تنشىء حتى الآن ثمة روائع كاملة خالدة على الاطلاق ، إلا أنها مع هذا حافلة بالطرائف الفنية والتاريخية الفريدة فى نوعها وثرية بالحياة الفكرية الرفيعة ، وكثيرة الاختلاط المثمر بسائر الحضارات . واللغة العربية هى التى صانت لنا التراث اليونانى أو جانبا منه على الأقل . وهى التى التمسها دين عالمى لتكون لسانه الناطق . ومن جواهرها الغاليات صقل الشعر قصائده ، فهو تارة تتمشى فيه القوة والفحولة ، وطوراً يزهو فى إهاب من الرقة والرشاقة . هى ماتزال تتداولها ألسنة فريق من شعوب قوية متوثبة ، كما كان شأنها فى الشرق أيام القرون الوسطى . وهذا العالم يقدم كجائزة للباحث الذى كابد عناء فى فهم أسرار العربية . وكثيراً مايسائلون المستعرب : أعسيرة هى اللغة العربية ؟ أجل إنها شاقة ، لا لحروفها ، بل لانبساط مداها فى الزمان والمكان . فالتوافر عليها والتلؤ من غيرها يقتضى صبيب العرق ، ونضالا لايفتر حتى بعد بذل عشرات السنين فى الجهود . بيد أن مايجنى من الأزهار والثمار خير عوض لما يصرف فيها من المشقة والعناء » . وهو فى موضع آخر من مقاله القيم ينوه بما كان للشعر العربى من التأثير والنفوذ على الآداب الغربية فى القرون الوسطى ، وكذلك كان شأن القصص العربى ، ومنه قصة المعراج الاسلامية التى ربما انتهت إلى شعر دانتى عن طريق بعض الترجمات اللاتينية والفرنسية القديمة .

ولغة هذه منزلتها العالمية لايجوز أن نفرط فى حقوقها علينا وأن نقنع بإنتاجنا الحاضر مبالغين فى تمجيده بدل زيادة تجويده ، متناسين المثاليات الرفيعة التى اقترنت بالفن الرفيع خلقت الآثار الخالدة التى تعتز بها الآداب الغربية الحديثة ، والتى يجب أن نسابقها فى مجالها إحساساً وتفكيراً وأسلوباً وغاية . وإذا كنا نحمد للأستاذ خفاجى

تيقظه لهذه الاعتبارات العامة فأملنا المثابرة على تدقيقه بل زيادته ، فإنه فى منزلة الأستاذ المعلم الحصيف الواعى ، ولا أمل لنهضة الآداب العربية بغير هذه الدقة النقدية المرشدة التى أصبحت نادرة بيننا ، نكاد لا نجدها إلا عند نفر ضئيل من النقاد المتسامين الغيورين أمثال السحرتى وطه حسين وسلامة موسى ومارون عبود وإبراهيم المصرى وإسماعيل مظهر . وقد مر وقت فى العهد البائد كان الأزهر معدوداً فيه رمز الجمود والآن قد تبدل الحال فى الأدب العربى على الأقل بدليل الآثار العصرية الممتعة التى يتحفنا بها أعلامه المستنيرون وفى طليعتهم الأستاذ خفاجى .

ننتقل بعد هذه النقطة الرئيسية العامة إلى بعض نقاط أخرى نبهنا إليها الأستاذ خفاجى بكتابه المفيد والأستاذ السحرتى بتعقيبه السديد :

١ ـ فمبدأ « التجديد لا يتجزأ » الذى يصر عليه الأستاذ السحرتى جدير باعتناق المؤلف إياه ، وهو هو الذى ارتضى رمزية بشر فارس على الرغم من تداخل أجزائها والتوائها وغموضها بحيث لا يلائم من يرفضها مثالا للرمزية التى يقبلها الذهن الشعرى السليم قياسا على رمزية ستيفن سبندر وفرلين ومالرميه وفاليرى وأضرابهم . فإذا أراد الأستاذ خفاجى أن يخدم الحركة التقدمية فى الشعر كما نعلم أنه يريد ، وإنه لأهل لهذه الخدمة ، فمن الضرورى أن يروض نفسه على الاهتمام القائم بأساليب النظم الجديدة التى أشرنا إليها آنفا ، وإن يكن هو شاعراً غنائيا يتعلق بأساليب الشعر الغنائى وحده ، كما كان ولا يزال يصنع شعراؤنا الغنائيون وعلى رأسهم شوقى . ولكن الأستاذ خفاجى كناقد ملزم إلزاما باحترام أساليب الشعر المرسل والشعر الحر والشعر المتداخل أو المشترك ، والاهتمام بدرسها فى العربية والمقارنة بينها وبين نظائرها فى اللغات الأخرى الحية ، وأثر كل ذلك فى خدمة الشعر ، والقول بأن شعراء الكلاسيكيين سابقا وحاضراً التزموا بحراً واحداً وأجادوا فى التأليف الدرامى أو القصصى لا ينهض حجة على أن التنويع وإرسال الشاعر نفسه على سجيتها فى نظم الحوار أو الرواية لا يأتيان بما هو أجمل لقربه من الأساليب الطبيعية ، ولزيادة تمكنه من حرية التعبير

٢ ـ من الواجب دفعا للالتباس ومن أجل الانصاف التنويه بالشيخ نجيب الحداد رائداً للأدب الدرامى الشعرى ، وأما إسهامنا الشخصى الرائد للمسرح فقد كان فى مجال الاوبرات (العبرات) الشعرية ، وفى الروايات الرمزية والسريالية ومن رأينا زيادة الاهتمام بالشعر الرمزى لانه عريق فى العربية .

٣ ـ إن عدد الناطقين باللغة العربية فى العالم يناهز خمسين مليون نسمة ، فى حين

يتكلم بالإنجليزية مثلا مائتان وخمسون مليون نسمة ، وسكان العالم يتكلمون نحو ثلاثة آلاف لغة . فإذا أردنا أن تكون للعربية مكانة مشرقة بين هذه اللغات وأن وأن يقبل عليها أبناء الامم الأخرى ، فمن الواجب أن لا نكتفي بجعلها لغة حية ، بل لابد من جعلها لغة ممتازة أيضا فى جميع أبواب الثقافة ، فتحتشد فيها العلوم والآداب والفنون باستمرار على مستوى رفيع وتزدحم فيها آثار عبقريات شتى ، وتنشأ فيها جاذبيات جديدة علاوة على جاذبياتها القديمة . وسواء بعد ذلك أكتبت بالحروف العربية أم باللاتينية أم بغيرها ، فاللغة الاردية - وحروفها بنت العربية - يتكلمها مائة وستون مليون شخص ، واللغة الصينية يتكلمها حوالى الاربعمائة والخمسين مليون نسمة وما تزال مستبقية أبجديتها الصعبة . ومن ثمة تقضى الغيرة على اللغة العربية برفع مستوى النقد الأدبى مساعدة على تجويد الانتاج الأدبى إلى أبعد الغايات الممكنة ، دون أى تساهل أو مجاملة . والتساهل والمجاملة فى النقد هما اللذان نزلا بمستوى الشعر المصرى الحديث خاصة ، وما نزال حتى اليوم نقرأ العجب عن شعراء لارسالة لهم ولا حرارة فى شعرهم تنم عن إخلاصهم ، إذ يوصفون بالطاقة الشعرية الممتازة ، والاصالة الفذة ، فى حين أنهم غارقون إلى أذقانهم فى السرقات المنوعة وفى المحاكاة لمتقدميهم ومعاصريهم على السواء فى العربية وغيرها ، وكل حظهم الايقاع الغنائى .. نكتب هذه السطور وفى سمعنا ألحان رحمانينوف فى (الكونشرتو رقم ٢) وتتمثل إلى جانبها جميع ذلك الشعر المفتعل ، وجميع الالحان العربية المنهوبة أو الملفوقة بخيوط العناكب ، كما تمثلناها من قبل إزاء آثار عالمية أخرى فى الشعر والموسيقى ، فنعجب لغرور أبناء قومنا الذين لا يحسون بضعف مكانتهم فى عالم الادب والفن ، وقد جلبوا هذا الضعف لأنفسهم بتعاميهم عن الواقع الملموس وبجانبهم علاج أنفسهم بأنفسهم :

٤ - يهنأ الاستاذ خفاجى لما احتواه كتابه الجديد من صيحات واعية وملاحظات تقدمية نفيسة مثل فصوله عن الشاعرية الملهمة وأثرها فى التجديد الشعرى ، ووجوب ملاءمة الشعر لحياتنا ، وكيف ننقد الشعر ، وأهم المؤثرات فى الأدب ، وهى وغيرها زاخرة بموجبات كثيرة للتفكير والبحث الحر . ويهمنا أن نقول إن المحك الصحيح للطاقة الشعرية احتفاظ الشعر عند ترجمته إلى لغة أخرى بروعته الفنية من معان وأخيلة ومثالية لا تحتمى خلف رنين الالفاظ واللعب بها ، وهو شأن الشعراء المزماريين والصناعيين ..

دراسة للأستاذ روكس العزيزي :

فى الوقت الذى تلتوى فيه مفاهيم الأدب ، وتهز مقوماته وقيمه ، وتكادتضيع ـ فى غمرة هذه الفوضى ـ الأحكام الصحيحة للنقد ، يظهر كتاب الأستاذ الفهامة محمد عبد المنعم الخفاجى ، أستاذ الأدب العربى فى كلية اللغة العربية بالأزهر الشريف .

والاستاذ الخفاجى واحد من هؤلاء الأفذاذ الذين وقفوا على ماضى الأدب العربى وقوف فهم وتعمق دراسة ، ورافقوا جديده فكانوا من خيرة مجدديه ، لأن فكرته فى التجديد فكرة نيرة حاذقة ، لذا جاءت أحكامه محكمة تتميز بالألمعية، فهو يجمع بين دقة العالم ، وصفاء ذهن الباحث وقدرة الكاتب الجيد وروح الشاعر المرهفة الحساسة ، يضاف إلى هذا أنه أستاذ فى معهد كان ومازال أمينا على تراث هذه الأمة الأدبى والفكرى .

وبعد هذه الإلمامة لابد لى من الكلام على الكتاب نفسه فهو دراسة علمية عميقة لمذاهب الأدب ولا سيما الشعر . فقد تناول الكتاب ـ بعد التصدير ودعوة الأدباء إلى الايمان بالتجديد ـ تناول حركة التجديد فى الشعر ، والنزعات الأدبية الجديدة الشعر المعاصر بين التجديد والتقليد ، نحو التجديد فى الشعر المعاصر ، المذاهب الحديثة فى الشعر ، الشاعرية وأثرها فى التجديد ، ضرورة موافقة الشعر لحياتنا . وقد حمل المؤلف الفاضل على الشعر الحر ، والشعر المرسل ، وأبدى استياءه من اختلاف بحور الشعر فى القصيدة الواحدة ، وقد دعا ذلك بجمع البحور ، قال لافض فوه : «ومن الدعاة من يدعو إلى التجديد فى أوزان الشعر العربى وقافيته ، فأباحوا للشاعر أن يطلق الشعر من قيود القافية ، وينظم قصيدته دون التزام قافية خاصة ، وسموا ذلك الشعر المرسل .. وأباحوا له أن ينظم القصيدة من بحور مختلفة وأوزان متعددة وسموا ذلك و بجمع البحور ، أو أن يتحرر من قيود الوزن كافة ، وسموا ذلك الشعر الحر .

ولاشك أننا لانؤمن بالفوضى لونا من ألوان التجديد ، ولانستسيغ هذا الشعر الحر ومايسمونه بجمع البحور ، أو مايطلقون عليه الشعر المرسل ، ونرى ذلك انحرافا عن طريق التجديد الواضحة الصحيحة »

فمثل هذا الرأى الجرىء الصريح الذى يناقض فيه جمهوراً من جلة أدباء العربية وشعرائها المجيدين يستحق من أجله التهنئة ، لأنه لم يقله لشهوة المعارضة وعشق الشهرة ـ شأن الكثيرين ـ ولا اقتضبه رأيا فطيراً لقصد المخالفة ، لكنه رأى أوحى له به الدرس العميق ، والفطرة العربية السليمة ، تلك الفطرة التى صقلها التهذيب ،

والتجربة ، ومدارسة الأدب قديمه والحديث منه .. لكن مع هذا كله ، فنحن لا ندرى كم يستطيع أن يثبت رأيه هذا أمام التيار الجارف الذى ضرى به الأدباء والشعراء ، إنى لواثق بأن موجة التجديد التى أخذت تجتاح الشعر أصولا وفروعاً سوف تغير القصيدة العربية تغييراً يجعلها قصيدة غربية مكتوبة بحروف عربية !

ثم ذكر حظ الشعر من الخلود ، وعمل الشاعر والناقد ، وكيفية نقد الشعر، ومما قال : « إن الناقد الحر يستطيع أن يخلق نهضة حقيقية للشعر المعاصر إذا أقام منهجه فى النقد على أصول التقدير الخالص للشعر ، ومهمة النقد فى توجيهه ويقظته ، وبعثه من الخمول الذى يعيش فيه اليوم (١)

ثم تكلم عن مذاهب النقد ، وذكر دعوة بعض المعاصرين إلى الانسانية ، والعالمية فى أدبهم ، ومثل على ذلك بقصيدة الشاعر الملهم أحمد زكى أبو شادى « اللاجئون » (٢) وذكر الأسلوب وخصائصه وأهم المؤثرات فى الأدب ، لحصرها فى:

١ — الحياة السياسية ٢ — الدين ومايتصل به من عادات وتقاليد

٣ — الاقليم والمناخ ٤ — الاستعداد الفطرى

وذكر عناصر الأثر الأدبى ، والدراسات الأدبية فى القديم والحديث . ثم تعرض لمصر مطران ولمذهبه فى التجديد ، فوقف فى هذا الفصل وقفة متأملة طويلة وتعرض لبعض أعلام الشعر الحديث ، فعقد فصولا لدراسة كل من : ناجى الشاعر ، ابى القاسم الشابى ، جميل صدقى الزهاوى ، الأسمر ، حسن جاد الشاعر ، أحمد محرم ، على محمود طه ، الصيرفى الشاعر ، عبد الله زكريا الانصارى ، محمد العامر الرميح ، وقد كان الأستاذ مخلصاً فى أقواله ، عميقاً فى لفتاته ، وكان صريحاً إذ نبه على مايحتاج إلى التنبيه ، وختم الكتاب بفصل وجيز دعاه « محنة الأدب المعاصر » .. ومما جاء فى هذا الفصل قوله : قد يكون سبب ذلك كله « أى محنة الأدب » الروح المادى الذى يجتاح البلاد العربية ويجعلها تؤمن بحاجاتها المادية دون مطالبها الروحية ، وقد يكون السبب ضعف الأذواق الأدبية ، وقلة عناية الحكام بتشجيع الأدباء ، ولكن السبب الأكبر هو انصراف الجماهير عن الأدب وقلة عنايتهم بقراءته ، بتأثير طغيان العامية والمادية معا — مذاهب الأدب ص ٢٦٥

---

(١) مذاهب الأدب ص ٦١

(٢) اذكر ان متأدبا هاجم هذه القصيدة ، فقلت له باسما : « قرأت القصيدة أم ذكرها لك آخرون ، وانت تردد رأيهم ؟ » فخجل وانصرف — العزيزى .

والكتاب ذخيرة نفسية ، وهو ليس من الكتب التي تقرأ مرة واحدة وتطرح في إحدى الزوايا من خزانة الكتب ، لكنه من الكتب الحية التي تعمر طويلا لما يجد فيها القارىء من الفائدة واللذة كلما قرأه ، وأشهد بأني على كل مشاغلي ومشاغلي التي تصرفني في أيام عطلتي عن الأكل في وقته المعين ، أشهد أني طالعت الكتاب مرتين، ومازلت أحس في نفسي شوقاً لقراءته ، فأنا أعود واقرر ثانية ان هذا الشاب الخصب في عقليته ، أعني الأستاذ محمد عبد المنعم الخفاجي ، سوف يكون له شأن واى شأن ، وان مصر لتتوقع منه خيراً كثيراً في عالم الأدب والعلم واللغة وفي كل منحى من مناحي حياتها .

ومن آراء المؤلف في الشعر المرسل قوله : « وبعد فالشعر المرسل في رأيي بدعة جديدة من تقليد دعاة التجديد الغربيين ، ولا مكان له في الشعر العربي وتقدمه ، فهو نهج فني لاتعرفه العربية في القديم ، والاستدلال ببعض آثار الشذوذ الفني للقدماء لامبرر له ، إذ لم ينظم من الشعر المرسل قصيدة في القديم ، ولم يعرفه الشعراء في عصورنا الأدبية المختلفة، وهو لا يلائم ذوقنا الأدبي، ويخل بوحدة القصيدة، وموسيقاها وتأثيرها – ص ٤٩

وقد أعجبتنا حملته على التشبيهات والاستعارات ، والأمثال التي لاتناسب ذوقنا وعصرنا ، وهي بالتالي بعيدة عن جو أبنائنا الفكري، وحبذا لو اتخذنا من الاستعارات والتشبيهات مايلائم جونا الفكري وعصرنا، على أن تدرس الامثال القديمة على أساس أنها جزء من التراث والتاريخ الأدبي .

ولقد رأينا للأستاذ آراء تكاد تبدو غريبة كما ظهرت للأستاذ النقادة البصير السحرتي ، إذ اعتبر امرأ القيس وابن الرومي والمعري من المجددين في الشعر العربي . ونحن نوافق الاستاذ الخفاجي ونخالف صديقنا السحرتي ، وإن كان امرؤ القيس وابن الرومي والمعري من المؤتمين بالنسبة إلينا ، لكنهم بالنسبة إلى زمانهم كانوا من المجددين ، فتجديد امرىء القيس في ابتداعه الأوصاف التي لما يألفها عصره ، وتجديد ابن الرومي في ميله إلى وحدة القصيدة ، وتجديد المعري في إخضاعه الشعر للفلسفة ، وهي أمور لم يألفها معاصروهم ومن حقها أن تعد تجديداً ، كما أننا لاننكر تجديد عمر بن أبي ربيعة وجميل بثينة الشكلي إذ وقفا القصيدة على الغزل بعد أن كان الغزل أسلوبا متبعاً في بداية القصيدة (١) حتى رأينا أمثال البحتري مثلا يقلدون

(١) نحن نعتقد أن الغزل في بداية القصيدة العربية كان لفكرة دينية – العزيزي

الجاهلين كقوله :

سلام عليكم لاوفاء ولا عهد   أما لكم من هجر أحبابكم بد

أما قول الأستاذ العليم السحرتى ان المذاهب الأدبية متداخلة فقول لاغبار عليه لكن هذه المذاهب على تداخلها يظل لكل منها طابعه الخاص المميز له عن سواه .

وقد سرنا قول الأستاذ الخفاجى : « لاخير فى الشعر إذا لم يوقظ النفوس ويحرك المشاعر لتقف حياتها على محاربة أفكار الرجعية القديمة البالية التى تريد الناس عبيداً وقد خلقهم الله أحراراً . مذاهب الأدب ص ٣٨

ونحن نثنى على همة الأستاذ الخفاجى وعلى جهده المثمر ، ونتوقع أن يتمم بحثه هذا بكتاب يتناول فيه تناولا منفرداً مذاهب الأدب العربى فى النثر ، وليس ذلك على همته بعزيز . . روكس بن زائد العزيزى

— ٣ —

فصول فى النقد

للأستاذ روكس بن زائد العزيزى :

برزت الطبعة الأولى من هذا الكتاب من المطبعة المنيرية بالأزهر سنة ١٩٥٣ ، فاذا قدر لك أن تطلع على هذا السفر وجدت لذة وفائدة ، فمن نظرات نقدية صائبة ـ سريعة ـ إلى دراسات عميقة إلى مناظرة منصفة غايتها خدمة الحقيقة والعلم ، إلى ارشادات إلى وجوه الصواب فى كثير من المواضع . والكتاب من قلم الاستاذ العليم محمد عبد المنعم خفاجى أستاذ الأدب العربى فى كلية اللغة العربية بالازهر الشريف ، والذى عرف الأستاذ معرفتنا به يراه قميناً بكل مكرمة

لقد رأينا له فى هذا الكتاب مناظرة للأستاذ عبدالعزيز سيد الاهل ـ وأكاد اقول محاكمة أمام محكمة ضمير العلم والعلماء ، كان فيها الاستاذ الخفاجى مجليا على الرغم مما أحاط تلك القضية من غموض وابهام فى أول أمرها ، وقد تتبعنا سير هذه القضية فى مجلة الأديب وراعنا الفرق العظيم ، لابل هالنا الفرق العظيم بين اخلاق علمائنا ـــ الذين لايهمهم إلا أشخاصهم ـــ وبين علماء الغرب الذين تهمهم الحقيقة المجردة قبل أى اعتبار آخر

ثم رأينا ماشجر بينه وبين الأستاذ « عبد المتعال الصعيدى » فرأينا الأستاذ الخفاجى يصحح للأستاذ الصعيدى أوهاما تردى فى وهدتها ، ما كنا نظن أن الأستاذ

للصعيدي يتعرض لشيء منها ، لولا علمنا أن الشهرة تغرى الناس أحيانا بالمرونة حتى اصبح ما تنتجه بعض الاقلام المشهورة هذيان محمومين ، ولقد عرض لى مرة أن اطلعت على بحث لكاتب كبير فى افتتاحية من افتتاحيات الرسالة الشهيرة ـ قبل احتجابها ، فرأيته يناقش فى موضوع لم يقرأ سوى عنوانه فضحكت واسفت وقلت : « إذا كان هذا شأن الكبار عندنا ، فما شأن الصغار ؟ » ولم أعجب بعد هذا وأنا أرى كل أمر من أمورنا فى الشرق يصح فيه قول الشاعر :

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها وحتى سامها كل مفلس

اعجبني فى هذه الفصول تحليله لقصيدة : « صمت الشاعر » وقصيدة « الربيع والشاعر » ، وسررت بالدراسة المستفيضة لابن سنان ، وهى ماتعة حقاً

ومع كل حسنات الكتاب وما فيه من طرافة وحسن توجيه لكل ناشيء وأديب لا يسعنى إلا ان أرجو من أخى الاستاذ العليم أن يهتم بطبع الكتاب فى طبعته الثانية على ورق أفضل ، وأن يتحاشى أوهام الطباعة ـ التطبيعات .. أقول هذا وأنا عالم كل العلم بما تتسع له ميزانية الأستاذ فى الشرق ، إذا هو اتكأ عليها فى إبراز انتاجه العلمى والأدبى

ويلذ لى أن أوجه انظار المسؤولين فى الشرق لتشجيع الاساتذة . فقد جاء الوقت ـ على ما اعتقد ـ الذى تعدل فيه النظرة إلى المعلم .

وقبل أن أعيد قلمى إلى قرابه . أود أن أشكر الأستاذ الخفاجى على هديته الثمينة وأهنئه بنظراته النقدية النزيهة العميقة .

— ٤ —

الإسلام وحقوق الإنسان

حينما يؤرخ جديا للأدب المعاصر الخصب ستذكر بين الأسماء اللامعة : فرح أنطون وجميل صدقى الزهاوى ومحمود كامل المحامى وطه حسين ورئيف خورى وسلامه موسى ومحمد عبد المنعم خفاجى كمثل الألمعية العميقة الإيمان برسالتها الانسانية المنجبة دون انقطاع إلى غاية ما تسمح به الحياة إنجابا عظيما قويا .

ولقد كثرت فى الآونة الأخيرة المؤلفات العامة والمتخصصة فى شؤون الاسلام وأكثرها على ما رأينا جمع ونقل وترديد لاخير فيه ، ولكن أمامنا الآن كتابه

جديد للأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى — أستاذ الأدب العربى بكلية اللغة العربية بالجامعة الازهرية — موضوعه (الاسلام وحقوق الانسان) ، أصدرته « دار النشر المصرية بالقاهرة » فى أكثر من مائة وتسعين صفحة من القطع المتوسط ، وقد احتوى بعد المقدمات ثمانية أبواب ، تناولت : أولا الإسلام ومبادئه الخالدة ، وثانيا الاسلام وحقوق الانسان ، وثالثا الاسلام ونظم الحكم ، ورابعا الاسلام والمجتمع ، وخامسا الاسلام والاسرة ، وسادسا الاسلام والتربية ، وسابعا الاسلام والنظم الاقتصادية ، وثامنا الاسلام ورسالة البشرية . وعلى الرغم من كبر حجم هذا الكتاب فقد امتاز ببساطة بحوثه ، وتجرده عن الثرثرة ، وجاء أهلا لان يضاف إلى المكتبة الادبية الضخمة ، التى تنتسب إلى الأستاذ خفاجى ، وقد تناولت فنونا شتى من البحث والدرس ، وأصبحت من المراجع المحترمة التى يركن إليها فى موضوعاتها

يقول المؤلف العلامة فى مقدمته : « ما أكثر ما نعرف عن الاسلام وما أقله فى وقت واحد . نعم ما أكثر ما نعرف عنه من ترهات وقشور ، وما أقل ما نعرفه نحن المسلمين عنه من حقائق خالدة ومبادىء عالية ومذاهب مثلى رفعت مستوى الحياة والمدنية وأنقذت الناس من ظلمات الحياة البدائية ، وجددت معانى الخلق الامثل والحرية النادرة والمساواة والاخاء والعدالة بين الافراد والجماعات والشعوب .. وفى فصول الكتاب المتعددة يتقدم المؤلف بالحجج المؤيدة فى نظره لهذه المبادىء الاسلامية بأسلوبه المترسل الذى عرف به والذى لن يمل تلاوته المسلم وغير المسلم على السواء . وفى اطلاعه الواسع لم يفت المؤلف فى تمهيداته التحدث عن الافكار والحركات الجديدة التى اعترفت بحقوق الانسان ، وفى طليعتها الثورة الفرنسية وهيئة الامم المتحدة وزعماء البشرية المصلحون . ولكننا نتمنى عليه فى الطبعة الثانية لكتابه النفيس أن يتناول بالدرس المجمل والتنويه الثورة الأمريكية وكبار الانسانيين الامريكيين وعلى رأسهم ابراهام لنكلن ؛ ثم كبار الانسانيين الشرقيين الذين بشروا بحقوق الانسان وضحوا فى سبيل الحرص عليها ، وعلى رأسهم المهاتما غاندى الذى وضع بقلمه مقدمة لترجمة صفوة شائقة من الأحاديث النبوية الشريفة فى اللغة الإنجليزية ، كلها تدور حول الحق والخير والجمال وكرامة البشرية . ولا ريب عندنا فى أن هذا الكتاب القيم فى طبعاته المقبلة سيزداد قيمة على قيمة بما سيدعو إليه التوسع فيه على ضوء البحوث الإنسانية الجديدة من تاريخية وعلمية واجتماعية ونفسانية وفلسفية وفنية ، ومن بينها دراسة رئيف خورى لهذا الموضوع بالذات ، موضوع حقوق الانسان .

وقد تناول المؤلف الفاضل فى إيجاز غير مخل الجوانب المتعددة لموضوعه ، وفى لباقة جعلت من هذا الكتاب فى آن واحد سفراً أدبياً ودينياً وتاريخياً يصلح للمطالعة المدرسية العامة ، وللاستمتاع والفائدة .

ولنستعرض هنا على سبيل الأمثلة بعض الجوانب التى تناولها الكتاب تعريفاً به ، وباتجاهات مؤلفه .

قال فى موضوع أن الحكم فى الاسلام أساسه مشيئة الشعوب (ص ٩١) : « الحكم فى الاسلام دستورى . . . والقرآن الكريم يحقق كل أغراض الحكومة الدستورية الصالحة ، فقد فرض على الحاكم أن يستشير المسلمين ويرجع إلى رأيهم ولم يجعل أى امتياز لطبقة الحاكمين على المحكومين » .

ويقول أيضاً (ص ٩٢) : « إن الاسلام يحذف الامتيازات الفردية والطائفية ويمحو ما بين الطبقات من الفروق فى الحقوق والواجبات ، لا فرق بين حاكم ومحكوم ولا يعترف بالنبلاء والسادة والأمراء ، إنما هم مثل غيرهم من باقى طبقات الشعب وفلاحيه وجمهوره ، نظام الحكم مقرون بالحرية والمساواة والعرف واحترام كرامة الفرد » . وقد برأ الشريعة الاسلامية من تحمل مسئولية المظالم والاضطرابات التى أحدثها الملوك من ذوى السياسة والاطماع الكثيرة بعد عصور الخلفاء الراشدين ، ونبه إلى أن الحكومة أساس تكوينها فى الاسلام شورى ، ومشيئة الشعب هى التى توجهها وتسير بها إلى جادة الحق والخير العام والاصلاح . ومهمتها هى خدمة الشعب والتفانى فى حفظ الأمن والنظام ، وضمان العدالة والحق والمساواة للجميع » .

وقال فى موضوع تعدد الزوجات الاسلام (ص ١١٤) : « جاء الاسلام والحياة الزوجية فى فوضى جامحة لا تقيد الناس بعدد محدود من الزوجات . فقد يجمعون بين عشرات الزوجات ويجورون فى معاملتهن ومعاشرتهن فكان بين خطتين : فاما أن يمنع تعدد الزوجات منعاً باتاً ، فيفرض الاقتصار على واحدة ، وإما أن يخفف وطأة هذا التعدد الجامح وينظم تلك الفوضى العائلية باتخاذ طريق وسط ، فلا يحرم الرجل التمتع بأكثر من واحدة ويقطع التعنت والعزوبة . وقد آثر الاسلام الاتجاه الثانى فأباح للمسلم الجمع بين أربع زوجات بشرط أن يعدل بينهن وألا يجور فى معاملتهن » .. وعندنا أن الاسلام أكرم من هذا ، وأن القرآن الشريف الذى يقول صراحة « ولن تعدلوا » قد أخذ باليسرى ما أعطاه باليمنى ، وأن النتيجة العملية هى تحريم تعدد الزوجات فى الاسلام ، والفقهاء هم الذين أفتوا بالملكية المطلقة وباركوها ضد تعاليم ...

الاسلام السامية . وهذا رأى قديم لنا أدلينا به وانشرناه وعززنا فيه قاضى قضاة مصر حينئذ الأستاذ عبد العزيز فهمى . وإن الاسلام لغيور على كرامة المرأة غيرته على كرامة الرجل والكرامة الانسانية عامة

وقال المؤلف فى موضوع الاسلام والرق بعد أن أبان أن الرق كان شائعا قبل الرساله المحمدية فى كل مكان حتى بين المسيحيين (ص ٨٣) : الاسلام ضيق حدود الرق إلى أبعد حد ، وفتح أبواب العتق إلى أوسع مدى ، ، وحث السادة على عتق عبيدهم تقربا لله ، نظير مال يكاتبونهم عليه ، أو تكفيرا عن بعض السيئات ، وجعل الدولة قوامة على تحرير الرقاب ، بسهم مما يجبى من أموال الزكاة »

وقال فى موضوع الاسلام والنظم الاقتصادية (ص١٣٢): « وهذا وغيره من مبادىء الاسلام الخالدة هو الاشتراكية بأجلى معانيها وأروع أهدافها وأسمى غاياتها وألوانها ، اشتراكية تحارب الرأسمالية الجشعة المتنمرة ، وتحارب الشيوعية المتلصصة المتذئبة ، وتحارب الماركيسة المتطرفة الحمقاء ، وتحارب الفوضى فى المجتمع ، وتقتل بذور الشقاق والخلاف والعداوة بين الناس والطبقات »

هذا ما يقوله مفكر أديب واسع الاطلاع من شيوخ الأزهر الاجلاء فى كتابه الذى ينشر باقبال عظيم عليه فى العالم الاسلامى . ونعتقد أنه يكون أكثر إنصافا للاسلام ، ونحن فى منتصف القرن العشرين ، إذا تحاشى التفرقه مستقبلا بين ما تسمى المدنية الغربية وما تسمى المدنية الشرقية، فان الاسلام لم يعرف ، فى نهضته الامدنية واحدة ، كيفما كانت مصادرها وينابيعها - ألاوهى المدنية العلمية الانسانية فحسب ..
- أحمد زكى أبو شادى - نقلا عن الانذار عدد ١٧ - ١ - ١٩٥٤

— ٥ —

الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى

نرانا أمام نهضة جليلة فى الأدب العربى تناولت أعرق مدارسه كدار العلوم والأزهر : فنرى فى الأولى جهوداً أصيلة موفقة داعية للاعجاب بها كتلك التى يقوم بها إبراهيم أنيس وحامد عبد القادر فى فقه اللغة وفلسفتها وعلم النفس الأدبى ، ونرى فى كلية اللغة العربية بالأزهر نظيرة لها لمثل عبدالمنعم خفاجى الذى شغل بعلم الأدب وبالنقد الأدبى خاصة .

والأستاذ خفاجى ظاهرة فذة شائقة فى الرواية والاطلاع والاستقراء والانتاج فهو سبط الأديب الكبير الشيخ نافع الخفاجى، وهو من أسرة بنى خفاجة التى تنتمى إلى أصول عربية «قديمة»، ومنها الأمراء الخفاجيون فى إقليم الكوفه والأمراء الخفاجيون بحلب ومنهم الأمير ابن سنان الخفاجى الحلبى، ومن أشهر النابغين فى مصر من الخفاجيين الشهاب الخفاجى المصرى .. وهـــذا الرجل الذى يحمل أعلى شهادات الأزهر العلمية وهى «شهادة الأستاذية فى الأدب والبلاغة» التى تعادل «الدكتوراه» من الجامعات السامقة كالسوربون مثلا، والذى أخرج حتى الآن نحو ستين كتابا فى فنون الأدب.

من العسير أن يختار المرء كتابا من كتبه للعرض فى مجال الحديث عن الأدب العربى، نظراً لكثرتها وتنوعها متناولة جميع فروع الأدب. والأستاذ خفاجى ليس لغوياً ولا أديباً فحسب، بل هو شاعر أيضاً، شأنه فى ذلك شأن الدكتور طه حسين، ولذلك - إلى جانب ثقافته الواسعة التى تلتهم كل معرفة ميسورة — كان طابع كتابه شعرياً جميلا مع الحرص على الدقة العلمية فى الوقت ذاته. ولذلك نالت تصانيفه احتراما عاما فى جميع الأوساط الأدبية ببلاد العرب، وفى دوائر الاستشراق بغض النظر عن موافقتنا على آرائه أو مخالفته فيها.

وأمامنا الآن كتابه (الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى)، وهو الحلقة الأولى من تاريخ الأدب العربى المشغول بإخراجه تباعاً. وقد صدق حين قال إن تاريخ الأدب العربى هو تاريخ لقومية الامة العربية وأخلاقها وعاداتها وحياتها وآمالها وآلامها، ولكل ماتأثرت به من مؤثرات حياتها الفكرية والاجتماعية والسياسية والادبية .. ثم استمع إلى قوله إن «تاريخ الادب ليس علماً جافا، بل أساسه الذوق ودراسة الفنون الأدبية فى الامة دراسة واسعة». فعلى مؤرخ الادب أن يدرس أسباب رقى الأدب وانحطاطه وتأثر الأدباء بها أو تأثيرهم فيها، وأن يدرس صلات المحدثين بالقدامى: أدباء وشعراء وكتابا وخطباء ونقاداً، وأن يتعمق فى فهم المذاهب والمدارس الأدبية العامة وصلاتها بعضها ببعض، والعوامل التى أدت إلى قيام كل مدرسة وميزاتها وخصائصها ومدى تأثرها بما قبلها وتأثيرها فيما بعدها من المدارس والمذاهب الأدبية العامة. فهذه المدارس والحركات الأدبية كانت تلعب دوراً هاما، ولها من الأهمية فى دراسة تاريخ الآداب مالا يقل شأنا عن دراسات كثيرة فى الأدب فتاريخ الأدب ليس سرداً لنصوص أدبية وتراجم عامة. وإنما يوضح لنا الصلات

بين المذاهب الأدبية، ويربط كاتباً بآخر، وجماعة بجماعة، ومدرسة بمدرسة، كما يدرس أسباب الانقلابات الأدبية المختلفة في عصور الأدب، وتأثير فحول الكتاب في نهضة الأدب والشعر، وفي توجيهها وجهة جديدة .

إن هذا الاسلوب المترسل الناصع الناقد لا نعرفه بين الأزهريين إلا في أفذاذ أدبائهم : كالمرصفي ومحمد عبده وعلى عبدالرازق ومصطفى عبدالرازق

وهذا الكتاب الضخم الذى أتى لنا بتحليل جديد عميق للحياة الأدبية في العصر الجاهلي هو أساس متين صالح للدارس الباحث في موضوعه ، ولو أنه أساس قابل للتعديل حتما في ضوء البحوث والكشوف والاستنباطات المستمرة . وليس مثل الأستاذ خفاجي بالذى يتعالى على شيء من هذا ، بل بالعكس نجده الحريص على الاستقصاء والتحقيق ، وتعديل نظراته على ضوء العلم .

وهكذا سيكون كلامنا عن الحياة الأدبية في العصر الجاهلي قائما على عمادين : أحدهما كتاب الأستاذ خفاجي إن لم نقل كتبه في هذا الموضوع الجليل ، إذ له كتب أخرى مكملة أو شارحة مثل (أعلام الشعر الجاهلي) ، و (شعراء الجاهلية) وغيرهما . والآخر الكشوف العلمية الحديثة التي يجب على ضوئها حتما تنقيح نظرياتنا القديمة وتعديلها . . وبذلك نخدم تاريخ الادب الجاهلي الخدمة الحقة ونتمكن من حسن دراسة ذلك الادب والاستمتاع الفني به . . . احمد زكى أبو شادى

فهرست الكتاب العام

من مطبوعات المؤلف

الذكر الحكيم
مذاهب الأدب
رائد الشعر الحديث
فصول فى النقد
الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى
البديع لابن المعتز
الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام
ابن المعتز وتراثه فى الأدب والنقد والبيان
بنو خفاجة وتاريخهم السياسى والأدبى ـ ٩ أجزاء
الإيضاح فى البلاغة ـ ٦ أجزاء
فن الشعر ـ جزءان
الشعراء الجاهليون
عبد القاهر والبلاغة العربية
الإسلام وحقوق الإنسان
الإسلام رسالة الإصلاح والحرية
الشعر العربى : أوزانه وقوافيه
وحدة القصيدة فى الشعر العربى
التشبيه فى شعر ابن المعتز وابن الرومى
حكومة للقاضى الجرجانى فى النقد
موقف النقاد من الشعر الجاهلى
مرشد البيان
تهذيب الآجرومية
فصيح ثعلب

شفاء الغليل للشهاب الخفاجي
مقامات الحريري للشريشي - ٤ أجزاء
قواعد الشعر لثعلب
رسائل ابن المعتز
إعجاز القرآن للباقلاني
أشعار الشعراء الجاهليين - جزآن
قصص من التاريخ
الصوفي المجدد
الحياة الأدبية في العصر العباسي

للمؤلف :

١ - أعلام الأدب في عصر بني أمية

٢ - الحياة الأدبية في العصر العباسي

٣ - الأزهر في ألف عام